



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة



رقم التسجيل:

كلية الآداب واللغات

الرقم التسلسلي:

قسم اللغة العربية

الحجاج في نقائض جرير والفرزدق دراسة في البنية والأساليب

رسالة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

إعداد الباحثة:

دياب قديد

فريدة بن عاشور

أمام لجنة المناقشة المكوّنة من:

المؤسسة	الصّفة	الرتبة	الاسم واللقب
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	رئيساً	أستاذ التعليم العالي	الربيعي بن سلامة
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	مشرفاً ومقرّراً	أستاذ التعليم العالي	دياب قديد
جامعة 20 أوت سكيكدة	عضوا	أستاذ التعليم العالي	بوجعة بوبعويو
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي	عضوا	أستاذ التعليم العالي	لخضر عيكوس
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا	أستاذ التعليم العالي	رايح دوب
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة	عضوا	أستاذ التعليم العالي	محمد بن زاوي

نوقشت في : 22 ماي 2017

2017-2016

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا
أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة: 258] .

شكر و عرفان

أتوجّه بأسمى آيات الشكر والعرفان إلى:

- أستاذي المشرف الدكتور دياب قديد على كلّ توجيهاته وإرشاداته وحسن رعايته لهذا البحث.
 - الدكتور لخضر عيكوس الذي أشرف على رسالة الماجستير وكان لي نعم المرشد والموجه.
 - الدكتور بوجمعة بوبيو الذي اعتبرته منذ زمن الأب الروحي رغم أنّي لم أحظ يوماً بالدراسة معه.
 - الدكاترة الأكارم أعضاء لجنة المناقشة الموقرة الذين تجشّموا عناء قراءة هذا البحث وتقويمه.
- هناته .

إلى كلّ هؤلاء أقدم انحناءة تقدير واعتراف بالجميل.

المقدمة

المقدمة:

انطلاقاً من مقولة "إننا نتكلم بقصد التأثير" أصبح الحديث عن قدرة الكلام على التأثير والإقناع مطروحاً، وأصبحت النصوص الأدبية تتمايز من خلال نواحيها بوظيفة التأثير في المتلقي. من هنا جاء الحديث عن الحجاج كآلية من آليات الإقناع والتأثير، وأُخذ منها في مقارنة النصوص على اختلافها.

على هذا الأساس اتجهت الدراسات الحديثة إلى تبني المنهج التداولي من خلال الآليات الحجاجية المختلفة، التي تهدف إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في النص الأدبي، وهذا لا يتحقق ما لم تكن الأدوات الإجرائية المنهجية كفيلة باستكناه أسرار النص، والوقوف على شتى الألوان البيانية والأفعال الكلامية والروابط الحجاجية التي وظفها المبدع في نصوصه الأدبية.

إنّ الاعتماد على الحجاج في قراءة النصوص وتأويلها يشكل غاية هذه الدراسة، من حيث القدرة على استنتاج أنواع الدلالات المضمرة في النص لاسيما إذا كان النص مُناقضاً أو مُوازياً لنص آخر، في تبيان العيوب، وإبراز أشكال العجز عند المتحاججين.

ففي الآونة الأخيرة حظي الحجاج باهتمام كثير من الدارسين وراحوا يطبقونه على مختلف النصوص إلا أنّ اهتمامهم خصّ النصوص النثرية، وكان حضوره أكثر مقارنة بالشعر. وعلى هذا آثرت أن يكون بحثي مرتبطاً بالحجاج في مدونة شعرية قديمة؛ حيث وقع الخيار على نقائض جرير والفرزدق لما تميّز به من خصوصية وقيامها على التقض والإدعاء ممّا رسّخ في نفسي الرغبة في هذه الدراسة التي تقوم على مقارنة مدونة قديمة بآلية حديثة.

وبالحديث عن المدونة فـ"النقائض" تأتي في طليعة الأشعار التي أنتجتها صراعات العصر الأموي، وإن كانت قد عُرفت منذ العصر الجاهلي، وازدهرت في عهد النبوة، وحففت أيام الخلفاء الراشدين ثم عادت إلى الظهور وبقوة في العصر الأموي بما مثّله من خصومة بين الشعراء، والتي تجسّدت أكثر ما تجسّدت عند الفرزدق وجرير والأخطل. ومعروف أنّ النقائض تقوم أساساً على ركيزتين هامتين هما: الفخر والهجاء؛ حيث يقوم الشاعر الأوّل بالافتخار بنفسه ونسبه وأجداد قبيلته، وينسب كلّ المثالب والعيوب إلى الشاعر الآخر وإلى قبيلته مستغلاً في ذلك كلّ ما يمكنه من إقناع الآخرين بادعاءاته. ومن جهته يحاول الشاعر الثاني نقض ما جاء به الشاعر الأوّل وقلب معانيه عليه وإبطال ادعاءاته معتمداً في ذلك مختلف الحجج والأساليب الإقناعية.

من هنا فالتقائض خصومة أدبية قائمة على تبادل التّهم ومحاولة تنفيذها باعتماد مختلف الأساليب التي تنهض بإقناع الآخرين وتجعلهم يذعنون ويسلمون بصحة القضايا المطروحة، والتي تشكل مجال خلاف ومنافسة بين الشعراء. وقيام التقائض على سعي كل طرف إلى الانتصار للنفس وإثبات الأفضلية مقابل التّيل من الخصم والصّاق الدونية به هو ما جعلها تحفل بالحجاج وعلى مستويات عدّة.

ويقف وراء اختياري لبحث الحجاج في نقائض جرير والفرزدق أسباب منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي، أما الأسباب الدّاتية فتتمثّل في ميلي إلى الأدب العربي القديم من جهة، والرغبة في دراسة الشعر العربي القديم، والتعمق في اكتشاف مكوناته قناعة مني أنّ النصّ الشعري القديم رغم صعوبته نص مطوّع يستجيب للمناهج الحديثة من جهة ثانية. أما فيما يخصّ الأسباب الموضوعية فيمكن تلخيصها فيما يأتي:

- قلّة الدّراسات المتخصّصة في دراسة الحجاج في مدوّنة شعرية.

- اكتساب جانب معرفي جديد من خلال التّعرف على أهمّ مفاهيم الدّرس الحجاجي .

- التّعرف على مختلف الآليات الحجاجية الموظّفة في شعر التقائض.

والحديث عن التقائض ليس بالموضوع الجديد، إذ تناولته دراسات كثيرة ومتعدّدة منها ما تطرقت إليه في شكل دراسات منفردة وتأتي في مقدمتها الدّراسة الرائدة "تاريخ التقائض في الشعر العربي" لـ أحمد الشايب، وكتاب "التناص دراسة تطبيقية في شعر شعراء التقائض جرير والفرزدق والأخطل" لـ نبيل علي حسنين، وكتاب "ظاهرة التقائض في الشعر الأموي (مدخل عام)" لـ محمد الأمين. وهناك دراسات تناولته ضمن الحديث عن العصر الأموي ومنها "التطور والتجديد في العصر الأموي" لـ شوقي ضيف، وكتاب "الهجاء والهجاؤون في الإسلام" لـ محمد محمد حسين، وغيرها من الدّراسات التي تناولت التقائض.

أما فيما يخصّ الحجاج فإنّ الدّراسات كثيرة ومتنوعة منها الحجاج في القرآن لعبد الله صولة و"الخطاب والحجاج" و"اللغة والحجاج" لـ أبي بكر العزاوي. أما الدّراسات التي تناولت الحجاج في الشعر فقليلة جداً، وتأتي في مقدمتها "الحجاج في الشعر العربي القديم" لسامية الدريدي، وكتاب "بلاغة الحجاج في الشعر العربي" لإبراهيم عبد المنعم إبراهيم، وكتاب "في حجاج النصّ الشعري" لـ محمد عبد الباسط عيد .

وعلى الرغم من وجود بحوث تُعنى بالجانب الحجاجي في الشعر، إلا أنه لم تقع تحت يديّ دراسات حجاجية لنقائض جرير والفرزدق إلا دراسة واحدة للباحثة شامة مكلي وسمتها بـ "الحجاج في نقائض جرير والفرزدق"، والتي كانت في الأصل رسالة ماجستير؛ حيث قصرت دراستها على نقيضتين فقط: واحدة لجرير والأخرى للفرزدق، وقد تبنت في دراستها منهج الباحث طه عبد الرحمان الذي اعتبر أنّ النقائض تنزل في أدب المناظرة ومن ثمّ عاجلتها باعتماد آليتي الإدعاء والتقص، غير أنّ هذا لم يكن كافياً. من هنا جاءت دراستي لتشمل نقائض جرير والفرزدق التي جمعها أبو عبيدة عمرو بن المثنى، وذلك من خلال الوقوف على مختلف الآليات الحجاجية البلاغية واللغوية للكشف عن البنية الحجاجية في المدونة.

بناءً على هذا التصوّر فإنّ أطروحتي تسعى إلى الكشف عن الحضور الحجاجي في النقائض، وذلك من خلال رصد مختلف الآليات الحجاجية التي حفلت بها تلك النصوص الشعرية المميّزة، ولعلّ هذا ما يثير مجموعة من الأسئلة الجوهرية في هذا البحث أهمّها:

- ما هي مظهرات الحجاج في نقائض جرير والفرزدق؟

- ما هي الآليات الحجاجية التي وظّفها جرير والفرزدق في نقائضهما؟

- كيف استغلّ كلّ شاعر هذه الآليات لصالحه في مجال الفخر، وللتبيل من الآخر في مجال المهجاء؟

- كيف تنهض مختلف الآليات الحجاجية بوظيفة الإقناع والتأثير؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها جاء هذا البحث موسوماً بـ "الحجاج في نقائض جرير والفرزدق. دراسة في البنية والأساليب"، وهو مقسّم إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة مشفوعة بقائمة المصادر والمراجع.

عنونت الفصل الأوّل "الحجاج والشعر مقاربات نظرية" وقسمته إلى أربعة مباحث: خُصّص المبحث الأوّل لضبط مفهوم الحجاج في المعاجم المختلفة وعلاقته بمصطلحات أخرى تتقاطع معه. وخُصّص المبحث الثاني لدراسة الحجاج عند الدارسين القدامى بدءاً من الفلسفة اليونانية كما مثلتها جهود السوفسطائيين، ومن بعدهم أفلاطون وأرسطو، وقبل أن أعرج على جهود أساطين البلاغة العربية الجاحظ وابن وهب والسكاكي والقرطاجني، مهّدت لذلك بالحديث عن الحجاج في القرآن الكريم.

وخصّصت المبحث الثالث لرصد جهود الدّارسين المحدثين؛ حيث كانت الوقفة الأولى مع أشهر أعلام المدارس الحجاجية على اختلاف توجهاتهم وهم: برلمان وتيتكا، وتولمين، وديكرو وأنسكومير. أمّا الوقفة الثانية فمثّلت جهود الدّارسين العرب التي تجسّدت على مستوى التّنظير والتّطبيق والتّأصيل. أمّا المبحث الرابع والأخير فقد خصّصته لـ "الحجاج والشّعر"، وكانت الغاية منه تحديد العلاقة بينهما، التي تبينّت من خلال محطتين: الأولى هي "الشّعر بين التّخييل والإقناع" عرضت من خلاله لمفهوم التّخييل عند الفلاسفة القدماء بدءاً من أرسطو ومروراً بالفارابي وابن سينا، ثمّ تناولت التّخييل عند البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني والقرطاجني على وجه الخصوص. أمّا المحطّة الثّانية فخصّصتها لـ "الحجاج والنّقائض"، عرّفت فيها بخصوصية النّقائض وقيامها على الخصومة، كما عرّفت بشاعريها، إضافة إلى عرض خصائص النّص الشّعري الحجاجي وبحث تواجدها في النّقائض لأؤسس من خلالها لمشروعية بحث الحجاج في النّقائض.

أمّا الفصل الثّاني فقد تناولت فيه "آليات الحجاج البلاغية"، وقسمته إلى خمسة مباحث انفراد كلّ مبحث بمعالجة عنصر بلاغي، وهي على التوالي: التشبيه، التّمثيل، الاستعارة، الكناية، والبديع الذي تناولته من خلال لونين بديعيين بدا حضورهما بارزا في النّقائض وهما: المطابقة والمقابلة.

وخصّصت الفصل الثالث لـ "آليات الحجاج اللّغوية"، وتوزّعت هذه الآليات على خمسة مباحث، انفراد كلّ مبحث بألية لغوية وقد تمثّلت في: الأفعال الكلامية، الرّوابط الحجاجية، العوامل الحجاجية، السّلم الحجاجي، والتّكرار.

وأخيرا تعرضت في الفصل الرابع إلى "بنية الحجاج في النّقائض"؛ حيث قُسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث: خُصّص المبحث الأوّل لتحديد مقدّمات الحجاج، وقد تمثّلت أساسا في الوقائع التاريخية والاجتماعية، والقيّم المختلفة كما حدّدها الدّارسون القدامى. أمّا المبحث الثّاني فخُصّص لرصد مختلف الحجج التي احتوتها مدوّنة البحث اعتمادا على تصنيف برلمان وتيتكا. أمّا المبحث الثالث والأخير فتناولت فيه العلاقات الحجاجية، من خلال الوقوف على علاقات ثلاث وهي: السّببية، والاقتضاء، والتّتابع.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع اعتماد أكثر من منهج لإنجاز هذا البحث؛ حيث اعتمدنا المنهج التاريخي في تتبّع الحجاج وتطوّره عبر العصور، كما اعتمدنا المنهج الوصفي في بيان آليات الحجاج وأساليبه المختلفة التي احتوتها نقائض جرير والفرزدق، إضافة إلى المنهج التداولي، وهو الأساس في هذا البحث.

وقد تشكّلت بيبيلوغرافيا البحث من مصادر ومراجع مختلفة، وتأتي على رأس المصادر مدوّنة البحث وهي "كتاب النقائص نقائص جرير والفرزدق" لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، إضافة إلى ثلّة من أمّهات الكتب منها: "البيان والتبيين" للجاحظ، "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، و"منهاج البلغاء وسراج الأدباء" للقرطاجني، وغيرها ممّا ورد ذكره في قائمة المصادر والمراجع.

أمّا المراجع فيأتي في مقدمتها "الحجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيته وأساليبه" لسامية الدريدي، و"أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" تأليف فريق البحث في البلاغة والحجاج إشراف حمادي صمود، والكتاب الجماعي "الحجاج مفهومه ومجالاته" إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، وغيرها من المراجع الأخرى التي سنشتها في قائمة المراجع.

ومن المراجع الأجنبية نذكر:

-Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca :Traité de l'argumentation.la nouvelle rhétorique.

-Oswald Ducrot :Les échelles Argumentatives.

وقد غابت المراجع التي تناولت الآليات الحجاجية في نقائص جرير والفرزدق.

وفي الأخير نشير إلى بعض الصعوبات التي واجهتني في إنجاز هذا البحث وهي:

- تشعب موضوع البحث.

- قلّة المراجع التي عنيت بالحجاج في الشّعر من جانبه التطبيقي خاصّة.

- تداخل الحجاج مع معارف أخرى كالفلسفة والبلاغة وغيرها.

وبعون من الله ورحمته تمّ تجاوز كلّ الصّعاب، وبإمدادات أستاذي المشرف الدكتور دياب قديد وفقت إلى وضع اللّمسات الأخيرة لهذا البحث الذي أرقني كثيرا وأشعري بالعجز في محطات عديدة، وعليه لا يسعني إلّا أن أتوجّه بأجلّ عبارات التقدير والامتنان إلى أستاذي المشرف الذي تحشّم عناء متابعة هذا البحث ورعايته

مد كان فكرة مضطربة إلى أن ترعرع واستقام عوده واستقرّ على الصّورة الماثلة بين أيديكم اليوم؛ حيث أمدّني بنصحه وإرشاده وغمريني بفيض صبره وكرمه فله مني كامل الشاء وحفظه الله وأبقاه قبسا يتلأأ ضياؤه لينير تلك المناطق المعتمة في دروب العلم والمعرفة .

وفي الأخير أجدّد شكري الخالص إلى الأستاذ المشرف الدكتور دياب قديد، كما لا يفوتني إلا أن أتقدّم بأجل آيات الشكر والعرفان إلى أعضاء لجنة المناقشة لتجشمهم عناء القراءة والمناقشة.

الفصل الأول

الفصل الأول:

الحجاج والشعر - مقاربات نظرية

المبحث الأول:

تعريف الحجاج وعلاقته بمصطلحات أخرى

- 1- الحجاج في القواميس العربية
- 2- الحجاج في المعاجم الفلسفية
- 3- الحجاج في القواميس الغربية
- 4- الحجاج وعلاقته بمصطلحات أخرى

المبحث الثاني:

الحجاج عند القدماء

- 1- الحجاج في الفلسفة القديمة
- 1- الحجاج عند السوفسطائيين
- 2- الحجاج عند أفلاطون
- 3- الحجاج عند أرسطو

2- الحجاج عند العرب القدامى

1. الحجاج عند الجاحظ

2. الحجاج عند ابن وهب

3. الحجاج عند السكاكي

4. الحجاج عند حازم القرطاجني

المبحث الثالث:

الحجاج عند المحدثين

1- الحجاج عند الغربيين

1. الحجاج عند برلمان وتيتكا

2. الحجاج عند تولين

3. الحجاج عند ديكر و أنسكومبر

2- الحجاج عند العرب المحدثين

المبحث الرابع:

الحجاج والشعر

1- الشعر بين الإقناع والتخييل

2- حجاجية النقائض

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن الحجاج في نقائض جرير والفرزدق، من خلال الوقوف على مختلف الآليات الحجاجية التي وظفها كلا الشعاعين لغاية تأثيرية إقناعية. وقد اقتضت هذه الدراسة أن نستهلها بمهاد نظري نؤصل من خلاله للحجاج معنى واصطلاحاً، مع الوقوف على مختلف النظريات التي تناولت الحجاج بالتركيز على أشهر أعلامها.

ونخصّص هذا الفصل للكشف عن جانبين هامّين في هذه الدراسة، واحدة تتعلق بالحجاج والأخرى بعلاقة الحجاج بالشعر؛ حيث خصّصنا المباحث الثلاثة الأولى للحجاج: نتعرض في المبحث الأول لمفهوم الحجاج كما حدّته المعاجم العربية والفلسفية والغربية، للوقوف على مدى اتفاق هذه المعاجم في تحديد معناه، دون أن نغفل الوقوف مع بعض المصطلحات الأخرى التي يبدو أنّها تتقاطع دلاليًا مع الحجاج. ثم نتبّع المسار التاريخي للحجاج، بدءاً من اليونان التي احتضنت نشأته على يد السوفسطائيين ومن خالفهم التوجّه ونعني أفلاطون وأرسطو.

وما كان لنا أن نطرق باب الحجاج عند العرب القدامى دون أن نقف ولو وقفة وجيزة نستعرض من خلالها الحجاج في القرآن الكريم، بعدها نواصل مسارنا لنقف عند محطات بعينها يمثلها بلاغيون قدامى تنوّعت مسالكهم وهم: الجاحظ وابن وهب والسكاكي والقرطاجني.

ولا تكتمل حدود النظرية الحجاجية ما لم نقف على جهود الدارسين المحدثين الذين ساهموا في إرساء دعائمها، مع الإشارة إلى أنّ الاتجاهات كثيرة ومتعدّدة والبحث فيها لا يزال مستمراً، وقد حصرنا دائرة اختيارنا في ما قدّمه بيرلمان وتيتكا اللذان كان توجّهما فلسفياً، وتولين الذي كان منطقياً، ونختم بالتوجّه اللغوي مع ديكرو وأنسكومبر. أمّا فيما يخص جهود العرب فقد تحدّدت عبر مستويات ثلاثة: وهي التنظير، والتطبيق والتأصيل.

أمّا المبحث الأخير فقد أردناه أن يكون جسر تواصل بين الحجاج والشعر؛ حيث نتناول فيه الشعر بين التخييل والإقناع، نبين من خلاله كيف يمكن للشعر أن ينهض بالوظيفة الإقناعية ثم نقف مع ما يشكل لنا مجال حجاج وهو النقائض وخصائصها، دون أن نغفل طريبي الحجاج فيها وهما جرير والفرزدق. وفي محطة

أخيرة نقف مع الحجاج في النقائص نبحث فيها خصائص النص الحجاجي الشعري ومدى اشتمال المدونة على هذه الخصائص لنهب لدراستنا مشروعية بحث الحجاج في نقائص جرير والفرزدق.

المبحث الأول:

تعريف الحجاج وعلاقته بمصطلحات أخرى

الحجاج واحد من المصطلحات التي تتداولها حقول معرفية كثيرة، وتتجاوزه علوم مختلفة قديمة وحديثة كالمنطق والفلسفة والإعلام والإشهار وغيرها. لذلك فالباحث، في مجال الحجاج، يجد نفسه أمام مفاهيم متعدّدة قد يلتبس عليه الفهم في بعض الحالات وذلك لاعتبارات عدّة منها:

- تعدّد مظاهر الحجاج وتنوّعها.
- تعدّد استعمال الحجاج وتباين مرجعياتها: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، المنطق.....
- خضوع الحجاج في دلالاته لما يميّز ألفاظ اللّغة الطبيعية من ليونة تداولية، وكذلك من تأويلات متعدّدة وطواعية استعمالية¹.

وفيما يأتي، نحاول الوقوف على دلالة هذا المصطلح، وذلك بتتبّع معناه في القواميس اللّغوية المختلفة: العربية والفلسفية والغربية.

1- الحجاج في المعاجم العربية:

قبل الولوج إلى عالم الحجاج وتحديد معناه عند الدارسين القدامى والمحدثين، العرب والغربيين، لابدّ من الانطلاق من المعنى اللّغوي لكلمة "حجاج"، وذلك بالوقوف على معانيها الواردة في القواميس اللّغوية.

ولعلّ أول ما نعرض له، من المعاني اللّغوية، ما ورد في "لسان العرب" لابن منظور (ت 711هـ) من أنّ الحجاج مشتق من الجذر اللّغوي (ح، ج، ج)، ومما جاء فيه: ((من أمثال العرب لَجَّ فحجَّ، معناه لَجَّ فغلب من لاجّه بِمُحَجِّجِهِ، يُقَالُ حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجاً وَمُحَاجَّةً حَتَّى حَاجَجْتُهُ أَي غلبته بالحجّج التي أدليت بها... والحجّة: البرهان، وقيل: الحجّة ما دوفع به الخصم. وقال الأزهري الحجّة: الوجه الذي يكون به الظفر عند

¹ - حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ج 3، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته. دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، ط1، عالم الكتاب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ص 30.

الخصومة، وهو رجل محجاج أي جدل، والتّحاج التّخاصم وجمع الحجّة حُجَج وحجاج¹)).

ومن خلال هذا التعريف يمكننا الوقوف على الملاحظات الآتية:

- الحجاج خصومة بين طرفين ، تنشأ عن الاختلاف في وجهات التّظر تجاه قضية معينة.
- السعي إلى إحراز الغلبة باعتماد الحجج.
- الحجاج مرادف للجدل.

وقد أدرجت في "مقاييس اللّغة"، وتحت الجذر "حج" معانٍ كثيرة ، منها الحجّ ومعناه القصد.. ومنها الحجّة، وهي جادة الطريق .. ويمكن أن تكون الحجّة مشتقة من هذا ، لأنها تُقصد، أو بما يُقصد الحقّ المطلوب يُقال حاججتُ فلاناً فحججته أي غلبته بالحجّة، وذلك الظّفر يكون عند الخصومة، والجمع حُجج والمصدر الحجاج².

من خلال تتبّع المعنى اللّغوي، يتّضح لنا أنّ الحجاج ينشأ عن خصومة، والخصومة تعني بالضرورة الاختلاف بين طرفين، والحجاج مرتبط أساساً باعتماد الحجج، وإحراز الغلبة. وإن كان هذا هو معنى الحجاج في القواميس اللّغوية العربية، فإننا نتساءل هل يمكن أن يتّخذ له معنى آخر في المعاجم الفلسفية.

2- الحجاج في المعاجم الفلسفية :

عرّف جميل صليبا الحجاج بقوله: ((جملة من الحجج التي يُؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها³)). وبهذا يحصر معنى الحجاج في: الحجج التي تُقدّم لإثبات رأي أو نفيه أو الطريقة التي تُعرض بها الحجج، وحسن توظيفها لصالح النتيجة المرجوة.

¹ - ابن منظور: لسان العرب، مج 4، ط 6، دار صادر، بيروت، لبنان، 2008، ص 38، مادة ح ج ج.

² - ابن فارس: مقاييس اللّغة، تح عبد السلام محمد هارون، ج 2، دار الفكر، د.ط، 1979، ص 30-31، مادة ح ج.

³ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية والآتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، 1982، ص 446.

أما مجمع اللغة العربية فيستعمل لفظ "المحاجة" ((ويراد بها طريقة تقدم الحجج والإفادة منها أو الحجج الذي يقوم على جمع الحجج لإثبات رأي أو إبطاله))¹.

ومن خلال عرض هذين التعريفين، نستنتج أنهما يختلفان في استعمال المصطلح "الحجاج" و"المحاجة"، ويتفقان في كونه طريقة عرض الحجج، والاستفادة منها في حالتها الإثبات والإبطال.

كما ورد في "موسوعة لالاند" استعمال المصطلح "محاجة"، وعرف هذا المصطلح على أنه:

- مسرد حجج تنزع كلها إلى الخلاصة ذاتها.

- طريقة عرض الحجج وترتيبها².

3- الحجج في المعاجم الغربية :

الحجاج مصطلح لغوي تنقسمه مجالات مختلفة ولغات متعددة؛ وهو ليس حديث النشأة بل يضرب بجذوره في أعماق التاريخ؛ حيث يذهب أحد الدارسين إلى أن كلمة (Argument) مأخوذة من الفعل اللاتيني (arguere) وتعني جعل الشيء واضحاً، لامعاً، ظاهراً. وهي بدورها من جذر إغريقي (argues) وتعني أبيض لامعاً³. ويبدو أن هذا التعريف لا علاقة له باستعمال الحجج لإحراز الغلبة، غير أن عبارة "جعل الشيء واضحاً" قد تُحِيل على استعمال الوسائل والآليات التي من شأنها أن توضح الأمور فتحظى بجانب من القبول.

أما في اللغة الفرنسية، فقد ورد لفظ (Argumentation) بمعاني متقاربة، وهي:

- ((القيام باستعمال الحجج)).

- ((مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة))⁴.

وبذلك فالحجاج هو اعتماد مجموعة من الحجج لخدمة نتيجة واحدة، أي توظيفها لصالح قضية واحدة.

¹ - مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، د.ط، 1983، ص 67.

² - موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1، تعريب خليل أحمد خليل، ط 2، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 2001، ص 94.

³ - بنور عبد الرزاق: جدل حول الخطابة والحجاج، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 2008، ص 27.

⁴ - Le grand robert ,dictionnaire de la langue française, 1ere édition, paris, 1990, p65.

أما في اللغة الإنجليزية فيدلّ لفظ (Argue) على ((وجود خلاف بين طرفين، ومحاولة كلّ منهما إقناع الآخر بوجهة نظره بتقديم الأسباب أو العلل التي تكون مع أو ضدّ فكرة أو رأي أو سلوك ما))¹.

نلاحظ أنّ هذا التعريف يتّفق مع ما ورد في اللغة العربية، من أنّ الحجاج يقوم على الاختلاف، وسعي كلّ طرف إلى إقناع الآخر، والاعتماد على الحجج المختلفة.

4- الحجاج وعلاقته بمصطلحات أخرى:

بالنظر إلى المعنى الاصطلاحي للحجاج، الذي يفيد الخصومة، ومحاولة إثبات الغلبة بالحجة والدليل، نلاحظ أنه يتقاطع في معناه مع مصطلحات أخرى، تشترك معه في بعض الجوانب، وإن اختلفت في الجذر اللغوي. وفيما يأتي نحاول الوقوف على هذه المصطلحات:

1-الجدل:

يُشتق هذا المصطلح من الجذر الثلاثي (ج د ل)، والجدل لغة: ((اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادلته مُجادلةً وِجدالاً، ورجلٌ جدلٌ ومجدال: شديد الجدل، ويُقال: جادلْتُ الرجلَ فجدلتهُ جدلاً أي غلبته. ورجلٌ جدلٌ إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي خاصمه مُجادلةً وِجدالاً (...). الجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة))².

ومن خلال هذا التعريف يستنتج ما يأتي:

- الجدل شدّة الخصومة والقدرة عليها.
- الغلبة بالحجة، وبذلك يكون مرادفاً للحجاج.
- المجادلة هي المناظرة والمخاصمة³.

¹ - Longman, dictionary of contemporary English, longman, 1989, p34.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 3، ط 6، دار صادر، بيروت، 2008، ص 99، مادة ج د ل.

³ - نور الدين أجمعيت: تداوليات الخطاب السياسي، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2012، ص 16.

وإذا عرضنا للمعنى الاصطلاحي، نجد أنّ الدارسين القدامى قد حدّدوا مفهوما اصطلاحيا للجدل، لا يكاد يتعد عن معناه اللّغوي. فهذا ابن وهب يعرفه بقوله: ((قول يُقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين))¹. فالجدل، حسبه، ينشأ عن اختلاف؛ حيث يسعى كلّ طرف إلى الدّفاع عن رأيه بالحجج المختلفة.

كما ورد في كتاب "التّعريفات" أنّ الجدل: ((هو القياس المؤلّف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإقحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. ودفع المرء خصمه عن إفساد قوله، بحجّة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة))².

من خلال هذا القول نقف على جملة من الملاحظات، وهي:

- الجدل قياس.
- غرضه إلزام الخصم بإدراك مقدمات البرهان.
- ردّ ادّعاء الخصم بالحجج.
- تصحيح كلام الخصم.
- الجدل خصومة.

وقد كان القدماء لا يفرّقون بين الحجاج والجدل؛ حيث نجد أبا الوليد الباجي (ت 474هـ) ألف كتابا أسماه "المنهاج في ترتيب الحجاج" يستعمل في طيّاته لفظ "الجدل" بدل "الحجاج"؛ حيث يقول: ((أزعمت على أن أجمع كتابا في الجدل يشتمل على جمل أبوابه وفروع أقسامه، وضروب أسئلته وأنواع أجوبته))³. وهو بهذا لا يقيم حدا فاصلا بين الحجاج والجدل بل يجعلهما مترادفين، كما أنّه يرفع علم الجدل عاليا عندما

¹ - أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب: البرهان في وجوه البيان. تح أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط 1، مكتبة الرشد، العراق، 2012، ص 78

² - علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني: كتاب التعريفات، تح نصر الدين تونسي، ط 1، شركة القدس للتصدير، القاهرة، مصر 2007، ص 128.

³ - أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تح عبد المجيد تركي، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص 07.

يجعله ((من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من الخال))¹، وبالتالي فهو يرى في الجدل العلم القادر على تمييز الحق من الباطل، ويعرفه بأنه: ((تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه))².

أما في الدراسات الحديثة فيفترقون بين الجدل والحجاج ويعتبرون الحجاج أعم من الجدل، فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدلا؛ وذلك لأن ((الجدل مداره المناقشة النظرية المحضة التي تسعى إلى التأثير العقلي المجرد، بينما الحجاج بحسب أرسطو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة، وهو لا يسعى إلى التأثير العقلي فحسب، بل يسعى إلى التأثير العاطفي عن طريق استثارة المشاعر والانفعالات وإرضاء الجمهور واستمالتة))³. وبذلك تكون غاية الجدل التأثير العقلي أما الحجاج فيجمع التأثيرين العقلي والعاطفي معا.

-المحاورة:

أدرج صاحب لسان العرب هذا المصطلح تحت المادة (ح و ر)، وذهب إلى أنّ ((الحور: ما تحت الكور من العمامة لأنه رجوع عن تكويرها، وكلمته فما رجع إليّ حوارا وحوارا ومُحاورة وحويرا ومُحورة أي جوابا وأحار عليه جوابه: ردّه... والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب))⁴.

كما ورد في المعجم الفلسفي لجميل صليبا ((حاوره محاورة وحوارا جادله... والمحاورة المجاوبة، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة. والتحاور التجاوب. لذلك كان لا بدّ في الحوار من وجود متكلم ومخاطب، ولا بدّ فيه كذلك من تبادل الكلام ومراجعتة))⁵.

إنّ هذا التعريف يجعل المحاورة مرادفة للجدل، ويجعلها المجاوبة، وغالبا ما تكون المجاوبة مرتبطة بوجود

¹ - أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، ص 08.

² - المصدر نفسه، ص 11.

³ - عبد العزيز لحويديق: الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 3، ص 361.

⁴ - ابن منظور: لسان العرب، مج 4، ص 264، مادة ح، و، ر.

⁵ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج 1، ص 105.

أسئلة، كما أنها تعني تردّد الكلام بين طرفين، ومراجعته. وفي هذا التعريف لا توجد أي إشارة واضحة إلى استعمال الحجج والبراهين في الكلام، كما غاب الحديث عن الغلبة.

3- المناظرة:

غالبا ما يستعمل مصطلح "المناظرة" كلّما وُجدت مواجهة كلامية بين طرفين يكون بينهما خلاف حول قضية ما. وقد ورد في أساس البلاغة: ((ناظرته في أمر كذا إذا نظر ونظرت كيف تأتيانه))¹. يدلّ هذا التعريف على وجود مشاركة بين شخصين في موضوع محدد. أمّا ابن منظور فيعرّف المناظرة قائلاً: ((والمناظرة أن تناظر أحاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه))².

ومما ورد أيضا في لسان العرب: ((التناظر التزاؤ في الأمر ونظيرك الذي يراوضك وتناظره وناظره من المناظرة والتّظير المثل في كلّ شيء وفلان نظيرك أي مثلك لأنّه إذا نظر إليهما الناظر رأهما سواءً ... ونظير الشيء مثله وحكى أبو عبيدة النّظر والتّظير بمعنى مثل النّديّ والنّديد... ويقال ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة وناظرت فلانا بفلان أي جعلته نظيرا له))³.

يحمل تعريف ابن منظور للمناظرة السمات المميّزة الآتية:

1. النّديّة أي تساوي الرتبة بين المتناظرين.
2. وجود أمر خلافي متناظر حوله، لأنّ المتفق عليه لا يثير خلافا.
3. التفاعل القائم على نبذ العنف والإكراه وهو ما عبر عنه بـ "التزاؤ"⁴.

وقد ورد في كتاب التعريفات أنّ المناظرة هي: ((لغة من التّظير، أو من النّظر بالبصيرة، واصطلاحاً، هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصّواب))⁵.

¹ - الزمخشري: أساس البلاغة، تح محمد نبيل طريفي، ط 1، دار صادر، بيروت، 2009، ص 461، مادة ن، ظ، ر.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 14، ص 292، مادة ن ظ ر.

³ - المصدر نفسه، ص 293، مادة ن ظ ر.

⁴ - نور الدين أجمعيت: تداوليات الخطاب السياسي، ص 13.

⁵ - علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، ص 365.

وعليه يستنتج مما سبق أنّ المناظرة:

1. نظر بين اثنين (أو أكثر).
2. مباحثة عقلية (نظر بالبصيرة).
3. هدفها إظهار الصّواب أو الحق¹.

فالمناظرة ((فنّ من فنون القول ينتج عن اجتماع طرفين من أهل الفكر والرأي أو العلم والأدب في مجلس يضمّ جمهوراً، ويقع بينهما بحث في موضوع، يُتفق عليه سلفاً أو يُثار في المجلس، وغاية المتناظرين إظهار الحقّ، والوصول إلى الحقيقة، والإذعان لها من أيّ طرف جاءت))².

واستناداً إلى ما سبق فإنّ:

1. المناظرة تتطلّب مجلساً وجمهوراً.
2. غايتها: إظهار الحقّ والإذعان له. ممّا يعني المرونة في تقبّل آراء الآخرين، طالما ثبتت صحّتها، وعدم التعنّت للرأي الخاص.

وإذا أردنا أن نحدّد العلاقة القائمة بين الحجاج والمناظرة نجد أنه ((يقع في المناظرة حجاج ومحاجّة أي تبادل للحجج من طرفيها، فكلّ مناظرة تنطوي على محاجّة وليست المحاججة مناظرة))³.

انطلاقاً من الآراء السابقة والتعريفات المتعدّدة للحجاج والجدل والمناظرة والمحاورة يتّضح أنّ هذه المصطلحات تتفق في بعض المعاني أهمّها الجوانب الخلافية بين المتناظرين، وكلّ يحاول تقديم الحجّة لإثبات الغلبة والانتصار على الآخر، ولكن تختلف هذه المصطلحات في كونها لها دلالات خاصّة، إذ إنّ لكلّ مصطلح مفهومه وآلياته التي ينطلق منها، ولهذا لا يمكن أن يكون لها نسق واحد من الشروح والدلالة.

¹ - محمد أبحر: خطاب المناظرة في الأدب الأندلسي من القرن الرابع إلى نهاية القرن الثامن الهجري، ط 1، دار كنوز المعرفة، الأردن ، 2015 ص 16.

² - رحيم جبر أحمد الحسناوي: المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، ط 1، دار أسامة، عمان، الأردن ، 1999، ص 54.

³ - المرجع نفسه، ص 73.

وبعد أن وقفنا على مصطلح الحجاج ودلالته اللغوية في مختلف المعاجم، وكشفنا دلالة بعض المصطلحات التي تدور في فلكه وتتقاطع معه دلالياً وإن شابتها بعض الفروقات، آن لنا أن ننتقل إلى المعنى الاصطلاحي بدءاً بالدارسين القدامى غربيين وعرب.

المبحث الثاني:

الحجاج عند القدامى :

بعد أن حدّدنا الدلالة اللغوية لمصطلح "الحجاج" نخصّص هذا المبحث لاستظهار جهود الباحثين القدامى في الحجاج، وقد تجسّدت في جهود الغربيين ممثلة فيما قدّمه الفلاسفة اليونانيين من جهة، والبلاغيين العرب من جهة ثانية. وعليه سنأتي إلى تقديم ذلك بشيء من التوضيح والتفصيل، على أن تكون اليونان منطلقنا لأنّها تربة الحجاج الأولى.

1- الحجاج في الفلسفة القديمة:

1 - الحجاج عند السوفسطائيين* (Les Sophismes):

عرفت اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد حركة علمية وثقافية وفكرية متوهّجة، وكانت الفلسفة قد كثرت أبحاثها وتعدّد المشتغلون بها، ولكنّها كانت تدور غالباً حول ما وراء الطبيعة. وفي وسط هذا الجوّ ظهرت جماعة أطلقت على نفسها اسم السوفسطائيين، وهو اسم مشتق من كلمة "صوفيا" أي الحكمة، وهي الكلمة نفسها التي اشتق منها الفلاسفة اسمهم، وعليه أصبحت كلمة فيلسوف تعني مُحبّ الحكمة وكلمة سفسطائي معلّم الحكمة، لكنّ الكلمة الأخيرة ابتعدت عن معناها الأصلي وأصبحت تعني مُحبّ الجدل لذات الجدل¹، وذلك يعني أنّ السفسطة ارتبطت بمعنى الجدل العقيم الذي لا فائدة تُرجى منه.

وقد ارتبطت نشأة الخطابة أو البلاغة (Rhétorique) في الإغريق القديمة بدعاوي الملكية، ممّا أكّد البعد التداولي والوظيفة الإقناعية للبلاغة². ونتيجة لذلك عُدّ الحجاج مطلباً اجتماعياً مُلحاً لتدبير الصّراع في إطار ديمقراطي مفعم بالحرية، وكانت غايته تكوين مواطن صالح قادر على الحوار بالحجّة والدليل

* - السوفسطائيون هم فرقة يونانية قديمة نصّبت نفسها لتعليم الناشئة اليونانية طرق النجاح في الحياة بصرف النظر عن تحري الحق والفضيلة الذي كان دأب الفلاسفة، فكان السوفسطائيون يتقنون النشء تثقيفاً عاماً ويعلمونه الخطابة والسياسة والجدل، ثم تطرقوا إلى تعليمه أساليب المغالطة في الجدل وتشكيكه في حقائق الأشياء ومعانيها مما دعا إلى رميهم بإفساد أخلاق الناشئة.

¹ - أحمد درويش: التّص البلاغي في التراث العربي والأوربي، دار غريب، القاهرة، مصر، د. ط، 1998، ص 21.

² - جميل عبد الحميد: مدخل إلى بلاغية وحجاجية الخطاب القضائي ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 4، ص 104.

وعلى الدفاع عن آرائه بدل العنف والسلاح. ومن ثمّ أصبح الحجاج مادةً تدريسية على يد السفسطائيين الذين وضعوا كلّ شيء موضع سؤال ونقد بما في ذلك النظام السياسي السائد¹.

وكان السفسطائيون يمارسون سلطة الحجاج رغبة في الحصول على سلطة في المجتمع؛ حيث كانوا يعلّمون الشباب من ذوي اليسار مسالك الاقتدار على الخطابة ويهيئوهم بذلك للسلطة، ويتقاضون مقابل ذلك مالا وفيرا، وقد منحهم اشتغالهم بالتعليم سلطة توجيه السياسة مما شكّل أكبر خطر بالنسبة لأفلاطون².

وكان تركيزهم على الخطابة نابعا من قناعتهم بأنّ "المدينة والمدنية إنما تؤسّسان على بلاغة القول وأهل القول وليس على أعمال أهل الصنائع والحرف"³، ولذلك كانوا أوّل من درس الكلام من زوايا اللغوية لذاتها واهتموا بمسائل القواعد والدراسات اللغوية وبناء العبارة وفنون البلاغة⁴، كما كانوا يعقدون نقاشات فلسفية ذات منزع لغوي توليدي للأفكار، الأمر الذي أسفر عن اهتمام بالغ بالطرائق الحجاجية والإقناعية من ناحية، وأدّى إلى تراكم معرفي كبير شكّل التّواة لمعظم الدّراسات القديمة والحديثة للفلسفة اليونانية من ناحية ثانية⁵.

لقد كانت الغاية من خطابتهم التأثير في المتلقّي ولذلك ((بحثوا في السُّبل الممكنة التي بها يتحقّق الإقناع وتتغيّر مواقف الآخرين، مستعينين في ذلك بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معا، وأيضا بآليات إجراء اللّغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية، ممّا حتمّ على محاورهم التوسّل بمناهج حجاجية مختلفة))⁶. إنّ عملهم هذا يعكس وعيهم التام بالمهمّة التي ينهضون بها وذلك من خلال التركيز على ما يساهم في إنجاح عملهم وهو المعرفة المتمثّلة في معرفة مقامات الناس وما تتطلبه من طريقة في إجراء الكلام وحسن التواصل معهم بكيفية تضمن التأثير فيهم وتوجيههم الوجهة التي يقصدونها.

1 - عبد العزيز لحويدي: الأسس النظرية لبناء شبكة قرائية للنصوص الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 3، ص 337.

2 - هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إعداد فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ص 61.

3 - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة. بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2008، ص 25.

4 - أحمد درويش: التّص البلاغي في التراث العربي، ص 24.

5 - المرجع السابق، ص 24.

6 - المرجع نفسه، ص 25.

لقد كانت غايتهم القصوى التأثير في المتلقي، وسعياً وراء غايتهم أهملوا الجانب العقلي في الخطابة والتمثّل في ما تقيمه من حجج منطقية يمحصها عقل المتلقي قبل القبول أو الرفض، وركزوا على الجانب الانفعالي المتمثّل في وسائل التأثير في عواطف المتلقي وخيالاته، ومن ثمّ كانت الخطابة عندهم خطابة تأثير، بل تضليل في كثير من الأحيان، وخطابة متّسمة بالاعتباطية واللامعقولية¹.

وعليه، راحوا يعلمون تلاميذهم مسالك توجيه الاحتمال في الحجاج بحسب النافع دون اكتراث بالأخلاق والمواصفات الاجتماعية، إذ غايتهم الانتصار على الخصم بأيّ وسيلة كانت². وكأنهم يطبقون في فلسفتهم هذه مقولة "الغاية تبرّر الوسيلة".

واستندوا في ممارستهم للحجاج إلى تصوّرهم لـ"النافع" الذي لم يعلّقوه بـ"الخير" بل بـ"اللذة" حسب ما ذكر أفلاطون، لذة "الاستهواء" بالنسبة إلى المقول إليه ولذة "التّفع" بالنسبة إلى القائل. وفي هذا الإطار يتنزّل مذهب "كوراكس*" (ق 5 ق. م) في استغلال المحتمل وتوجيه الحجاج بحسب التّفع الذي يقصد إليه المحاجج³.

وبناءً على فكرة "التّفعية" المتعلقة بـ"اللذة" أي الهوى وليس التّفع المتعلق بالمثل أو الخير، وجّهوا الحجاج بحسب مقتضى المقام الذي يدور فيه الحوار، بالاعتماد على توظيف سلطة القول في الاحتيال على الحقيقة و"الخير" إذا كان لا يخدمان غرض المحاجج⁴.

ومّا سبق يتّضح مذهب السوفسطائيين في الحجاج الذي ربطوه بالمنفعة، وجعلوا غايتهم القصوى التأثير في المتلقي وجعله يستجيب لهم بتحريك عواطفه مع إهمال تام للجانب العقلي وما يتطلبه من عرض للحجج

¹ - جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، مصر، د. ط، 2000، ص 180 .

² - عبد العزيز لحويديق: الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 3، ص 337.

* - مذهب كوراكس هو منهج في الحجاج يعرف باسمه (Le Corax)، انبنى مضمونه على نصيحة وجهها لتلاميذه قال فيها: إن انتدبت للدفاع في قضية تعد بالعنف وكان موكلك ضعيف البنية فقل: إنه من غير المحتمل لضعف بنيته أن يكون هو البادئ بالظلم، فإن كان موكلك قوي البنية وكانت القرائن جميعاً ضده في الظاهر فقل: إنه كان من المحتمل جداً أن يتصور أنه المعتدي إلى حد أنه من غير المحتمل أن يكون فعلاً كذلك. انظر: هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 60.

³ - المرجع نفسه، ص 50.

⁴ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 27.

والبراهين المختلفة، التي من شأنها أن تؤثر في المتلقي وتجعله يتخذ وجهته بالرفض أو القبول باقتناع تام، وهذه هي الغاية المثلى في الحجاج، والتي سعى أفلاطون وأرسطو ومن جاء بعدهما إلى ترسيخها.

2- الحجاج عند أفلاطون (Platon 428-348 ق.م):

لم يكن أفلاطون موافقا على الطريقة التي بنى عليها السفسطائيون حجاجهم، وعليه نشبت بين الطرفين معارك ضارية عملت على إذكاء الفكر الفلسفي. وقد أسس رفضه لمنهج السفسطائيين في تدريس الحجاج على اعتباره لا يسهم في إنتاج المعرفة والحقيقة، وإنما يكرس الاعتقاد الأعمى الذي لا يسمح بالاعتراض والانتقاد¹.

وقد بذل أقصى جهده لتمييز القول الفلسفي من السفسطائي الذي كان يريد اكتساح غالب فضاءات الفكر والاجتماع، واعتبر أنّ رهان ذلك التمييز ومنتهاه بقاء الفلسفة في المدينة أو انحسارها، ولخطورة الرهان ثارت بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد مطاردة كانت شرسة أحيانا، مطاردة الفيلسوف للسفسطائي، مطاردة قول لقول².

أفرد أفلاطون في سبيل مواجهته لتلك الممارسات الحجاجية محاورتين هما "فرجياس" و"فيدر" نقد فيهما البلاغة السفسطائية بصورة عامة³. وبنى خطابه على أركان أولها وعمدتها اعتماد المنهج الجدلي في بناء القول الخطي، وبه أراد أن يغيّر الصناعة تغييرا جذريا فينقل الحجاج من مجال "الظن" و"الاحتمال" إلى مجال الحقيقة "الخطابة"⁴، وبذلك استبعد الشكل الحجاجي السفسطائي ليقيم مكانه حجاجا جدليا يهّمه أساسا إقناع المختصين في المجال، وهو يرقى إلى مستوى الحوار الثنائي بين المختصين في الموضوع المطروح للمناقشة حيث يتم الاستناد إلى المعرفة القابلة للدحض في كل لحظة وليس حجج السلطة عند ترجيح رأي على آخر⁵.

¹ - عبد العزيز لحويديق: الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته. ج 3، ص 337.

² - هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 81.

³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 27.

⁴ - المرجع السابق، ص 81.

⁵ - عبد العزيز لحويديق: الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 3، ص 337.

بنى أفلاطون نقده للسفسطائيين على إستراتيجية واحدة هي إستراتيجية الكشف عن علاقة القول الخطبي السفسطائي بالقيّم الجامعة في فلسفته وهي قيّم الحق والجميل والخير¹. وانطلاقاً من قيّمه تلك درس الحجاج في ضوء قيمتي الخير والشر، ففي محاوره "فرجياس" قدّم أسس تقييم القول الخطبي وفحص موضوع الخطابة في ضوء المقابلة علم/ظن، وعليه جعل الإقناع نوعين: إقناع يعتمد العلم وإقناع يعتمد الظن وهو موضوع الخطابة السفسطائية. ولأنّ العلم يقوم على مبادئ صادقة وثابتة كان الإقناع المعتمد عليه مفيداً بخلاف الظن الذي يقوم على الممكن والمحتمل، وبالتالي فالإقناع المعتمد عليه غير مفيد لأنه لا يهبه معرفة وإنما اعتقاداً².

ولأنّ حجاج السوفسطائيين لا يقوم على أسس علمية كفيلة بالإقناع، اعتبرهم أفلاطون أدعياءً على العلم والمعرفة، وأنّ ما يقدّمونه لا يعدو كونه نتائج ظنيّة مبعثها الهوى واللذة، وهي أمور ومفاهيم ضارة بالقيّم والأخلاق واليقين والإيمان³.

حاول أفلاطون، من خلال جهوده المبذولة، أن يواجه السوفسطائيين بخطأ مذهبهم، وأن يؤسّس وجهة صحيحة للحجاج تبني أساساً على الجانب العقلي الذي يسعى إلى بلوغ الحقيقة البعيدة عن الظن والاحتمال.

3- الحجاج عند أرسطو (Aristote 384-322 ق.م):

أولى أرسطو في خطابه اهتماماً كبيراً بالجانب العقلي والنّفسي معاً محاولاً تحقيق توازن بين وسائل الإقناع ووسائل التأثير⁴. وبذلك يكون قد تجاوز أخطاء سابقيه من السوفسطائيين الذين اهتموا بالتأثير أكثر من الإقناع.

وقد درس الجدل في علاقته بالخطابة، وحدّد العلاقة بينهما بعبارته المشهورة (Antistriphose) وهي كلمة ترجمت عدّة ترجمات عدّة اعتبر كثير من الدارسين المعاصرين أنّ أفضلها و أدقّها تلك التي عبّر عنها

¹ - هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 62.

² - المرجع نفسه، ص 63.

³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 26.

⁴ - جميل عبد المجيد: مدخل إلى بلاغية وحجاجية الخطاب القضائي ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 4، ص 104.

ابن رشد في تلخيصه لخطابة أرسطو بـ"التناسب"¹. ولم يكن أرسطو كسابقه أفلاطون راضياً عن السفسطائيين وإنما وجه إليهم جملة من الانتقادات ركّز فيها على إنتاج الحجاج عندهم، وما يتعلّق به من آليات وخاصة الشراك القولية التي كانوا ينصبونها للإيقاع بخصوصهم. وذكر أنّ لحجاجهم خمسة أهداف: التبكيث، الإيقاع في الخطأ، الدّفْع إلى مخالفة المشهور، واستعمال صيغ لغوية غير مألوفة، وأخيراً دفع المحيب إلى الكلام الفارغ وذلك بجعله يكرّر كلامه أكثر من مرة². وإن كان هذا من شأنه أن يُحقّق لهم الغلبة، إلاّ أنّه يصنّف ضمن التلاعب بالخصم والتأثير عليه، لإيقاعه في الخطأ، وبالتالي يُحرزون التفوّق عليه، وفي اعتقادنا هي منافسة غير شريفة.

أعاد أرسطو الاعتبار للبلاغة الحجاجية التي تقوم على الرّأي العام، ولم يضعها في مستوى واحد مع السفسطة، كما لم ينزلها منزلة الجدل بوصفه حواراً منزهاً من الشوائب الحياتية والاجتماعية والنفسية ومن ثمّ ميّز بين ثلاثة أجناس من الخطاب هي: السفسطة، والخطابة، والجدل³.

وقد ركّز أرسطو على خصائص حجاجية مهمّة هي: الرّأي والاحتمال والممكن و التخييل على اعتبار أنّها ذات دلالات بالغة لا في حياة النّاس فحسب، ولكن أيضاً في التواصل بصفة عامة، وفي فتح المجال أمام الآخر للإدلاء برأيه⁴.

ويتناول أرسطو الحجاج من زاويتين متقابلتين: زاوية بلاغية؛ حيث يربطه بالجوانب المتعلقة بالإقناع ويتناوله من الزاوية الجدلية فيعتبره عملية تفكير تتمّ في بنية حوارية، وتنطلق من مقدّمات لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة، هاتان التّظرتان المتقابلتان تتكاملان في تحديد مفهوم الخطاب الذي يحدّده في ثلاثة أنواع: التّوع الاستشاري والتّوع القضائي والتّوع القيمي⁵.

¹ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 32.

² - المرجع نفسه، ص 34.

³ - عبد العزيز لحويديق: الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 3، ص 338.

⁴ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة. ص 32.

⁵ - محمد طوروس: النظرية الحجاجية من خلال الدّراسات البلاغية والمنطقية واللّسانية، ط 1، دار الثقافة، المغرب، 2005، ص 15.

وقد ميّز أرسطو التصديقات (الحجج) وجعلها صناعية وغير صناعية؛ حيث قال: ((ونقصد بالأدلة غير التقنية تلك التي لا توقّرها لنا وسائلنا الشخصية، ولكنها تعطي مسبقاً؛ مثل الشهود والاعتراف تحت التعذيب والوثائق والعقود وغيرها من الوسائل الشبيهة بها. أما الأدلة التقنية فهي التي يمكن أن يوقّرها لنا المنهاج، ووسائلنا الشخصية، ونتيجة لذلك فإنه ينبغي أن نستعمل الأولى ونبتكر الثانية بأن نستخرجها))¹.

وبعد أن ميّز بين الحجج الصناعية وغير الصناعية، جعل التصديقات الصناعية ثلاثة أنواع: الأول يختص بالمرسل أو الخطيب (الإيتوس): وهو ما عُرف عنه من خُلق وما يظهر به أثناء الخطبة هيئة حركة وسكوناً، صمتاً وصوتاً. الثاني الباتوس: ويختص بالمرسل إليه أو الجمهور، انفعالاته وأحاسيسه. والثالث: اللوغوس وهو يختص بالرسالة أو الخطبة نفسها وما تقيمه من حجج معقولة (الاستدلال) وما انتظمت من ترتيب (ترتيب الأجزاء) وما تتحلّى به من زخارف لفظية وأسلوبية (الصياغة)².

كما حدّد أربع مراحل أساسية لإنتاج القول الحجاجي وهي مُرتبة حسب تتاليها في زمن الإنشاء:

- المرحلة الأولى: (Eurésis) وتعرف باللاتينية (Inventio) وهي مرحلة البحث عن مواد الحجاج وقد سماها بدوي في ترجمته لكتاب الخطابة "مصادر الأدلة.
- المرحلة الثانية: (Taxis) وتعرف باللاتينية (Dispositio) واستعمل فلاسفة العرب لها كلمة "الترتيب" أما بدوي فاستعمل عبارة "ترتيب أجزاء القول".
- المرحلة الثالثة: (Lexis) وفي اللاتينية (Elucutio) وقد استعمل لها بدوي كلمة "أسلوب".

ثم أضاف إلى هذه المراحل الثلاث الخاصة بإنشاء القول مرحلة رابعة سماها (Aypocrisis) وتعرف في اللاتينية (Actio) واستعمل بدوي لها كلمة "إلقاء"³.

ومما سبق يتضح لنا أنّ أرسطو حاول أن يصحّح مسار الحجاج من خلال اهتمامه بالجانبين العقلي والتفسي، كما أنه لم يُبقي المتلقّي في خانة المفعول به، بل جعله فاعلاً عندما فتح له المجال للإدلاء برأيه، والمشاركة

¹- أرسطو: الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2008، ص 15.

²- جميل عبد المجيد: مدخل إلى بلاغية وحجاجية الخطاب القضائي ضمن الحجاج مفهومه ج4، ص 105.

³- هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 17.

في الحوار وذلك بغية الوصول إلى الغاية القصوى وهي حدوث الاقتناع. وواضح من خلال تحديده لمراحل القول الحجاجي أنه اهتم بكلّ الجوانب التي من شأنها أن تجعل منه قولاً مؤثراً ومقنعاً؛ بحيث لم يكتف بإعداد القول في حدّ ذاته فحسب، بل امتدّ اهتمامه إلى طريقة إيصاله إلى المتلقّي "اللقاء"، وبذلك يكون قد حقّق كلّ الجوانب الحجاجية للقول .

وبهذا نكون قد وقفنا على تحديد الفلاسفة القدامى للحجاج لنتقل فيما يلي إلى جهود البلاغيين العرب وإسهاماتهم في الدرس الحجاجي، بما وقّرتهم لهم مجالات اشتغالهم وثقافتهم، وقبل ذلك ستكون انطلاقتنا من الحجاج في القرآن الكريم.

2- الحجاج عند العرب القدامى:

قبل أن نتطرق إلى الحديث عن الحجاج عند العرب القدامى تراءى لنا أنّه من الضرورة أن نتعرض، ولو بإيجاز، إلى الحديث عن الحجاج في القرآن الكريم على اعتبار أنّه حظي باهتمام الدارسين ونال عنايتهم الخاصّة حتّى إنّ الكثير من علوم العربية قد نشأت في كنفه.

وانطلاقاً من كون القرآن الكريم رسالة سماوية، أنزلها الله على نبيّه محمد صلى الله عليه، ليخرج النّاس من ظلمات الجهل إلى نور الايمان، بعدما ابتعدوا عن التوحيد، وتغلغل الشرك في أعماقهم، وضلّوا سبيل الحياة الكريمة، التي تليق بالإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وأنعم عليه بالخيرات كلّها، لتوحيده، وإخلاص العبادة له دون سواه.

ولأنّ القرآن الكريم طالب النّاس بالتوحيد، والتخلّي عن الكثير من معتقداتهم وعاداتهم الفاسدة، أي أنّه جاء لتغيير حياتهم، فإنّ الله عز وجلّ قد خاطب عقولهم، ودعاهم إلى التفكير والتأمل، وسعى إلى إقناعهم بصلاح وأفضلية ما جاء به، معتمداً في ذلك على مختلف الحجج والبراهين التي تجعلهم يذعنون لأوامره ويتنهون عن نواهيه.

لقد اشتمل القرآن الكريم على "الحجاج" لفظا ومعنى، فإذا نظرنا إلى مشتقات الجذر "ح ج ج" نجد أنّها وردت في ثلاثة وثلاثين موضعا، منها: عشرين موضعا بمعنى "المحاجة"، واثني عشر موضعا بمعنى "الحج"، ووردت في موضع واحد بمعنى السنوات¹.

ذهب عبد الله صولة إلى أنّ الحجاج الموجود في القرآن الكريم هو حجاج جدلي، والحجاج الجدلي ((مداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، وتمثله في التراث العربي الإسلامي مناظرات "علم الكلام"... هذا الحجاج الجدلي موجود في القرآن معتبر من "بدائعه" وهو الذي تجتهد كتب علوم القرآن في استخراجها ودرسه تحت عنوان "جدل القرآن" أو "المذهب الكلامي في القرآن" أو "الاحتجاج النظري في القرآن")².

أمّا فيما يخصّ المصنّفات التي تناولت علوم القرآن بالبحث والدراسة مثل "البرهان في علوم القرآن" للزركشي، و"الإتيان في علوم القرآن" للسيوطي، فقد تناولت الحديث عن "جدل القرآن" باعتباره علما من علومه، واستعملت ألفاظ (الحجاج - المحاجة - الاحتجاج) على أنّها مرادفة للجدل.

أورد الزركشي تحت باب "في معرفة جدله" قوله: ((اعلم أنّ القرآن قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلّا وكتاب الله قد نطق به ... فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة تشتمل على أدقّ دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما ينفعهم ويُلزمهم الحجّة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء))³. وفي هذا القول دلالة واضحة على أنّ الله عزّ وجل قد دَبّج كتابه بمختلف الأدلّة والبراهين التي تقف شاهدا على صدق الدّعوة، وأنّ ما جاء به هو الحقّ المبين، فحاور عباده، من خلال رسله، وأقام عليهم الحجّة في أنفسهم وفيما يحيط بهم، وجعل إدراك الأمور ميسّرا للعامة والخاصّة كلّ حسب ما تتيحه مداركه.

¹ - لمهابة محفوظ: مفهوم الحجاج في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ج 3، ع 71، ص 510 وما بعدها.

² - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 2، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2007، ص 18.

³ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن. ج 2، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 3، مكتبة التراث، القاهرة، 1984، ص 24.

وبعد أن تبيننا احتواء القرآن الكريم على الحجاج لفظاً ومعنى، سنتطرق للحديث عن الحجاج عند البلاغيين العرب القدامى من خلال تناولهم لمباحث بلاغية معينة استطاعوا من خلالها إثارة ما يتعلق بجوهر العملية الحجاجية.

إذ لم يفرد العرب القدامى الحجاج بمباحث خاصة في مصنفاتهم، غير أنهم أثاروا بعضاً من قضاياها في ثنايا حديثهم عن البلاغة، وخاصة عند حديثهم عن البيان*؛ حيث إنه لم يكن لمبدأ بلاغي من الإجلال عند البلاغيين العرب والسيطرة على تفكيرهم مثل مبدأ "البيان"، فهو لديهم جوهر البلاغة والوظيفة الأساسية لكل اتصال لغوي، وذلك لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام¹.

و ميّز البلاغيون العرب في معالجتهم للبيان ثلاثة اتجاهات أساسية:

1. اتجاه أدبي خطابي يمثله الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين".

2. اتجاه منطقي فقهي يمثله ابن وهب في كتابه "البرهان في وجوه البيان".

3. اتجاه بلاغي منطقي يمثله السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم".

وفيما يلي سنعمل على تتبع مسار البيان عند هؤلاء البلاغيين وذلك للكشف عن دوره في العملية التواصلية، ومدى إسهامه في التأثير ونهوضه بالإقناع.

1- الحجاج عند الجاحظ (ت 255هـ) :

انقسمت الدراسات البيانية منذ قيامها إلى قسمين: قسم يهتم بقوانين تفسير الخطاب، وآخر يهتم بشروط إنتاج الخطاب، وتتنزل جهود الجاحظ في القسم الثاني؛ حيث لم يكن معنياً بقضية "الفهم" بقدر ما كان معنياً بقضية "الإفهام"، إفهام السامع وإقناعه وقمع المجادل وإفحامه وبذلك أدخل السامع كعنصر أساس

*- ضبط الجاهري معنى "البيان" من خلال تحديده للحدود اللغوية (ب ي ن) وما يحيل عليه من دلالات؛ حيث حدّد لهذا الجذر خمسة مستويات من الدلالة وهي: الوصل، الفصل، الظهور والوضوح، الفصاحة والقدرة على التبليغ والإقناع، والقدرة على البيان. للتوسع أكثر انظر: محمد عابد الجاهري: بنية العقل العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط 11، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2013، ص 16 وما بعدها.

¹ - جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، ص 143.

في العملية البيانية، بل بوصفه الهدف منها¹. وفي ما يأتي نحاول أن نتبين مشروع الجاحظ البياني.

- البيان:

البيان عند الجاحظ تتنازعه وظيفتان هما: الوظيفة الفهمية والوظيفة الإقناعية²، وعليه ينطلق الجاحظ في بيانه من أنّ العملية التواصلية تبدأ من الإبانة عمّا تحويه الأذهان وما تضره النفوس وذلك من حصول الفهم والإفهام، فـ((المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم... مستورة خفية بعيدة وحشية محجوبة مكنونة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وحليطه... إلّا بغيره))³، وفي هذا إشارة إلى أنّ ما يضره الإنسان في نفسه لا يستطيع غيره الإطلاع عليه وبالتالي فإنّ ما بداخله يحتاج إلى الإبانة عنه ليتمكّن غيره من معرفته. فالمعاني القائمة في صدور الناس مبيّنة ((وإنما يحبي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها. وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً... وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار ودقّة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان))⁴. فالمعاني تحيا بالإفصاح عنها وإخراجها من ذات تحملها إلى أخرى تتلقاها وهنا يكون البيان الذي يعني الإبانة والإرسال أو الإبلاغ المبين الذي يتمّ عبر اللّغة وغيرها⁵.

ربط الجاحظ البيان بالكشف والإفصاح فقال: ((والبيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتّى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محموله كائن ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع))⁶.

¹ - محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ص 25.

² - محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ط 2، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص 195.

³ - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، تح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ط، د. ت، ص 75.

⁴ - المصدر نفسه، ص 75.

⁵ - جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، ص 144.

⁶ - المصدر السابق، ص 76.

مما سبق، يتضح لنا أنّ العملية التواصلية تحكمها غاية أساسية، وهي حدوث الفهم والإفهام، وكلّ ما من شأنه أن يسهم في تحقيق هذه الغاية فهو البيان. والجاحظ يعالج البيان في مرحلة بعينها من مراحل الاتصال، وهي مرحلة البثّ أو الإرسال أو الإبلاغ. وقد ركّز، باعتبار المشافهة، على وسيلتين بيانيّتين هما: الصّوت والإشارة¹.

ويأتي الاهتمام بالصّوت والإشارة كون الخطابة تقوم على التواصل الشفاهي، وعليه يتوجّب على المتكلّم/المرسل/الخطيب أن يتميّز صوته بجملة من الصّفات تجعل صاحبه قادراً على الإبلاغ والتأثير والإقناع. وقد استشهد، فيما ذهب إليه في هذا الشأن، بـ"واصل بن عطاء"، الذي كان ألثغ فاحش اللّثغ، وقد علم أنّ البيان يحتاج إلى ((سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأنّ ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وترتّب به المعاني))².

ولم يكن واصل بن عطاء جاهلاً لما يتطلّب التواصل الشفاهي من سلامة الجهاز النطقي وتوافر عديد الخصائص التي تجوّد الصّوت فأدرك أنّ لثغته تحول بينه وبين ما يطمح إليه من حسن البيان، وما يحتاجه من الخطب الطّوال ومقارعة الأبطال، ((ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الرّاء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه))³، وإسقاط حرف من الكلام لم يكن بالأمر الهين لأنه يتطلّب معرفة مستفيضة وثقافة واسعة بألفاظ اللّغة التي تقوم مقام الكلمات المحظورة. بذلك يكون قد تجاوز لثغته وأثبت وعيه بما يحتاجه الخطيب، وما يتوجّب عليه من سلامة جهازه النطقي حتّى يتمكن من التأثير في جمهور السامعين بعد استمالتهم.

ثمّ جعل الجاحظ الإشارة الوسيلة البيانية الثانية، وهي تصاحب اللفظ وتنوب عنه، ف((الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط))⁴.

1 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 76.

2 - المصدر نفسه، ص 14.

3 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4 - المصدر نفسه، ص 78.

فالإشارة شريكة اللفظ في إيصال المعنى، وتمتلك القدرة على الإفهام، فهي تنوب عن الكلمة المنطوقة والمكتوبة، وفي مواطن كثيرة تكون أبلغ وأنفع.

- الإقناع :

يربط الجاحظ البلاغة بالإقناع عندما جعل ((جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة))¹، مما يعني أنه اتخذ لبلاغته بعدا إقناعيا جسده من خلال اهتمامه بعنصرين هامين في حصول الإفهام وإنجاح العملية التواصلية وهما المقام والمتلقي.

يقول الجاحظ: ((والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصّواب وإحراز المنفعة، ومع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال))².

فالمعنى لا يتحدّد بمن يُوجّه إليهم، فيكون شريفا إذا وُجّه للشرفاء ويكون دون ذلك إذا وُجّه إلى سواهم، وإنما شرف المعنى لا يتحقّق إلاّ إذا كان صائبا نافعا، مع مراعاة موافقة الحال ومناسبة المقال للمقام. و المقام المرعى هنا هو مقام المتلقي/السامع.

والملاحظ سيطرة التّقسيم الطبقي للمتخاطبين (خاصة/عامة) على التّفكير البلاغي عند العرب وهم يعالجون فكرة مقتضى الحال، فكلام التّاس في طبقات كما أنّ التّاس أنفسهم في طبقات³، ويتّضح ذلك جليا في قول الجاحظ: ((ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكل حال من ذلك مقاما، حتّى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات))⁴. فالجاحظ يدعو صراحة إلى ضرورة معرفة الخطيب بأحوال المخاطبين من جهة، وقدرته على تصريف الكلام وفق حالاتهم

¹ - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 88.

² - المصدر نفسه، ص 136.

³ - جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، ص 22.

⁴ - المصدر السابق، ص 138-139.

والمقامات من جهة أخرى، وذلك من أجل تحقيق الغاية من التواصل، بالنسبة للباحث والمتلقي، وهو حدوث الفهم والإفهام.

أما فيما يخص الاهتمام بالمتلقي/السامع، فقد وجب مراعاته من زاويتين: سياسية واجتماعية. تراعى الأولى من حيث المعاني والألفاظ، ف((لا يُكَلِّم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأنّ ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كلّ واحد منهما من الكلام. وأحسن الذي قال لكلّ مقام مقال))¹. أما الزاوية الاجتماعية فإنها تراعى من حيث الألفاظ؛ بحيث لا تستخدم ألفاظ غريبة غير مفهومة ((فإنّ الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي))².

والغاية من كلّ ذلك إحراز المنفعة وحصول الفهم والإفهام، وبالتالي يبلغ المتكلم رسالته إلى المتلقي الذي يفهم مقصده ويتفاعل معه وينساق إليه، وما يتأتّى ذلك إلا بحصول الإفهام الذي يسعى إليه الخطيب بمراعاة ما يستوجبه ف ((إذا كان الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عمّا يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب))³، وبذلك يكون العسكري قد حدّد حصول المنفعة من الخطاب بمخاطبة المتلقي بالكلام الذي يفهمه وفيما يفهمه دون تجاوز هذه الحدود.

والعسكري والجاحظ يشتركان في أنّ الكلام لكي يكون مقنعا، يتوجّب أن يكون مفهوماً، ولكي يكون مفهوماً يجب على الخطيب أن يحسن التواصل مع المخاطبين وذلك بمراعاة خصوصياتهم التي تُحتم عليه أن يخاطب الناس حسب طبقاتهم، ومستوياتهم الاجتماعية.

¹- أبو هلال العسكري: الصناعتين، تح علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، د. ط، 2013، ص 29.

²- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 144.

³- المصدر السابق، ص 31.

2- الحجاج عند ابن وهب: (ت 335هـ)

عاش ابن وهب في عصر ازدهرت فيه الدراسات المنطقية في الثقافة العربية الإسلامية، وعليه أراد أن يجمع شتات "البيان" وينظم مسأله ليظهره كنظرية عامة في المعرفة، بيانية المضمون والاتجاه ولكنها تخضع للتنظيم المنطقي والعرض المنهجي¹.

وبعد أن تحدث الجاحظ عن الحجاج من خلال تناوله للتواصل الشفوي الممثل في "الخطابة" والتي تتوصل إلى الإقناع من خلال تحقق الفهم والإفهام الذي تراعى فيه جوانب عدّة جاء "ابن وهب" وربط الحجاج بالشر، بل ذهب إلى عدّه واحدا من الأجناس الشرية؛ حيث قال: ((أما المنشور فلا يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلا، أو احتجاجا، أو حديثا))². ثم حدّد مجاله في ((الاحتجاج على من زاغ من أهل الأطراف))³. والملاحظ أنّ ابن وهب "حدّد مجال الاحتجاج وجعله ضدّ من زاغ، وهذه اللفظة تُحيلنا مباشرة على كلّ ما له علاقة بالانحراف، والابتعاد عن طريق الحق.

- البيان :

ألّف ابن وهب كتابا أسماه "البرهان في وجوه البيان"، وهذا العنوان يوحي بأنّ البيان عنده متعدّد، وله أوجه مختلفة، وهو في مصنّفه هذا، يسعى للإحاطة بالجوانب المختلفة للبيان، وكأنّه بمحاولته هذه، يتجاوز النقص الذي ظهر فيما سبقه من المصنّفات، وخاصّة مصنّف "البيان والتبيين" الذي أشار إليه في مقدمة كتابه.

حدّد ابن وهب وجوه البيان بقوله: ((البيان على أربعة أوجه، فمنه بيان الأشياء بذواتها، وإن لم تبين بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللّب، ومنه البيان الذي هو باللسان، ومنه البيان بالكتاب، وهو الذي يبلغ من بعد أو غاب))⁴. فالوجوه الأربعة للبيان هي بيان الاعتبار وبيان الاعتقاد وبيان العبارة وبيان الكتاب. وفيما يأتي سنوضّح هذه الوجوه كما وردت لديه:

¹ - محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ص 33.

² - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تح أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط 1، مكتبة الرشد، بغداد، 2012، ص 191.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - المصدر نفسه، ص 60.

1- بيان الاعتبار: وهو بيان الحال، حال الكائنات والأشياء ومشاهد الطبيعة، وتأثيرها على إدراك الإنسان¹، فـ((الأشياء تبين بذواتها لمن تبين، وتعبر معانيها لمن اعتبر، وإنّ بعض بيانها ظاهر، وبعضه باطن))²، وبذلك فقد جعل الظاهر ما أدرك بالحسّ وبفطرة العقل الذي تتساوى العقول فيها، والباطن ما غاب عن الحس واختلفت العقول في إثباته ولذلك يحتاج أن يستدلّ عليه بضروب الاستدلال وهما: القياس والخبر.³

2- بيان الاعتقاد: وهو الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر، ((وهذا البيان على ثلاثة أضرب:

فمنه حقّ لا شبهة فيه، ومنه علم مشتبه يحتاج إلى تقويته بالاحتجاج فيه، ومنه باطل لا شكّ فيه))⁴. وبذلك يذهب إلى أنّ ما يتبين للنفس بعد إعمال العقل لا يخرج عن ثلاثة أوجه: حقّ جليّ وباطل جليّ ومشتبه يحتاج إلى التدليل عليه.

3- بيان العبارة: خصّه بمجال أوسع في الكتاب، وقد اعتبره تارة بيان اللسان وأخرى بيان القول. و جعله صنفين: بيان ظاهر لا يحتاج إلى تفسير، وبيان باطن يتوصّل إليه بالقياس والتّظر والاستدلال والخبر.⁵

4- بيان الكتاب: وهو لا يقتصر عنده على الشّاهد فقط بل يعمّ نفعه الشّاهد والغائب، وقد صنّف هذا البيان باعتبار المختصين في كلّ فنّ منه، إلى خمسة أصناف: كاتب خطّ وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير.⁶

استند بيان ابن وهب إلى الاستدلال والإقناع، ومن ثمّ ارتبطت بلاغته بالاتجاه الخطابي، ويمكن تلمس الصّفة الإقناعية في دفاعه عن البيان المعرفي؛ حيث اعتبر أنّ وجوه البيان تشفّ عن العملية العقلية وتعكس

¹- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، ط 1، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان ومنشورات الاختلاف، الجزائر ودار الأمان الرباط، المغرب 2013، ص 69.

²- ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 73.

³- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴- المصدر نفسه، ص 101.

⁵- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 69.

⁶- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

نشاطها . فالتناس يدركون الوجود ومشاهده عن طريق العقل والحواس (الاعتبار) ثم يختزلون هذه المعارف، فتركز في نفوسهم لتصبح اعتقادا ينقلونه إلى غيرهم بالعبرة والكتابة، فيحققون بذلك تداوله¹.

اهتمّ ابن وهب في مشروعه البياني بالقياس والجدل، وفيما يأتي سنقف عند هذين العنصرين لمعرفة الحدود التي رسمها لهما ابن وهب، وتحديد الدور الذي ينهضان به في العملية الإقناعية.

- القياس:

يعدّ القياس ركيزة أساسية من ركائز الخطاب، فلا يوجد خطاب إلا ويستعين به ليقنع المتلقي أو يؤثر فيه، أو ينقل إليه تصوّراته وتخيّلاته، وأحيانا ليخدعه ويغالطه، لهذا عدّ القياس وسيلة خطيرة لمن لا يحسن استعماله، أو يسيء فهمه وينخدع بنتائجه².

وقد عرفه ابن وهب بقوله: ((القياس في اللّغة التمثيل والتشبيه، وهما يقعان بين الأشياء في بعض معانيها لا في سائرهما، لأنه ليس يجوز أن يُشبه شيء شيئا في جميع صفاته فيكون غيره))³. فهذا التعريف اللّغوي يجعل القياس قرينا للتمثيل والتشبيه، وينفي عنه الكليّة التي تؤدي إلى المساواة لأنّ الشيء إذا ماثل أو شابه غيره، في كلّ الجهات وقعت المطابقة.

ويشرح ابن وهب طريقة المقايسة فيقول: ((وليس يجب القياس إلاّ عن قول يتقدّم فيكون القياس نتيجة ذلك ... وربما كان ذلك في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتّجه من افهام المخاطب. فأما أصحاب المنطق فيقولون: إنه لا يجب قياس إلاّ عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق، والقول على الحقيقة كما قالوا، وإنما يكتفى في لسان العرب بمقدمة واحدة على التوسع وعلم المخاطب))⁴. من خلال ما تقدم نستنتج أنّ القياس ينتج عن مقدمة أو أكثر تُفضي إلى نتيجة، وأنّ القياس يختلف باختلاف مجال اشتغاله فقياس البيانيين يختلف عن قياس المناطقة.

¹-عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 69.

²-علي محمد علي سلمان: الحجاج عند البلاغيين العرب ضمن كتاب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 22.

³-ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 76.

⁴-المصدر نفسه، ص 77-78.

والقياس على هذا نوع من الاستدلال، فكما يُستدل بالخبر لإيقاع التصديق والإقناع، فكذلك يُستدل بالقياس، والقياس عند البيانين لا يعني بالضرورة استخراج نتيجة لازمة عن مقدمتين كما هو في القياس الأرسطي.¹

وُصِّفَ النتائج، في القياس، بحسب مقدماتها ((إحداها: ما صدر عن قول مسلم في العقل لا خلاف فيه، فتكون النتيجة عنه برهانا ... والأخرى: ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه فتكون النتيجة عنه إقناعاً... وصحة هذه النتيجة إنما تقع بالاحتجاج لمقدمتها حتى يعترف بها من لا يعترف ثم تصح. والثالثة ما صدر عن قول كاذب وُضع للمغالطة... وهذا باطل)).²

يتضح من خلال هذا القول أنّ ابن وهب جعل النتائج تنبني على المقدمات وبالتالي يتحدّد نوع القياس. فما بُني على المسلمات المتفق عليها فهو البرهاني، وما بُني على المشهورات المختلف فيها، والتي تحتاج إلى الاحتجاج لها فهو الإقناعي، وما بُني على قول كاذب فهو باطل لا محالة.

- الجدل :

استعمل ابن وهب لفظي الجدل والمجادلة بمفهوم واحد فقال: ((وأما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين. ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، والتنصل في الاعتذارات، ويدخل في الشعر وفي النثر)).³ فهذا القول يضبط مفهوم الحجاج، ويحدّد مجال استعماله، أما من حيث المفهوم فقد جعل الخلاف أساس الجدل، وغايته إقامة الحجّة، وأما من حيث المجال، فإن مجالاته تتعدّد بين دينية، وقضائية، وأدبية.

¹ -علي محمد علي سليمان: الحجاج عند البلاغيين العرب ضمن الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 22.

² -ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 78.

³ -المصدر نفسه، ص 222.

والجدل عنده نوعان : جدل محمود ، وهو الذي يقصد به الحق ، ويستعمل فيه الصدق ، ومدحه القرآن الكريم . وجدل مذموم وهو ما أريد به الممارسة والغلبة وطلب به الرياء والسمعة ولذلك ذمه القرآن الكريم ونهى عنه¹.

وقد أفرد في كتابه باباً أسماه "أدب الجدل" جمع فيه جملة من الضوابط والأخلاقيات التي ينبغي للمتجادلين أن يخضعوا لها حتى لا يحميد بهم الجدل عن طريق الحق . ومن بين ما ذكره²:

- أن يجعل المجادل قصده الحق، وتبعيته الصواب.
- الأولى بالمجادل أن يبني مقدماته مما يوافق الخصم عليه ، وذلك لإلزامه الحجّة من قوله.

فالمجادل الذي يقوم على مقدمات مشهورات ، يراد منه اقناع الخصم ، وإلزامه الحجّة.

- الجدل خطاب تعليلي إقناعي ، إذ يقع في العلة من بين سائر الأشياء المسؤول عنها.
- أن لا تدفعه قوته، وثبات حجته إلى إثبات الشيء ونقيضه، ويشرع في الاحتجاج له ولضده لأن ذلك مما يذهب ببهاء علمه ، ويطفئ نور فهمه ، وينسبه به أهل الورع والديانة إلى الإلحاد وقلة الأمانة .
- ألاّ يقلّد الحكم الفاضل في كلّ ما يأتي به.
- ألاّ يتعصّب للآباء، ويعتزل الهوى فيما يريد إصابة الحقّ فيه.
- لا يقبل قولاً إلاّ بحجّة ولا يردّه إلاّ لعلّة.
- أن يتجنّب الكذب في قوله وخبره، لأنه خلاف الحقّ، وإنما يريد بالجدال إبانة الحقّ وإتباعه.

وأخلاقيات الجدل عند ابن وهب تشبه تماماً أخلاقيات الجدل عند فلاسفة اليونان ، لأنّ الغاية من الجدل هي الظفر بالحقّ والالتزام به ، وهي غاية تنكّب لها السوفسطائيون من قبل³ . وبذلك لم يترك ابن وهب الجدل أسير أهواء النفس، بل قيده بضوابط وحدود تمنعه من الحياد عن الغاية التي ينهض بها وهي إحقاق الحقّ وإبطال الباطل باعتماد الحجج المقنعة.

¹ - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان ، ص 222.

² - للتوسع أكثر انظر: ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 235 وما بعدها.

³ - علي محمد علي سليمان: الحجاج عند البلاغيين العرب ضمن الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 20.

3- الحجاج عند السكاكي (ت 626هـ) :

بعد أن تعرفنا على أوجه البيان المختلفة التي أقرها ابن وهب، وبعد أن وقفنا على مشروعه البياني الذي بناه على القياس والجدل، ننتقل إلى السكاكي الذي كان اهتمامه بالحجاج، هو الآخر، واضحاً من خلال اهتمامه بعنصرين هامين تساهم المعرفة بهما في عملية الإقناع إلى حد بعيد وهما: المقام والمتلقي (المستمع)؛ حيث ركزت بلاغة السكاكي على المقام والمستمع وجعلتهما مدار علم البيان والمعاني، ذلك أن الكلام تحدده طبيعة المقام وفعالية القول في مناسبه لمقتضى الحال¹.

وفيما يلي نقف مع هذين العنصرين لنستوضح مشروع السكاكي البياني، ونستعرض دور كل واحد منهما في تحقيق الإقناع الذي هو غاية كل عملية تواصلية.

- المقام:

اهتم السكاكي بالمقام؛ حيث خصّ عبارة "لكل مقام مقال" بمتابعته البلاغية، وجعل المقامات تتعدّد وتحكّم في نوع المقال مثلما يتضح من قوله: ((لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام التهيب، ومقام الجدّ في كلّ ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغيّر مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغيّر مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغيّر مقام الكلام مع الغبي، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر))².

وعليه، فالسكاكي جعل المقامات مختلفة (الشكر-الشكوى-التهنئة-التعزية...) وكلّ مقام يتطلّب ما يناسبه من كلام، وأنّ طريقة بناء الكلام هي التي تحدّد الغاية منه، ذلك أنّ الإثبات غير النفي والإخبار غير السؤال وغيرها، كما أنّ الحالة العقلية للمخاطب تتحكّم في الكلام أيضاً. والغاية من مراعاة المقام هي إجراء الكلام بما يتطلّبه هذا المقام لتحقيق الغاية من الكلام.

¹- عبد اللطيف عادل: بلاغة الحجاج في المناظرة، ص 76.

²- أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هنداوي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011، ص 256.

- المخاطب :

اهتمّ السكاكي في بلاغته بالمخاطب لأنّ مُراعاته تساهم في إنجاح العملية التواصلية، فبقدر حاجة المخاطب/المستمع تكون صيغة القول لأنّ الغاية من الكلام هي الإفادة لذلك يتوجب على المتكلم ((إذا اندفع في الكلام مُخبراً، لزم أن يكون قصده في حكمه بالمسند للمسند إليه في خبره ذاك، إفادته للمخاطب

متعاطياً مناطها بقدر الافتقار))¹. وعليه فهو يحدّد المقصد من العملية الإخبارية بإفادة المخاطب إفادة تنبني على مدى حاجته إليها وافتقاره إلى معرفته لها. وقد قسّم الكلام بحسب تمام المراد منه إلى قسمين :

1. كلام خبري يروم إخبار السامع عن أمر أو شيء.

2. كلام طلبي يقوم على استدعاء مطلوب منه.²

وفي تفصيله لاعتبارات الإسناد الخبري، قسّم الخبر إلى ابتدائي وطلبي وإنكاري، وكلّ خبر يوجّه إلى مخاطب محدّد، فالخبر الابتدائي يُلقى ((إلى من هو خالي الذهن عمّا يلقي إليه))³. وفي هذه الحالة يكون المخاطب جاهلاً لمضمون الخبر فينقل إليه الخبر مجرداً سواء أكان نفيًا أو إثباتًا. أما في حال الجملة الخبرية فالأمر يختلف ف ((إذا ألقاها إلى طالب لها، متحيّر طرفاها عنده دون الاستناد، فهو منه بين بين، لينقذه من ورطة الحيرة، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة، أو إنّ، كنحو: لزيد عارف، أو إنّ زيدا عارف. وسمّي هذا النوع من الخبر: طلبياً))⁴. فالخبر الطلبي يتوجّه به إلى مخاطب شاك ومتردّد في مضمون الخبر الذي يحمل إليه⁵، لذلك فمجرد الخبر لا يكفي وإنما يحتاج إلى تأكيده باستعمال أداة من أدوات التوكيد. أما الجملة الخبرية الإنكارية ف ((إذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه، ليردّه إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، كنحو: "إني صادق" لمن ينكر صدقك إنكاراً، و"إني

¹ - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 258.

² - عبد اللطيف عادل: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 77.

³ - المصدر السابق، ص 258.

⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - عبد اللطيف عادل: بلاغة الحجاج في المناظرة، ص 77.

لصادق "لمن يبالغ في إنكار صدقك"¹، وعليه فالخبر الإنكاري مقصده مخاطب منكر جاحد، يحتاج كي يتبدد إنكاره للاستعانة بأكثر من مؤكد.²

ومما سبق يتضح أن الإسناد الخبري يتحدّد حسب طبيعة المخاطب الذي يتوجه إليه بالكلام؛ بحيث تتحكّم حالته من خلوّ الذهن والشك والإنكار في تحديد نوع الخبر الذي يلقي إليه: ابتدائياً أو طلبياً أو انكارياً.

- البيان :

يعرّف السكاكي البيان بقوله: ((وأما علم البيان: فهو إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحتز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه))³. فغاية هذا العلم عملية نفعية وهي الاحتراز من الوقوع في الخطأ شأنه في ذلك شأن علوم الصّرف والنحو والمعاني*، التي يتوخّى من خلالها الاحتراز من الوقوع في الخطأ الذي من شأنه أن يفسد المعنى.

وينهض علم البيان بـ"مطابقة الكلام لتمام المراد منه" وذلك بدراسته الصّيغ أو التعابير التي تختلف، زيادة ونقصاناً، في وضوح الدلالة على المعنى الواحد. وهذا الاختلاف لا يكون في الدلالات الوضعية بل في الدلالات العقلية. يقول السكاكي: ((إنّ محاولة إيراد المعنى الواحد، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، والنقصان بالدلالات الوضعية غير ممكن. فإنّك إن أردت تشبيه الحدّ بالورد في الحمرة مثلاً، وقلت: حدّ يشبه الورد، امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح أو أنقص، فإنّك إذا أقمت مقام كلّ كلمة منها ما يرادفها، فالسامع، إن كان عالماً بكونها موضوعة لتلك المفهومات، كان فهمه

¹ - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 258-259.

² - عبد اللطيف عادل: بلاغة الحجاج في المناظرة، ص 77.

³ - المصدر السابق، ص 249.

* - لقد عرف السكاكي علم الصّرف بقوله: ((هو تتبع اعتبارات الواضع في وضعه من جهة المناسبات والأقيسة)). المصدر نفسه، ص 42، ويعرّف علم النحو بقوله: ((هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحتز بما عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية)) المصدر نفسه، ص 125. أما علم المعاني فعرّفه بقوله: ((هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحتز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)) المصدر نفسه، ص 247.

منها كفهمة من تلك، من غير تفاوت في الوضوح، وإلا لم يفهم شيئا أصلا، وإنما يمكن ذلك في الدلالات العقلية، مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان ولثالث، فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به، فمتى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفائه، صحح في طريق إفادته الوضوح والخفاء¹.

فموضوع علم البيان إذن الصيغ التي لا تقف عند دلالتها الوضعية بل تتجاوزها إلى دلالات عقلية. ولما كان هذا التجاوز في المعنى الوضعي إلى المعنى العقلي يتم عن طريق اللزوم العقلي أو الإعتقادي، كان مرجع علم البيان هو "اعتبار الملازمات بين المعاني"²، وفي ذلك يقول السكاكي: ((وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية، وهي: الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه، ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني))³.

إنّ الملازمة بين المعاني تتم من جهتين، جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم، وجهة الانتقال من لازم إلى ملزوم، فيكون من الجهة الأولى المجاز ومن الثانية الكناية؛ حيث ((إنّ المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم، كما تقول: رعينا غيثا، والمراد لازمه، وهو التبت، وقد سبق أنّ اللزوم لا يجب أن يكون عقليا بل إن كان اعتقاديا، إما لعرف أو لغير عرف صحّ البناء عليه، وإما نحو قولك: أمطرت السماء نباتا، أي غيثا من المجازات المنتقل فيها من اللازم إلى الملزوم، فمنخرط في سلك: رعينا الغيث))⁴. أما الجهة الثانية فهي الكناية و((ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم، كما تقول: فلان طويل النجاد، والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد، فلا يصر إلى جعل النجاد طويلا أو قصيرا، إلا لكون القامة طويلة أو قصيرة))⁵.

ويرجع القول بقيام الصورة البيانية على فكرة اللزوم أو الانتقال من المعنى الوضعي إلى المعنى العقلي إلى عبد القاهر الجرجاني؛ حيث قال: ((الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن "زيد" مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: "خرج زيد"، وبالانطلاق

¹-السكاكي:مفتاح العلوم،ص 437.

²-جميل عبد المجيد:البلاغة والاتصال،ص 162.

³-المصدر السابق،ص 438.

⁴-المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

⁵-المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطلق"، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض¹.

فالدلالات العقلية تقوم على الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، وهو ما جعل الجرجاني يميّز بين المعنيين باستعمال مصطلح "معنى المعنى"؛ حيث يقول: ((ههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و"معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر))².

وإلى هذا المسلك الاستدلالي أرجع كل من عبد القاهر والسكاكي مزية الصورة البيانية. يقول السكاكي: ((اعلم أن أرباب البلاغة، وأصحاب الصياغة للمعاني، مطبقون على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة وأنّ الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر. والسبب في أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة هو ما عرفت أنّ مبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، فأنت في قولك: "رعينا الغيث" ذاكرة الملزوم: النبت، مريدا به لازمه، بمنزلة مُدّعي الشيء بيّنة، فإنّ وجود الملزوم شاهد لوجود اللازم، لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم، لأداء انفكاكه عنه، إلى كون الشيء ملزوما، غير ملزوم باعتبار واحد، وفي قولك: "رعينا النبت"، مدع للشيء لا بيّنة، وكم بين ادعاء الشيء بيّنة، وبين ادعائه لا بها))³. فمزية الأسلوب البياني ترجع إلى ادعائه أمرا ما مصحوبا بالدليل أو البيّنة، مما يكشف تصوّر السكاكي للبيان الذي اعتبره "دعوى الشيء بيّنة"⁴.

علاقة البيان بالاستدلال :

لعلّ ما أثبتته السكاكي من تعريف للاستدلال وشرح لصور الاستدلال الذي جمَلته خبريتان أكثر ما

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز. شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، ط 1، دار الجيل، بيروت، 2004، ص 262.

² - المصدر نفسه، ص 263.

³ - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 523.

⁴ - جميل عبد الحميد: البلاغة والاتصال، ص 164.

يوضح الصلة الوثيقة بين البيان والاستدلال¹. وقد عرّف السكاكي الاستدلال بقوله: ((هو اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ، أو نفيه عنه، بواسطة تركيب جمل، وقولي: بواسطة تركيب جمل، تنبيه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إباء أن يُسمّوا الجملة الواحدة حجّة واستدلالاً، مع اكتساب إثبات ونفي بواسطتها))².

فموضوع أو غرض الاستدلال واحد، وهو الإثبات والتّفي، بيد أن ثمة اختلافاً بين الاستدلال اللّغوي والاستدلال المنطقي من حيث الكم، فبينما الإثبات أو النفي يتحقّق في اللّغة بجملة واحدة فإنهما في المنطق لن يتحقّقا إلاّ بجملتين على الأقل (مقدمة كبرى، مقدمة صغرى)³.

والجملة الواحدة البيانية (تشبيه - استعارة - كناية) هي - فيما تثبت أو تنفي - بمثابة مقدمة كبرى طرفاها هما طرفا الصورة البيانية، وعلى هذه الجملة أو المقدمة يبنى السامع جملة أخرى هي بمثابة المقدمة الصغرى مبتدؤها المشبه به أو المستعار أو المكنى به، وخبرها لازم من لوازمه بحكم العقل أو الاعتقاد، ومن ثم يتوصل السامع إلى جملة ثالثة مبتدؤها مبتدأ الجملة الأولى (المشبه - المستعار له - المكنى له) وخبرها خبر الجملة الثانية، أي يتوصل إلى (استنتاج) باصطلاح المناطقة، أو (معنى المعنى) باصطلاح عبد القاهر الجرجاني أو (دلالة عقلية) باصطلاح السكاكي⁴.

وإذا وافقنا السكاكي فيما ذهب إليه من عدّد الصورة البيانية مقدمة كبرى تؤدي في نهاية الأمر إلى استنتاج ما يجعل البيان ضرباً من ضروب الاستدلال، فإنه يجب الانتباه إلى فارق جوهري بين الاستدلال الذي يقيمه البيان والاستدلال الذي يقيمه المنطق، فإن الأخير ينطلق من مقدمة كبرى هي من قبيل الحقائق أو الوقائع أو المسلّمات أو المرّحّحات، بينما الصورة البيانية المعدّة من مقدمة كبرى ليست من هذا القبيل، بل هي من قبيل التخيلات التي من شأنها عدم التقيد بواقع أو حقيقة. وعلى هذا يختلف الاستنتاج في كلا الاستدلالين فهو في الاستدلال المنطقي استنتاج معقول، بينما هو في الاستنتاج البياني استنتاج مخيل⁵.

¹-جميل عبد الحميد: البلاغة والاتصال، ص 165.

²-السكاكي: مفتاح العلوم، ص 548.

³-المرجع السابق، ص 165.

⁴-المرجع نفسه، ص 166.

⁵-المرجع نفسه، ص 168.

واستنادا إلى كل ما سبق، يمكننا القول إنّ المشروع البياني عند السكاكي قد راعى فيه جانبيين هما المقام والمخاطب ومراعاتهما من شأنها أن تُنجح العملية التواصلية وبالتالي يحدث الإقناع. أما حجاجية البيان فتتجلى عنده من اعتبار الصورة البيانية (التشبيه-الاستعارة-الكناية) استدلالا تشكّل الصورة البيانية فيه المقدمة الكبرى، في حين يتشكّل الاستنتاج من المعنى المخيل من هذه الصورة.

4- الحجاج عند حازم القرطاجني (ت 684هـ):

تتجلى اسهامات حازم في الدرس الحجاجي خاصة، من خلال حديثه عن طريقتين يتمّ بواسطتهما التأثير في المتلقي. وقد ذهب إلى اعتبار الحجاج ضربا من ضروب الكلام المختلفة؛ حيث قال: ((لما كان كلّ كلام يحتمل الصدق أو الكذب إمّا أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص وإمّا أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال))¹.

جعل حازم الكلام الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب نوعين: الخبر والاقتصاص، والاحتجاج والاستدلال وبذلك اعتبر الحجاج وجه من أوجه الكلام.

ثم أشار إلى طريقتين من شأنهما أن تنهضان بعملية الإقناع وهما التموهيات والاستدراجات؛ حيث إنّ ((التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتماد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنّه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرّب في احتذائها))². وهنا إشارة إلى القدرة التي يمتلكها المخاطب للتأثير في السامعين، وهي قدرة فيها ما هو فطري في طبع الإنسان ومنها ما هو مكتسب من الدربة والمراس.

وحّد الفرق بين التموهيات والاستدراجات على اعتبار أنّ ((التمويهات تكون في ما يرجع إلى الأقوال. والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستماتته المخاطب واستلطافه له بتزكّيته وتقريظه، أو باطبائه إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه

¹-حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص 62.

²-المصدر نفسه، ص 63.

غير مقبول))¹. فالتمويه يرتبط بالبراعة والتفنن في القول حتى يظهر الشيء على غير حقيقته، بل على الصورة التي يريد إيصالها إلى المتلقي. أما الاستدراج فيكون بمختلف الوسائل التي تنهض بمهمة الإقناع والتأثير كالهيمية، والمدح، والإحراج وغيرها.

ثم فصل في الطرق التي تكون بها التمويهات وهي: طي محل الكذب من القياس على السامع، أو باغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم بصدقها، أو بترتيب القياس على وضع يوهم بصحته، أو بإلهاء السامع عن تفقد موطن الكذب². وكل هذه الطرق تصبّ في المغالطة التي تصنع المنافسة غير الشريفة لكنها تصل بالمخاطب إلى إدراك مبتغاه.

وبهذا تمّت وقفنا التي خصصناها للحديث عن الحجاج عند الدارسين القدامى يونانيين وعرب، وكيف اتخذ كل طرف سبيلا معينة رأى فيها القدرة على التأثير والإقناع. وفيما يأتي نفتح المجال لتعرّف على جهود الدارسين المحدثين في الدرس الحجاجي، ومدى اسهامهم في إنجاح العملية التواصلية.

¹ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 64.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المبحث الثالث:

الحجاج عند المحدثين:

كان الحجاج يوناني المنشأ ترعرع في حضن الفلاسفة وأرسيت دعائمهم على يد أرسطو وأعيد له الاعتبار من جديد مع انبعاث البلاغة في القرن العشرين، وكانت له انطلاقة الحقيقية فحاز اهتمام الدارسين الغربيين على اختلاف مشاربهم، وامتدّ صداه إلى الدارسين العرب فشغل مجال اهتمامهم أيضا، وكانت لكلّ هؤلاء الإسهامات الآتية:

1- الحجاج عند الغربيين:

1- الحجاج عند برلمان (Chaim Perelman) (1912-1984) وتيتكا (Lucie Olbrechts-Tyteca) (1899-1987) :

صنّف كلّ من برلمان وتيتكا كتابا بعنوان "مصنّف في الحجاج. البلاغة الجديدة"، وإنّ قراءة تحليلية للعنوان تكشف أنّ الموضوع الذي يتمحور حوله الكتاب هو الحجاج، وما يرتبط به من قضايا، ومن جهة أخرى يربطه بمفهوم آخر هو البلاغة الجديدة مما يجعله يوحي بوجود تطابق بين "الحجاج" و"البلاغة الجديدة"، وأنّ هذا المجال يختلف عن البلاغة القديمة.

1- مفهوم الحجاج:

عرّف برلمان وتيتكا الحجاج بقولهما: ((موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم))¹. ولقد جعلوا للحجاج غاية وحدّادها في ((أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنبجح الحجاج ما وُقّق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (انجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وُقّق على الأقل في جعل السامعين مهيعين لذلك العمل في اللّحظة المناسبة))².

¹-Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumetation. La nouvelle rhétorique. Editions de l'université de Bruxelles, 6 édition, 2008, p 05.

² -Ibid , P59.

يرى عبد الله صولة أنّ المؤلفين، وبهذا التوجّه، يجعلان الحجاج يستند إلى الجدل وإلى الخطابة. أما أثر الجدل فمن حيث هو فن يتوسّل المشهورات أو المسلّمات لإلزام الخصم فيظهر من حديثهما عن التأثير الذهني في المتلقي وعن تسليمه بما يقدّم له وإذعانه إذعانا نظريا مجردا بحاله العقل والإدراك. وأما الخطابة فتظهر من خلال إلحاحهما على فكرة "توجيه العمل" والإعداد له والدفع إليه¹.

وقد نظرا إلى الحجاج من خلال الجمهور الموجّه إليه، وتبعاً لذلك قسّمناه بحسب نوع الجمهور إلى قسمين :

1. الحجاج الإقناعي : وهو يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص .

2. الحجاج الاقتناعي: وهو حجاج يرمي إلى أن يسلم به كل ذي عقل، فهو عام.

لكن، لما كان المؤلفان يردّان كافة أنواع الجمهور إلى نوع واحد هو الجمهور العام، أمكن لنا أن نقول إنّ المؤلفين يجعلان الاقتناع وهو عقلي دائما، أساس الإذعان وأساس الحجاج، وأنّ الإقناع بما هو ذاتي وخاص وضيق، لا يعتدّ به في الحجاج².

وقبل حديثهما عن أنواع الحجج التي تدخل في بنية النصّ الحجاجي حدّدا جملة من العناصر التي

يمكن للمحاجج أن ينطلق منها في بناء حججه، وهي كالآتي:

2-مقدمات الحجاج: وتتمثل في:

1- الوقائع والحقائق : les faits et les vérités

تمثّل الوقائع ((ما هو مشترك بين جميع الناس))³، وهي تشكّل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج لأنّها لا تكون عرضة للدحض أو الشك. وتنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة معاينة من ناحية، ووقائع مفترضة من ناحية أخرى. وهذان النوعان قد يفقدان لسبب أو لآخر طابعهما كوقائع بمعنى حقائق، ولكن من حيث هما وقائع فإنهما يكونان متطابقين مع بني الوقائع التي يسلم بها الجمهور⁴.

أمّا الحقائق فهي أكثر تعقيدا من الوقائع. وتقوم على الرّبط بينها. ومدارها على نظريات علمية

¹ - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 28.

² - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ط 1، الشركة التونسية للنشر، تونس، 2011، ص 15.

³ - Chaim Perelman et L.O. Tyteca, Traité de L'argumentation, p89.

⁴ - المرجع السابق، ص 24.

أو مفاهيم فلسفية أو دينية . وقد يعتمد الخطيب إلى الرّبط بين الوقائع والحقائق من حيث هي موضوعات متفق عليها ليحدث موافقة الجمهور على واقعة معينة غير معلومة¹.

2- الافتراضات : Les présomptions

وهي أحكام قبلية أو آراء متصورة سلفاً، وتكون موضع موافقة عامة، إلا أنّ التجاوب معها لا يصل حدوده القصوى إلا إذا قوّاه المسار الحجاجي² . والافتراضات إنما تحدّد بالقياس إلى العادي أو المحتمل، وهما يتغيران بتغير الحالات³ .

3- القيم : Les valeurs

إنّ القيم عليها مدار الحجاج بكل ضروبه، وهي التي يعوّل عليها في جعل السامع يذعن لما يطرح عليه من آراء . وهي نوعان : قيم مجردة وقيم محسوسة، فالمجردة من قبيل العدل والحق والمحسوسة من قبل الوطن والكنيسة⁴.

4- الهرميات : Les hiérarchies

القيم ليست مطلقة، وإنما هي خاضعة لهرمية ما. فالجميل درجات وكذلك النافع. والهرمية نوعان: مجردة مثل اعتبار العدل أفضل من النافع، ومادية محسوسة كاعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان، والإله أعلى درجة من الإنسان. وتعتبر هرمية القيم في البنية الحجاجية أهمّ من القيم نفسها. فالقيم، وإن كانت تسلم بها جماهير سامعين عدّة، فإنّ درجة تسليمها بها تكون مختلفة من جمهور إلى آخر. وهو ما يعني أنّ القيم درجات وليست كلّها في مرتبة واحدة. إنّ ما يميّز كلّ جمهور ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما تميزه طريقة ترتيبه إياها⁵.

5- المعاني أو المواضع : Les lieux

اعتبر شيشرون في كتابه "المواضع" أنّ المعاني أو المواضع عبارة عن مخازن للحجج أو مستودعات حجج⁶ .

¹ - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 24.

² - Ch.Perelman et L.O.Tyteca, Traité de L'argumentation, p 93-94.

³ - المرجع السابق، ص 25.

⁴ - المرجع نفسه، ص 26.

⁵ - Ibidem , p109.

⁶ - Ibid , p 112.

وتنقسم المواضيع إلى مواضع مشتركة أو مبتدلة يمكن تطبيقها على علوم مختلفة مثل القانون والفيزياء كموضوع الأكثر والأقل، ومواضع خاصة تكون وفقا على علم بعينه أو نوع خطابي بعينه لا يتعداه إلى غيره. كما أنّ المواضيع تحدّد خصائص الأمم والجماعات الفكرية والأدبية وغير ذلك¹، وللمواضع أنواع منها: مواضع الكم ومواضع الكيف وغيرها.

3-أنواع الحجج:

اشتمل "مصنّف في الحجاج" على أنواع مختلفة من الحجج، وقد صنّفت في ثلاثة مجموعات كبرى، تندرج تحت كلّ صنف مجموعة من الحجج، وفيما يأتي سنعمد إلى عرض هذه الحجج بالتفصيل لأننا سنسني دراستنا في الفصل الرابع على هذه التصنيفات، وهذه الحجج هي:

1-الحجج شبه المنطقية :

عرّف برلمان هذه الحجج بقوله: ((إنّها حجج تدّعي قدرا محدّدا من اليقين من جهة أنها تبدو شبيهة بالاستدلالات الشكلية المنطقية أو الرياضية، ومع ذلك فإنّ من يخضعها إلى التحليل ينتبه في وقت قصير إلى الاختلاف بين هذه الحجج والبراهين الشكلية لأنّ جهدا يُبدل في الاختزال أو التدقيق فحسب-يكون ذا طبيعة لاصورية-يسمح بمنح هذه الحجج مظهرا برهانيا، ولهذا السبب ننعتهما بأنّها شبه منطقية))². وتنقسم هذه الحجج إلى ما يأتي:

1-الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية :

1-التناقض وعدم الاتفاق:

يكون هناك تناقض إذا كان هناك قضيتان في نطاق مشكلتين، إحداهما نفي للأخرى ونقض لها. أما عدم الاتفاق فيكون لَمّا نضع ملفوظين أمام الظروف و المقام من أجل اختيار إحدى القضيتين وإقصاء الأخرى³.

¹ -Traité de L'argumentation, p114.

²-Ibid ,p 259.

³-Ibid ,p270.

فالتناقض الصارخ نادر جدا في الحجاج لكنّ الخطاب الحجاجي يحتفل احتفالا واضحا بعدم الاتفاق¹.

2- التماثل والحد :

التماثل التام مداره على التعريف من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرف والمعرف وليس المعرف تمام المعرف على الحقيقة لهذا سمّي الحجاج من هذا القبيل حجاجا شبه منطقي فقولنا على سبيل المثال :
الرجل رجل أو الأب يبقى دائما أبا .

وهو من قبيل تحصيل الحاصل ، فمعنى المعرف هو نفسه معنى المعرف لهذا قيل عن مثل هذه القضايا إنّ أحد ركنيها أو لفظيها ورد على وجه الحقيقة والآخر على وجه المجاز².

إنّ تحديد الموجودات والأحداث والمفاهيم لا يقوم على الاعتبار أو البداهة، بل هو قائم على التبرير الحجاجي . ذلك لأنّ التعريف يحرّك العملية الاستدلالية ويقدم اختيارات دون أخرى ، كما يشكّل حكما على الأشياء أو تقويها لها³.

3- الحجج القائمة على العلاقة التبادلية وعلى قاعدة العدل :

تتمثل هذه الحجج في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة، وهو ما يعني أنّ الوضعيتين متماثلتان وإن بطريقتين غير مباشرة ، وتماثلهما ضروري لتطبيق قاعدة العدل⁴ . وقاعدة العدل هي تلك القاعدة التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلية في مقولة واحدة⁵.

4- حجج التعدية :

يقول برلمان : ((إنّ التعدية خاصية شكلية تتصفّ بها ضروب من العلاقات التي تُتيح لنا أن نمر من إثبات أنّ العلاقة الموجودة بين (أ) و(ب) من ناحية و(ب) و(ج) من ناحية أخرى، هي علاقة واحدة

¹ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية حتى القرن الثاني للهجرة. بنيتة وأساليبه، ط 1، عالم الكتب الحديث ،إربد،الأردن 2008،ص 192 .

² - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 44-45.

³ - عبد اللطيف عادل: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 92-93.

⁴ - Traité de L'argumentation ,p297.

⁵ - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 45.

إلى استنتاج أنّ العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين (أ) و(ج)، وضروب العلاقات التي تقوم على خاصية التعدية هي خاصية التفوق والتضمن¹.

وتعدّ من أهم علاقات التعدية ذات الصبغة الحجاجية علاقة التضمّن، وهي العلاقة المنطقية التي تبين أنّ قضية ما تتضمنّ قضية أخرى. ويبدو هذا خاصّة في الاستدلال القياسي القائم أساسا على التعدية في القياس الخطابي الذي يسميه أرسطو ضميرا ويسميه كائليان قياسا ظنيا. فالضمير ليس من بعض الوجوه حسب برلمان إلاّ حجّة أو دليلا شبه منطقي يقدّم في شكل قياس ويؤدي إلى ظهور علاقة التعدية من قبيل:

قضى سقراط نجبه لأنه إنسان .

النتيجة المسكوت عنها: كلّ إنسان فان.²

2- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

1- إدماج الجزء في الكلّ:

ينطلق الحجاج في هذه الحالة من مقولة: "ما ينطبق على الكلّ ينطبق على الجزء"³. وتكون العلاقة في إدماج الجزء في الكلّ منظور إليها عادة من زاوية كميّة، فالكلّ يحتوي الجزء وتبعاً لذلك فهو أهمّ منه، وهو ما يجعل هذا الضرب من الحجاج في علاقة بموضع الكم أو معاني الكم⁴.

2- تقسيم الكلّ إلى أجزائه:

إنّ تصوّر الكلّ على أنه مجمل أجزائه تُبنى عليه طائفة من الحجج يمكن تسميتها حجج التقسيم أو التوزيع. إنّ الشرط في استخدام الحجّة القائمة على التقسيم استخداما ناجحا هو أن يكون تعداد الأجزاء شاملا يقول كائليان في ذلك: "إن نسقط عند تعدادنا الأجزاء فرضية واحدة، يهوي صرحنا الحجاجي كلّه ونصبح أضحوكة للجميع"⁵.

¹ - Traité de L'argumentation, p305.

² - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 47.

³ - Ibidem, p 312.

⁴ - المرجع السابق، ص 48.

⁵ - Ibidem, p316.

والغاية الأساسية من الحاجة بالتقسيم حسب برلمان هي البرهنة على وجود المجموع ومن ثمة تقوية الحضور بمعنى إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه¹.

2- الحجج المؤسسة على بنية الواقع :

إنّ الحجج القائمة على بنية الواقع تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلّم بها وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة مسلّمًا بها. وذلك يجعل الأحكام المسلّم بها والأحكام غير المسلّم بها عناصر تنتمي إلى كلّ واحد يجمع بينها؛ بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر ومن هنا جاء وصفها بكونها حججا اتصالية أو قائمة على الاتصال.

إنّ الحجج التي تعتمد فيها بنى الواقع لا تصف الواقع وصفا موضوعيا وإنما هي طريقة في عرض الآراء المتعلقة بهذا الواقع ويمكن أن تكون هذه الآراء وقائع أو حقائق أو افتراضات².

1- وجوه الاتصال التابعي :

ويقوم هذا النوع من الحجج على الوصل بين الحجة والنتيجة، ويندرج ضمنها:

- الوصل السببي: للوصل السببي ثلاثة ضروب من الحجاج، وهي :
- حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي مثل: اجتهد فنجح.
- حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سبب أحدثه وأدى إليه مثل: نجح لأنه اجتهد.
- حجاج يرمي إلى التكهّن بما سينجر عن حدث ما من نتائج مثل: هو يجتهد فسينجح³.

¹- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 48.

²- المرجع نفسه، ص 49.

³-Traité de L'argumentation, p354.

ومعنى هذا أنّ في الرّبط السببي يكون المرور في الاتجاهين: من السبب إلى النتيجة ومن النتيجة إلى السبب. وفي هذا الإطار يمكن أن نتحدث عما يسميه برلمان الحجّة البراغماتية وحدّ هذه الحجّة أنّها الحجّة التي يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجها الإيجابية أو السلبية. ومن هنا كان للحجّة البراغماتية تأثير مباشر في توجيه السلوك وعدّت من أهم وسائل الحجاج. إنّ مدار هذه الحجّة على تبيين حدث ما بذكر نتائجه فعلى هذا لا يكون المقصود من هذه الحجّة مجرد التثمين بل وتوجيه العمل أيضا¹.

وعليه تكون العلاقات السببية علاقات حجاجية، تربط بين الأحداث وتفسر العلاقة بينها. وغاية هذه الحجّة تقويم الأحداث والأشياء ومعلوم أن التقويم حكم موجه للسلوك والعمل².

2- وجوه الاتصال التواجدي:

1- الشّخص وأعماله :

إنّ الشّخص هو مجمل المعلوم من أعماله، أي هو العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشّخص وبين أعماله التي هي تجليات ذلك الجوهر. ولئن كانت الأعمال تجلو جوهر الشّخص وتفسّره فإنه في المقابل يمكن أن يكون ما نعرفه عن الشّخص هو الذي يفسّر لنا ما غمض من أعماله. فالشّخص هنا ينهض بدور السياق الذي يعين على تأويل العمل، وفي هذه الحالة يلعب القصد أو النية أو الطوية دورا مهما ونعني بالقصد أو النية أو الطوية ما توقّر لدينا من أفكار وآراء سابقة حول الشّخص صاحب العمل. وهكذا فإنّ اللّجوء إلى القصد أو النية يمثّل مناط الحجاج فهو يربط العمل بصاحبه ويعيننا على فهم عمله وعلى إمكان تقويمه. وإذن فإن علاقة الوصل التواجدي لا يتبع الحجاج فيها مسار عمل ← شخص وإنما يتبع فيها أيضا مسار شخص ← عمل، وهو ما أسماه برلمان "التداخل بين العمل والشخص"³.

2- حجّة السّلطة :

تختلف السّلطة في حجّة السّلطة وتعدّد، فقد تكون "الإجماع" أو "الرأي العام" أو "العلماء" أو "الفلاسفة" أو "الكهنة" أو "الأنبياء". وقد تكون هذه السّلط غير شخصية مثل "الفيزياء" أو "العقيدة" أو "الدين" أو "الكتاب المقدّس"، وقد يعمد في الحجاج بالسّلطة إلى ذكر أشخاص معينين بأسمائهم على أن تكون

¹ - عبد الله صولة : في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 50.

² - عبد اللطيف عادل: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 94.

³ - المرجع السابق، ص 51-52.

سلطة هؤلاء جميعا معترفا بها من قبيل جمهور السامعين، في المجال الذي ذكرت فيه . والعادة في الحجاج ألا تكون الحجّة بالسلطة الحجّة الوحيدة فيه وإنما تأتي مكّملة لحجاج يكون غنيا بحجج أخرى غيرها كما أنه كثيرا ما يعتمد إلى الثناء على هذه السلّطة قبل استخدامها حجّة في كلامنا¹.

3-الاتصال الرمزي:

إنّ الوصل الرمزي يقوم على انتقال من الرّمز إلى ما يرمز إليه مثلما ينتقل من العلم إلى الوطن ومن الصليب إلى المسيحية. إنّ ما تثيره هذه الأشياء المادية من عواطف وأحاسيس يعود إلى ما بين الرمز والمرموز إليه من علاقة مشاركة أو تبرير فهذه العلاقة هي التي تثير العاطفة الدينية أو الوطنية في الأمثلة. وعلى هذا يكون للوصل الرمزي وهو ربط تواجدي دور كبير في التأثير في الكائنات التي صنعته وجعلت له دلالة ما.²

3-الحجج المؤسسة لبنية الواقع :

1-تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة :

ومن هذه الحالات :

1-المثل : ويؤتى به في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقدمات. يقول برلمان: ((والمحاجة بواسطة المثل تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القاعدة الخاصة التي جيء بالمثل لتأسيسها))³، ومع ذلك يمكن للمثل أن تبنى عليه قاعدة تكون عامة وتشكل قانونا⁴.

2- الاستشهاد :

إذا كانت الغاية من المثل تأسيس القاعدة فإنّ الاستشهاد من شأنه أن يقوي درجة التصديق بقاعدة ما معلومة وذلك بتقديم حالات خاصة توضّح القول ذا الطابع العام، وتقوّي حضور هذا القول في الذهن كما أنّ الاستشهاد يؤتى به للتوضيح في حين أن المثل يؤتى به للبرهنة ولتأسيس القاعدة، والمثل يكون سابقا

¹ - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 52-53.

² - المرجع نفسه، ص 53.

³ - Traité de L'argumentation. p417.

⁴ - المرجع السابق، ص 54.

للقاعدة في حين يكون الاستشهاد لاحقاً قصد تقوية حضور الحجة وقصد جعل القاعدة المجردة حسية وملموسة¹.

يقول برلمان: ((لما كان الاستشهاد يهدف إلى تقوية حضور الحجة، يجعل القاعدة المجردة ملموسة بواسطة حالة خاصة، فقد نُظر إلى هذا الاستشهاد على أنه صورة²)، ولا يعني بها الصورة البلاغية، وإنما الصورة الحية التي تجعل القاعدة المجردة ملموسة.

3- النموذج وعكس النموذج :

قال برلمان: ((عندما يتعلق الأمر بالسلوك لا يصلح السلوك الخاص لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها فحسب، وإنما يصلح كذلك للحض على عمل ما اقتداء به، ومحاكاة له، ونسجاً على منواله³)، وعليه يكون مدار هذه الحجّة على كائن نموذج يصلح على صعيد السلوك للاقتداء به.

إنّ قيمة الشخص المعترف به مسبقاً يمكن أن تكون مقدمة نستنتج منها نتيجة تدعو إلى توجّي سبيل من السبل، ومثلما لكلّ إنسان نمودجه فللكلّ قطر نمودجه ولكلّ عصر كذلك⁴.

2- الاستدلال بواسطة التمثيل :

يرى برلمان وتيتكاه أن ((التمثيل في الحجاج ينبغي أن تكون له مكانته، باعتباره أداة برهنة، فهو ذو قيمة حجاجية وتظهر قيمته الحجاجية هذه حين ننظر إليه على أنه تماثل قائم بين البني، وصيغة هذا التماثل العامة هي :

إنّ العنصر "أ" يمثل بالنسبة إلى العنصر "ب" ما يمثله العنصر "ج" بالنسبة إلى العنصر "د"⁵.

ولتوضيح هذه الفكرة، أورد برلمان قول بعضهم: ((ما يؤسس أصالة التمثيل وما يميزه من التماثل الجزئي أي ما يميزه من مفهوم المشابهة المبتدل على نحو ما، أنه ليس علاقة مشابهة وإنما هو تشابه علاقة⁶)).

¹ - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 55.

² - Traité de L'argumentation, p484.

³ - Ibid , p488.

⁴ - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 55.

⁵ - Ibidem , p500.

⁶ - Ibidem , p501.

يسمى المؤلفان (أ) و(ب) الموضوع، والعنصرين (ج) و(د) الرافع أو الحامل. وقد جرت العادة أن يكون الرافع أو الحامل أشهر من الموضوع بحيث يأتي ليوضح بنيته العلائقية. ويعدّ التمثيل من الحجاج القائم على الترابط بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة بدءاً، ويشترط فيه أن يكون الموضوع والحامل من ميدانين مختلفين، فإذا كانت العلاقتان بين عنصري الموضوع من ناحية وبين عنصري الحامل من ناحية أخرى تنتميان إلى مجال واحد وتشملهما بنية واحدة لم تسم الظاهرة تمثيلاً وإنما استدلالاً بواسطة المثل أو الاستشهاد؛ بحيث يكون الموضوع والحامل حالتين خاصتين يؤسسان قاعدة أو يدعمانها¹.

وبهذا العرض المفصّل لمختلف الحجج نكون قد أتمنا وقتنا التي خصصناها للحديث عن جهود برلمان وتيتكا في النظرية الحجاجية لننتقل بعدها لعرض جهود تولمين.

2- الحجاج عند تولمين: (Stephen Edelston Toulmin)

أصدر تولمين كتابه "استعمالات الحجاج" سنة 1958، أي في السنة ذاتها التي أصدر فيها برلمان وتيتكا مؤلفهما، السابق الذكر، "مصنف في الحجاج". وإن كان برلمان وتيتكا قد فصلا الحجاج عن الجدل فإنّ تولمين انطلق من مسلمة أنه لا يمكن الفصل بين المنطق والحجاج، على اعتبار أنهما ((ينموان جنباً إلى جنب))²، وبالتالي جعل الحجاج لصيقاً بالمنطق، ولا يمكنه أن يحيا بعيداً عنه. وإن كان قد ربط الحجاج بالمنطق، فإنه يرفض "المنطق الشكلي"، وبذلك فهو يسعى إلى ((إقامة نظرية حجاجية تسعى إلى إعادة تحديد المنطق))³.

¹ - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 57-58.

² - Philippe Breton et Gilles Gauthier, Histoire des Théories de L'argumentation, Editions La Découverte, Paris, 2011, p55.

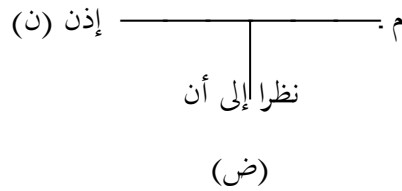
³ - Ibid, p55-56.

وقد جعل تولمين "الحجة" مجموعة متألّفة من الأدلة، تنهض بوظيفة أساسية استدلالية، أما وظائفها الأخرى فتبقى ثانوية¹.

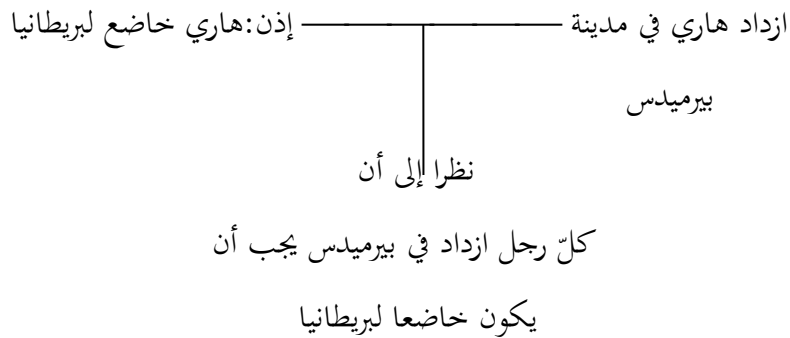
وقام تولمين بتقسيم الحجج إلى خمسة أزواج²:

- 1- حجج تحليلية/حجج مادية
- 2- حجج صحيحة الشكل/حجج غير صحيحة الشكل
- 3- حجج توظّف ضمانات ما/حجج تؤسس ضمانات ما
- 4- حجج تحوي مفردات منطقية/حجج لا تحوي مفردات منطقية
- 5- حجج ضرورية/حجج احتمالية.

ويمكننا فهم تصوره للحجاج من خلال الشكلين الحجاجيين اللذين ضمنهما كتابه المذكور، وهما كما يأتي:
الشكل الأول³:



شكل حجاجي يتم الانتقال فيه من المقدمة (م) إلى النتيجة (ن) باعتبار الضمان (ض)، ولتوضيح ذلك أورد المثال التالي:



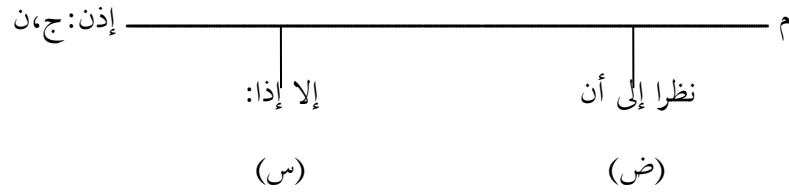
¹ - Philippe Breton et Gilles Gauthier, Histoire des Théories de L'argumentation, p57.

² -Ibid, p59.

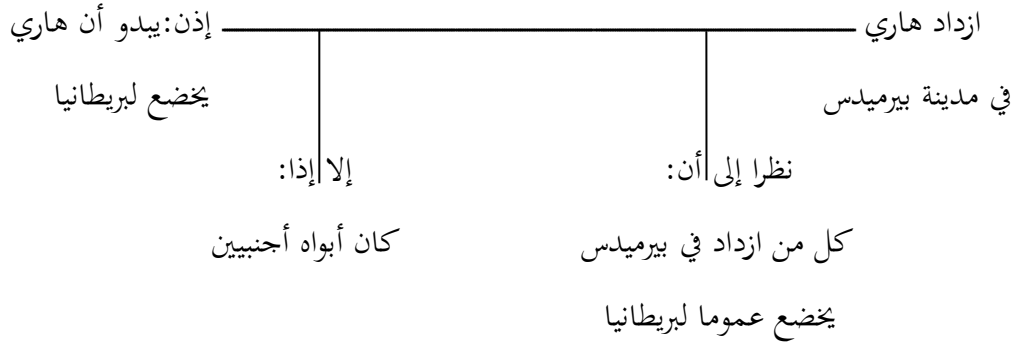
³ -S.E.Toulmin : Les usages de l'argumentation. traduit de L'anglais par Philippe De Brabanter, 1^{er} édition, Presses Universitaires De France, 1993, p122.

الشكل الثاني¹:

نتج هذا الشكل عن تطوير الشكل الأول؛ حيث أضاف إليه تولمين عنصرين جديدين وهما: الموجه والاستثناء، ويرمز لهما على التوالي بـ (ج) و(س)، ويتمثل دورهما في تحديد قوّة الضمان وعلاقته بالعبور من المقدمة إلى النتيجة. وعليه أصبح الشكل كالاتي:



ولتوضيح هذا الشكل قدّم المثال التالي:



لعلّ ما يميّز هذه الأشكال حسب بلونتين، المعطى (م) والنتيجة (ن) والضامن (ض) أو قانون العبور، والفرق بين المعطى والضمان هو أنّ المعطى يكون مصرّحا به، والضمان يكون ضمنيا². فالحجاج حسب تولمين، واستنادا إلى الشكّلين الحجاجيين المقترحين، هو سيرورة منطقية تنطلق من المقدمات ولا تتوقّف إلاّ بالوصول إلى النتيجة، ويتحقّق هذا الانتقال بخضوع السّامع لقانون العبور، الذي اشترط فيه أن يحظى بالمناسبة والمعقولية³.

وقد سُجّلت على هذا التّموذج الحجاجي جملة من الملاحظات⁴ منها:

¹ - S.E.Toulmin :Les usages de l'argumentation, p125.

² - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ص 25.

³ - Ibidem, p120.

⁴ - المرجع السابق، ص 25-26.

- 1- أنّ بناء تولمين لشكله الحجاجي من خلال العناصر الثلاثة (م) و(ن) و(ض) يحيل على الاستدلال الأرسطي في بناء الأقيسة المنطقية على طريقة (مقدمة صغرى-مقدمة كبرى-نتيجة).
- 2- هذا النموذج غير حجاجي، بالمعنى الدقيق للكلمة، وإذا اعتبرنا أنّ الحجاج يرمي دائما إلى إقناع الغير.
- 3- غياب الجمهور.

وإن كانت قد وجهت له ملاحظات فإنها متأتية من ربط الحجاج بالمنطق؛ حيث بدأ مخططه الحجاجي أقرب إلى الاستدلال المنطقي.

3- النظرية الحجاجية عند ديكرود (Oswald Ducrot) وأنسكومبر (J.C. Anscombre)

تختلف هذه النظرية عن النظريات السابقة بناء على الاختلاف في المنطلق الذي تنطلق منه ، فالحجاج في اللغة هي نظرية وضع أسسها اللغوي الفرنسي أرفالد ديكرود منذ 1973 ، وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوقّر عليها المتكلم ، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما ، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية¹.

ومما سبق نستنتج أنّ المتكلم يعمل على التحكم في توجيه خطابه بطريقة تمكنه من تحقيق أهداف حجاجية. وفيما يأتي سنقف عند بعض العناصر، التي نتمكن من خلالها من الكشف عن التصوّر الذي وضعه هذان الباحثان للنظرية الحجاجية، وأول ما ننطلق منه هو تحديدهما لمفهوم الحجاج.

- مفهوم الحجاج:

الحجاج هو أن يقدم المتكلم قولا ق1 (أو مجموعة من الأقوال) موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولا آخر ق2 (أو مجموعة أقوال أخرى) سواء أكان ق2 صريحا أم ضمنيا ، وهذا الحمل على قبول ق2 على أنه نتيجة للحجة ق1 يسمى عمل محاجة².

وعليه يتمثل الحجاج في ((إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية ، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها . إنّ كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أنّ التسلسلات الخطابية محدّدة ، لا بواسطة

¹- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب، بيروت، لبنان، د.ط، 2009، ص 19.

²- شكري المبحوت: نظرية الحجاج في اللغة ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 360.

الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محدّدة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تمّ توظيفها وتشغيلها)).¹

إنّ الحجاج عند هذين الباحثين كامن، من حيث بنيته، في اللّغة ذاتها كما يدلّ عليه عنوان كتابهما لا في ما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية كما هو الشّأن عند برلمان وتيتكا، وبذلك يكونان قد حصرا درس الحجاج في نطاق دراسة اللّغة، لا في البحث عما هو واقع خارجها فإمكانية التتابع الحجاجي عندهما تتحدّد من خلال عمل لغوي مخصوص هو عمل الحجاج.²

-وظيفة الحجاج :

تكمن وظيفة الحجاج الأساسية عند الباحثين في التوجيه حتّى إنّهما حصرا دلالة الملفوظ في التوجيه الناتج عنه. ويحصل هذا التوجيه في مستويين : مستوى السّامع ومستوى الخطاب نفسه خاصة مع ما بين الخطابين من تداخل.³

-الحجاج والاستدلال :

ينتمي هذان المصطلحان إلى مجالين مختلفين مجال المنطق ومجال الخطاب، وعليه فثمة اختلاف بينهما كون الأقوال التي يتكوّن منها استدلال ما، مستقلة بعضها عن بعض، فكلّ قول يعبر عن قضية ما، أي يصف حالة ما، أو وضعا من أوضاع العالم باعتباره وضعا واقعيا أو متخيلا. ولهذا فإنّ تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسّسا على الأقوال نفسها، ولكنه مؤسّس على القضايا المتضمنة فيها، أي على ما تقوله وتفترضه بشأن العالم. أما الحجاج فهو مؤسّس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب.⁴ وما يمكن استنتاجه مما سبق هو أنّ الحجاج يختلف عن الاستدلال فـ((استنادا إلى هذا التمييز بين عمل المحاجة وعمل الاستدلال يكون الحجاج خاصية لغوية دلالية، وليس ظاهرة مرتبطة بالاستعمال في المقام)).⁵

- مفاهيم نظرية الحجاج في اللّغة :

تقوم هذه النّظرية على جملة من المفاهيم هي :

¹- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 22.

²- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 34.

³- المرجع نفسه، ص 36.

⁴- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 22.

⁵- شكري المبحوت: نظرية الحجاج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 362.

1-العلاقة الحجاجية :

الحجاج علاقة دلالية تربط بين الأقوال؛ بحيث يقوم الاشتغال الحجاجي على تقديم المتكلم لقول يعتبر حجة، يستهدف من خلاله حمل المخاطب على القبول برأي آخر، يعد نتيجة سواء أكان هذا القول/النتيجة صريحاً أم ضمنياً. ولا تكتسي هذه الأقوال طبيعتها الحجاجية إلا ضمن سياق معين. إنَّ العلاقة بين الأقوال/الحجج والأقوال/النتائج تسمى العلاقة الحجاجية، وهي علاقة لا يحكمها الاستلزام المنطقي بل تؤطرها المواضيع الحجاجية.¹

2-المواضع الحجاجية: (Les topois)

يمثل الموضوع مبدأ حجاجياً عاماً من المبادئ التي يستعملها المتخاطبون ضمنياً للحمل على قبول نتيجة ما². والمواضع ضامن يضمن الرّبط بين الحجّة والنتيجة، وهي تقابل مسلّمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصّوري أو الرياضي، وهي قواعد عامّة تجعل حجاجاً خاصّاً ما ممكناً، ولها خصائص عديدة منها:

أ- إنها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة.

ب- العمومية: تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة والمتنوعة.

ج- التدرجية: تقيم علاقة بين محمولين تدرجيين أو بين سلّمين حجاجيين.

د- النسبية: إذا كان المبدأ الحجاجي غير ملائم للسياق يتمّ إبطاله باعتماد مبدأ حجاجي آخر مناقض له.³

وقد افترض "ديكرو" أنّ المواضع مجموعة صغرى لها بنية دلالية مخصوصة، ويصوغها على النحو الآتي:

"إذا تمّت الاستجابة لبعض الشروط (ش) فإنه كلّما كانت الميزة (م) أكثر(أقل) في شيء (ي) كانت الميزة (م) أكثر(أقل) في شيء (ي) وذلك في منطقة قوة (م)".

¹-عبد اللطيف عادل: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 98.

²- شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 380.

³-أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 37.

وأهم ما في هذا التعريف :

- 1- أنّ العلاقة الحجاجية تتطلب وجود موضع بين الحجّة والنتيجة .
- 2- أنّ للمواضع أشكالاً تتحدّد بـ "أكثر" و "أقل" ضمن منطقة قوّة محدّدة .
- 3- أنّ أشكال المواضع من خلال التأليف بين "أكثر" (ورمزه +) وأقل (ورمزه-) أربعة هي :
(+,+) و (-,-) و (-,+) و (+,-).¹

3- السّلام الحجاجية :

السّلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج. فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما، علاقة ترتيبية معيّنة، فهذه الحجج تنتمي إذاك إلى نفس السّلم الحجاجي. فالسّلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجّهة.²

وتنطلق نظرية السّلام الحجاجية من إقرار التلازم في عمل المحاجّة بين القول الحجّة (ق) ونتيجته (ن). ومعنى التلازم هنا هو أنّ الحجّة لا تكون حجّة بالنسبة إلى المتكلم إلاّ بإضافتها إلى النتيجة التي قد يصرح بها وقد تكون ضمنية. والعلاقة التي تربط الحجّة بالنتيجة تتميز بسمات أساسية، ذلك أنّ الأقوال التي تمثّل حججا تدعّم نتيجة واحدة تتفاوت من حيث قوّتها، أي أنّ الحجج لا تتساوى ولكنها ترتّب في درجات تتفاوت قوّة وضعفاً، ومأتى هذا الترتيب هو أنّ الظواهر الحجاجية تتطلب دوماً وجود طرف آخر تقييم معه علاقة استلزام. وهذه الخصائص في الحجاج هي الأساس الذي انبنت عليه هذه النّظرية بما تقتضيه من تدرج بين الأقوال والحجج في علاقتها بالنتائج واستلزام بعضها للبعض.³

قوانين السّلم الحجاجي :

للسّلم الحجاجي قوانين تتحكّم فيه، وهي :

1- قانون التّفي :

إذا استخدم المتكلم قولاً ما (أ) لصالح نتيجة معيّنة، فإنّ نفيه (-أ) سيكون حجّة لصالح النتيجة المضادة. بعبارة أخرى، إذا كان (أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية المحدّدة بواسطة (ن) ، فإنّ (-أ) تنتمي إلى الفئة

¹-شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، ص 380.

²-أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، ص 26.

³-المرجع السابق، ص 363-364.

الحجاجية المحددة بواسطة (لا - ن).

2- قانون القلب :

يرتبط بالنفي، ومفاده أنّ السّلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلّم الأقوال الإثباتية. بعبارة أخرى إذا كان (أ) أقوى من (ب) بالنسبة إلى النتيجة (ن)، فإنّ (ب) هو أقوى من (أ) بالقياس إلى (لا - ن) بصيغة أخرى:

إذا كانت إحدى الحجّتين أقوى من الأخرى في التّ دليل على نتيجة معيّنة، فإنّ نقيض الحجّة الثانية أقوى من نقيض الحجّة الأولى في التّ دليل على النتيجة المضادة.

3- قانون الخفض :

يوضّح قانون الخفض الفكرة التي ترى أنّ التّفمي اللّغوي الوصفي يكون مساويا لعبارة ((...أكثر من... أو ...أقل من...)). وتتجلى صعوبة صياغة الوقائع، في أنّ الخفض الذي ينتج عن النّفي لا يتموقع في السّلم الحجاجي، ولا يتموقع أيضا في سلمية تدرجية موضوعية يمكن تعريفها بواسطة معايير فيزيائية. فلا تندرج الأقوال الإثباتية والأقوال المنفية في نفس الفئة الحجاجية ولا في نفس السّلم الحجاجي.

وإن كان الدارسون الغربيون قد تناولوا الحجاج من جوانب مختلفة، وأثروا النّظرية الحجاجية بما أسهموا به من جهود لا يمكن تجاهلها، فإنّ الدارسين العرب قد تلقوا الحجاج بتفاعل إيجابي ظهر صداه على مستويات عدّة، وهو ما نسعى لكشفه فيما يأتي:

2- الحجاج عند العرب المحدثين:

بعد أن ظهر الحجاج، باختلاف مجالاته، في المدارس الغربية وعلى يد باحثين أعلام، انتقل صداه إلى الدّراسات العربية واستقطب اهتمام جملة من الباحثين ف((مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات انفتحت كثير من الدّراسات العربية بنوع من التدرّج على النظريات الحجاجية كما صيغت لدى الغربيين، وتأثر بها على الخصوص الدّارسون المشتغلون بالنقد والبلاغة، حينما اكتشفوا فيها إبدالا جذريا عن مرحلة انصرفوا فيها إلى البحث عن جمالية القول وأسلوبيته، غير مكترئين بالوجه الآخر المتصل بحجاجية القول وإقناعيته))¹.

¹ - سعيد العوادي: تلقي الحجاج في الدراسات العربية المعاصرة. عبد الله صولة أتمودجا ضمن كتاب الحجاج والاستدلال الحجاجي، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ص 257.

وبحكم أسبقية الدراسات الحجاجية الغربية، فإنّ تلقّي الباحثين العرب لهذه الدراسات تجسّد أكثر في مستويين: مستوى التنظير ومستوى التطبيق. وفيما يأتي سنحاول الوقوف على هذين المستويين مع التركيز على أهم الأسماء التي برزت في حقل الدراسات العربية الحجاجية.

1-المستوى النظري:

وفيه يتمّ التعريف بالنظريات الحجاجية الغربية، وظهر ذلك في شكل بحوث شاملة تسعى إلى التعريف بأهمّ النظريات الحجاجية، أو تركيز الاهتمام على نظرية واحدة. وقد تبلورت هذه الجهود في شكل عمل جماعي، تتضافر فيه جهود جملة من الباحثين، تتفرّد بمواضيع خاصّة يجمعها مصنف واحد ك"أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" أنجزه فريق البحث في البلاغة والحجاج بجامعة منوبة تونس. إضافة إلى مصنف "الحجاج مفهومه ومجالاته" إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، وهو كتاب ضخم في خمسة أجزاء، خصّص كل جزء منه لتناول مجالاً واحداً من مجالات الحجاج المتعددة.

2-المستوى التطبيقي:

يتمّ في هذا المستوى استثمار المفاهيم النظرية في معالجة النصوص الأدبية نثراً وشعراً. وفي هذا المجال يُعدّ الباحث المغربي محمد العمري ((أول من افتتح النمط التطبيقي من خلال كتابه المرجعي: في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: الخطابة في القرن الأوّل الهجري... ويبدو أنّ الباحث تناول نصاً خطابياً قديماً بأدوات بلاغية أقدم منه، ورغم وجود عناوين لبعض الدراسات الحجاجية الحديثة في لائحة مراجعه إلاّ أنّها لم تؤثر في القراءة تأثيراً واضحاً))¹.

ومن الدراسات التي اهتمت بفن الخطابة نذكر كتاب "حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي: خطب الامام عليّ أمودجا" لصاحبه علي عمران، وقد ركّز فيه على البعد الحجاجي في مكوّن الصورة. أما أبو بكر العزاوي فقد وسّع مجال اشتغاله إلى أنواع مختلفة من الخطاب؛ حيث درس في كتابه "الخطاب والحجاج" البعد الحجاجي في القرآن الكريم والشعر والمثل والخطاب الإشهاري.

¹ - سعيد العوادي: تلقي الحجاج في الدراسات العربية المعاصرة. عبد الله صولة أمودجا ضمن كتاب الحجاج والاستدلال الحجاجي، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ص 264.

3-المستوى التأصيلي:

- طه عبد الرحمان: غلب على كتاباته الطابع الفلسفي بما يتماشى وتكوينه العام((كونه أستاذا للمنطق وفلسفة اللغة من جهة ولإتكائه على أصول تعتمد الفلسفة والمنطق كالمؤلفات العربية القديمة، والغربية القديمة والحديثة من جهة أخرى، ولأنّ هذا النوع من الخطابات لا بدّ وأن يكون فلسفياً قبل كلّ شيء مادام يتعلّق بالكلام والخطاب عموماً))¹.
- ولعلّ من أهم مؤلفاته التي أثارت موضوع "الحجاج" وما يرتبط به من قضايا نذكر "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"، وقد أفرد بابه الثاني لـ"الخطاب والحجاج" عرض فيه مختلف آرائه في هذا المجال، وأخلص هذا الباب للتدليل على دعاوى التكوثر الثلاث وهي²:
- الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطائية، لأنّه لا كلام بغير خطاب.
 - الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، لأنّه لا خطاب بغير حجاج.
 - الأصل في تكوثر الحجاج هو صفته المجازية، لأنّه لا حجاج بغير مجاز.
- وفي إطار حديثه عن الخطاب نفى أن يكون مجرد إقامة علاقة تخاطبية بين طرفين أو أكثر الغاية منها قصد التوجّه إلى الآخر وقصد إفهامه، وإنما يضيف إلى ما سبق قصدين معرفيين هما: "قصد الادعاء" و"قصد الاعتراض"³. ويبدو واضحاً استثماره لهذين المفهومين عند تحديده لمفهوم الحجاج الذي حصره في ((كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها))⁴.

وقد صنّف الحجاج إلى ثلاثة أنواع هي:

1- الحجاج التجريدي

2- الحجاج التوجيهي

3- الحجاج التقويمي⁵.

¹-هاجر مدقن:الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر ، 2013، ص 60.

²-طه عبد الرحمان:اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 213.

³-المرجع نفسه، ص 225.

⁴-المرجع نفسه، ص 226.

⁵-للتوسع أكثر أنظر اللسان والميزان، ص 226-228.

ومن القضايا التي أثارها أيضا نذكر:

- أنواع الحجج

- ركز على السلم الحجاجي

- قارب الاستعارة من وجهة نظر حجاجية.

وبهذا نكون قد عرضنا مختلف الجهود المبذولة في الحجاج سواء تلك التي تعلقت بالدارسين القدامى من فلاسفة يونانيين، أو من خلال ما بذله البلاغيون العرب في إطار تناولهم لمختلف القضايا البيانية وما يرتبط بها، دون أن نغفل ما أضافته مجالات البحث المختلفة إلى الحجاج، والذي جسّدته جهود الدارسين الغربيين المعاصرين ومن تلاهم واقتفى أثرهم من الدارسين العرب.

المبحث الرابع:

الحجاج والشعر

نؤسس من خلال هذا المبحث لمشروعية بحث الحجاج في الشعر عامّة وفي نقائض جرير والفرزدق خاصّة؛ حيث نحاول بداية أن نتناول الشعر بين التخيل والإقناع لنؤكد من خلالها على إمكانية نهوض الشعر بالوظيفة الإقناعية وذلك من خلال قيامه على التخيل.

وبعد أن نعرض مختلف الآراء عن التخيل عند الفلاسفة والبلاغيين ننتقل لبحث في قضية هامة تتصل بمدونة البحث وهي إمكانية اتسام نقائض جرير والفرزدق بجملة من الخصائص التي يجب توفرها في النص الحجاجي الشعري، ولذلك ارتأينا أن نفتح نافذة صغيرة نطل من خلالها على خصائص النقائض وخصوصية الشعاعين اللذين صنعها لنصل في النهاية إلى تحديد خصائص النص الحجاجي الشعري.

1- الشعر بين التخيل * والإقناع:

امتازت الأمة العربية بكونها أمة بلاغة وفصاحة، وكانت أمة شاعرة، بمتدّ قولها للشعر إلى أزمنة سحيقة. ولم تكن الأمة العربية وحدها من تفننت في قول الشعر، بل شاركتها في ذلك أمم أخرى، وعرفت ألوانا لم تعرفها الأمة العربية ولأسباب متعدّدة. وقد فتح عصر الترجمة مجالا واسعا للإطلاع على آداب الأمم الأخرى والأخذ عنها، وخاصّة تلك القضايا المتصلة بالشعر وطبيعته، وما ارتبط به من مصطلحات خاصّة المحاكاة والتخيل.

1- التخيل في الدراسات الفلسفية:

شغل التخيل اهتمامات الدارسين على اختلاف مشاربهم، ومنذ القديم إذ ((أثيرت قضية التخيل في الدراسات الإنسانية القديمة، ولعلّ الفكر الفلسفي اليوناني كان أوّل من أثار هذا الإشكال الإبداعي

* - ذهب محمد مفتاح إلى أنّه ورد في التوراة أنّ الجذر الذي يعني الخيال في الثقافة العربية يدل على الذنب والإثم والوزر، لأنّ الخيال يؤدي إلى الاشرار بالله ومعصيته، كما أنّ المعاجم العربية تحدّد معاني الجذر (خ ي ل) في المعاني الأساسية التالية وهي: الوهم، والطيف، والظل، والكبر، والعجب، والوزر، والذنب. انظر محمد مفتاح: الشعر وتناغم الكون. التخيل - الموسيقى - المحبة، ط 1، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء المغرب، 2002، ص 16.

من خلال مفهوم "المحاكاة" الذي يعكس بصورة واضحة التجربة الإنسانية في علاقتها بالواقع¹. وعليه تكون الفلسفة هي التربة التي احتضنت نشأته الأولى، كما أنه ارتبط بالحديث عن الإبداع.

وفيما يأتي نباشر الحديث عن التخيل عند الفلاسفة، بدءاً بالفيلسوف اليوناني أرسطو مروراً بالفلاسفة المسلمين الذين تلقوا هذا المصطلح وأثاروه عند حديثهم عن الشعر.

1- المحاكاة عند أرسطو:

لم يستعمل أرسطو في كتابه "فن الشعر" مصطلح "التخيل" وإنما استعمل مصطلح "المحاكاة"، وإن أكثر الحديث عنها فإننا لا نجده يقدم تعريفاً خاصاً ومحدداً لمفهوم المحاكاة، ولذلك جعلها تخضع لتأويلات عدّة تصل إلى حدّ الاختلاف، وقد حُدّد معنى المحاكاة عند أرسطو كما يأتي²:

- لا يعتبر أرسطو مرجعية المحاكاة عالم المثل، بل يجعلها تتّجه إلى الطبيعة مباشرة؛ بحيث لا تفصلها عن الحقيقة سوى درجة واحدة. وقد أبعد المحاكاة عن النسخ حين جعلها تتّجه إلى تصوير المواقف الإنسانية الكلية والانطباعات الذهنية في شموليتها، وهي تسعى لتصوير الأشياء كما يجب أن تكون.

ففي إطار حديثه عن طرق المحاكاة في الشعر قال: ((لما كان الشاعر محاكياً شأنه شأن الرسام وكلّ فنان يصنع الصور، فينبغي عليه بالضرورة أن يتّخذ دائماً إحدى طرق المحاكاة الثلاث: فهو يصوّر الأشياء إمّا كما كانت أو كما هي في الواقع، أو كما يصفها الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون، وهو إمّا يصوّرهما بالقول³))، وقد أوضح الطرق الثلاث التي تتمّ بها المحاكاة، ثم أشار إلى مادة المحاكاة عند الشاعر وهي الكلمة أو القول ليحدّد بعدها الطريقة التي يتبعها الشاعر حينما قال: ((إنّ الشاعر إمّا صوّر الأشياء كما يجب أن تكون⁴)).

¹- سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية. بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ط 1، منشورات ضفاف، بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر، ودار الأمان، الرباط، 2013، ص 40.

²- عبد الرحيم وهابي: القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2011، ص 126 وما بعدها.

³- أرسطو طاليس: فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953، ص 71-72.

⁴- المصدر نفسه، ص 73.

- ربط المحاكاة بالفعل؛ حيث اعتبر أنه لا يمكن أن تكون هناك محاكاة بدون فعل، وهو ما جعله يبعد الشعر الغنائي عن نظريته الشعرية. وعليه ذهب إلى القول: ((المأساة لا تحاكي الناس بل تحاكي الفعل والحياة والسعادة والشقاوة، والسعادة والشقاوة هما من نتائج الفعل، وغاية الحياة كيفية عمل لا كيفية وجود))¹.

- لا تقتصر المحاكاة عند أرسطو على العمل الشعري فحسب، وإنما تشمل مختلف الفنون؛ حيث ذهب إلى اعتبار الملحمة والمأساة وجلّ صناعة العزف بالناي والقيثارة ((كلّها تحقّق المحاكاة بواسطة الايقاع واللّغة والانسجام مجتمعة معا أو تفاريق))².

لقد جعل أرسطو المحاكاة ((جوهر كلّ الفنون الصوتية والتشكيلية، مميزا بين هذه الفنون، من حيث الوسيلة أي الفن نفسه أو آله، ومن حيث الموضوع أو المادة المحكية، ومن حيث الطريقة أي أسلوب المحاكاة موضّحا في شأن الشعر أنّ جوهره المحاكاة لا الوزن))³. فأرسطو لا ينفي عن الشعر اشتماله على الوزن لكنّه يرفض أن يكون هو السمة المحدّدة والمميّزة له ((على أنّ الناس قد اعتادوا أن يقرنوا بين الأثر الشعري والوزن... والواقع أنّ من ينظم نظرية في الطبّ أو الطبيعة يسمّى عادة شاعرا، ورغم ذلك فلا وجه للمقارنة بين هوميروس وأمبادوقليس إلاّ في الوزن، ولهذا يخلق بنا أن نسبّي أحدهما (هوميروس) شاعرا والآخر طبيعيا أولى منه شاعرا))⁴.

وفي حديثه عن الشعر يذهب إلى ربط نشأته بالمحاكاة، يقول: ((يبدو أنّ الشعر نشأ عن سبيين: كلاهما طبيعي فالمحاكاة غريزة في الإنسان تظهر فيه منذ الطفولة... كما أنّ الناس يجدون لذّة في المحاكاة))⁵ وبذلك يجعل المحاكاة فطرية في الإنسان ملتصقة به، بل يجد لذّة فيها، وربط الشعر بها يعني أنه عملية محاكاة لما يوجد في الواقع، على أنه جعل المحاكاة عند الشعراء تصطبغ بطبيعة نفوسهم، وتختلف باختلافها، وبذلك ينقسم الشعر وفقها، وهو ما يتضح في قوله: ((لقد انقسم الشعر وفقا لطباع الشعراء: فذوو النفوس النبيلة حاكوا الفعال النبيلة وأعمال الفضلاء، وذوي النفوس الخسيسة حاكوا فعال الأدنياء فأنشأوا "الأهاجي" بينما أنشأ

¹- أرسطو طاليس: فن الشعر، ص 20.

²- المصدر نفسه، ص 05.

³- مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب. الجاهلية والعصور الإسلامية، ج 1، ط 2، دار الطليعة، بيروت، 1988، ص 91.

⁴- المصدر السابق، ص 06.

⁵- المصدر نفسه، ص 12.

الآخرون الأناشيد والمدائح))¹، على أنّ المقصود بالأناشيد التراتيل التي تقال في التسبيح بحمد الآلهة، أمّا المدائح فتقال في تمجيد الشعراء.

بهذا نكون قد قدّمنا لمحة موجزة عن المحاكاة عند أرسطو، التي جعلها لا ترتبط بالشعر فقط وإنما بالفنون جميعاً على اختلافها، ومحاكاة الشاعر لا تقوم على نقل الواقع كما هو، وإنما تصوّر ما يجب أن يكون عليه. وإن كانت هذه بعض آراء أرسطو فماذا عن الدارسين الذين تلقوا كتابه "فن الشعر" من فلاسفة وبلاغيين، وكيف أسسوا للشعر العربي من خلال ما أدلى به أرسطو عن الشعر اليوناني؟

2- التخيل عند الفلاسفة المسلمين:

إذا كان أرسطو قد استخدم "المحاكاة" في كتاباته، ولم يشر إلى التخيل، فإنّ للعرب موقفاً آخر، إذ كان استعمال المصطلحين وارداً في كتاباتهم، ولعلّ تعقد أو تركيب طبيعة المحاكاة في الشعر العربي مقارنة مع الشعر اليوناني هو ما جعلهم يستخدمون مفهوم التخيل* لأنه ((ربما كان أكثر استيعاباً لطبيعة الشعر العربي ومحاكاته))².

فسرّ الفارابي مصطلح المحاكاة بالتخيل، وأقامها على أساس سيكولوجي، بذلك مهدّ الطريق لمن تلاه من الفلاسفة أمثال ابن سينا وابن رشد، وأوضح لهم الصلة بين الشعر والتخيل، ومن ثم بدأت كلمة التخيل ومشتقاتها تدخل دائرة المصطلح التقدي والبلاغي بدءاً من النصف الثاني من القرن الرابع، ثم تدعّم وجودها مع إضافات ابن سينا في القرن الخامس، وابن رشد في القرن السادس، إلى أن تصل أقصى درجات القوّة والوضوح مع حازم القرطاجني في القرن السابع³.

¹ - أرسطو طاليس: فن الشعر 13.

* - ولعل هذا السبب هو الذي جعل حازم القرطاجني يستعمل المصطلحين معاً، ويشير إلى أن المحاكاة جزء من التخيل، وأن التخيل أعم وأشمل وأحياناً يورد المصطلحان بمعنى واحد. انظر: الإمام الغزوي: اشكالية التخيل والإقناع في بلاغة حازم القرطاجني ضمن كتاب البلاغة والخطاب إعداد محمد مشبال، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر ومنشورات ضفاف، بيروت ودار الأمان، الرباط، 2014، ص 94.

² - المرجع نفسه، ص 94.

³ - عاطف جودة نصر: الخيال مفهومه ووظائفه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1984، ص 148.

ومما سبق يتضح أنّ ربط التخيل بالعملية الشعرية ظهر عند الفلاسفة أولاً، وهم أول من طرحه في محاولة منهم لتفسير الشعر، ثم وبفعل الاحتكاك انتقل إلى ساحة البلاغة وتبناه رجالها وساهموا في إرساء دعائمه.

لقد كانت جهود الفلاسفة المسلمين واضحة في وضعهم لمصطلح التخيل وتحديدده وخلق التربة المناسبة لتطوره، إذ ساهم الجميع، وعلى مدار قرون متتالية، في ضبطه وتأصيل مفهومه، غير أننا سنقصر وقتنا على فيلسوفين اثنين هما: الفارابي وابن سينا.

1- الفارابي (259-339هـ):

قسّم الفارابي الأقاويل إلى خمسة أنواع: برهانية، وجدلية، وسوفسطائية، وخطبية وشعرية، وحسب طبيعة كل نوع تتخذ نصيبها من الصدق والكذب ((فالصادقة بالكلّ لا محالة هي البرهانية، والصادقة بالبعض على الأكثر فهي الجدلية، والصادقة بالمساواة فهي الخطبية، والصادقة في البعض على الأقل هي السوفسطائية، والكاذبة بالكلّ لا محالة فهي الشعرية))¹. وإن تباين حضور الصدق والكذب في هذه الأقاويل فإنّ لها جميعاً القدرة على التأثير في المتلقي، وكلّها تسعى إلى الإقناع، وإن اختلفت طرقها في ذلك.

وإن كان الفارابي قد وسم الأقاويل الشعرية بالكذب فإنه قد ربطها بالتخيل؛ حيث يُعدّ أول من استعمل مصطلح "التخيل"²، وإن لم يقدم له تعريفاً بل أشار، في كتابه إحصاء العلوم* إلى أثره النفسي قائلاً: ((يعرض لنا عند استماعنا الأقاويل الشعرية عند التخيل الذي يقع عنها في أنفسنا شبيه بما يُعرض لنا عند نظرنا إلى الشيء الذي يشبه ما يعاف، فإننا من ساعتنا نخيل لنا في ذلك الشيء أنه ممّا يعاف، فتقوم أنفسنا منه فتحتنّب، وإن تبيّننا أنه ليس في الحقيقة كما نخيل لنا، فنفعل فيما نخيله لنا الأقاويل الشعرية، وإن علمنا

¹- الفارابي: رسالة في قوانين صناعة الشعراء، ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو طاليس مع الترجمة القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة وتحقيق عبد الرحمان بدوي، ص 151.

²- مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، ج 1، ص 115.

*- يفسر هذا العنوان بما ورد في مقدمة الكتاب، من أن الفارابي حاول من خلال وضعه لهذا الكتاب أن يحصي مختلف العلوم التي عرفت في عصره ومجتمعها، أي في القرن العاشر، وفي العصر العباسي الثاني عندما بلغت الحضارة العربية أوج نضجها. (المقدمة، ص 05).

أنّ الأمر ليس كذلك، كفعلنا فيها لو تيقنا أنّ الأمر كما خيله لنا ذلك القول. فإنّ الإنسان كثيرا ما تتبع أفكاره تخيلاته أكثر مما تتبع ظنه أو علمه¹.

وبهذا يكون التخيل عملية نفسية لها أثرها الكبير في تحديد اعتقادات الإنسان؛ حيث تُحدث الأقاويل الشعرية في أنفسنا تخيلات فتساق إليها النفس وتتبعها وكأنها أمور يقينية. والإنسان كما قال الفارابي يبي أفكاره على ما يتخيّله أكثر مما ينساق إلى الأمور التي يقوده إليها ظنه أو علمه. ومن هنا يظهر دور التخيل.

وإن كان الفارابي قد جعل الأقاويل الخطبية ((هي التي من شأنها أن يلتمس بها إقناع الإنسان في أيّ رأي كان، وأن يميل ذهنه إلى أن يسكن إلى ما يقال له ويصدق به تصديقا))²، أي حدوث التصديق بعد استمالة الذهن وإعمال الفكر، فإنه قد جعل الأقاويل الشعرية ((هي التي تؤلف من أشياء شأنها أن تخيل في الأمر الذي فيه المخاطبة خيالا ما أو شيئا أفضل أو أحسن، وذلك إما جمالا أو قُبحا، أو جلاله أو هوانا أو غير ذلك مما يشاكل هذه))³.

من هنا يتّضح دور الأقاويل الشعرية في إثارة تخيلات اتجاه أمر ما، هذه التخيلات تكون إما بالاستحسان أو الاستهجان، واستنادا إلى هذه التخيلات يتحدّد موقف المتلقي من هذا الأمر، وهو ما جعل البعض يعتبرون أنّ التخيل عند الفارابي إيحاء أو خلق لحالة نفسية في ذات المتلقي هي حالة التّفور أو القبول⁴، فإذا استحسن نفسه ما صوّره الخيال وأظهره في صورة حسنة كان القبول، وإذا استهجن أخرى بما أظهره الخيال من قبح وعيوب كان التّفور.

ويقودنا التسليم بهذا الأمر إلى استنتاج آخر، وهو أنّ الجمال والقبح ليس متأصلا في طبيعة الشيء، وإنما التخيل هو الذي يتولى رسم هذه الصّورة في النفس التي تنفعل معها إجابا وسلبا.

¹ - أبو نصر الفارابي: إحصاء العلوم، شرح وتقديم علي بوملحم، ط 1، دار ومكتبة الهلال، لبنان ، 1996، ص 42.

² - المرجع نفسه، ص 41.

³ - المرجع نفسه، ص 42.

⁴ - مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب. الجاهلية والعصور الإسلامية، ج 1، ص 116 .

وقد كان الفارابي واضحا في تحديده للوظيفة التي ينهض بها الشعر؛ حيث حصرها في قوله: ((وإنما تُستعمل الأقاويل الشعرية في مخاطبة انسان يُستنهض لفعل شيء ما))¹. أي أنّ طبيعة الشعر وما تثيره في نفس المتلقي من تخيلات من شأنها أن تفعل فعلتها في النفس فتحركها نحوها وتنجذب إليها، وبالتالي تحظى لديها بالقبول، وبذلك يتضح دور الشعر في الإقناع بفعل شيء ما. ونظرا لقدرة الشعر على استنهاض الهمم ودفن النفوس إلى العمل بعد جعلها تقتنع بذلك ((صارت الأقاويل دون غيرها تُجمل وتُزين وتُفخم ويُجعل لها رونق وبهاء))². وما ذلك إلا ليكون لها التأثير الكافي في النفوس فتدفعها إلى الفعل بعد استدراجها إلى الاقتناع به.

2- ابن سينا (ت428هـ):

ميّز ابن سينا بين الشعر والخطابة وإن وُحد بينهما في الوظيفة؛ حيث قال: ((والشعر قد يقال للتعجيب وحده، وقد يقال للأغراض المدنية (المشورية والمشاجرية والمنافية). وتشارك الخطابة والشعر في ذلك، لكنّ الخطابة تستعمل التصديق، والشعر يستعمل التخيل))³. وإن كان جعلهما ينهضان بالوظيفة ذاتها، فإنه قد فرّق بينهما في الطريقة؛ بحيث جعل الخطابة تعتمد على التصديق في حين يعتمد الشعر على التخيل.

ويذهب ابن سينا أبعد من ذلك ولا يكتفي بربط الشعر بالتخيل، بل يجعله داخلا في طبيعته إذ يقول: ((إنّ الشعر هو كلام مُخَيَّل مُؤَلَّف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة))⁴، وبهذا يكون قد اشترط في الشعر التخيل والوزن وزاد التقفية بالنسبة للعرب. وقوله عند العرب توحى باختلافهم في هذا الأمر عن الأمم الأخرى ولعله يقصد اليونانيين الذين اطلع على شعرهم من خلال شرحه لكتاب "فن الشعر" لأرسطو.

وبعد أن جعل التخيل عنصرا أساسيا يدخل في تحديد طبيعة الشعر، ذهب إلى تعريف المخيل فقال:

((والمخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتنبسط لأمر أو تنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار. وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيا غير فكري، سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق. فإنّ كونه

¹- الفارابي؛ إحصاء العلوم، ص 43.

²- المرجع نفسه، ص 43.

³- ابن سينا؛ فن الشعر من كتاب الشفاء ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو طالس، ص 162.

⁴- المرجع نفسه، ص 161.

مصدقًا به غير كونه مخيلاً أو غير مخيّل. فإنه قد يصدّق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه، فإن قيل مرّة أخرى أو على هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخييل لا للتصديق. فكثيراً ما يؤثر الانفعال ولا يحدث تصديقاً، وربما كان المتيقن كذبه مخيلاً. وإن كانت محاكاة الشيء لغيره تحرك النفس وهو كاذب فلا عجب أن تكون صفة الشيء على ما هو عليه تحرك النفس وهو صادق، بل ذلك أوجب، لكنّ الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق¹.

وإن كان ابن سينا قد اعتبر كلاً من التخييل والتصديق إذعان فإنه لم يعدم الفرق بينهما؛ حيث جعل ((التخييل إذعانا للتعجب والالتذاذ بنفس القول والتصديق إذعان لقبول أنّ الشيء على ما قيل فيه. فالتخييل يفعل القول لما هو عليه، والتصديق يفعل القول بما المقول فيه عليه، أي يلتفت فيه إلى جانب حال المقول فيه))².

ولم يكن ابن سينا يبعد عن الفارابي في تحديده للوظيفة التي تنهض بها الأقوال الشعرية حينما قال: ((إنّ العرب كانت تقول الشعر لوجهين: أحدهما ليؤثر في النفس أمراً من الأمور تُعدّ به نحو فعل أو انفعال، والثاني للتعجب فقط، فكانت تشبه كلّ شيء للتعجب بحسن التشبيه))³. ولعلنا ندرك من هذا القول أنّ الغاية من قول العرب للشعر تتحدّد بجانب في جمالي من جهة، وبجانب تأثيري إقناعي من جهة ثانية؛ بحيث ينهض الشعر بالتأثير في المتلقي، وتكون استجابته إمّا بالفعل وإمّا بالانفعال، وبذلك تتضح قدرة الشعر من خلال قيامه على التخييل، على التأثير والإقناع.

2- التخييل في الدّراسات البلاغية:

كان لترجمة كتاب "فن الشعر" لأرسطو وظهور شروح له من قبل الفلاسفة المسلمين، الفضل الأكبر في انتقال كثير من المصطلحات اليونانية إلى العربية واستحداث بعضها كما هو الأمر بالنسبة للمحاكاة والتخييل. ولم يبق التخييل الذي أنتجته تربة الفلاسفة حبيسها، بل نراه يقتحم بيئة البلاغيين، وهو الأمر الذي

¹ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 85-86.

² - ابن سينا: فن الشعر من كتاب الشفاء ضمن فن الشعر لأرسطو طاليس، تر وتح عبد الرحمان بدوي، ص 162.

³ - المرجع نفسه، ص 170.

جعلنا نتساءل إن كان التخيل قد حافظ على دلالة عند الفلاسفة أم أنه اتخذ له دلالات أخرى على يد رجال البلاغة ونخص بالذكر الجرجاني والقرطاجني.

1- عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ):

يعدّ الجرجاني من البلاغيين الذين أولوا "التخيل" عناية خاصة؛ حيث يورد التخيل في باب خاص أسماه "الحقيقة والخيال في الشعر" وقد قسم ضروب الحقيقة والخيال في الشعر إلى قسمين: قسم عقلي وقسم تخيلي. وتقسيم الجرجاني للمعاني إلى عقلية وتخييلية، جاء نتيجة تأثره بتقسيم الفلاسفة لأقسام المنطق؛ حيث وضعوا الشعر مقابل البرهان، وميزوا بين التخيل الشعري والتصديق البرهاني والجدلي¹.

وقد عرّف الجرجاني القسم التخيلي بقوله: ((هو الذي لا يمكن أن يقال إنّه صدق، وإن ما أثبتته ثابت، وما نفاه منفي، وهو مفتنّ المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يُحصر إلاّ تقريبا، ولا يُحاط به تقسيما وتبويبا ثم إنّه يجيء طبقات، ويأتي على درجات: فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطّف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتّى أعطي شبيها من الحقّ، وعُشي رونقا من الصدق، باحتجاج يُخيّل وقياس يصنع فيه ويعمل))². فالتخيل عنده هو الجانب المقابل للحقيقة، أي إنّه لا مجال فيه للصدق، ولا يمكن أن يتخذ له صورة واحدة بل هو مذاهب شتى وطبقات متعدّدة.

وبالحديث عن الشعر وعلاقته بالتخيل، نجد أنّ الجرجاني قد انتهى إلى ما انتهى إليه الفارابي وابن سينا من أنّ المطلوب في الشعر ليس الصدق أو الكذب وإنما التخيل³، يقول: ((وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشئيين في وصف علة الحكم يريدونه وإن لم يكن في المعقول، ومقتضيات العقول. ولا يُؤخذ الشاعر بأن يصحّح كون ما جعله أصلا وعلة كما ادّعاها فيما يُبرم أو ينقض من قضية، وأن يأتي على ما صيرّه

¹ - عبد الرحيم وهابي: القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ص 273.

² - الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تح محمد الاسكندراني وم مسعود، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 2005، ص 207.

³ - المرجع السابق، ص 274.

قاعدة وأساسا بيينة عقلية، بل تسلّم مقدّمته التي اعتمدها بيّنة..... مع أن الشعر يكفي فيه التخيل، والذهاب بالنفس إلى ما تتراح إليه من التعليل¹.

فالشعر لا ينظر إليه من حيث إنه صادق أو كاذب، وإنما ينظر إلى جانب التخيل فيه، وتحري الصدق فيه لا يمكن أن يهبه درجة من الحسن والجودة، بل إنه يجعل الشاعر ((كالمقصود المداني قيده، والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده، ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة، وصورا مشهورة، ويتصرّف في أصول هي وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تُحفظ أعدادها، ولا يرحى ازديادها، وكالأعيان الحامدة التي لا تنمي ولا تزيد، ولا تريح ولا تفيّد، وكالحسناء العقيم، والشجرة الراتقة لا تتمتع بجني كريم))².

-وظيفة التخيل:

لا يمكن أن يكون الاهتمام بالتخيل متأتيا من فراغ و ما لم يكن لهذا الأمر وظيفة يضطلع بها، وهو ما حوّل له الاهتمام من قبل البلاغيين الذين استندوا إلى كثير من آراء الفلاسفة السابقين وحدوا حدوهم واستناروا بأفكارهم. ويبدو أثر إلحاح الفلاسفة على فكرة التحسين والتقييح واضحا عند الجرجاني³ الذي يقرّ هو الآخر أنّ التخيل ينهض بوظيفة مزدوجة؛ حيث يظهر أثر الشعر واضحا ((فيما يصنعه من الصور، ويشكّله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهّم بها الجماد الصامت، في صورة الحيّ الناطق، والموات الأخرس، في قضية الفصيح المعرب، والمبين المميّز، والمعدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد))⁴، وهنا يظهر أثر التخيل وقدرته على التحسين وإظهار الأشياء في مظهر يروق النفس ويقطع الأنفاس.

وإن كان للتخيل دور في التحسين فإنه لا يعدم القدرة في التقييح، وهو ما ذهب إليه الجرجاني حين اعتبره ((يغضّ من شرف الشريف، ويبطأ من قدر ذي العزة المنيف، ويظلم الفضل ويتهصّمه، ويخدش وجه الجمال

¹- الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 209-210.

²- المصدر نفسه، ص 211.

³- عبد الرحيم وهابي: القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ص 286.

⁴- المصدر السابق، ص 161-162.

ويتخوّنه، ويعطي الشبهة سلطان الحجّة، ويردّ الحجّة إلى صيغة الشبهة، ويصنع من المادة الخسيصة بدعا تغلو في القيمة وتغلو، ويفعل من قلب الجواهر، وتبديل الطبائع¹.

إنّ القدرة التي يمتلكها التخيل في التحسين والتقييح وما يتركه من أثر في النفس في حالتي القبول والرفض هو ما يدفعنا إلى التسليم بما يمتلكه التخيل، ومن ورائه الشعر، من طاقة إقناعية من خلال تحريكه للنفس وجعلها تستحسن الشيء وتستقبّحه، على اعتبار أنّ الشعر لا يقدم بالضرورة حقيقة الأشياء كما هي وإنما يجعلنا نرى هذه الأشياء في صورة ما .

2- حازم القرطاجني:

جاء القرن السابع الهجري ومصطلح "التخيل" ما يزال يحظى بعناية الدارسين واهتمامهم من حيث الطبيعة والمفهوم والوظيفة، فهذا حازم يوضّح كيفية التخيل، وهي: ((أن تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها، أو تصوّر شيء آخر بما انفعالا من غير رويّة إلى جهة من الانبساط أو الانقباض))². والملاحظ في هذا التعريف أنّ حازما يشير إلى الأنحاء التي يقع فيها التخيل، والتي حدّدها بقوله: ((التخيل في الشعر يقع من أربعة أنحاء: من جهة المعنى، ومن جهة الأسلوب، ومن جهة اللفظ، ومن جهة النظم والوزن))³، وأنّ التخيل يكون على مستوى المتلقي؛ حيث ينتج عن كلام الشاعر صورة في ذهن السامع يكون وقعها سلبيا أو إيجابيا فينتج عنها قبول (انبساط) أو رفض (انقباض).

وحازم، كغيره من البلاغيين والفلاسفة السابقين، أدخل التخيل في تحديده لطبيعة الشعر؛ حيث يقول: ((الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يجبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمّن من حسن تخيل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصوّرة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوّة صدقه أو قوّة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكلّ ذلك يتأكد بما يقترن

¹-المرجاني: أسرار البلاغة، ص 262.

²-حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 89.

³-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بما من إغراب. فإن الاستغراب والتعجب حركة النفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها¹. وبهذا يكون حازم قد خطا خطوة متميزة بإدخاله المحاكاة والتخييل في صلب ماهية الشعر²، وهو الأمر الذي ألح عليه مثلما يتضح من قوله في موضع آخر: ((ما كان من الأقاويل القياسية مبنيا على تخييل وموجودة فيه المحاكاة فهو يعدّ قولاً شعرياً، سواء كانت مقدماته برهانية أو جدلية أو خطابية يقينية أو مشتهرة أو مظنونة))³.

ونسجل على هذا القول ملاحظتين اثنتين وهما أنه:

- يعتبر كل كلام قام على التخييل والمحاكاة شعراً بغض النظر عن مقدماته.

- يوظف مصطلحي التخييل والمحاكاة جنباً إلى جنب، وكأنه يستعملهما بمفهوم واحد.

-التخييل بين الصدق والكذب:

يتبع حازم الفلاسفة السابقين في تحديد طبيعة الشعر، وهي أنه لا يعدّ شعراً بناءً على الصدق والكذب وإنما من حيث هو تخييل ((فالشعر إذن قد تكون مقدماته يقينية ومشهورة ومظنونة. ويفارق البرهان والجدل والخطابة بما فيه من التخييل والمحاكاة، ويختصّ بالمقدمات المموّهة الكذب. فيكون شعراً أيضاً ما هذه صفته باعتبار ما فيه من المحاكاة والتخييل، لا من جهة ما هو كاذب، كما لم يكن شعراً من جهة ما هو صادق، بل بما كان فيه أيضاً من التخييل... فالتخييل هو المعبر في صناعته، لا كون الأقاويل صادقة أو كاذبة))⁴، وعليه يكون العنصر المحدد لشعرية الكلام هو ما فيه من تخييل وليس نعتة بالصدق أو الكذب، فهذا الجانب لا اعتبار له في تقييم الشعر والحكم عليه.

يسعى القرطاجني إلى التفريق بين الصدق الأخلاقي والصدق الفني الذي يتحقق في الشعر متى أجاد الشاعر في الصنعة والتأليف⁵ ((لأن الاعتبار في الشعر إنما هو التخييل في أي مادة اتفق، لا يشترط في ذلك

¹ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 71.

² - عبد الرحيم وهابي: القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ص 349.

³ - المصدر السابق، ص 67.

⁴ - المصدر نفسه، ص 71.

⁵ - عبد الرحيم وهابي: القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ص 342.

صدق ولا كذب، بل أيهما ائتملت الأقاويل المخيَّلة منه فبالعَرَض. لأن صنعة الشاعر هي جودة التأليف وحسن المحاكاة، وموضوعها الألفاظ وما تدل عليه¹.

-وظيفة التخيل:

يربط حازم التخيل بالتلقي وبالتالي فآثره نفسي بالدرجة الأولى، يتعلّق بالإيهام ومخادعة المتلقّي. فالتخيل لا يرتبط بالقوى العقلية، بل يخاطب القوى النفسية ويؤثّر فيها، وتستطيع هذه القوى النفسية بتخيّلاتها أن تسيطر على القوى العقلية، ولا يقصد منه إلاّ التأثير النفسي للقول ذاته دون النظر في مطابقة ذلك القول لشيء خارج عنه². فالنفس تنساق وراء التخيل وتتأثر به حتّى إنّها ((ربما تركت التصديق للتخيل فأطاعت تخيلها وألغت تصديقها))³.

والنفس لا تتأثر بالتخيل فحسب، بل تلتدّب به، ((ومن التذاذ النفوس بالتخيّل أنّ الصوّر القبيحة المستبشعة عندما قد تكون صورها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة لذيدة إذا بلغت الغاية القصوى من الشبه بما هي أمثلة له، فيكون موقعها من النفوس مستلذداً لا لأنّها حسنة في أنفسها، بل لأنّها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به))⁴.

إنّ التأثير في المتلقّي واستثارة عواطفه يرتبط بما يحتويه الشعر من حسن المحاكاة، وبذلك يجعل التخيل والمحاكاة متلازمين. ولعلّ هذا هو السبب في ذكر حازم للمحاكاة والتخيل مقترنين في كثير من الأحيان⁵.

الشعر والخطابة:

انطلق حازم من الطبيعة التخيلية للشعر، والتي لا تستجيب لمعيار الصدق والكذب للتمييز بين التخيل الشعري والتصديق الخطابي. يقول: ((..وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان

¹-القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 81.

²-سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية. بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ص 50.

³-المصدر السابق، ص 116.

⁴-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁵-عبد الرحيم الوهابي: القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ص 349.

بصوريّ التخييل والإقناع وكان لكتيهما أن تخيل وأن تقنع... وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التحلي عن فعله واعتقاده¹، فحازم يؤكّد على السمة الفارقة بين الخطابة والشعر؛ بحيث ترتبط الأولى بالإقناع والثاني بالتخييل، لكنهما يشتركان في الغاية وهي التأثير في النفوس بدفعها إلى الفعل أو التحلي عنه. بيّن أنّ التمييز بين الصناعتين لا يعني تنافرها، ذلك أنّ الشعر يمكنه استغلال العناصر الحجاجية للخطابة، كما أنّ الخطابة يمكنها الاستعانة بالعناصر التخيلية للشعر. ولكن هذا التقاطع ينبغي ألا يخرج بالصناعتين عن خاصيتيهما النوعية².

وفي إطار الفصل بين الخطابة والشعر، استحسّن حازم أن يأخذ أحدهما عن الآخر بنسب قليلة ف: ((صناعة الشعر تستعمل يسيرا من الأقوال الخطابية كما أنّ الخطابة تستعمل يسيرا من الأقوال الشعرية لتعضد المحاكاة في هذه بالإقناع والإقناع في تلك بالمحاكاة. وإمّا يُعاب الشاعر إذا كان أكثر أقاويله أو ما قارب مساواة الباقي بزيادة قليلة أو نقص خطابيّة، والخطيب إذا كانت أقاويله أو ما قارب المساواة بزيادة قليلة أو نقص شعرية. فأما إذا استعملت إحداها الأقلّ من الأخرى فإنّ ذلك يحسن لاعتضاد إحداها بالأخرى وإراحة النفس وجموحها لتجدّد الأقاويل الشعرية بعد الخطابية والخطابية بعد الشعرية عليها وإجمامها بالواحد لتلقى الآخر))³.

من خلال ما سبق يتّضح لنا أنّ حازمًا يفضل الإبقاء على خصوصية كلّ جنس أدبي، لذلك فهو يذمّ أن يكون الإقناع هو السمة الغالبة في الشعر، و((لا يمكن تفسير ذمّ حازم تغليب الإقناع في الشعر على التخييل إلاّ بحرصه على ضمان الخاصية النوعية للشعر، والتي تضع معيار الصدق والكذب خارج اهتماماتها، ذلك أنّ الخطابة في الشعر لا تسعى إلى خدمة الإقناع بقدر ما تسعى إلى تأكيد ومعاوضة الخاصية التخيلية فيه))⁴، وهو الأمر الذي تجلّى واضحًا في قوله: ((ينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة، الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مخيّلة، مؤكّدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيّلة هي العمدة))⁵.

¹ - حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 19-20.

² - عبد الرحيم الوهابي: القراءة العربي لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، ص 346.

³ - المصدر السابق، ص 293.

⁴ - المرجع السابق، ص 347.

⁵ - حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 362.

وفي هذا الإطار ينوّه حازم بأبي الطيب المتنبي، الذي كان يحسن وضع البيت الإقناعي موضعه المناسب، والمساند للمعاني التخيلية، فيقول: ((وقد كان أبو الطيب يعتمد هذا كثيرا، ويحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات المخيّلة لأنه كان يصدرّ الفصول بالأبيات المخيّلة ثم يختتمها بيت إقناعي يعضّد به ما قدّم من التخييل ويجمّ النفوس لاستقبال الأبيات المخيّلة في الفصل التالي. فكان لكلامه أحسن موقع في النفوس بذلك. ويجب أن يُعتمد مذهب أبي الطيب في ذلك، فإنه حسن))¹.

وبهذا نكون قد وقفنا على التخييل عند الفلاسفة والبلاغيين؛ حيث أثبت الجميع الصّفة التخيلية في الشعر، على أنّ هذا التخييل كان له دوره في التأثير في النفوس والعقول وبالتالي دفعها إلى الإذعان والافتناع، وهو ما يجعل الشعر يحتضن الحجاج، وهذا ما يشرّع لنا بحث الحجاج في الشعر. وإن كان قد تحقّق لنا ذلك، فإننا نبحث في المحطة التالية مشروعية الحجاج في نقائض جرير والفرزدق.

2- حجاجية النّقااض:

يشكّل بحث الحجاج من حيث بنيته وأساليبه في النّقااض التي دارت بين جرير والفرزدق جوهر هذا الموضوع، لذلك تراءى لنا أنّه من الضروري، وقبل أن نعرض آليات الحجاج وبنيته في النّقااض، أن نقف وقفة خاصّة على النّصوص الشعريّة التي كانت مجال الحجاج وهي النّقااض وخصوصية هذه النّصوص الشعريّة، وطرفا الحجاج وهما جرير والفرزدق، واصطبغ النّقااض بخصائص النّص الحجاجي، والغاية من كل ذلك هو الكشف عن إمكانية حضور الجانب الحجاجي في هذه النّصوص الشعريّة.

1- مجال الحجاج: النّقااض

النّقااض جمع نقيضة وهي مشتقة من الجذر اللّغوي "ن ق ض"، وقد ورد في لسان العرب أنّ النّقض إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء. وفي الصّحاح: النّقض نقض البناء والحبل والعهد، وناقضه في الشّيء مناقضة وناقضا: خالفه، والمناقضة في القول: أن يُتكلم بما يتناقض معناه، والمناقضة في الشعر: أن ينقض الشّاعر الآخر ما

¹ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 293.

قاله الأول¹. وعليه يكون المعنى اللغوي للتقائض قد انتقل من معناه الحسي الذي يتمثل في نقض البناء أو الحبل بعد عقده وإبرامه، إلى المعنوي المتمثل في نقض العهود والمواثيق، وفي نقض القول والإتيان بما يغيّره، ومن ثم الوصول إلى المناقضة بين الشعراء².

وقد حاول النقاد والدارسون تحديد مفهوم "التقائض"، ومنهم أحمد الشايب الذي حصر المفهوم الاصطلاحي للتقائض في قوله: ((الأصل فيها أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيا أو مُفتخرا، فيعمد الآخر إلى الردّ عليه هاجيا أو مفتخرا ملتزما بالبحر والقافية والرّوي الذي اختاره الأول))³.

أما عمر فروخ فقد ذهب إلى اعتبار ((النقيضة قصيدة يردّ بها شاعر على قصيدة لخصم له، فينقض معانيها عليه: يقلبُ فخر خصمه هجاءً، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو. وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها))⁴. وإلى المعنى ذاته يذهب الكثير من الدارسين الذين يكادون يجمعون على الاصطلاح نفسه؛ حيث نجد شوقي ضيف يقول: ((ينظم أحد الشعراء المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصّة ثم يأتي زميله فينقض قصيدته بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية))⁵.

وقد تراءى للبعض أنّ قيام التقائض على فكرة "التنقض" يجعلها ((تهدف إلى تشويه الأصل، وهي بذلك محاكاة ساخرة بما يمكن أن يكون فيها التنص المناقض صورة مقلوبة للنص المناقض... وعلى الرغم من ذلك فإنّ التقائض تخضع لقانون المماثلة والمشاكلة في الهيكلية النصية في شعرنا العربي، وذلك لأنها تخضع للوحدة الموسيقية ولوحدة الموضوع التقابلية))⁶.

¹ - ابن منظور: لسان العرب، مج 14، مادة ن ق ض، ص 339.

² - أحمد الشايب: تاريخ التقائض في الشعر العربي، ط 3، مكتبة النهضة المصرية، 1966، ص 03.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج 1، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ط 8، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 2006، ص 361.

⁵ - شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط 1، دار المعارف، مصر، د.ت، ص 168.

⁶ - بدران عبد الحسين محمود: التناس في شعر العصر الأموي، ط 1، دار غيداء، الأردن، 2012، ص 86.

ويتفق الدارسون على ضرورة اتفاق النقااض في الجانب الموسيقي المتمثل في وحدة البحر والقافية والروي*، واعتماد الإجابة من نفس البحر والروي لم تكن ميزة انفردت بها النقااض، بل كانت ((قاعدة مقررة في الموازنة بين شعر الشعراء، فقد كان النقاد ومنذ عصر امرئ القيس، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين، وازنوا بينهما في شعر متحد في الغرض وفي الوزن والقافية))¹، والجانب المضموني المتمثل في المعاني، و((الأصل العام فيها المقابلة والاختلاف لأنّ الشاعر الثاني همّه أن يُفسد على الأول معانيه فيردّها عليه إن كانت هجاءً، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه، وإن كانت فخراً كذّبه فيها، أو فسرها لصالحه هو، أو وضع إزاءها لنفسه وقومه))².

وفيما يخص المعنى يتبع الشعراء المتناقضان طرقاً مختلفة³ في بناء القصيدة منها:

- القلب: حيث يبدأ الشاعر الأول بالهجاء فيردّ عليه الثاني قالبا عليه معانيه ذاتها، مدّعيا أنّها من صفات الأول وقومه.
- المقابلة أو الموازنة: وهي أن يضع الثاني من المفاخر والمثالب ضروبا تقابل ما وضع الأول، وتكون مناظرة لها.
- التوجيه: وهو أن يتناول الشعراء حادثة واحدة، ويعمد كلّ واحد إلى تفسيرها بما يخدم مسعاه الخاص في الفخر أو الهجاء.
- التكذيب أو تنازع المآثر: وفيها يدّعي كلّ طرف مآثرة ويستأثر بها لنفسه أو قومه، ويحاول أن يبعد عنها الطرف الآخر.

* - بالنسبة للتقيد بالجانب الموسيقي في نقااض جرير والفرزدق تبين أن جريرا خرج عن البحر والروي وحركة الروي في حالة واحدة فقط حيث التزم الكامل وكان الروي غينا مضمومة، في حين كان ما قاله الفرزدق من بحر الطويل وكان الروي عين مكسورة. أما فيما يخص التزام حركة الروي فقد كان الاختلاف فيها شائعا بين شعراء النقااض. انظر محمد الأمين: ظاهرة النقااض في الشعر الأموي (مدخل عام)، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط1، 1999، ص23.

¹ - محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، مكتبة الآداب، مصر، د. ط، د. ت، ص114.

² - أحمد الشايب: تاريخ النقااض في الشعر العربي، ص04.

³ - للتوسع أكثر أنظر: المرجع السابق، ص27 وما بعدها.

وواضح أنّ هذه الطّرق على تباينها تشترك في السّعي لتحقيق هدف واحد هو إثبات الأفضلية للذّات مقابل إثبات الدونية للغير، مما يجعل حضورها مختلفا من نقيضة إلى أخرى وقد يتكاثف حضورها في النقيضة الواحدة ليكون تأثيرها أقوى وأسرع في إحراز الغلبة.

وتعتمد التّقائض على مختلف الأغراض الشعريّة، غير أنّ أكثر الأغراض حضورا هما: الفخر والهجاء؛ حيث ((تعتمد لعبة التّقائض التي أحالها العمالقة إلى فنّ متميّز، على صيغ المزوجات المتصارعة بين الفخر والهجاء، على المستويين الفردي والجماعي، ذلك أنّ الأطراف كلّها تلتقي في بوتقة واحدة يبرز سالبها من خلال موجبها، وموجبها من خلال سالبها، ويقوم كلّ شاعر من جهته بعرض المتناقضات التي تمثل ثنائية الجميل والقبيح، ومن خلال التقابل بين هاتين الصّفتين تتولد المعاني والأفكار))¹، وهما قد تلوّنا بصبغة جديدة فـ((الهجاء خرج عن المعاني الأوّلية البسيطة إلى معانٍ معقّدة عقّدها الظروف السّياسية المعاصرة، كما عقّدها الظروف العقلية والدينية الجديدة، بحيث أصبحت التّقائض وكأّها مناظرات أدبية طريفة))².

وترتكز التّقائض على جملة من المقوّمات، ونعني بالمقوّمات تلك الركائز التي قام عليها هذا الفنّ، والعناصر التي اتكأ عليها الشعراء في بناء نقائضهم وكانت بالنسبة لهم معينا ينهلون منه في الفخر أو الهجاء، وهذه المقوّمات هي³: الأيّام، والأحساب، والأنساب، وحوادث أخرى مختلفة. كما كانت المنافسة الشعريّة ضمن هذه المقوّمات، ذلك أنه لم تكن العداوة وحدها هي الدافع إلى الهجاء والمناقضة في كلّ الأحيان، فقد كان جزء كبير منها يعتمد على المهارة الفنيّة ويهدف إلى السّبق والتفوّق من النّاحية الشعريّة الخالصة. ولقد كان الفرزدق وجرير على ما بينهما من خصومات مريرة، يتبادلان فيها الهجاء والسّباب، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء، ويترافقان في الرّحلة، فلا يكون بينهما إلّا ما يكون بين الصديقين⁴.

¹ - هند بنت عبد الرزاق هويل المطيري: النفي في نقائض جرير والفرزدق. دراسة أسلوبية، ص 569.

² - شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 165-166.

³ - أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص 257 وما بعدها.

⁴ - محمد محمد حسين: الهجاء والمهاؤون في صدر الإسلام، ص 105-106.

وقد أشار الدارسون إلى أنّ شعر النّقائض في العصر الأموي كان لا يخلو من قيمة، فكان أشبه بوثيقة مصوّرة للجانب السّياسي والاجتماعي واللّغوي والأدبي¹. فقد كان شعر النّقائض مرآة عاكسة للعصر الأموي بكل تجلياته ((ويمثل النّاحية الأدبية فيه بنوع خاص، فقد رسم الحياة بخيرها وشرّها، وصوّر القيم الأخلاقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً، وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التي عاصرتة والتي سبقته، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم، ولهذه النّاحية ترجع معظم قيمة النّقائض عند الدارسين))². مع الإشارة إلى أنّ قيمة النّقائض متأتية أيضاً من قيمة الشعراء الذين صنعوها، إذ تجلّت فيها قدراتهم اللّغوية وبراعتهم الفنّيّة.

2- طرفا الحجاج: جرير والفرزدق

ينتمي جرير والفرزدق إلى أصل واحد وهو "تميم"، وتميم تتكوّن من قبائل متعدّدة وفروع كثيرة ((ومن أهمّ فروعها بنو الهُجيم وبنو مازن وبنو منقر وبلعنبر وعطاراد وبنو أنف التّاقة ويربوع ودارم، ومن يربوع عُدانة ورياح وثعلبة وكليب قبيلة جرير، ومن دارم بنو فُقيم وبنو نمشل وبنو مجاشع قوم الفرزدق))³.

فجرير هو جرير بن عطية بن الخطفي، والخطفي لقب، واسمه حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم بن مرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار. ويكنى أبا خزرة. وأمّ جرير أمّ قيس بنت مُعَيْد بن عُمَيْر بن مسعود بن حارثة بن عوف بن كليب بن يربوع⁴.

كان جرير من كُليب أحد غصون يربوع، وهو غصن كانت أوراقه جاقّة وأليافه يابسة إلى حدّ ما، فلم تكن له نضرة غصن دارم ومجاشع قوم الفرزدق ولا اخضرار أوراقه، فمجاشع كانت في الذروة العليا من تميم أمّا كليب فكانت في السفح والطبقة الدنيا⁵.

¹ - للمزيد انظر عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص 373-374.

² - محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ص 130.

³ - شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 142.

⁴ - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مج 8، تح احسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ط 3، دار صادر، بيروت، 2008، ص 05.

⁵ - المرجع السابق، ص 152.

وكان في عشيرته ضعف وتخلّف في ميادين المجد والشرف؛ حيث يروى أنّ رهطه بني كليب كانوا رعاة غنم وحمير. ولم يعرف عنهم بطولة وليس بينهم رؤساء ولا قادة، وهو السبب الذي جعل جريرا يرقى دائما بنسبه إلى يربوع إذ كان فيهم جرأة وبطولة¹.

أمّا الفرزدق فكان اسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم، والفرزدق لقب* غلب عليه. أمّه لينة بنت قرطة الضبيّة، وجدته (أمّ غالب) ليلي بنت حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع²، ووالده غالب كان يكتّى أبا الأخطل، وكان سيّد بادية تميم، وكان أعور³.

ولم يكن جرير والفرزدق يحظيان بالامتيازات ذاتها، فثمة فوارق تباعد بينهما وترفع أحدهما فوق الآخر، فقد ثبت أنّ عطية والد جرير لم يكن مثل غالب أبي الفرزدق في سؤدده وشرفه، وجرير لم يكن له من الشرف والسيادة ما يعتزّ به أمام سيادة الفرزدق وشرفه، وإن كان ذلك قد فاته في النسب فإنه لم يفته في الشعر والفرق، فاستطاع أن يصل إلى مرتبة رفيعة فيهما لا تقلّ عن مرتبة الفرزدق صاحب الحسب والنسب الرفيع غير أنه لم يكن ليعتزّ بأبائه وقبيلته اعتزاز الفرزدق⁴.

ولأنّ جريرا قد أدرك أنّ الفرزدق قد فاقه في كثير من الامتيازات، لذلك عوّل على رهان آخر رأى فيه إمكانية التفوّق على الفرزدق وهو القدرة الشعريّة التي امتلكها واستطاع بها أن يبارز مجموعا من الشعراء فلم يقف له أحد

¹ - محمد عبد العزيز الكفراوي: جرير ونقائضه مع شعراء عصره، ص 08.

* - الفرزدق هو الرغيف الضخم الذي تحفّفه النساء للفتوت، وقيل: بل هو القطعة من العجين التي تبسط، فيخيز منها الرغيف، شبه وجهه بذلك لأنه كان غليظا جهما. أنظر الأصفهاني: الأغاني، ج 21، ص 193.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج 1، تح أحمد محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، د. ط، 2006، ص 462.

⁴ - شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 152.

3- النقائص وخصائص النص الحجاجي الشعري:

يذهب شوقي ضيف إلى أنّ نقائص جرير والفرزدق لم تكن إلاّ مناظرات أدبية وذلك انطلاقاً من كونهما ((كانا يحضران مجالس العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم. وعلى ضوء هذه المناقشات والمحاورات وفي ظلّها ألفا نقائضهما في المفاضلة بين عشيرتيهما من جهة وبين تميم وقيس من جهة ثانية. وكما يحاول صاحب النحلة من النحل أن يستدلّ على نحلته وأن يفنّد أدلة خصمه كانا يستدلان على نحلتهما العصبية في عشيرتيهما، وفي تميم وقيس، وكانا يرفدان شعرهما أو نقائضهما بكلّ ما يمكن من حجج وبراهين، يؤيدان بها وجهة نظرهما، وفي الوقت نفسه كانا يأتیان بكلّ ما يمكن من أدلة وبراهين لتحطيم أمجاد تميم وقيس))¹.

ولعلّ التطور العقلي الذي شهدته البصرة آنذاك والذي جسّده انتشار المناقشات والمحاورات هو الذي ((لّقن جريراً والفرزدق القدرة على الحوار والجدل، ومكّن في شعرهما لفكرة التعليل والتسبيب ووضع المقدمات))². وواضح أنّ جريراً والفرزدق قد استفادا من تلك الظروف التي هيأت لهما المحاجة ضمن تلك المنافسة الطويلة بينهما على الزعامة الشعرية.

صحيح أنّ الخطاب الشعري يخاطب العاطفة ويثير الانفعال ((إلاّ أنّه يتوجّه مع ذلك إلى الفكر ويوظّف تقنيات للبرهنة والاستدلال على أحكام ودلالات يروم الإقناع بها بعد أن يكون قد خيلها في النفس انطلاقاً من أساليب خاصّة تنسجم مع طبيعته الجمالية وخصائصه الإيحائية))³. ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ النصّ الشعري ينهض بوظائف مختلفة، تعدّ الوظيفة الإقناعية واحدة منها، ذلك أنّ النصّ الشعري يهدف إلى ((الحثّ والتحرير والإقناع والحجاج، وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه))⁴. وكلّ هذه الأمور قد سجّلت حضورها وبقوة، خاصّة إذا انطلقنا من كون النقائص خصومة، وقد قامت تلك الخصومة الأدبية على تبادل التّهم؛ حيث حاول كلّ شاعر تنفيذها باعتماد

¹- شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 185.

²- المرجع نفسه، ص 185.

³- يوسف الإدريسي: الحجاج والتخييل، مجلة فكر ونقد، الدار البيضاء، المغرب، ع 100، سنة 2009، ص 84.

⁴- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 35.

الحجج والأدلة والبراهين المختلفة، وسعي كل واحد منهما إلى إقناع الآخرين بصحة ما ذهب إليه، وهذا هو ما يشكل جوهر العملية الحجاجية، مما يعني أن النقائض نصوص حجاجية.

وإن كنا قد سلّمنا بحجاجية النقائض فلا بدّ وأنها تتسم بتلك الخصائص التي يميّز بها النص الحجاجي الشعري وتعدّ سمات فارقة بينه وبين غيره من النصوص، فإلى أيّ مدى استطاعت النقائض أن تحوي هذه الخصائص؟

حدّد محمد عبد الباسط عيد جملة من الخصائص¹، التي تسم النص الشعري الحجاجي، والتي يمكننا من خلالها، الحكم بحجاجيته. وفيما يأتي نستعرض هذه الخصائص مع البحث في مدى توافرها في النقائض، ومدى قابليتها للبحث الحجاجي. وهذه الخصائص هي:

- النص الحجاجي ذو غاية محدّدة، يروم حمل متلقيه على الإيمان بها، أو تبنيها أو العمل بمقتضاها ومن المنطقي أن يكون موضوعه خلافاً على مستوى الموضوع والبناء. وكذلك النقائض، ذات غاية محدّدة يسعى من خلالها الشاعر إلى إثبات الأفضلية لنفسه، وإلحاق الدونية بخصمه، ويستند، في ذلك، على جملة من الحجج التي تدّعم ما يذهب إليه. كما أنّ الخلاف واقع بين الشعراء، حتّى إنّ الحجّة الواحدة يستعملها الشاعر لصالحه فيقلبها الشاعر الآخر عليه.

- النص الحجاجي يتكئ بشكل واضح على مبدأ "الحوار" أو "التحاور" بين طرفي التخاطب، وهو ما يضمن حضور الخصم أو حججه في النص، سواء أكان الحضور إمكانيًا أو مفترضا. وكذلك النقائض تقوم على مبدأ الحوار وبامتياز، ذلك أنّ الشاعر الأول يقول قصيدته متوجّهاً بها إلى خصمه، الذي لا يلبث أن يردّ عليه. وهي سمة أساسية تدخل في طبيعة التقيضة، والأكثر تدليلاً على هذا، هو أنّ نقائض جرير والفرزدق امتدّت لأكثر من أربعين سنة، ولم تتوقّف إلاّ بموت الأخير.

- النص الحجاجي ينهض على دعوة واحدة في الغالب، هي مركز حججه وعلة وجوده، إليها تؤوب التفاصيل على اختلافها، وإليها تردّ الحجج على تنوعها، هي محرّك الخطاب، وهي سبب تماسكه التصي.

¹ - محمد عبد الباسط عيد: في حجاج النص الشعري، ص 43-44-45.

ونقائض جرير والفرزدق، على طول الفترة الزمنية التي أنتجتها والتي تجاوزت الأربعين سنة، ظلت قائمة على دعوى واحدة، وهي سعي كل واحد إلى إثبات الأفضلية لنفسه ومحاولة التيل من خصمه، وقد أورد كل واحد جملة من الحجج، واستخدم كثيرا من الآليات الحجاجية، لكنّها على اختلافها كانت تحدم دعوى أساسية واحدة، وهو ما أوقع الشعاعين في التكرار.

وباتسام النقائض بخصائص النص الحجاجي الشعري، نكون قد أسسنا لبحث الحجاج في نقائض جرير والفرزدق وهو الأمر الذي نتبينه من خلال الفصول التالية، والتي نستنتج من خلالها النصوص الشعرية التي تشكّلها نقائض جرير والفرزدق، وذلك بالوقوف على مختلف الآليات الحجاجية الموظفة من قبل كل شاعر.

وبهذا نكون قد أسدلنا الستار على الفصل الأول الذي كان دراسة نظرية محضّة، وسنذيله ببعض الملاحظات وهي:

- تكاد تجمع المعاجم على اختلافها أنّ الحجاج معناه الخصومة بين طرفين، والسعي إلى إبراز الغلبة باعتماد الحجج والبراهين المختلفة.

- نشأ الحجاج في حضن الفلسفة اليونانية؛ حيث أخطأ الغاية على يد السوفسطائيين لكن أعاده أفلاطون وأرسطو إلى مساره الصحيح .

- كان للبلاغيين العرب نصيبهم من درس الحجاج من خلال إثارهم لقضايا بيانية ترتبط بالإفهام والإقناع.

- لم يكن الدارسون العرب ببعيد عما جاء به الباحثون الغربيون فراحوا ينهلون من فيض معارفهم، وتوزعت جهودهم بين شرح النظريات الغربية وتبسيطها، وبين التطبيق على مختلف الأجناس الأدبية ويأتي في مقدمتها النصوص الشعرية، ومنهم صولة والعزاوي والعمري وغيرهم. في حين ينفرد طه عبد الرحمان في الجانب التأصيلي استنادا إلى توجهاته الفلسفية.

- لا يختلف الشعر عن النثر (الخطابة) في نهوضه بالعملية الإقناعية، وإن كان لا يحفل بالصدق ويقوم على التخييل، فإنّ ذلك الجانب هو الذي يثير النفوس بما ينقل إليها من صور فيحرك انفعالها بالاستحسان أو الاستهجان، وبالتالي يحملها على الإذعان أو التّرك.

-النقائض في طبيعتها مبنية أساسا على الخصومة(المنافسة) وشاعراها جرير والفرزدق تحذوها رغبة جامحة في إثبات الأفضلية وبالتالي تسخير كلّ الوسائل لتحقيق الغلبة مما يجعل الحجاج حاضرا فيها وبقوّة. وشاعراها لهما من الخصوصية ما يغذي تلك الرغبة المستميتة في الفوز.

الفصل الثّاني

الفصل الثاني: آليات الحجاج البلاغية في النّقائض

المبحث الأول: التشبيه

- أنواع التشبيه
- وظيفة التشبيه
- التشبيه في النّقائض

المبحث الثاني: التمثيل

- تعريف التمثيل
- أثر التمثيل
- التمثيل في النّقائض

المبحث الثالث: الاستعارة

- حجاجية الاستعارة في الدّراسات القديمة
- حجاجية الاستعارة في الدّراسات المعاصرة
- الاستعارات الحجاجية في النّقائض

المبحث الرابع: الكناية

- تعريف الكناية
- وظيفة الكناية
- الكناية في الدراسات المعاصرة
- الكنايات في النّقائض

المبحث الخامس: البديع

- المطابقة
- المقابلة

تعدّ البلاغة شكلا من أشكال التعبير الجمالي في مختلف صوّرها الفنية من جهة، وآليات حجاجة من جهة أخرى، ذلك أنّها تسهم في إبراز الجوانب الإقناعية في تحديد بنية الصّورة الفنية من خلال الاعتماد على طبيعة الاستدلال في تشكيل الصّورة وبنائها، من هنا فإنّ هذا الفصل يبحث في مختلف الآليات البلاغية التي احتوتها مدوّنة البحث، وذلك بالوقوف على مختلف الصّور البيانية التي تحفل بها نقائص جرير والفرزدق انطلاقا من كون التعبير بالصّورة من الأساليب الهامة التي يعتمد عليها الشاعر في بناء قصيدته خاصّة وأنّ ((الأداء بالصّورة من الأساليب المهمة في الشعر العربي، وهي واحدة من أبرز عناصره لما تنطوي عليه من تحليل في المعنى وتعليقه، ولما تمثّله من جمالية في التعبير، ولما تحقّقه من غاية في البيان وقدرة في التأثير في المتلقي))¹.

وفي موضوعنا هذا، لا ننف بالصّورة عند غايتها الجمالية، وإنما نسعى لكشف غايتها الحجاجة الإقناعية وكيف وظّفها كلّ من الشاعرين بغية التأثير والإقناع.

فإذا عدنا إلى أساس الصّور البيانية نجد أنّها إمّا تقوم على المشابهة وإمّا تقوم على المجاورة. ونحن إذ نقيم مشابهة بين طرفين، أي نشبّه الطرف الأوّل بالطرف الثاني، كأننا نقيس طرفا على طرف آخر، أي نستدل بهذا الطرف لمعرفة الطرف الآخر مما يجعلنا نسلم بالطبيعة الاستدلالية للصّورة البيانية. فالمشابهة تقوم على القياس والقياس استدلال، والصّور البيانية من ((تشبيه واستعارة وكناية ما هي إلّا قياسات يسوقها الكاتب أو الشّاعر كحجّة أو دليل على صحّة المعنى السّابق، بغية إقناع المخاطب والتأثير فيه))².

ورد في المعجم الفلسفي ((القياس التقدير، يُقال: قاس الشّيء إذا قدّره، ويستعمل أيضا في التشبيه، أي في تشبيه الشّيء بالشّيء، يقال هذا قياس ذاك إذا كان بينهما تشابه))³. وللقياس أنواع فإمّا أن يكون برهانيا مؤلفا من المقدمات الواجب قبولها، إن كانت ضرورية يستنتج منها الضروري، على نحو ضرورتها، أو ممكنة يستنتج منها الممكن. وإمّا أن يكون إقناعيا، وهو الذي إن أوقع تصديقا شبيها باليقين جدليا، وإن أوقع ظنا غالبا خطايا، وإمّا أن يكون شعريا وهو الذي لا يوقع تصديقا البتّة، ولكن تخيلا يرغّب النّفس في شيء أو ينقّرها

¹ - صالح محمد حسن: الصورة الشعرية ونماذجها بين جرير والفرزدق، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، مج 9، ع 4، 2010، ص 233.

² - علي محمد علي سلمان: الحجج عند البلاغيين العرب ضمن كتاب: الحجج والاستدلال الحجاجي. ص 24.

³ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج 2، ص 207.

أو يبسطها أو يقبضها. وإما أن يكون سفسطائيا وهو الذي يتراءى أنه برهاني أو جدلي ولا يكون كذلك¹.

وعرّف ابن وهب القياس فقال: ((وليس يجب القياس إلاّ عن قول يتقدّم فيكون القياس نتيجة ذلك كقولنا: إذا كان الحيّ حساسا متحرّكا، فالإنسان حيّ. وربما كان ذلك في اللسان العربي مقدّمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتّجه من افهام المخاطب. فأما أصحاب المنطق فيقولون إنّه لا يجب قياس إلاّ عن مقدمتين لإحدهما بالأخرى تعلق، والقول على الحقيقة كما قالوا، وإنما يُكتفى في لسان العرب بمقدّمة واحدة على التوسّع وعلم المخاطب))². والقياس على هذا نوع من الاستدلال، فكما يُستدل بالخبر لإيقاع التصديق والإقناع، فكذلك يُستدل بالقياس، والقياس عند البيانين لا يعني بالضرورة استخراج نتيجة لازمة عن مقدمتين كما هو في القياس الأرسطي³.

إذن فالاستدلال أو الاحتجاج أو الاعتبار الذي نجدّه في كتب البيانين والنقاد والفقهاء وغيرهم ممّن يتعاطى صناعة تحليل الخطاب هو قياس، وربما تجنّب بعضهم لفظ القياس لاعتبارات عقديّة ودينيّة، لما يشوب القياس أحيانا من إشكالات ومحاذير.

ومن ثمّ يسمّون الحجّة والدليل استدلالا أو اعتبارا، والاعتبار هو العبور من المعلوم إلى المجهول، أي العبور من الأصل إلى الفرع، أو من الشاهد إلى الغائب، أو من حكم معلوم إلى حكم مجهول⁴، وهذا ما يؤكّده ابن وهب بقوله: ((والطريق إلى علم باطن الأشياء في ذواتها، والوقوف على أحكامها ومعانيها من جهتين وهما: القياس والخبر. وحجّتنا في القياس أنّ الله عزّ وجلّ قال: ((فاعتبروا يا أولي الأبصار)) الحشر 20. وكذلك الأمثال التي جاءت في كتابه ك (مثل كذا وكذا) في مواضع كثيرة، وذلك كلّه تشبيه وقياس))⁵.

¹ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج 2، ص 209.

² - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 77-78.

³ - علي محمد علي سلمان: الحجج عند البلاغيين العرب ضمن كتاب: الحجج والاستدلال الحجاجي، ص 22.

⁴ - المرجع نفسه، ص 23.

⁵ - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 73-74.

والقياس على هذا يتسع ليشمل التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية، وهذا الأمر قد أكدّه غير واحد من البيانين، لأنّ القياس استدلال، والمستدل ((يفتّن فيسلك تارة طريق التصريح فيتّم الدلالة، وأخرى طريق الكناية))¹.

وفيما يأتي سنتعرض بالدراسة للصوّر على اختلافها سواء كانت قائمة على المشابهة، أو تلك التي انبنت على المجاورة مركزين أكثر على الوظيفة الحجاجية التي تؤديها هذه الصوّر ضمن نقائض جرير والفرزدق.

¹-السكاكي: مفتاح العلوم، ص 510.

المبحث الأول:

التشبيه:

يعدّ التشبيه من المباحث البلاغية التي أولاها البلاغيون اهتمامهم، وذلك في إطار دراستهم للصورة الشعرية، باعتبار التشبيه من أهم أشكال البلاغة وأكثرها استعمالاً في الشعر خصوصاً الشعر القديم. فالتعريف اللغوي ينطوي على معانٍ متعدّدة هي: المشابهة، والمماثلة، والمشكلات، والتمثيل، والالتباس. وإن تعدّدت هذه المصطلحات واختلفت ظاهرياً فإنّ ثمة إطاراً يجمع بينها يتمثّل في معنى المساواة الذي يكاد يكون الشّيء المشترك بين تلك المعاني¹. على أنّ التشبيه لا يعني المساواة التامة، وإنما الاشتراك والمماثلة في بعض الصفات؛ بحيث لا تصل إلى حدّ المطابقة.

1- أنواع التشبيه:

أفاض البلاغيون في حديثهم عن التشبيه، وتناولوه من جوانبه المختلفة. ويُعدّ الحديث عن أنواعه واحداً من هذه الجوانب التي شغلت اهتمامهم، وقد جعل عبد القاهر الجرجاني التشبيه نوعين:

الأول: ((أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأوّل))²، أي أنّ الصورة تكون واضحة، ومثاله تشبيه الشّيء بالشّيء من جهة الصورة والشكل، أو اللون، أو جمع الصورة واللون، أو الهيئة، أو الجمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس، أو التشبيه من جهة الغريزة والطباع³. و النوع الثاني: ((هو الشبه الذي يحصل بضرب من التأوّل. كقولك هذه حجّة كالشمس في الظهور))⁴. وهنا لا نقف على أطراف الصورة بينة جليّة، بل نحتاج إلى إعمال العقل في تأوّل معناها. وهو الأمر الذي يتحدّد وفقه نوع التشبيه، ذلك أنّ تحديد نوع التشبيه يرتبط ارتباطاً مباشراً بطريقة تلقّي هذا التشبيه وحصول استيعابه في الذهن إن كان بطريقة مباشرة أو بتأويل المعنى الذي يتبطنه ذلك التشبيه.

¹ - عطية أحمد أبو الهيجاء: التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني بوصفه معياراً نقدياً، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الكويت، مج 42، عدد يوليو سبتمبر، 2013، ص 24.

² - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 74.

³ - المصدر نفسه، ص 74-75.

⁴ - المصدر نفسه، ص 75.

2- وظيفة التشبيه:

تحَدَّدت وظيفة التشبيه عند الدارسين العرب القدامى في كونه يعمل على التقريب بين الأشياء المتباعدة من وجه أو من وجوه عدَّة، وليس من الوجوه كلّها، وفي ذلك يقول قدامة بن جعفر: ((إنَّه من الأمور المعلومة أنَّ الشَّيء لا يشبَّه بنفسه ولا بغيره من كلِّ الجهات إذ كان الشَّيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتَّة اتحداً، فصار الاثنان واحداً، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معانٍ تعمَّهما، أو يوصفان بها وافتراق في أشياء ينفرد كلٌّ واحد منهما بصفتهما))¹. وعليه، فهو يؤكِّد على عدم المماثلة التامة من خلال القول بوجود نقاط اختلاف بين طرفي التشبيه.

ولم ينفرد قدامة بهذه الملاحظة، بل وافقه فيها غيره من العلماء ومنهم أبو هلال العسكري؛ حيث قال: ((ويصحَّ تشبيه الشَّيء بالشَّيء جملة، وإن شابهه من وجه واحد... ولو أشبه الشَّيء الشَّيء من جميع جهاته لكان هو هو))². ممَّا يعني أنَّه إذا أشبه الشَّيء الشَّيء من جميع الوجوه لم يعد هناك مشابهة بل مطابقة، ولا يمكن أن تحدث المطابقة التامة بين شيئين إلاَّ وكانا شيئاً واحداً.

وإلى الأمر ذاته ذهب ابن رشيق حين اعتبر أنَّ ((التشبيه صفة الشَّيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنَّه لو ناسبه مناسبة كليَّة لكان إياه، ألا ترى في قولهم: "حدَّ كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صُفرة وسطه وحضرة كمامه، وكذلك قولهم: "فلان كالبحر، أو كاللَّيث" إنما يريدون كالبحر سماحة وعلماً، وكاللَّيث شجاعة وقرماً))³. وعليه يقوم التشبيه أساساً على رصد أوجه التشابه أكثر من أوجه الاختلاف فـ ((أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشَّيئين اشتراكهما في الصِّفات أكثر من انفرادهما فيها، حتَّى يديني بهما إلى حال الإتحاد))⁴.

لقد كانت وظيفة التشبيه بيانية، فهي توضِّح المعنى ((وتقرَّب بعيده، وتحذف فضوله، وتصوره في نفس المتلقي أبين تصوير وأوضحه))⁵. وإنَّ حصر وظيفة التشبيه في التوضيح والكشف والتقريب والتوكيد يجعل

¹ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 124.

² - العسكري: الصناعتين، ص 213.

³ - ابن رشيق: العمدة، ج 1، ص 237.

⁴ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 124.

⁵ - جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط 3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1992، ص 333.

منطلقها أحادي أو تجزيئي، انطلقت من حاجة المتلقي إلى الوضوح والتقريب ولم تنطلق من الموقف المقامي ككل لا يتجزأ¹.

ويأتي اهتمام المحدثين بالتشبيه لأنهم رأوا فيه الوجه البلاغي الأكثر تداولاً بين الشعراء. يقول جابر عصفور: ((نلاحظ أنّ الطرفين في التشبيه لا يتحدان، فيظلّ لكلّ منهما شخصيته المستقلة، ولهذا فإنّ التشبيه يفيد الغيرية، ولا يفيد العينية، ويوقع الائتلاف بين المختلفات ولا يوقع الاتحاد))². فالتشبيه إذن يثبت وجود طرفين بينهما تشابه كبير لكنه لا يصل حد المطابقة، فهو يقول بتقارب المسافات لكن لا يلغيها، كما أنّ التشبيه لا يثبت التماثل فحسب بل يثبت الاختلاف أيضاً.

وبعد أن وقفنا على التشبيه ووظيفته، ننتقل فيما يأتي إلى رصد بعض نماذج التشبيه في نقائض جرير والفرزدق، وغايتنا من ذلك كشف كيف يمكن للتشبيه، كمكوّن بلاغي، أن يؤدّي دوره الإقناعي داخل العملية الحجاجية.

3- التشبيه في النقائض:

انبتت النقائض، في العصر الأموي خاصة، على جملة من المقومّات التي تشكّل لبنات أساسية في بنائها وهي على العموم تدخل في باب الأيام، والأنساب والأحساب، والدين، والشعر، والشمائل والحوادث الاجتماعية والمواقف السياسية³.

وبالنظر إلى هذه المقومّات نلاحظ أنّها تستوفي كلّ ما يمكن أن تحتويه النقائض، غير أنّه تبقى لكلّ خصومة خصوصيتها المنبعثة أساساً من خصوصية الشعارين اللذين يصنعانها. وعليه نجد أنّ المعاني الأكثر دوراً في شعر جرير هي ((القين، وجعثن، والزبير، والزنا، وضربة الرومي في هجائه للفرزدق، كما فخر بتقواه وأيام يربوع وقيس والردافة والإجازة، وأنّ الفرزدق أكثر من ذكر ضعة جرير، وفقره، وافتخر بالجوّد والمعاقرة، وإحياء الموءودات والإجارة بقبر أبيه ورجالات قومه))⁴.

¹ -علي محمد علي سلمان: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذجاً)، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان 2010، ص 253.

² -جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 137.

³ -أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص 257.

⁴ -المرجع نفسه، ص 330.

وإن كانت هذه أغلب المعاني التي تناولها جرير والفرزدق في نقائضهما، فإنّ طريقة تناولها لا بدّ وأتمّها تكون مختلفة من موضع إلى آخر؛ بحيث يظهرها الشّاعر بصبغة مختلفة وبتفاصيل مغايرة وإلاّ وقع في التكرار الذي تمجّه العقول والنّفوس. وقد تلوّنت أساليب التعبير البلاغية عند الشّاعرين وتوزّعت بين تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية، لكنّها توحدت في إظهار مهارة الشّاعر الفنية وقدرته على احتواء المعاني وإخراجها في صورة جمالية مؤثرة ومقنعة.

ويعدّ التشبيه من الوسائل البلاغية التي لا يغفلها الشّاعر في بناء نصه الشعري، كما لا يخلو منه أيّ غرض شعري ممّا يعني أنّ التشبيه حاضر في نقائض جرير والفرزدق ملتصق بمختلف أغراضهما الشعرية غير أنّنا سنضيق مجال الدّراسة لنحصرها في غرضين شعريين يبدو حضورهما بارزا في النقيضة وهما الفخر والهجاء. وفيما يأتي سنقف عند بعض التشبيهات التي أوردها كلا الشّاعرين ضمن غرضي الفخر والهجاء، والتي نستطيع من خلالها إبراز قدرتها على التأثير والإقناع.

1- تشبيهات الفخر:

كان لتشبيهات الفخر حضورها البارز في شعر جرير والفرزدق لأنّها مكنتهما من التعبير عن ((شعورهما بالرّهو والإعجاب بنفسيهما وشاعريتهما وبيئتهما وبها تنافسا أيضا، فأخذا من الأسود صورا للشّجاعة والبطولة، ومن الجبال صورا للشموخ والعظمة، ومن شخصية القيم الأخلاقية العربية صورا للكرم والمكانة السامية))¹.

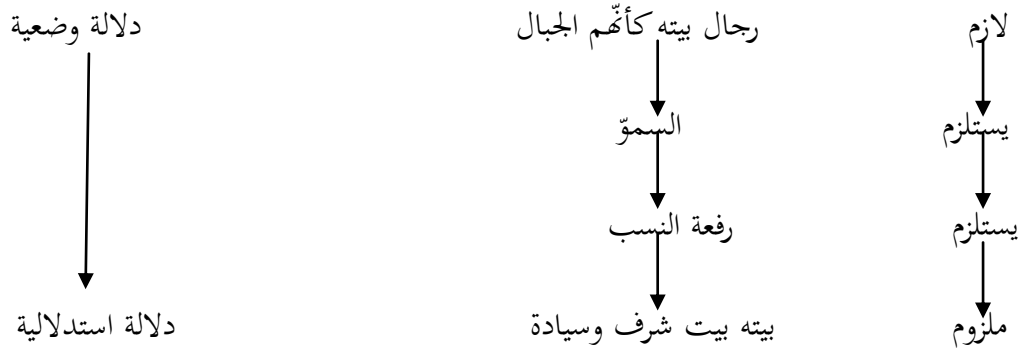
لقد كان الفخر بالنسب والانتماء القبلي أهمّ ما يفخر به الإنسان العربي، لذلك ما فتىّ الشّعراء يلحّون على هذا الفخر، خاصّة إذا كان الشّاعر يتكئ على نسب شريف ويحظى بقبيلة ذات جاه وسيادة، ويكون الإصرار على إبراز هذا الجانب أكثر إذا كان الشّاعر يتباهى أمام من هو دونه مكانة. وقد حظي الفرزدق بنسب شكّل جانبا كبيرا من مادة فخره. يقول:

¹ - صالح محمد حسن: الصورة الشعرية ونماذجها بين جرير والفرزدق، ص 236 .

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعْرُ وَأَطْوَلُ
بَيْتًا زُرَّارَةً مُحْتَبٍ بِفِنَائِهِ
وَمُجَاشِعٌ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ
يَلِجُونَ بَيْتَ مُجَاشِعٍ وَإِذَا احْتَبَوْا
بَرَزُوا كَأَنَّهُمْ الْجِبَالَ الْمُثَلَّ¹

فالفرزدق يفخر بنسبه أمام خصمه جرير مستعملا في ذلك لفظ "بيت"، وضمن هذه الصورة الكلية أورد صورة جزئية تشبيهية لرجال عظماء يملؤون فناء البيت يدخلون ويخرجون كأهم الجبال. وقد ترك الصورة مفتوحة ليضع المتلقي ما يشاء من صفات تليق برجال ينتمون إلى هذا البيت. ثم ألح على إبراز الصورة بتكرار مفردة "البيت" ثلاث مرات على التوالي، وارتباط هذا البيت بجدهم "مجاشع"، هذا الذي جعله رمزا لكل شخص من قومه².

وتظهر حجاجة الصورة القائمة على التشبيه من خلال العلاقة الاستدلالية، التي يعمل فيها المخاطب فكره من أجل الوصول إلى أطراف هذه الصورة، وبذلك فهو يساهم في بنائها. وعليه يمكننا تأويل الصورة التشبيهية السابقة كما يأتي:



ويفتخر الفرزدق بجانب معنوي من شأنه أن يعزز مجالات القوة والسيادة لديه وهي الفخر برجاحة العقل فيقول:

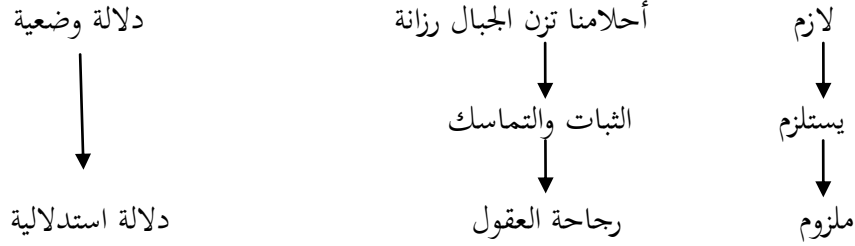
أَحْلَامُنَا تَرْنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً
وَتَحَالُنَا جِنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ³

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 134-135.

² - صالح محمد حسن: الصورة الشعرية ونماذجها بين جرير والفرزدق، ص 236.

³ - المصدر السابق، ص 138.

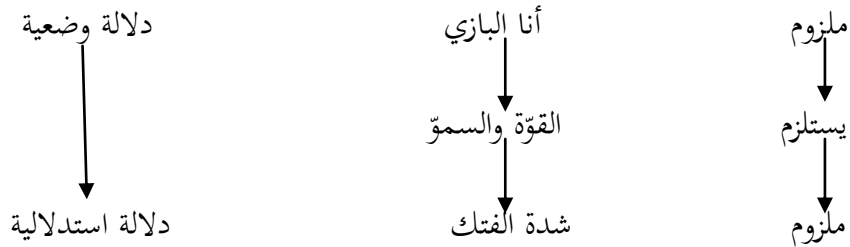
وقد تضمّن البيت تشبيهين؛ حيث شبّه رزانة عقولهم بالجبال الراسيات كما شبّه قومه عندما يستفزههم العدو بالحنّ، ويصبّ هذا كلاً في الاعتداد بالنفس. ويمكننا تأويل دلالة البيت كالآتي:



ولم يكن استحضار التشبيه في الفخر ممّا شغل بال الفرزدق فحسب، بل نجد جريراً هو الآخر يعتمد عليه في إبراز جوانب القوّة المختلفة، سواء أتعلّق الأمر بذاته أو بقبيلته. ومن ذلك ما أورده جرير مفاخراً بقوّته في مجال الشّعر خاصة الهجاء؛ حيث يقول:

أنا البازي المذلُّ على نُميرٍ أُتحتُ من السّماءِ لها انصباباً¹

لقد ألقى جرير بثقل هجائه على "بني نُمير"، وقد شبّه نفسه في هجومه عليهم بالبازي الذي ينصبّ عليهم من السّماء فلا يخطّئهم، نظراً لما يميّز به من بصر ثاقب وسرعة وقوّة انقضاض، مما يعني هلاكهم. وجرير إن شبّه نفسه بالبازي فإنه يستوحي منه السموّ وقوّة الفتك، وكذلك هو تفتك قصائده الهجائية ببني نُمير فلا تبقي لهم ذكراً طيباً. ويمكن تمثيل معنى البيت كما يأتي:



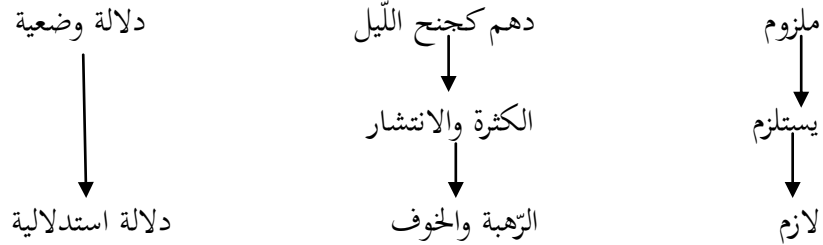
ولا يقف جرير عند المفاخرة ببراعته الشعريّة، بل ينتقل إلى مجال المنافسة الفعلية التي يصنعها فرسان القبيلة وأبطالها؛ حيث نجده يقول:

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 318.

وَدَهْمٍ كَجُنْحِ اللَّيْلِ زُرْنَا بِهِ الْعِدَى
لَهُ عَشِيرٌ مِمَّا تَشِيرُ قَنَابِلَهُ¹

وفيه شبه الجيش بجنح الليل أي ظلّ الليل على الأرض في كثرة عدده وجمع أهله وسواده، هذا الجيش يثير الغبار بخيله المنقسم جماعات جماعات، وكلّ هذا من شأنه أن يثير الرعب والملح في نفوس الأعداء.

ويمكن توضيح معنى البيت كما يأتي:



ويبقى مجال المفاخرة مفتوحا بين الشاعرين وعلى أوسع نطاق، غير أننا توقّفنا مع بعض النماذج التشبيهية على سبيل التمثيل والتوضيح فقط، وفيما يأتي سنفتح المجال لنقف على نماذج تشبيهية أخرى ولكن في باب الهجاء.

2- تشبيهات الهجاء:

انطلاقاً من فن النقائض وما تقوم عليه من الإدعاء والنقض لا يسع جرير إلا اعتبار مفاخر الفرزدق ما هي إلا مزاعم، فينقض المعاني التي جاء بها خصمه ويقلبها عليه بالطعن في نسبه، ومنها ينطلق إلى التفخر بعلوّ نسبه هو فيقول:

وَنَبَى بِنَاءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ دَنَسًا مَقَاعِئِدُهُ خَبِيثَ الْمَدْحَلِ فَهَدَمْتُ بَيْتَكُمْ بِمِثْلِي يَدْبُلُ ²	أَخْرَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعًا بَيْتًا يُحَمِّمُ قِيُنُكُمْ بِفِنَائِهِ وَلَقَدْ بَنَيْتَ أَخْسَ بَيْتٍ يُبْتَنَى
--	---

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 78.

²- المصدر نفسه، مج 1، ص 156.

عندما يوظف الشاعر التشبيه في مجال المهجاء نجد كل شاعر يعمد إلى ((رسم نموذج معين لشخصية خصمه والانتقاص منها وهدم مجدها وإصاق كل ما يشين بها وكل ذلك يتم من خلال الصور التشبيهية ذات الفاعلية في إبراز مشاعر الحقد والكراهية وحبّ التشفي والانتقام))¹.

لقد حاول كل شاعر التّيل من خصمه من خلال إظهاره بمظهر مضحك مثير للسخرية وذلك بالتركيز على العيوب الخلقية والخلقية على حدّ السواء، وخلق مشابهة يكون فيها الشاعر الخصم الطرف الأول في حين يكون الطرف الثاني هو الطرف المتضمّن للسخرية والاستهزاء، كالتشبيه بالحيوان وغيره من النماذج الأخرى كما يتّضح من قول جرير:

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا وَجَاءَتْ بُوْرُوَازٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ²

احتوت هذه الصورة الشعريّة على تشبيه بليغ بناها جرير على الجانبين الخلفي والخلقي وبالتالي جاءت صورة ذات وجهين: ((الأول معنوي/ديني إذ ألصق به صفة الفجور التي تُعدّ صفة ذميمة بوصفها تضمّ مجموعة من المخالفات الشرعية. والثاني مادي/خلقي إذ جعله قردا قصير القوائم، وقد استعمل مفردة (وزواز) التي شكّلت صورة سمعية تشمئز منها الأسماع والتّفوس))³.

وقد عمد الشاعران إلى توظيف صور الحيوانات في تشبيهاتهما الهجائية وبما يتناسب والصّفة التي يُراد إصاقها بالآخر. ومن تلك التشبيهات ما ألحقه الفرزدق بجرير حينما شبّهه بالكلب في قوله:

فَإِنَّكَ كَلْبٌ مِنْ كَلْبٍ لِكَلْبَةٍ غَدَّتْكَ كَلْبٌ فِي خَبِيثِ الْمَطَاعِمِ⁴

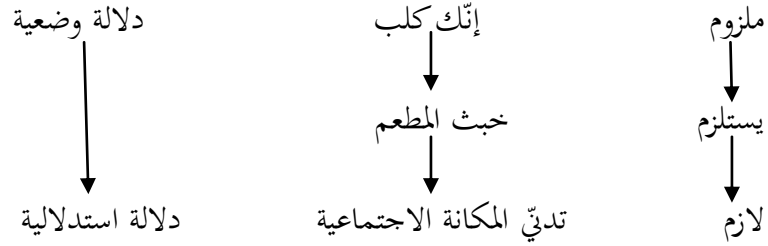
وفيه يتعمّد الإساءة إلى أبعد ما يحمله التشبيه بالحيوان من إساءة، خاصّة وقد وسّع دائرته لتشمل الأب والأمّ والعشيرة كلّها. وتتنزّل هذه الصورة المبنية على التشبيه البليغ في مجال السخرية، ولا بدّ وأنّ الفرزدق قد بلغ مراده بها، وقد ربط التشبيه بالمطاعم الخبيثة ممّا يحيل على الصّعة والهوان. ويمكن تتبع معنى البيت كما يأتي:

¹ -صالح محمد حسن: الصورة الشعرية ونماذجها بين جرير والفرزدق، ص 238.

² -نقائض جرير والفرزدق، ج 2، ص 158-159.

³ -المرجع السابق، ص 238.

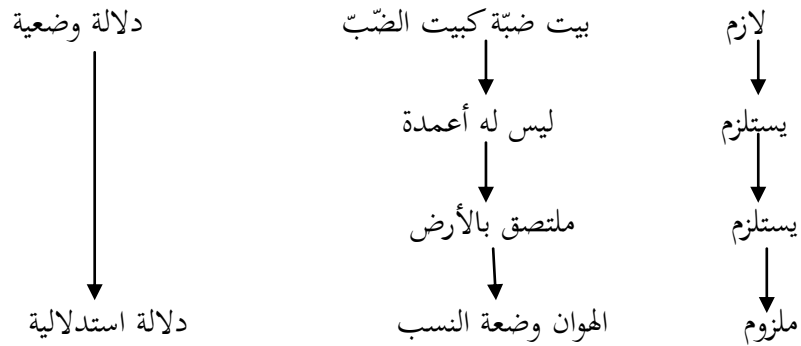
⁴ -المصدر السابق، مج 2، ص 150.



ومما سبق يتضح أنهما لا يقيان التشبيه بالحيوان حبيس الهجاء الشخصي بينهما فقط، بل يمتدان به كلاهما بعيدا كما في قول جرير:

وَجَدْنَا بَيْتَ ضَبَّةٍ فِي مَعَدِّ كَيْبَتِ الضَّبِّ لَيْسَ بِذِي سَوَارِي¹

ويمكننا تمثل معنى البيت كما يأتي:



فهو يشبه بيت ضبّة وهم أحوال الفرزدق ببيت الضّب، ووجه الشبه التصاقه بالأرض وعدم ارتفاعه لأنه لا أعمدة له، وهو يعني بالبيت النسب مما يوحي بضعة نسبه.

ومما سبق نستنتج أنّ كلا الشعاعين قد اعتمدا، في معركتهما الأدبية، على الطاقة الإقناعية للتشبيه، سواء أكان ذلك في مجال الفخر أو الهجاء؛ حيث رأينا، كما مرّ معنا، كيف جعل التشبيه صورة استدلالية، يكون الانطلاق فيها من لازم، يتمّ التصريح به، إلى ملزوم يتمّ استنتاجه بناءً على ما تقدّم من القول، وبالتالي يكون طرف الصورة مفتوحا على مختلف التأويلات، التي يمكن للمتلقي أن يشحن الصورة التشبيهية بها، وبذلك يساهم في بناء هذه الصورة، وتصبح، في جزء منها، من إنشائه الخاص.

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 182.

المبحث الثاني:

التمثيل:

يعمد الشّاعر في بناء قصيدته إلى تنوع أساليب التعبير، وتلوينها بمختلف ألوان الصّورة البيانية للتأكيد على قدراته الفنية من جهة، واستغلال هذه الألوان البيانية وحسن توظيفها من جهة ثانية. ويعدّ التمثيل عنصرا من عناصر الصّورة البيانية التي تقوم على علاقة المشابهة، ذلك أنه يعقد مشابهاة بين حالتين.

1-تعريف التمثيل:

التمثيل هو المثال الذي يُحذى عليه، والمقياس الذي يُقاس عليه غيره. وقبل الحديث عن التمثيل ودوره في العملية الحجاجية، من الجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ البلاغيين القدامى قد اختلفوا في رسم الحدود الفاصلة بين التشبيه والتمثيل، وإن كانا يقومان على المشابهة، فمنهم من ساوى بينهما، ومنهم من قال بوجود اختلافات.

ومن الذين قالوا بالمساواة بينهما نذكر ابن الأثير الذي قال: ((وجدت علماء البيان قد فرّقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابا مفردا، ولهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يُقال: شبهتُ هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال: مثلته به))¹.

غير أنّ هناك من خالفه الرأي، وفرّق بينهما، ومنهم عبد القاهر الجرجاني الذي حدّد الفرق بين التشبيه والتمثيل فقال: ((التشبيه عامّ والتمثيل أحصّ منه، فكلّ تمثيل تشبيه، وليس كلّ تشبيه تمثيلا))².

فالجرجاني يقرّ بوجود فروق دقيقة بين التشبيه والتمثيل، أي أنّ ثمة اختلافًا بينهما و((جوهر الاختلاف يكمن في طبيعة التمثيل الذي يُبنى على التشبيه من كونه قياسا لشيء على شيء للمشابهة، لكن لا يستقيم الشبه في التمثيل إلاّ إذا انتزعت الصّورة من مجموع مكّونات التعبير دون إمكانية الفصل بين بعضها البعض))³.

¹ - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 2، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط 2، دار الرفاعي، الرياض، 1983، ص 115.

² - الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 78.

³ - أحمد قادم: بلاغة التمثيل عند الزمخشري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، ع 03، 2013، ص 112.

وكما باعد الجرجاني بين التشبيه والتمثيل فإنه قد جعلهما يختلفان عن المثل أيضا وذلك عندما أقر أن ((ما لا يصح أن يُسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يُستعمل فيه أيضا))¹. وفي محاولة منه لتعليل ما ذهب إليه يقول: ((ينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى أن يُسمى لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر))².

2- أثر التمثيل:

للتمثيل أثر كبير في المعنى لا يمكن تجاهله، ذلك أنه ((إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أئمة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفتدة صباية وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطىها محبة وشغفا))³. ومن هنا يتضح أثر التمثيل في جعل نفسية المتلقي تتفاعل مع تفاصيل الصورة فتتجاوب معها وتنساق إليها.

وأثر التمثيل جلي واضح في الأغراض الشعرية، على اختلاف أنواعها، سواء كان الشعر مدحا أو ذما أو افتخارا أو اعتذارا⁴، والتمثيل ((إذا كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أفهو، وبيانه أبحر))⁵. وبذلك تظهر قدرته في المجال الحجاجي؛ بحيث يكون دليلا ساطعا لا سبيل إلى نكرانه، وسلطته لا تُتجاوز، وبيانه لا يخفى وبذلك تكون له طاقته التأثيرية على العقول والنفوس فتنتج الاستجابة والإذعان.

فالتمثيل وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من وجهات عدّة، فهو خطاب للعقل بوصفه ينقل العقل من المعنى في الحالة التصورية العادية إلى الحالة التصديقية، لأنه بمثابة إحضار المعنى المدعى ليشاهد كما هو في الواقع⁶، وذلك ما يؤكده الجرجاني في قوله: ((فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر، إذا وقع المعنى

¹ - الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 80.

² - المصدر نفسه، ص 88.

³ - المصدر نفسه، ص 93.

⁴ - للتوسع أكثر انظر أسرار البلاغة للجرجاني، ص 93-94.

⁵ - المصدر نفسه، ص 94.

⁶ - علي محمد علي سلمان: الحجاج عند البلاغيين العرب ضمن كتاب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 25.

في نفسك غير ممثل، ثم مثله كمن يُخبر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول ها هو ذا، فأبصره تجده على ما وصفت))¹.

وهو خطاب للوجدان، لأنّ التمثيل تصوير للمعنى ونقل له من العقل إلى الإحساس، و((عمّا يُعلم بالفكر، إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأنّ العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوّة والاستحكام، وبلوغ الثّقة فيه غاية التّمام، كما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة ولا الظنّ كاليقين")². وقد عدّه العمري استقراءً بلاغياً ذلك أنّه ((حجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية احديهما بالنظر إلى نهاية ماثلتها))³.

3- التمثيل في النقائض:

لقد كان التشبيه التمثيلي وجهاً من وجوه الصّور الحجاجية التي اعتمدها الشّاعران في بناء نقائضهما، وشأنه شأن الأغراض الأخرى فقد سجّل حضوره في مختلف الأغراض الشعريّة، لكننا نكتفي في هذا المجال بإيراد بعض النماذج التي وظّفها جرير والفرزدق بغية الهجاء أو التفاخر.

وإنّ أوّل ما نفتتح به صورة تشبيهية رائعة للفرزدق، يعكس من خلالها أثر السنين وما تفعله بالإنسان، ولعلّ من علاماتها البارزة المشيب الذي يعلو الرّؤوس، قال:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ
لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارٌ⁴

فقد شبّه ظهور المشيب في الشّاب بظهور الصبح في جوانب اللّيل، وهي صورة مبنية على التّضاد اللّوني، وفحوى هذا التمثيل هو أنّ المشيب يختلط بالشّباب كما يختلط الصبح باللّيل. فكلا الطّرفين يشتركان في اختلاط البياض بالسّواد. وإن كان الفرزدق قد وُفق في هذا التمثيل غير أنّنا لا نتلقّى طرفيه بالشّعور ذاته؛ ذلك أنّ زحف المشيب على الشّباب لا يشعُرنا بالرّاحة بل يبيّث فينا القلق من الإحساس بالكبر، في حين يشعُرنا زحف ضياء الصبح على ظلام اللّيل بالتفاؤل والطّمأنينة.

¹ - الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 100.

² - المصدر نفسه، ص 99.

³ - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة، ص 82.

⁴ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 229.

ولعلّ المجال الأكثر إظهاراً للقوة والشجاعة هو ساحات الوغى، وما تتطلبه من استعدادات بشرية ومادية، لذلك فإنّ القوّة الحربية (العسكرية) تشكّل مفخرة الشعراء التي يتباهون بها، وهو الأمر الذي جعل جريراً والفرزدق لا يسأمان من الحديث عن قوّة الجيش وبسالته في القتال وانتصاراته في عديد حروبه، ولا يكتفیان بالذكر بل نجدهما يتفننان في تكرار ذلك في صور مختلفة. ومن ذلك ما قاله الفرزدق في وصفه للجيش الذي تراءى له في قوّة اندفاعه أمواجاً متدفقة وكأثما الجراد المرسل فقال:

وَإِذَا الرِّبَائِعُ* جَاءَنِي دُفَاعُهَا مَوْجًا كَأَنَّهُمْ الجَرَادُ المُرْسَلُ¹

فهو يتحدّث عن المدد الذي جاءه من الربائع الثلاثة وفرسانها يتدافعون موجاً متلاطماً في كثرتهم وشدة بأسهم، كأثم الجراد المرسل الذي يكثّر عدده ويندفع إلى الأمام لا يحده حد. وهذه الصورة تزخر بالحركة والحيوية وتبثّ الرهبة والرعب في النفوس. والجهة التي تنتظر مددا كهذا لا بدّ وأنّ النصر سيكون حليفها، وبالتالي يكون الفرزدق قد اكتسب قوّة أخرى تضاف إلى قوّة جيشه وهي قوّة من يسانده.

وعندما يحوّل وجهته للحديث عن جرير نجده لا يدّخر جهداً في استحضار كلّ ما يمكنه من رسم الصورة التي يودّ إيصالها إلينا مع التركيز على أن تكون مقنعة. يقول في ذم جرير:

جَرُّ المُخْزِيَاتِ عَلَى كَلْبٍ
وكان لَهُم كَبْكُرٌ ثَمُودَ لَمَّا
جَرِيرٌ ثُمَّ ما مَنَعَ الدَّمَارَا
رِغَا ظُهُراً فَدَمَّرَهُم دَمَارَا²

في هذين البيتين يحدثنا الفرزدق عن جرير مركزاً على سوء فعله وما ينجر عنه؛ حيث وصفه بأنّه لا يحمي الحمى لكنّه يجلب الخزي لقبيلته كلب، وقد وظّف الفعل "جرّ" الذي يوحي ببذل الجهد والإصرار والثقل في الحركة للدلالة على حجم المخزيات التي يلحقها جرير بقومه. لكنّه لم يكتف بهذا التعبير فراح يشبّهه بعافر الناقة الذي أذنب في حقّ الناقة فلم يلقّ العقاب لوحده فقط بل ألحقه بقومه أيضاً.

* - ذكر أبو عبيدة أنّ الربائع ثلاثة: وهم ربيعة بن مالك بن زيد مناة، ويلقب ربيعة الجوع وهم رهط علقمة بن عبدة الشاعر. وربيعه الوسطى وهو ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد وهم رهط المغيرة بن حنينة الشاعر، وربيعه الصغرى وهو ربيعة بن مالك بن حنظلة، وهم رهط الحنظف بن السجف، وكلّ واحد من الربائع عمّ صاحبه.

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 137.

² - المصدر نفسه، مج 1، ص 187.

ويعتمد الفرزدق في هذا على الطاقة الحجاجية للتمثيل الذي يعدّ قياساً؛ حيث نقيس الحالة الحاضرة بحالة سابقة معروف نتائجها، وقد جعل جريراً بالنسبة إلى قومه كعاقر الناقة بالنسبة إلى ثمود. وقصة عاقر الناقة ورد ذكرها في القرآن، كما أخبرنا أنّ عاقر الناقة قد جلب العذاب لقومه بفعلته المشينة. فالفرزدق يقيس حالة جرير بحالة مشاهمة وهي عاقر الناقة، وهو يعلم يقينا أنّه يشحن كلامه بطاقة إقناعية استمدّها من مصداقية النص المعتمد عليه وهو القصص القرآني. واستناداً إلى ما سبق فإننا نسلم مع الفرزدق بأنّ جريراً سيجرّ المخازي على قبيلته إلى أن يهلكها كما فعل عاقر الناقة بقومه.

لا يكفي الفرزدق بالالتكاء على القرآن الكريم فحسب، بل يستغلّ الطاقة الإقناعية للمثل أيضاً بما له من مصداقية متأتية من تداوله بين الناس من جهة، ومن قدرته على إيصال الفكرة إلى ذهن المتلقي من خلال تجسيمها. يقول متحدّثاً عن كليب قبيلة جرير:

فإنّك والرّهانُ على كليبٍ لكالمُجريّ مع الفرسِ الحماراً¹

فهو يسمّ كليباً بالضعف والفشل ويقرّ بالأخيراً خيراً فيها، وإقناعاً بصحة هذا الحكم يعتمد إلى توظيف المثل والاستفادة من المعاني العميقة التي يتضمنها. ومن خلال إجرائه للمثل "كالمجري مع الفرس الحماراً" يكون قد شبّه من يراهن على فوز كليب كمن يراهن على سبق الحمار للفرس، والمراهن على هذه النتيجة هو خاسر لا محالة. وعليه يمكننا أن نستشف المغزى من توظيف هذا المثل الذي يمكن إعادة صياغته ضمن البيت الشعري كآلي: كما أنّ الحمار لا يمكنه أبداً أن يسبق الفرس فكذلك كليب لا يمكنه أبداً أن تسبق قبيلة مجاشع، وبذلك يكون الانتصار دائماً حليف مجاشع والخسران نصيب كليب.

ومن الجانب الآخر لم يكن جرير ببعيد عن توظيف المثل في منافسته للفرزدق ومحاولته النيل منه والاستفادة من الطاقة الإقناعية التي يجتريها، يقول:

كان الفرزدقُ إذْ يعودُ بخاله مثلُ الدليلِ يعودُ تحتَ القرمَلِ²

فجرير يطعن في النسب الذي يعتدّ به الفرزدق من جهة أحواله ويسمهم بالهوان، وأنهم ضعاف لا قوّة لهم، ولتأكيد ذلك يستوحي فكرته من المثل القائل "ذليل عاذ بقرملة"، والقرمّل شجر ضعيف لا شوك له، وبهذا

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 192.

² -المصدر نفسه، ص 165.

تكون تفاصيل هذه الصورة كما يأتي: إنَّ الفرزدق عندما يحتمي بحاله يكون مثل ذليل يحتمي بشجر القرمل الضعيف. وبعد اعتماد المثل وما يمتلكه من طاقة إقناعية انطلاقاً من تسليم الجماهير به يمكننا استخلاص الفكرة التي يودّ جرير إيصالها إلينا عن اعتداد الفرزدق بنفسه وبأحواله لا يمكنها أن تتعد عن المغزى العام للمثل وهو "ذليل عاذ بأذل منه".

ويحدّثنا جرير عن براعته في فنّ القول وما يتركه هجاؤه في نفوس الشعراء المنافسين له؛ حيث جعل هجاءه نيراناً حارقة يلفح لهيئها كلّ من يقترب منه، يقول:

أُزْرَى بِحِلْمِكُمْ الْفِيَاشُ فَأَنْتُمْ مِثْلُ الْفَرَاشِ غَشِيْنَ نَارَ الْمُصْطَلِي¹

فهو يتحدّث عن الشعراء وكيف أنّ المفاخرة قد أفقدتهم صوابهم، وذهبت بعقولهم فأقبلوا بهجائهم عليه، لكنّهم سيحترقون بنار هجائه كما يحترق الفراش بالنار التي يحوم حولها. ويمكننا تمثّل هذه الصورة كما يأتي:

يحترق الشعراء الذين يقتربون من جرير بنار هجائه كما يحترق الفراش عندما يقترب من النار. وبهذا يكون جرير قد قرّب المعنى إلى أذهاننا باعتماده هذه الصورة التمثيلية، التي جعلنا نقنع من خلالها ببراعته الشعرية وقوّة هجائه وأثره على الخصوم.

ونبقى في مجال المنافسة الكلامية، وما ينتج عن قول الشعر خاصّة إذا كان هجاءً كما يتّضح من قول الفرزدق في مخاطبته لجرير:

فَإِنَّكَ مِنْ هِجَاءِ بَنِي نُمَيْرٍ كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ وَجَدُوا الْعَذَابَا
رَجَوْا مِنْ حَرِّهَا أَنْ يَسْتَرِيحُوا وَقَدْ كَانَ الصَّدِيدُ لَهُمْ شَرَابَا²

فالفرزدق يتّخذ موضع المدافع عن بني نُمَيْرٍ الذين هجاهم جرير هجاءً مرّاً، معتبراً أنّ هجاءه لهم سيجلب له العذاب كعذاب أهل النار الذي لا ينتهي؛ حيث يلفحهم حرّها، وشرابهم فيها صديد، يتمنون لو يستريحوا وما إلى ذلك من سبيل. ويقيم الفرزدق معنى هذين البيتين على تمثيل تتحدّد العلاقة بين أطرافه كما يأتي:

¹ - نقائض جرير والفرزدق ، مج 1، ص 165.

² - المصدر نفسه، ص 336.

سُيْلِحَقُ الْفِرْزَدَقُ بِجَرِيرِ الْعَذَابِ كَمَا أَحْلَقَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ النَّارِ. وَدَافِعُهُ فِي ذَلِكَ الْمَنَافِحَةُ عَنْ بَنِي نَمِيرٍ، وَوَسِيلَتُهُ فِي ذَلِكَ سَيِّاطُ هَجَائِهِ. وَبِهَذَا تَتَّضِحُ الْغَايَةُ مِنْ هَذَا التَّمْثِيلِ الَّذِي أوردَهُ الْفِرْزَدَقُ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي مَجَالِ الشُّعْرِ خَاصَّةً الْمَهْجَاءِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَسْعَى لِلْإِقْنَاعِ بِهِ مِنْ خِلَالِ تَشْبِيهِ أَثَرِ هَجَائِهِ بِعَذَابِ النَّارِ، وَلَا أَحَدٌ يَنْكُرُ هَوْلَ عَذَابِهَا، وَبِالتَّالِي يَتِمُّ التَّسْلِيمُ مَعَ الْفِرْزَدَقِ بِقُدْرَتِهِ الشُّعْرِيَّةِ عَلَى قَهْرِ جَرِيرٍ.

إِنَّ الْمَنَافِسَةَ الدَّائِرَةَ بَيْنَ جَرِيرٍ وَالْفِرْزَدَقِ قَدْ حَتَّمَتْ عَلَيْهِمَا التَّنْوِيعَ فِي صَوْرِهِمَا الْبَلَاغِيَّةِ؛ حَيْثُ اعْتَمَدَا عَلَى التَّمْثِيلِ لِمَا لَهُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى تَقْرِيبِ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ وَكَأَنَّهُ حَاضِرٌ أَمَامَ الْعِيَانِ، وَبِالتَّالِي يَحْظِي بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ وَهُوَ الْمَهْدَفُ الَّذِي يَسْعَى إِلَى بَلُوغِهِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَقَدْ اسْتَفَادَا أَيْضًا مِنَ الطَّاقَةِ الْإِقْنَاعِيَّةِ لِلْمَثَلِ وَمَا يَحْظِي بِهِ مِنْ إِجْمَاعٍ فَجْعَلَاهُ مَرَكِزَ الْكَثِيرِ مِنْ صَوْرِهِمُ التَّمْثِيلِيَّةِ.

المبحث الثالث :

الاستعارة الحجاجية:

حظيت الاستعارة باهتمام الدارسين قديما وحديثا، على تنوع مشاربهم، وأولوها اهتماما كبيرا من حيث الوظيفة والمفهوم، فشكّلت بؤرة توجهاتهم البحثية والنقدية. ومرّد ذلك الاهتمام المهمة البالغة التي تنهض بها داخل النصّ والمتراوحة بين الإمتاع والإقناع. فالاستعارة لم يعد يُنظر إليها على أنّها مجرد محسن لفظي فحسب، بل اعتُبرت مقوما حجاجيا، يؤدّي وظيفة حجاجية إقناعية، وبذلك سجّلت حضورها في كلّ الخطابات على اختلاف أنواعها وأشكالها.

ويشكّل الجانب الحجاجي من الاستعارة مجال بحثنا، والذي نسعى من خلاله للبحث عن كيفية عمل الاستعارة حجاجيا وفي مجال الشّعْر. وقبل الشروع في ذلك ارتأينا أن نمهد بجانب نظري نتبّع فيه حجاجية الاستعارة بين القدماء والحديثين، والوقوف على جهود الدارسين الغربيين والعرب على حدّ سواء.

1- حجاجية الاستعارة في الدراسات القديمة :

1-أرسطو:

يُعدّ الفيلسوف أرسطو أقدم من تحدّث عن الاستعارة؛ حيث اعتبر أنّ الخطابة والشّعْر شكلان متميّزان من الخطاب، وبنية الاستعارة في كليهما واحدة، غير أنّها تقوم بوظيفتين مختلفتين: وظيفة بلاغية تسعى إلى الإقناع، ووظيفة شعرية تسعى إلى التطهير بواسطة أحداث تثير الشفقة والخوف¹. وبذلك فإنّه يحصر الاستعارة في نوعين محدّدين من الخطاب وهما الشعري والخطابي. في حين تذهب الدراسات الحديثة إلى جعل الاستعارة تحضر في كلّ الخطابات المختلفة، ف((الاستعارة حاضرة في كلّ مجالات حياتنا اليومية. إنّها ليست مقتصرة على اللّغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا. إنّ النّسق التصوري العادي الذي يسير

¹ -عبد العزيز الحويدي: نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لاكوف ومارك جونسون، ط 1، دار كنوز النشر، الأردن، 2015 ص 10-11.

تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس¹، وعليه فالاستعارة تخترق كلّ المجالات، وتتجاوز الاستعمال اللغوي لتبلغ مجال التفكير أيضا.

تناول أرسطو الاستعارة في موضعين من كتاب (الخطابة) فقد تحدّث عنها في باب الشاهد الذي قسمه إلى الواقعي والصناعي المحتمل والخرافي، وفي هذا الموضع يعتبر الاستعارة مقوّمًا حجاجيا، كما تحدّث عنها في معرض كلامه عن الأساليب ليعتبرها محسّنا لفظيا². ومن هنا يمكننا القول إنّ أرسطو لم تكن له نظرة واضحة ومحدّدة اتجاه وظيفة الاستعارة إذ يعتبرها تارة مقوّمًا حجاجيا وأخرى مجرد محسن لفظي لتزيين الكلام ويمكن لهذا اللبس أن يزول إذا ربطنا الوظيفة بطبيعة الخطاب، وعليه تكون الاستعارة، في الخطابة مقوّمًا حجاجيا وفي الشعر محسّنا لفظيا.

-تعريف الاستعارة :

ربط أرسطو الاستعارة بالاسم وعرفها باعتبارها نقلا أو تغييرا، فهي "نقل اسم شيء إلى شيء آخر"³ وقد أقام تصنيفه لها على أساس النقل: من الجنس إلى النوع ومن النوع إلى الجنس، ومن النوع إلى النوع وحسب علاقة التناسب⁴.

وعلى اعتبار أنّ أرسطو أقدم من أصل للاستعارة، فقد شكّلت دراساته نقطة انطلاق كثير من الباحثين سواء أكان ذلك اتفاقا أو اختلافا، ومما سُجل على تعريفه للاستعارة الاستنتاجات التالية:

- الاستعارة تقتصر على الاسم فقط، ولا تتعداه إلى الجملة والخطاب.

- حدّدت الاستعارة بمفاهيم تدلّ على الحركة في المكان، أي أنّ الاستعارة تقوم على نقل كلمة من مكانها الأصلي إلى مكان آخر غريب عنه.

- لغة تعريف الاستعارة مجازية، تنتمي إلى مجال الحركة والانتقال من فضاء إلى فضاء، وهو ما دفع بعض الباحثين الغربيين إلى القول بعدم القدرة على ضبط الاستعارة والمحسّنات، بصفة عامّة، بواسطة التصنيف

¹- جورج لايكوف ومارك جونسن: الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد حنيفة، ط2، دار توبقال الدار البيضاء، المغرب، 2009، ص 21.

²- محمد الولي: مدخل إلى الحجاج. أفلاطون وأرسطو وشام بيرلمان، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 40، ع 02، 2011، ص 31-32.

³- عمر أوكان: اللّغة والخطاب، ص 125.

⁴- ميشال لوغرن: الاستعارة والحجاج. تعريب الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، السنة الثانية، العدد 04، الرباط، المغرب، 1991، ص 86.

والترتيب من جهة، وبعدم قدرة الفلسفة على طرد المجاز والاستعارة من لغة خطابها، والاقتصار على المفاهيم المجردة فقط.

- الاستعارة انزياح عن معان مألوفة.

- تقوم الاستعارة على فكرة الاستبدال¹.

وانطلاقاً من وظيفة الاستعارة فقد تنوّعت بحسب تعدّد المتلقين للخطاب، ويتّضح تقسيمه لها من خلال ما يأتي:

- أقسام الاستعارة:

جعل أرسطو الاستعارة ثلاثة أقسام: أولاً: الاستعارة الجمهورية، وتهدف إلى الإبلاغ، وثانياً: الاستعارة الشعيرية لا تهدف إلاّ إلى ذاتها، ولا تحيل إلاّ على ذاتها، وثالثاً: الاستعارة الحجاجية وتهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقّي، وهي ليست مظهراً داخلياً في الخطابة، بل مجرد مظهر خارجي لاجتذاب السامع وإبهاجه².

وقد طغت أفكار أرسطو على الدارسين لقرون عديدة، وبعد انبعاث البلاغة ظهرت آراء مغايرة ووجهت لأرسطو جملة من الانتقادات من بينها تحديد الاستعارة في اللفظ دون المعنى، وحصص وظيفتها في الجانب التزييني، والخلط بين التشبيه والاستعارة³. ومن بينها أيضاً ما ذهب إليه آ.أ. ريتشاردز حينما أورد تعليقا على قول أرسطو: ((إنّ أعظم شيء هو القدرة على صياغة الاستعارة... وهذا وحده لا يمكن أن يُنقل إلى الآخر لأنه علامة العبقرية. إنّ صياغة استعارات جديدة يعني القدرة على رؤية المتشابهات))، فاعتبر أنّ تأمل هذا القول يكشف عن الحضور الفاسد لثلاثة افتراضات⁴:

¹ - عبد العزيز لحويديق: نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية، ص 13-18.

² - عمر أوكان: اللغة والخطاب، ص 133-134.

³ - للتوسع في هذه الأفكار راجع: عمر أوكان: اللغة والخطاب، ص 126 وما بعدها.

⁴ - آ.أ. ريتشاردز: فلسفة البلاغة. ترجمة سعيد الغانمي وناصر حلاوي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، د. ط، ص 91-92.

الافتراض الأول: هو أنّ القدرة على رؤية المشابهات موهبة يمتلكها بعض النّاس دون بعض. وواقع الحال أنّه على الرّغم من أنّ بعض النّاس قد يمتلك قدرة على رؤية المشابهات "أكثر من غيرهم، فإنّ الاختلاف بينهم في الدّرجة فقط.

والافتراض الثاني: وهو أنّ هذا الشيء "الموهبة على صياغة الاستعارة" لا يمكن نقله إلى الآخرين. فنحن كأفراد نكتسب قدرتنا على الاستعارة مثلما نتعلّم أيّ شيء يميزنا كبشر. أمّا الافتراض الثالث: فينبني على الافتراض السابق، ويرى أنّ الاستعارة شيء خاصّ واستثنائي في الاستعمال اللّغوي، أي إنّها انحراف عن النّمط الاعتيادي للاستعمال، بدلا من أن تكون المبدأ الحاضر أبدا في نشاط اللّغة الحر.

ومهما تكن الانتقادات التي وُجّهت لأرسطو يبقى له شرف التّأصيل؛ حيث ما زال الدّارسون يأخذون بالكثير من آرائه، وقد امتدّ الحديث عن الاستعارة وعن حججيتها إلى العصور التي تلتها. وفيما يأتي سنقف مع واحد من البلاغيين العرب القدامى لتبيّن آراءه في الاستعارة وحججيتها وهو الجرجاني.

2- عبد القاهر الجرجاني:

شغلت الاستعارة اهتمام الدّارسين العرب القدماء فكانت مثار توجّهات اللّغويين والنقاد والبلاغيين على حدّ سواء، وذلك في إطار اهتمامهم بالقرآن الكريم ومباحث الحقيقة والمجاز، الشّيء الذي جعلهم يختلفون في وجهات النّظر؛ من حيث الدّلالة والوظيفة. وقد اتسمت بالاختلاف والتباين حسب ما تقتضيه طبيعة كلّ باحث. وتدفعنا طبيعة دراستنا إلى تجاوز التّأصيل لـ"الاستعارة" وتتبع تطورها لنحصر دائرة البحث في تلك الجهود التي لامست الجانب الحجاجي للاستعارة، وقد تجلّت لنا واضحة عند عبد القاهر الجرجاني.

تناول الجرجاني الاستعارة في إطار نظرية النّظم، التي يحتج من خلالها على فضل المعنى على اللفظ ويجعل الاستعارة في المعاني وليس في الألفاظ مؤكّدا أنّ الصّورة المجازية لا تتضح قيمتها المعنوية والشّعورية إلّا في إطار نظمها وسياقها¹.

وقد حدّد الجرجاني الاستعارة بقوله:

¹ - أحمد عبد السيد الصاوي: مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين دراسة تاريخية فنية، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1988، د. ط، ص 82.

((اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدلّ الشواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية))¹. لقد أقام الجرجاني مفهوم الاستعارة على النقل*، لكنّه كشف عن لزوم العلاقة بين المستعار له، والمستعار منه وهي علاقة مشابهة، وأنّ النقل لا بدّ أن يكون لأهداف** منها المبالغة في إظهار الصّورة بمظهر جميل يؤثّر في العاطفة ويلهب الخيال².

وبعد طرح معقّد لفكرة قيام الاستعارة على النقل، اتّضح له أنّ نقل اللفظ عما وضع له في اللّغة واستعماله في معنى غير معناه يجعل ذلك اللفظ ((كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصلي أصلاً))³، وبذلك أقرّ بوجود تناقض ((فأما أن تكون ناقلاً له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض))⁴، وبالتالي توصّل إلى طرح فكرة النقل والقول بـ"الإدعاء"؛ حيث إنّه ((ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنها إدعاء معنى الاسم لشيء))⁵.

وبهذا يكون الجرجاني قد قدّم مفهوماً متّسقاً للاستعارة يختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة سابقيه، مفهوم يطرح فكرة النقل السابقة ليقدم تصوّراً جديداً على أنّها إدعاء⁶، وجعل هذا الإدعاء يتمّ بطريقتين: ((وذاك أنّك في الأوّل تجعل الشيء الشيء ليس به، وفي الثاني تجعل للشيء الشيء ليس له))⁷.

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 31.

* - لم يكن الجرجاني سابقاً إلى القول بفكرة النقل في تحديد مفهوم الاستعارة. للتوسع أكثر أنظر كتاب الصاوي مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين.

** - تتضح الغاية من قيام الاستعارة على النقل من خلال ما أورده العسكري في قوله: ((الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللّغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيد المبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة)) أنظر كتاب العسكري: الصناعتين، ص 240.

² - أحمد عبد السيد الصاوي: مفهوم الاستعارة، ص 87.

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 247.

⁴ - المصدر نفسه، ص 275.

⁵ - المصدر نفسه، ص 275.

⁶ - علي عمران: حجاجة الصورة الفنية في الخطاب الحربي خطب الإمام علي أمّودجا، ص 44.

⁷ - المصدر السابق، ص 90.

بنى الجرجاني الاستعارة على مفهوم الإدعاء مؤكداً أن الاستعارة إدعاء معنى اللفظة لا نقلها. وتظهر فائدة الاستعارة من خلال توصيلها معنى لا يمكن الوصول إليه دونها*. فهو لم يتوقف عند حدود المفهوم فحسب، بل تعداه إلى دورها؛ حيث حدده قائلاً: ((فإنك لترى بها الجماد حيًا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبيّنة، والمعاني الخفية باديةً جليّة))¹. وعليه، فإنّ الاستعارة تمتلك القدرة على الإبانة والتوضيح، وتقريب الصورة إلى الأذهان، وذلك من شأنه أن يؤثر في النفوس ويجزّكها، ويمكن للتأثير النفسي أن يتحوّل إلى تأثير عقلي.

لقد فطن الجرجاني إلى أنّ الطرق التي تسلكها الاستعارة لا نهائية ومتشعبة، والتأثيرات التي تملكها غير محصورة فهي ((أمدٌ ميدانًا، وأشدُّ افتنانًا وأكثرُ جريانا، وأعجب حُسنا وإحسانا، وأوسع سعةً، وأبعدُ غورًا، وأذهب نبدا في الصنّاعة وغورا، من أن تجمع شُعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم وأسحرُ سحرا، واملأ، بكلّ ما يملأ، صدرا ويمتّع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوقّر أنسا))². وبذلك فالاستعارة، عند الجرجاني، لا يقف أثرها عند حدود النفس فقط، بل يمتد إلى الفكر أيضا، وهذا التأثير المزدوج جعلها تتقلّب بين وظيفتين هامتين هما الإمتاع والإقناع.

2- حجاجية الاستعارة في الدراسات المعاصرة:

بعد أن وقفنا على الاستعارة عند الدارسين القدامى، وذلك من خلال استعراض جهود كلّ من أرسطو والجرجاني، نحاول في هذا الموضوع أن نبين كيف تناولت الدراسات المعاصرة الاستعارة كمقوم حجاجي، وذلك من خلال استعراض جهود باحثين: واحد يمثل التيار الغربي وهو برلمان، والآخر يمثل التيار العربي وهو طه عبد الرحمان.

*- حدّد الجرجاني فائدة الاستعارة في توصيلها معنى لا يمكن الوصول إليه دونها، ذلك أنك إذا قلت: ((رأيت أسدا-وأنت تعني رجلا شجاعا-... فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه، وإقدامه، وبأسه وشدّته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعته، ممّا يعود إلى الجرأة)). عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 33.

¹- المصدر نفسه، ص 41.

²- المصدر نفسه، ص 40.

1- شاييم برلمان:

حاول برلمان أن يقدم مفهوما جديدا للاستعارة يختلف عن تلك التي شاع الحديث عنها في الدراسات البلاغية القديمة. فالبلاغة القديمة كانت تتميز بين المقومات الحجاجية والمقومات الأسلوبية التزيينية، أما برلمان فقد انطلق من التسليم بأن كل المقومات التي اعتبرت عند المتقدمين مجرد محسنات هي عنده مقومات حجاجية إقناعية. وبذلك تفادى خطأ أرسطو الذي كان يعتبر الاستعارة تارة مقوما حجاجيا وتارة محسنا لفظيا¹. وفي هذا الشأن نجد برلمان يقول: ((إن محسنا لهو حجاجي إذا كان استعماله، وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر، يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة. وعلى العكس من ذلك، فإن لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة، أي باعتباره محسن أسلوب، ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع))²، وبذلك يكون برلمان قد حدد طبيعة المحسنات تبعا للوظيفة التي تؤديها داخل الخطاب، فإذا امتلكت القدرة على التأثير في المخاطب، واستمالاته لتغيير وجهة نظره في قضية ما، وإقناعه بها، فإن تلك المحسنات تكون حجاجية. أما إذا عجزت عن النهوض بتلك الوظيفة (التأثير والإقناع)، فهي لا تعدو أن تكون مجرد حلية لا تتجاوز حدود التزيين.

وفي إطار البلاغة الجديدة، استند برلمان في طروحاته على بعض الجهود السابقة لكنه أضاف الجديد الذي تمثل في إبطال مفعول بلاغة المحسنات، وإدراج الاستعارة والتشبيه ضمن بلاغة الحجج وكذلك إبطال الهوية الملتبسة والمزدوجة بين التشبيه والاستعارة³.

يقول برلمان: ((إن أي تصور للاستعارة لا يلقي الضوء على أهميتها في الحجج لا يمكن أن يحظى بقبولنا، إلا أننا نعتقد أن دور الاستعارة سيتضح أكثر بربطه بنظرية التناسب الحجاجي... إننا لا نستطيع في هذه اللحظة وصف الاستعارة إلا باعتبارها، على الأقل من وجهة نظر حجاجية، باعتبارها تناسبا مكثفا ناتجا عن ذوبان عنصر المستعار منه في المستعار له))⁴.

¹ - محمد الولي: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ط 1، مطبعة الكرامة، الرباط، المغرب، 2005، ص 453.

² - Chaim Perelman : l'empire Rhétorique. Rhétorique et Argumentation , pp61-62.

³ - المرجع السابق، ص 457.

⁴ - Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumentation, p535

بنى برلمان تعريفه هذا على التعريف الذي قدّمه أرسطو للاستعارة، وجعلها نوعين: الاستعارة التناسبية، وهي الأصل، والاستعارة غير التناسبية، وهي التي يقع التوحد بين طرفيها أي الموضوع والشبيه. وبهذا نكون أمام نمطين من المشابهة: مشابهة قائمة بين دالتين موجودتين في التمثيل الدلالي للطرفين، إلا أنّها أقوى في الشبيه، ومشابهة قائمة بين علاقيتين¹.

ويذهب محمد الولي إلى القول: ((إنّ العلاقات التي يسمح بها تناسب قد لا تسمح بها الاستعارة. إذ إنّنا نستطيع بوضع شيئين غير متشابهين في وضع المتشابهين اعتماداً على ربطهما بعلاقة متشابهة. إنّ التشابه الطارئ في التناسب يكتسب بفضل هذا الربط. ولهذا أمكن القول إنّ الإمكانيات الإبتكارية في التناسب أقوى منها في الاستعارة. إلا أنّ برلمان يُلح على اعتبار الاستعارة هي مجرد تناسب حُذفت بعض أطرافه))².

أصّر برلمان على اعتبار كلّ استعارة هي في الأصل تناسب، وإنّه يشدّد على هذه الملامح المعرفية أو الحجاجية. وكأنّه ينصح بأن تكون الاستعارة متوقّرة دوماً على عناصر مشابهة. إذ بدونها لا تستطيع القيام بأدوارها الحجاجية. بل إنني أعتبر التناسب أقرب إلى التشبيه، إذ إنّ المشبه يحضر إلى جانبه ما نعتبره من صفات المشبه به³.

بهذا يكون برلمان قد أدرج الاستعارة ضمن الآليات الحجاجية البلاغية بعد أن كانت متأرجحة بين الوظيفة التزيينية والوظيفة الحجاجية. وفيما يأتي نستعرض جهود دارس عربي وهو طه عبد الرحمان.

2- طه عبد الرحمان:

انطلق طه عبد الرحمان من كون الحجاج ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة؛ حيث يجتمع فيه اعتباران هما: "اعتبار الواقع" و"اعتبار القيمة"⁴، معتبراً أنّ ما يحدّد ماهية الحجاج إنّما هو العلاقة المجازية إذ لا حجاج بغير مجاز⁵، ممّا يدفعنا إلى استنتاج أنّ المجاز هو الأصل في الحجاج.

¹ - عبد العزيز لحويديق: نظريات الاستعارة في الدراسات الغربية، ص 242.

² - محمد الولي: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ص 460.

³ - المرجع نفسه، ص 463.

⁴ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 230.

⁵ - المرجع نفسه، ص 232.

وقد حصر طه عبد الرحمان نموذج العلاقة المجازية في العلاقة الاستعارية، ذلك أنّ التعالق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي يبرز أكثر ما يبرز في علاقة المشابهة فـ((الاستعارة هي المجاز الذي يقوم على علاقة المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى القيمي، وحيث إنّ المشابهة أدلّ على غيرها من التعالق بين هذين المعنيين، فقد ظهر أنّ الاستعارة هي أدلّ ضروب المجاز على العلاقة المجازية))¹ ، فالاستعارة هي أهمّ علاقات المجاز، فهي إذن أدلّ ضروبه على ماهية الحجج. بنى طه عبد الرحمان نظريته في حجائية الاستعارة انطلاقاً من جهود عبد القاهر الجرجاني؛ حيث رأى أنّه أدرك الالتباس الاستعاري من خلال قوله بـ"الإدعاء" الذي يقوم على مبادئ ثلاثة هي²:

1- مبدأ ترجيح المطابقة والمقتضى المطابقي:

وينبني عليه أنّ المستعير يبلغ بالتشابه بين المستعار منه والمستعار له درجة ينتفي معها الاختلاف والتفاوت بينهما، حتّى يصيرا عنده شيئاً واحداً ، والمقتضى المطابقي للإدعاء هو أنّ القول الاستعاري ملتبس أو يحتمل تخريجه على المعنى الظاهر، فضلاً عن احتمال الدلالة على المعنى المجازي.

2- مبدأ ترجيح المعنى والمقتضى المعنوي:

ويترتب عليه أنّ التغيير الذي تحدثه الاستعارة في اللفظ يتعلّق أساساً بالمعنى، وبما أنّ الإعارة تلحق المعنى قبل أن تلحق المبنى، فمدار فهم الاستعارة ليس على المعنى المأخوذ مباشرة من اللفظ، وإنما على معنى ثانٍ يتولّد في النفس بطريق هذا المعنى الأصلي، ويصل إليه المستمع إما بلزوم قريب عن المعنى الظاهر أو بلزوم بعيد يقتضي وسائط دلالية أخرى تزيد أو تنقص.

والمقتضى المعنوي للإدعاء هو أنّ القول الاستعاري يستند إلى بنية استدلالية.

3- مبدأ ترجيح النظم والمقتضى النظمي:

وينبني عليه أنّ الكلام متعلّق بعبئه ببعض ومتربّب بعبئه على بعض بوجه مخصوص، ولا يتمّ ذلك إلاّ بتوحيّ أمرين هما:

¹ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 232.

² - المرجع نفسه، ص 305-306.

1- مقتضيات العقل، فليس النظم مجرد توالي الألفاظ في عملية النطق، وإنما هو تناسق دلالاتها فيما بينها تناسقا يستوفي شرائط التعليل العقلي.

2- قوانين النحو، وهو النظر في أسباب التفاضل التعبيري والتبليغي للجملة، فضلا عن قيامها بشرائط السلامة التركيبية.

والمقتضى النظمي للإدعاء هو أنّ القول الاستعاري يصير تركيبا خبريا أصليا لا ينحصر في الربط بين مخبر عنه ومخبر به، بل يضيف إليهما عنصرا ثالثا هو ذات المخبر. وبزيادة هذا العنصر يكون عبد القاهر قد نقل القول الاستعاري من مرتبة الدلالة المجردة إلى مرتبة التداول التي تتوخى مقتضيات مقام الكلام.

وبهذا يتضح أنّ القول الاستعاري تجمع له الأوصاف الثلاثة :

- 1- أنّه تركيب خبري تداولي.
- 2- أنّه قابل للأخذ على جهة الحقيقة.
- 3- أنّه مشتمل على بنية تدليلية. وكلّ قول هذه أوصافه، يُعدّ في سياق الجدل الذي نهجه الجرجاني بمنزلة "دعوى"، كما يُعدّ صاحبه "مدّعا" ويُعدّ عمله "إدعاءً".

حاصل الكلام أنّ الجرجاني وضع أصول نظريته في الاستعارة، متأثرا من جهة بأساليب في الحجج متعارف عليها كالردّ على أقاويل المعترض وعلى شبه تأويله، ومقتبسا من جهة أخرى عناصر من جهاز مفهومي متأصل في المجال التداولي الاسلامي العربي، وهو "الجهاز الحجاجي للمناظرة" منها: الإدعاء، والدعوى والإثبات والتقرير، والسؤال والاعتراض والمعارضة، والدليل والشاهد، والاستدلال والقياس. وجعل من مفهوم "الإدعاء" أدواته الإجرائية الأساسية في وصف آليات الاستعارة ونقله إلى المجال البلاغي بكلّ أوصافه المشهورة التي تعود إلى ثلاثة أصلية: التقرير أو الخبر والتحقيق والتدليل¹.

وقد انطلق طه عبد الرحمان في بناء نظريته التعارضية للاستعارة من افتراض أنّ القول الاستعاري قول:

- 1- حوارية، وحواريته صفة ذاتية له.
- 2- حجاجية، وحجاجيته من الصّنف التفاعلي ويُخصّ باسم "التّحاج".

¹ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوّن العقلي، ص 309.

3- عملي، وصفته العملية تُلازم ظاهره البياني والتحليلي¹.

وحدّد الذوات الخطابية التي تشترك في القول الاستعاري انطلاقاً من كونه يتألف من مستويين: مستوى المعنى الحقيقي ومستوى المعنى المجازي، فبالإمكان أن نخصّص لكلّ مستوى مقاما. وبما أنّ المعنى الحقيقي "ظاهر غير مراد" أو "ظاهر مؤول"، والمعنى المجازي "مضمر مراد" أو "مضمر مبلّغ"، جاز أن نميّز في المقام الحقيقي بين "حال الإظهار" و"حال التأويل"، وفي المقام المجازي بين "حال الإضمار" و"حال التبليغ".

وعليه فإنّ الذوات الخطابية التي تشترك في بناء القول الاستعاري أربع، لكلّ منها وظيفة تخاطبية متميّزة: ذات مظهرية ومؤولة ومضمرة ومبلّغة. وفي القول الاستعاري يقوم المتكلم بالأدوار الخطابية لكلّ هذه الذوات في آن واحد. وهذه الذوات هي:

1- الذّات المظهرية: وظيفتها الحجاجية ادّعاء وجود المعنى الحقيقي للجملة، أي ادّعاء المطابقة بين المستعار له والمستعار منه.

2- الذّات المؤولة للمستعير: يتمثل دورها الحجاجي في الاعتراض على وجود المعنى الحقيقي للجملة، أي إنكار المطابقة بين المستعار له والمستعار منه، بما أنّ المعنى المؤول أولى بالخفاء من المعنى المضمّر.

3- الذّات المضمّرة: هي من ذات المستعير، وظيفتها الحجاجية ادّعاء وجود المعنى المجازي للجملة، أي ادّعاء المباينة بين المستعير له والمستعار منه.

4- الذّات المبلّغة للمستعير: ويتجلّى دورها الحجاجي في الاعتراض على وجود المعنى المجازي للجملة، أي إنكار المباينة بين المستعير له والمستعير منه، بما أنّ المعنى المبلّغ أولى بالظهور من المعنى الحقيقي غير المبلّغ².

وفي الأخير يخلص طه عبد الرحمان إلى توضيح فعالية الاستعارة وذلك من خلال ارتكازها على المستعار منه إذ ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل ((فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همّة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمها، فالمستعير يقصد أن يغيّر المقاييس التي يعتمدها المستمع

¹ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص 310.

² - المرجع نفسه، ص 311.

في تقويم الواقع والسلوك، وأن يتعرّف المستمع على هذا القصد منه، وعلى معنى كلامه وما يلزم عنه، وأن يكون هذا التعرّف سبيلا لقبول خطابه ولإقباله على توجيهه¹. وعليه، فإنّ القيمة الحجاجية للاستعارة تكمن في قدرتها على التأثير في المستمع، ودفعه إلى الاقتناع بها، والالتزام بقيمها.

وبعد أن عرضنا للاستعارة الحجاجية عند كلّ من برلمان وطه عبد الرحمان، ننتقل إلى رصد الاستعارات الحجاجية في نقائض جرير والفرزدق، وقبل ذلك نتوقّف لنحيب على السؤال الآتي: كيف تعمل الاستعارة حجاجيا؟

3- الاستعارة الحجاجية في نقائض جرير والفرزدق:

قبل أن ننتقل من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي، تراءى لنا أنّه لزاما علينا أن نقف في محطة مهمة تُعدّ الجسر الواصل بين الجانبين، وهي الوقوف على كيفية عمل الاستعارة حجاجيا وكيف تكون رافدا من روافد الإقناع يوظّفها الشّاعر لخدمة نتيجة معينة يسعى للوصول إليها وإقناع السامعين بها.

ورد عند البلاغيين القدامى أنّ ((من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة))²، أي أنّ القول الاستعاري أبلغ من القول العادي وبالتالي يكون أكثر إفهاما وتأثيرا. ومن المسلمّ به أنّ الحجج التي تُقدّم لصالح نتيجة ما تكون متفاوتة في القوّة، وأنّ الدليل الأقوى يقع في أعلى درجات السّلم الحجاجي و((الأقوال الاستعارية أعلى، حجاجيا، من الأقوال العادية))³، وعليه فإنّها تتموضع في أعلى السّلم الحجاجي.

وفي مقارنته للاستعارة حجاجيا، انطلق أبو بكر العزاوي من عقد مشابهة بين دور الاستعارة ودور بعض الرّوابط الحجاجية مثل "حتى"، ذلك أنّ الرّابط الذي يرد بعدها يكون أقوى حجاجيا وأعلى سلّميا من الأدلة التي ترد قبله⁴، وعليه ستكون الاستعارة أقوى حجاجيا. وبناءً على ما تقدّم سنبرز حجاجية الاستعارة باعتماد السّلم الحجاجي؛ حيث تشكّل العناصر (أ-ب-ج..). مقدّمات، أو أقوال، أو حجج تفضي إلى النتيجة (ن). ويتّضح ذلك أكثر من خلال الشكل الآتي:

¹ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 312-313.

² - الجرجاني: دلائل الاعجاز، ص 274.

³ - أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، ص 106.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

↑	
ن	شجاعة خالد
ج	خالد أسد
ب	خالد مقدم
أ	خالد قويّ

وهدفنا في هذا الموضوع من البحث، هو الكشف عن الاستعارة الحجاجية وكيفية اشتغالها في نقائض جرير والفرزدق. وبالنظر إلى طول المدونة، وقيام الشعر العربي في جملة على الصورة الشعرية، والاستعارة واحدة منها، مما يعني توافر النقائض على عدد كبير منها، يعسر معه الاشتغال عليها جميعا، لذلك ارتأينا أن نركّز بحثنا بداية على الاستعارات الواردة في مجالي الفخر والهجاء، ثم نعمل على التركيز على أشهر المجالات التي وقع فيها التفاخر والتهاجي بين الشعاعين.

1- استعارات الفخر:

مجالات الفخر كثيرة ومتعدّدة، وما ورد ذكره في نقائض جرير والفرزدق نذكر ما يأتي:

- الأيّام*:

ذهب ابن الأثير إلى عدّ أيام العرب ممّا يجب على الأديب معرفتها سواء أكان شاعرا أو كاتباً وفي حديثه عنها ذهب إلى القول: ((أما أيام العرب فإنها تتنوّع وتتشعب، فمنها أيام فخر، ومنها أيام محاربة، ومنها أيام منافرة، ومنها غير ذلك))¹. فالأيام تتمثل المحور الأساس الذي دارت عليه أغلب النقائض يوظفها الشعراء فخرا إذا كان النصر فيها حليفهم، وهجاءً وتعييرا لخصومهم إذا كانت الهزيمة مآلهم. وتعدّ الأيّام الجاهلية أشدّ ظهورا بين جرير والفرزدق. وفيما يخص الأيّام التي كانت تعدّ محطّ فخر لشاعرنا نلاحظ أنّها كانت محصورة في أيّام محدّدة. فقد ((كان جرير يفتخر بأيّام لتميم عامّة حيناً، وأيّام ليربوع خاصّة حيناً آخر، وذلك يكون في وجه مجاشع رهط الفرزدق، وأيّام لقيس عيلان أمام الفرزدق والأخطل. وأنّ موقف الفرزدق

*-ورد في لسان العرب أن اليوم معروف مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها والجمع أيّام، والعرب تقول الأيّام في معنى الوقائع، يُقال: هو عالم بأيّام العرب، يريد وقائعها. وقد خصّصوا الأيّام دون ذكر اللبالي في الوقائع لأنّ حروبهم كانت نهاراً. ابن منظور، مج 15، ص 329-330.

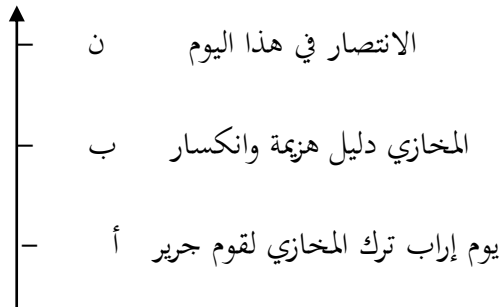
¹- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 1، ص 77.

جعله يفخر بأيام تميم كثيرا إذ جعل نفسه زعيمها والمتكلم باسمها، كما افتخر بأيام لدارم رهطه خاصة ولعل ذلك قليل¹.

وغالبا ما يكون ذكر هذه الأيام مقرونا بالحديث عن القوة ووصف شجاعة المقاتلين والهزائم التي ألحقت بالطرف الآخر. ومما ورد ذكره، في هذا المجال، على سبيل الفخر نذكر ما افتخر به الفرزدق حين قال:

لَقَدْ تَرَكَ الْهُذَيْلُ لَكُمْ قَدِيمًا مَخَازِي لَا يَبْتَئِنُّ عَلَيَّ إِرَابًا²

وإراب هو يوم لتغلب على يربوع، وفيه أغار الهذيل بن هبيرة التغلي على بني رياح بن يربوع. وفيه يفخر الفرزدق بالانتصار الذي حققه الهذيل من خلال الإشارة إلى المخازي التي تركها لهم، على اعتبار أن عدم القدرة على ردّ اعتداءات الخصوم هو خزي ما بعده خزي، وقد عبّر الشاعر عن ذلك المعنى باستعارة مكنية تؤكد المعنى الذي يوّد الوصول إليه وهو قوّة قبيلته وانتصارها مقابل ضعف قوم جرير وهزائمهم في الحروب.



فالشاعر يسعى لإقناع خصمه بنتيجة وهي قوّة قبيلته، ولحملة على الاقتناع بذلك، يوظف حدثا تاريخيا معلوما لدى خصمه ولدى الآخرين، وبالتالي يشحن كلامه بطاقة إقناعية لا سبيل إلى نُكرانها، وما على الخصم إلا التسليم معه بصحة النتيجة التي اتخذ من الاستعارة سبيلا لبلوغها.

ويجعل اندفاعهم للحرب وإقبالهم على الموت ليس سوى سعي منهم لبلوغ المكارم، قال:

فَإِنَّا أَنَا نَشْتَرِي بِدِمَائِنَا دِيَارَ الْمَنَايَا رَغْبَةً فِي الْمَكَارِمِ³

¹ - أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص 258.

² - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 339.

³ - المصدر نفسه، ص 282.

كما وظّف الشّاعر الاستعارة المكنية في سبيل الحديث عن جسامة التضحيات التي يدلونها لبلوغ المكارم. وتظهر حجاجية هذه الاستعارة من خلال ما يلي :

↑	ن	هم دفعوا الثمن الغالي(الدماء) فتحصلوا على الشيء الغالي(المكارم)
-	ب	من يدفع الثمن الغالي يتحصل على الشيء الغالي
-	أ	من يدفع الثمن الرخيص يتحصل على الشيء الرخيص

فالفرزدق ينطلق من حجّة منطقية، مفادها على قدر البذل تكون النتيجة، وبالتالي يجعل الآخرين يسلّمون معه بأنّه من يدفع الثمن الرخيص يتحصّل على الشيء الرخيص، ومن يدفع الثمن الغالي يتحصّل على الشيء الغالي، ثمّ يصرّح بأنّهم دفعوا دماءهم ثمنًا للمكارم، وما دام الدّفع قد حصل فإنّهم بالغون المكارم لا محالة.

وفي مجال الافتخار بالحرب، نجدّه يذكر موقفا يدلّ على القوّة أيضا وهو التعامل مع أسرى الحرب حيث يقول في ذلك:

فَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ¹ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ¹

وهو يحدّد مصير الأسرى الذين يظفر بهم العدو في حال هزيمتهم، فهم لا يتركوهم للموت، وإنّما يسارعون إلى افتدائهم حتّى ولو كانت قيمة فديتهم عالية ومما يثقل الأعناق. وتظهر حجاجية هذه الاستعارة المكنية من خلال تكريسها لقوّة القبيلة، في حالتي النّصر والهزيمة، فهي تقف حجّة على قوّة القبيلة.

↑	ن	هم أقوياء ماديا
-	ب	لا يعبؤون بالقيمة المادية للفدية
-	أ	الأسرى مصيرهم القتل أو الافتداء

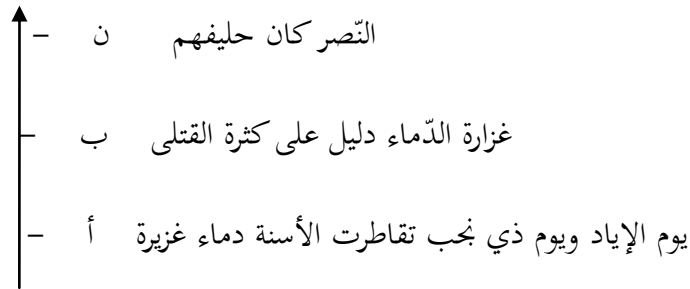
¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 277.

فالشاعر ينطلق من حقيقة أنّ الأسرى مصيرهم القتل أو الافتداء، وهم يسارعون إلى افتداء أسراهم مهما بلغت قيمة الفدية، ومنه يتوصّل إلى النتيجة التي يودّ إقناع الآخرين بها، وهي قوّة القبيلة من حيث الجانب المادي.

وفي مجال الأيّام وما يرتبط بها، نجد جريرا يكرّس كلّ ما من شأنه أن يشكّل مجال افتخار يواجهه به خصمه. ومن الأيّام التي افتخر بها نذكر يوم الإياد الذي كان ليربوع على بكر، وفيه يقول:

وما شَهِدَتْ يَوْمَ الإيَادِ * مُجَاشِعٌ وَذَا نَجَبٍ * يَوْمَ الأَسْنَةِ تُرَعَفُ¹

وقد تحدّث عن كثرة القتلى الذين خلفوهم في صفوف الخصوم؛ وذلك من خلال وصفه للأسنة التي كانت تتقاطر دماءً غزيرة، وهي استعارة مكنية تقف دليلاً ساطعاً على قوّة القبيلة الحربيّة.



ولأنّ الانتصار قرين القوّة، بنجده يقرّ بقوّتهم من خلال قوله:

أَلَا رَبَّ جَبَّارٍ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ سَقَيْنَاهُ كَأْسَ المَوْتِ حَتَّى تَضَلَّعَا²

فهو يوظّف استعارة مكنية يقرّ من خلالها بمدى قوّة القبيلة التي تصل إلى حد قهر الجبابرة حتّى إنّهم يسقونهم الموت حدّ التشبّع.

*- يوم الاياد هو يوم العظالي، ويوم الأفاقه، ويوم أعشاش، ويوم مليحة، وهو لبني شيبان على بني يربوع. انظر العمدة لابن رشيق، ج2، ص176.
**- يوم ذي نجب هو يوم لبني يربوع على بني عامر، وفيه قتل حسان بن معاوية بن آكل المراملك، قتله حشيش بن نمران من بني رياح بن يربوع، وقيل: بل قُتل عمرو بن معاوية وأما حسان فأسر، وكانت بنو عامر أتت به تغزو بني حنظلة بن مالك بعد يوم جبلة بعام، فتنحى لهم بنو مالك بن عمرو بن عمرو بن عدس، وتركوا في صدورهم بني يربوع، فهزمت بنو عامر هزيمة عظيمة. المصدر نفسه، ص183-184.

¹- نقااض جرير والفرزدق، مج 2، ص 27.

²- المصدر نفسه، ص 205.

↑	ن	قوم الشعاع أقوىاء جدا
	ب	هم سقوه كأس الموت
	أ	الجبابرة يسقون كؤوس الخمر

فالشاعر ينطلق من كون الجبابرة يهاجم الناس ويرهبونهم، ويقدمون لهم الولاء والطاعة، وقومه سقوا الجبار كأس الموت بدل كؤوس الخمر، ومنه نصل إلى نتيجة وهي أنهم أقوى من الجبابرة، وفي هذا إثبات لقوة القبيلة.

-التسب:

افتخر الفرزدق بنسبه كثيرا أمام جرير الذي عُرف بضعة نسبه، واتخذ من ذلك مطية لإثبات الأفضلية على خصمه وجعل علو نسبه مما تشهد به مخلوقات الله في سمائه، و يتضح ذلك في قوله:

وَلَوْ سُئِلَتْ مَنْ كُفُّنَا الشَّمْسُ أَوْمَاتٌ إِلَى ابْنِي مَنْافٍ عَبْدَ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ¹

فالشاعر قد جعل الشمس شاهدا على رفعة نسبه عندما حصرته من يعدلهم في بني عبد شمس وبني هاشم، بيوت الشرف والسيادة والنبوة. وإيصال هذا المعنى وظف استعارة مكنية تقف دليلا على علو مكانته.

↑	ن	قوم الفرزدق أهل شرف وسيادة
	ب	الشمس أومات إلى أنهم يكافئون قوم الفرزدق
	أ	ابنا مناف أهل شرف وسيادة

تبدو الفعالية الحجاجية لهذه الاستعارة من انطلاق الشاعر من حقيقة مسلم بما عند الجميع، وهي أنّ ابني عبد مناف أهل شرف وسيادة، وعندما يساوي الشاعر قومه بهما، فهذا يعني ضمنا أنهم يعدلونهما

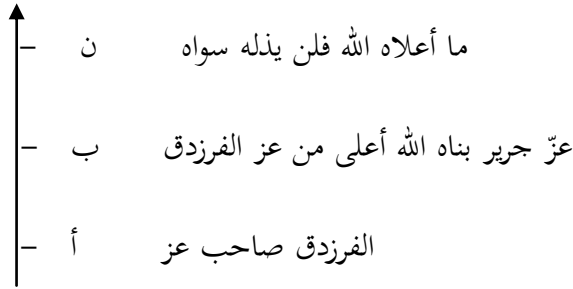
¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 282.

في الشرف والسيادة. فالشاعر ينطلق من فكرة مسلّم بها لدى الآخرين، ويجعلهم يصلون إلى النتيجة المتوخاة، وبالتالي يستحوذ على قناعتهم، ويجعلهم يسلمون له بالشرف والسيادة.

ويذهب جرير هو الآخر إلى الافتخار بنسبه، ويجعل عزّه وشرفه موهبة إلهية لا سبيل إلى بلوغها أو نُكرانها، وفي ذلك يقول:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا عِزًّا عَلَاكَ فَمَا لَهُ مِنْ مُنْقَلٍ¹

حيث شبّه العزّ وهو معنوي بالبناء الذي يُشاد وهو مادي، فحذف المشبه به وأبقى على ما يدلّ عليه (بنى) وهي استعارة مكنية.



وتتمثّل الغاية الحجاجية لهذه الاستعارة في كون جرير يسعى إلى إقناعنا بفكرة، وهي أنّه أعزّ جانباً من خصمه الفرزدق، ولكي يجعلنا نفتنّع بهذه النتيجة ونُسلمّ معه بما، انطلق من الاعتراف بعزّ الفرزدق، غير أنّه لم يستحضر هذا الاعتراف إلا ليوظّفه لمصلحته هو؛ حيث أدخله في باب المفاضلة، وجعل عزّه فوق عزّ الفرزدق، وحتى لا يدّع مجالاً للطعن في هذه الأفضلية، نسب بناء هذا العزّ إلى الله عزّ وجلّ، ليوحي بأنّ تفضيله على الفرزدق إرادة إلهية، وما أَراده الله فلن يغيّره سواه.

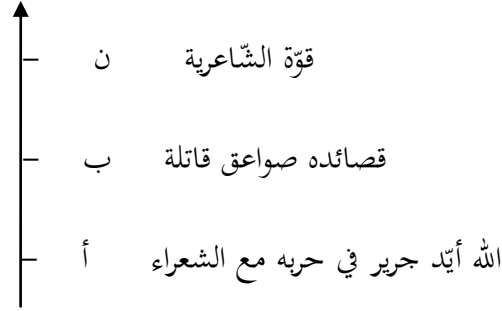
- الموهبة الشعريّة:

لم تكن النقائض معركة سياسية أو قبلية فحسب، بل كانت معركة أدبية أيضاً؛ حيث راح كلّ خصم يثبت جدارته في مجال الإبداع الشعري، ويسم نتاجه بما يحوّل له الغلبة والقوّة. فهذا جرير يحدثنا عن مدى تأثير شعره في خصومه فيجعل من قصائده ألسنة حارقة، وهو لا يتحدّى شاعراً واحداً بل يتحدّى زمرة الشعراء جميعاً، يقول:

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 165.

أَعَدَّ اللَّهُ لِلشُّعْرَاءِ مِنِّي صَوَاعِقَ يَخْضَعُونَ لَهَا الرَّقَابَا¹

فالشاعر يستعمل استعارة تصريحية بغية الوصول إلى نتيجة مفادها تحقيق الأفضلية والغلبة حتى في فنّ القول، أي المجال الشعري الذي يعدّ هو الآخر مجال منافسة.

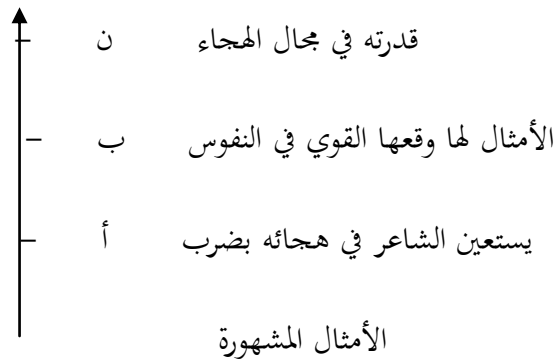


يقرّ جرير أنّ الله قد خصّه بقدرة في الهجاء، تجعل سائر الشعراء يهابونه، ويحنون رقابهم له صاغرين أذلاء. وقد وظّف الاستعارة التصريحية ليحتجّ لقوته الفنيّة وتفوّقه في مجال الشعر، وبخاصّة الهجاء، ومنافسته مع الشعراء. وللتأكيد على قوته جعل قصائده صواعق قاتلة، وليتمكّن من إقناع الآخرين أكثر، جعل كلّ ذلك يتم بإرادة إلهية لا بشريّة.

ويؤكّد الفرزدق، هو الآخر على التأثير الكبير لهجائه على الأعداء وذلك بضرب الأمثال الخبيثة المشهورة، حتى إنّها تكون بمثابة السيوف الحادّة التي تقطع الآذان، يقول:

إِنِّي كَذَلِكَ إِذَا هَجَوْتُ قَبِيلَةَ جَدَّعْتُهُمْ بِعَوَارِمِ الْأَمْثَالِ²

والبيت يتضمّن استعارة مكنية تنبئ عن مدى تأثير هجاء الشاعر في الآخرين ويتّضح ذلك مما يأتي:



¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 318.

²- المصدر نفسه، مج 1، ص 202.

يخبرنا الشاعر أنه في هجائه للقبائل يعتمد على الأمثال، ونحن نعلم أن الأمثال تحتزن طاقة حجاجية إقناعية، لأنها تحظى بالقبول والإجماع، والاعتماد على الطاقة الحجاجية للمثل من شأنه أن يعزز جانبه، ويحزز الغلبة لصاحبه، حينما يجعل الآخرين يسلّمون معه بفحواه، وبالتالي يكون تأثير الأمثال قوياً على الخصم ولا سبيل إلى المناص منه.

وفي صورة مميّزة ينفرد فيها الفرزدق للتأكيد على شاعريته فيستعير لقصائده لفظ الأوابد للدلالة على عدم قدرة الشعراء على مجاراته، يقول:

لَنْ تُدْرِكُوا كَرَمِي بِلُؤْمِ أَبِيكُمْ * وَأَوَابِدِي بِتَنْحُلِ الْأَشْعَارِ¹

فالشاعر بتوظيفه للاستعارة التصريحية يوهننا أننا في مجال مطاردة أو صيد ويمكننا تأويل البيت كالآتي:

—	ن	— قصائد الفرزدق لا يمكن بلوغها
—	ج	— قصائد الفرزدق كأوابد الوحش
—	ب	— كل شاعر يسعى لإدراك الآخرين
—	أ	— الشعراء في مجال منافسة (مطاردة)

وكل ذلك يصبّ في نتيجة واحدة وهي إثبات الأفضلية للفرزدق.

2- استعارات الهجاء:

إنّ المحاور التي دار عليها الفخر هي نفسها التي يدور عليها الهجاء؛ حيث تُتناول المعاني الإيجابية بالإثبات في حالة الفخر والتّفي في حالة الهجاء، وستتجاوز ذلك تفادياً للتكرار، وقد ذكرنا سابقاً المعاني التي تمحورت حولها المهاجاة بين جرير والفرزدق، غير أننا آثرنا أن نبحت مجالاً بدا بارزاً وهو المجال الأخلاقي.

* - اعتبر ابن رشيق الأوابد من الشعر الأبيات السائرة كالأمثال، وأكثر ما تستعمل في الهجاء، والأوابد الدواهي، ومنه أوابد الشعر، والأوابد الإبل التي تنوحش فلا يقدر عليها إلا بالعقر، والأوابد الطير التي تقيم صيفاً وشتاءً، والأوابد الوحش؛ وعليه تكون المعاني السائرة كالإبل الشاردة المتوحشة، وكأنها في بعدها من الشعراء وامتناعها عليهم كالوحش في نفاها من الناس. انظر: العمدة، ج2، ص162.
¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج1، ص236.

-الأخلاق والصفات:

في إطار الحديث عن الأخلاقيات والصفات التي من شأنها أن تحطّ من قيمة الإنسان وتُدني من قدره بين النَّاسِ، نجد الشعاعين يركّزان على جملة من الصفات كان اللؤم أكثرها حضوراً. وفيما يأتي سنعرض لبعض هذه الصفات وعند كلا الشعاعين.

عُرف الفرزدق بفسوقه وفساد دينه وهو ما جعل جرير لا يتوانى في تعبيره بهذا الجانب الذي يعدّ منقصة، يقول جرير:

وَكُنْتُ إِذَا حَلَلْتُ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتُ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتُ عَارًا¹

فالشاعر يؤكّد على فساد أخلاق الفرزدق وذلك أنه إذا حلّ بمكان ما ونزل ضيفا على قوم، لا يرحل عنهم إلّا وقد ارتكب ما من شأنه أن يخزيه ويترك لهم عار فعلته. وقد عبّر عن هذا المعنى موظفاً استعارة مكنية نوضّح حجاجيتها كما يلي:

ن	الفرزدق لا يؤمن جانبه
ج	حيثما حلّ ترك عارا
ب	حيثما حلّ رحل بخزية
أ	الفرزدق لا يحترم آداب الضيافة

يطعن جرير في الجانب الأخلاقي للفرزدق، مستغلا الطاقة الحجاجية للاستعارة، التي وظّفها في هذا البيت، والتي يجعل من خلالها الفساد صفة لصيقة بالفرزدق حيثما حلّ وارتحل، ولكي يكون أكثر إقناعا بفساد أخلاقه، جعله حيثما حلّ رحل بالخزي وترك العار لمستضيفيه، فبئس ما ترك وبئس ما أخذ.

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 184.

وفي موضع آخر يذهب جرير مذهبا بعيدا في الحكم على الجانب الأخلاقي للفرزدق، والتأكيد على الجانب السلبي منه وذلك عندما يظهره وكأنّ الإصرار على السوء سلوك متجدّر فيه، يقول:

أَتَيْتَ حُدُودَ اللَّهِ مُدًّا أَنْتَ يَا فِعٌّ وَشَبْتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ¹

فهذا البيت يشمل على استعارة مكنية سيقت لخدمة نتيجة هامة وهي أنّ إتيان السوء مصاحب للفرزدق في كبره كما في صغره، أي إنّ لا ينصلح حاله رغم مرور الزمن:

↑	ن	لن تتغير سيرته وينتهي عن فعل السوء
	ب	ما زال يتعدى الحدود رغم كبره
	أ	تعدى الحدود منذ الصغر

وفي الجانب المقابل من التقيضة نجد الفرزدق، هو الآخر، يلصق بجرير جملة من الصفات السلبية التي إن ألحقت بشخص كانت وبالا عليه وحكما بالتدني، يقول:

تَسْرِبَلُ تَوْبَ اللَّؤْمِ فِي بَطْنِ أُمَّهِ ذِرَاعَاهُ مِنْ أَشْهَادِهِ وَأَنَا مِلُهُ²

هذا البيت يجعل اللؤم صفة لصيقة بجرير إذ إنه اكتسى اللؤم وهو جنين في بطن أمه وأقام بعض أعضائه شهودا عليه. وقد وظّف الاستعارة المكنية للتدليل على ذلك كما يتضح ممّا يأتي:

↑	ن	اللؤم صفة أصيلة في جرير
	ب	شهدت بذلك بعض أعضائه
	أ	جرير اكتسى اللؤم مذ كان جنينا

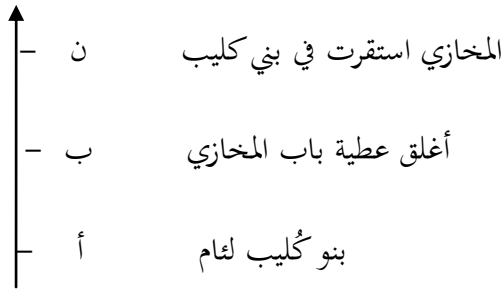
¹-تفائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 285.

²- المصدر نفسه، مج 2، ص 43.

والفرزدق لا يقف باللؤم عند جرير فحسب، بل يعممه في قومه ليعطي لتلك الصفة حضوراً أكبر يجعلها متأصلة في شخص جرير وفي قومه أيضاً، يقول:

فَأَغْلَقَ مِنْ وَرَاءِ بَنِي كَلَيْبٍ عَطِيَّةً مِنْ مَخَازِي اللَّؤْمِ بَاباً¹

وبتوظيف الاستعارة المكنية جعل لؤم بني كليب يبلغ حدّه الأقصى؛ حيث نسب غلق باب اللؤم إلى عطية والد جرير، وبذلك لم يُبق لأحد خزري بعده.



وفي الأخير نخلص إلى أنّ الحرب الكلامية التي دارت بين جرير والفرزدق، حاول فيها كلّ شاعر أن يثبت الأفضلية لنفسه، وعلى جميع الأصعدة، والإطاحة بخصمه بنقض كلّ محاسنه وإصاق كلّ المساوي به. وفي إطار هذه العملية الحجاجية، راح كلّ شاعر يستغلّ كلّ ما من شأنه أن يقوّي جانبه ويضمن له الغلبة. وقد كانت الاستعارة واحدة من تلك الوسائل التي اتكأ عليها الشعاعان كما هو الحال في مجالي الفخر والهجاء.

ففي الفخر، أكثر الفرزدق من توظيف الاستعارة في ذكر النسب والأيام ليبين من خلالها انتصاراتهم وقوّتهم الحربية والمادية، وتظهر حجاجيتها من خلال توظيفها لخدمة نتيجة واحدة وهي أنه الأقوى والأفضل في حين يركّز جرير أكثر على الشعاعية ويجعلها مناط فخره. أمّا في الهجاء، فحضرت الاستعارة وبقوة في مجال الأخلاق والصفات، وكانت صفة اللؤم قاسماً مشتركاً بينهما، غير أنّ جريراً كان يُلحّ على فساد دين الفرزدق.

إنّ كلا الشعاعين كان يسعى لإثبات الأفضلية لنفسه دون خصمه، وأنّه الأرفع نسباً والأقوى حربياً والأكثر شاعرية، وأنّ خصمه دونه منزلة، ولخدمة هذه النتيجة وظّف الاستعارة، وقد كانت أكثرها مكنية. وانطلاقاً من كون الاستعارة لا تكون حجاجية إلا إذا كانت لها القدرة على التأثير في الآخرين، وجعلهم يقتنعون بالآراء المطروحة ويسلمون بها، فإنّ استعارات جرير والفرزدق كانت حجاجيتها واضحة إلى حدّ كبير.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 339.

المبحث الرابع:

الكناية

تعدّ الكناية من الوسائل البلاغية الهامة التي لا يمكن للشاعر الاستغناء عنها، وحتى الإنسان العادي كثيراً ما يلجأ إليها في خطابه اليومية. وتأتي الحاجة إلى الكناية من بعض المواقف التي تتطلب التلميح دون التصريح.

1- تعريف الكناية:

لفظ الكناية مشتق من الجدر كنى، ومعناه أن تتكلم بشيء وتريد غيره، يُقال كنى عن الأمر بغيره، يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه¹. ويمثل عبد القاهر الجرجاني مرحلة نضج واكتمال هذا المفهوم؛ حيث رسم حدودها الكبرى وجعلها ((شكلا من أشكال المجاز، بنيتها هي بنيتها))².

وقد حدّد مفهوم الكناية في ((أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه))³.

وقد وقف ابن الأثير على أصل الكناية فقال: ((اعلم بأنّ الكناية مشتقة من التستر، يُقال كنىت الشيء إذا سترته، وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يستر فيها مجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر والمستور معا))⁴.

ويعرّفها بقوله: ((حدّ الكناية الجامع لها هو أنّها كلّ لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، والدليل على ذلك أنّ الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره، ويقال كنىت بكذا عن كذا، فهي تدلّ على ما تكلمت به وعلى ما أوردته في غيره))⁵.

¹ - ابن منظور: لسان العرب، مج 13، ص 124، مادة ك ن ي.

² - محمد الولي: الاستعارة في محطّات يونانية وعربية وغربية، ص 254.

³ - الجرجاني: دلائل الاعجاز، ص 89.

⁴ - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص 52.

⁵ - المصدر نفسه، ص 53.

أمّا قدامة بن جعفر فأسمها الإرداف، وعرفها بقوله: ((هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له. فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع))¹. وإلى المعنى ذاته ذهب السكاكي في تعريفه للكناية فقال: ((هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة))².

وإذا كان الجرجاني وضع الكناية ضمن المجاز واعتبرها جزءاً منه، فإن السكاكي جعلها مبحثاً مستقلاً بذاته ضمن علوم البيان، وذلك أن ((مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم))³، كما قال: ((الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها فلا يمتنع في قولك: فلان طويل النجاد أن تريد طول نجاهه))⁴.

وبهذا لم تعد الكناية عند السكاكي دالة على المعنى المجازي فقط، بل أصبح كل موضع ترد فيه إلاّ وتتجاذبه الحقيقة والمجاز معاً، وذلك لأنه يجوز حمله عليهما معاً⁵.

2-وظيفة الكناية:

إنّ اهتمام البلاغيين لم يكن محصوراً في التشبيه فقط، بل كان للكناية نصيب من اهتمامهم، نظراً للمهمة التي تنهض بها داخل الكلام، فقد اعتبروا أنّ ((الكناية أبلغ من الإفصاح))⁶، ممّا يعني أنّ التكنية عن المعنى يجعل الكلام أبلغ من الإفصاح عنه، ذلك ((أنك لما كنييت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشدّ))⁷.

ويعمد الجرجاني إلى توضيح الدور الذي تنهض به في إثبات المعنى فيقول: ((أمّا الكناية فإنّ السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون التصريح أنّ كلّ عاقل يعلم-إذا رجع إلى نفسه-أنّ إثبات الصفة بإثبات

¹-قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 157.

²-السكاكي: مفتاح العلوم، ص 512.

³-المصدر نفسه، ص 513.

⁴-المصدر نفسه، ص 513.

⁵-كمال الزماني: الصورة الحجاجية في خطابة الامام علي، ص 55.

⁶-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 91.

⁷-المصدر نفسه، ص 92.

دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتشبهتها هكذا ساذجا غفلا، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، بحيث لا يُشك فيه ولا يظن بالمخبر للتجوز والغلط¹. ومن هنا تظهر أهمية الدور الذي تنهض به الكناية في الكلام؛ حيث إنّها تؤكد المعنى وتثبتته ممّا يسهّل ترسيخ هذا المعنى في ذهن المتلقي وبالتالي التسليم به.

ولم يكن الاهتمام بالكناية مقصورا على الدارسين القدامى فحسب، بل نجده ممتدا حتى الدارسين المعاصرين الذين شغلت الكناية جانبا من اهتمامهم أيضا، الذي يتضح ممّا يأتي:

3- الكناية في الدراسات المعاصرة:

عرّف فرونسوا مورو (François Moreau) الكناية بقوله: ((إنّما انتقال من تمثيل إلى تمثيل آخر يرتبط محتواه بعلاقة تجاور مع التمثيل المعطى))². فالكناية، حسبه، ترتبط بالتمثيل؛ حيث يتم فيها الانتقال من تمثيل إلى آخر يجاوره في المعنى.

أما روبول (Olivier Reboul) فيعرّفها بقوله: ((أن تسمي شيئا باسم شيء آخر يكون مجاورا للاسم الأول))³، وقد اشترك مع سابقه في القول بالمجاورة، وبذلك فهما لم يقدموا جديدا عمّا عرف سابقا.

ولكنّ اختلاف البلاغيين المعاصرين كان في تحديد قيمتها الجمالية مقارنة مع غيرها من صور المشابهة⁴ المشابهة⁴ ذلك أنّ الكناية ((لا تفتح طرقا كما يفتحها الحدس الاستعاري، إنّها، وهي بالأحرى تحرق الطرق المعهودة جدا كما تختصر المسافات لأجل تيسير الحدس السريع بالأشياء التي سبقت معرفتها))⁵. لقد وُضعت الكناية موضع مقارنة مع أخواتها من الصّور البيانية القائمة على المشابهة، واتضح أنّها توصل المعنى بأقصر

¹ -المرجاني: دلائل الإعجاز، ص 92-93.

² -فرونسوا مورو: البلاغة. المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2003، د.ط، ص 62.

³ -Olivier Reboul: Introduction à la rhétorique, 1ere édition, Presses Universitaires de France, 1991, p 128.

⁴ -كمال الزماني: الصورة المحجاجية في خطابة علي، ص 57.

⁵ -فرونسوا مورو: البلاغة. المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 64.

السبيل، وهذا ما جعل بعضهم يردّ الدونية التي تعاني منها الكناية عند هؤلاء إلى ايجاز المسافات واختصارها، مما ينفي تحقيق الغرابة الدلالية في طريقة تقديم المعاني¹.

4-الكنايات في شعر النقااض:

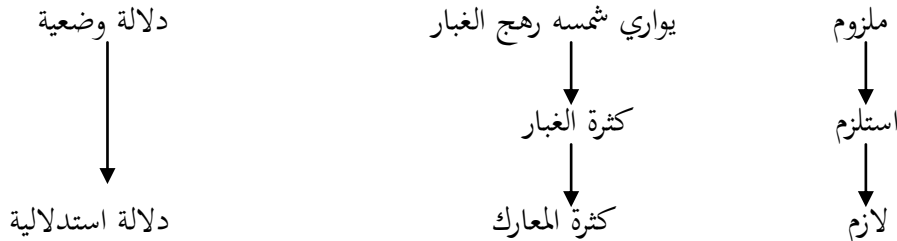
لا يمكن لشاعر أن يقصر شعره على شكل واحد من أشكال الصّورة الشعريّة، بل يذهب إلى التنوع في تعابيره مذاهب شتى تدلّ أكثر ما تدلّ على براعته في فن القول، وقدرته على التلوين والتنوع في الصّور الشعريّة. وتعدّ الكناية رافدا من روافد الصّورة الشعريّة التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولذلك احتوت النقااض على كثير من الكنايات التي وظّفها جرير والفرزدق، وتعدّدت مجالات استعمالها في الفخر والهجاء، شأنها شأن الصور البيانية الأخرى.

ويبقى الافتخار بالقوّة وبكلّ ما يمثّلها المعين الذي لا ينضب بالنسبة للشّاعرين، والمجال الرّحب الذي لا يسأمان من القول فيه وبأساليب شتى. وفي هذا الإطار كان الافتخار بأيّام القبيلة، وإثبات القوّة والشّجاعة ممّا يتباهى به الشّاعر، ويفخر به، ويتطاول على خصمه.

ومن ذلك ما قاله جرير مشيدا بكثرة حوضهم للمعارك:

لِيَرْبُوعِ فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ يُوَارِي شَمْسَهُ رَهْجُ الْغُبَارِ²

وتظهر حجاجة الصّورة الكنائية بقيامها على الانتقال من دلالة وضعية إلى دلالة استدلالية، يتمّ الوصول إليها من خلال إعمال الفكر والانتقال من ملزوم إلى لازم، وعليه يمكننا توضيح الكناية كما يأتي:



¹ -كمال الزماني: الصورة الحجاجية في خطابة علي، ص 57.

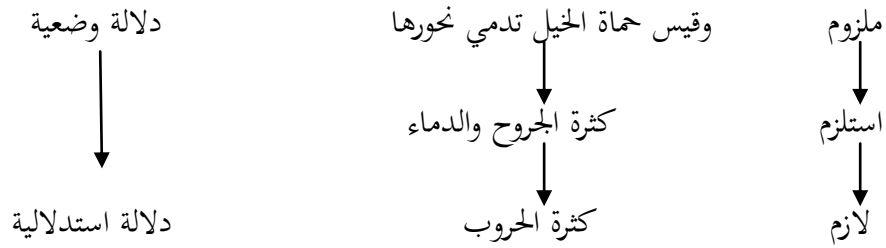
² -نقااض جرير والفرزدق، مج 1، ص 181.

حيث جعل الغبار الذي تثيره حوافر الخيل يوارى أشعة الشمس كل يوم، فاستعمل (يوارى) كناية عن كثرة الغبار المثار كل يوم، وفي ذلك إشارة إلى كثرة خوضهم للمعارك، إضافة إلى ذلك فإن كثرة الغبار يمكنه أن ينتج عن كثرة عددهم، وشدة قوتهم وسرعتهم أيضا.

وقال في موضع آخر:

وَقَيْسٌ هُمْ قَيْسُ الْأَعْيَةِ وَالْقَنَا وَقَيْسٌ حُمَاةُ الْخَيْلِ تَدْمَى نُحُورَهَا¹

استعمل الشاعر عبارة (تدمى نحورها) كناية عن كثرة الدماء التي التصقت بنحور الخيل، للدلالة على كثرة خوضهم للحروب، وشجاعتهم وإقدامهم، مما يجعل صدورهم مصطبغة بلون الدم. هذا المعنى يتوصل إليه من خلال الاستدلال الآتي:



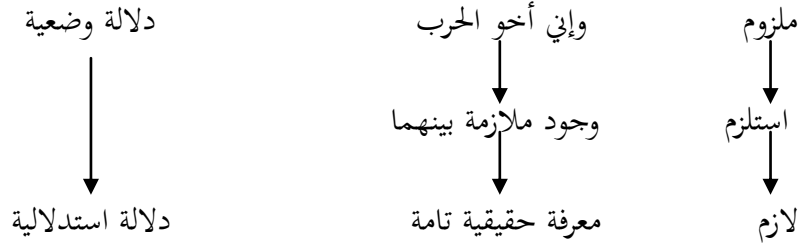
وقال أيضا:

وَإِنِّي أَخُو الْحَرْبِ الَّتِي يُصْطَلَى بِهَا إِذَا حَمَلَتْهُ فَوْقَ حَالٍ تَشْتَعَا²

فالشاعر لا يكتفي بالفخر بفوارس القبيلة، وما يحققونه من انتصارات، وما يصنعون من أمجاد، وإنما يفخر بنفسه أيضا، إذ لا يغفل الفخر الذاتي، ولتحقيق ذلك نقل الحرب إلى مجال العاقل وشبهها بالإنسان، وجعل الرابطة بينه وبينها علاقة دموية، وهي الأخوة (أخو الحرب)، وقد أجرى هذه العلاقة الأخوية كناية عن الخبرة والتمرس بفنون القتال.

¹-نقااض جرير والفرزدق، مج 1، ص 383.

²-المصدر نفسه، مج 2، ص 201.



وإن كان جرير قد اتخذ من الكناية وسيلة حججائية إقناعية، وذلك باعتماد الاستدلال بغية الوصول إلى معاني هذه الصورة، فإنّ الفرزدق هو الآخر، قد اتكأ على الصورة الكنائية أيضا من أجل إثبات معانيه والتأكيد عليها، ومما قاله في مجال الفخر نذكر:

كَمْ كَانَ مِنْ مَلِكٍ وَطِنٍ وَسَوْفَةٍ أَطْلَقْنَهُ وَبِسَاعِدَيْهِ إِسَارُ
كَانَ الْفِدَاءُ لَهُ صُدُورَ رِمَاحِنَا، وَالخَيْلُ إِذْ رَهَجَ الْغُبَارِ مُثَارُ¹

يفتخر الشاعر في البيت الأول بسمة أساسية من سمات القوة في الحروب، وهي إكرام الأسرى وإطلاق سراحهم، وجعل فديتهم في ذلك الرّماح والخيل عندما يكون المكان يلقيه الغبار ، والغبار المثار كناية عن كثرتهم وقوتهم في المعارك.

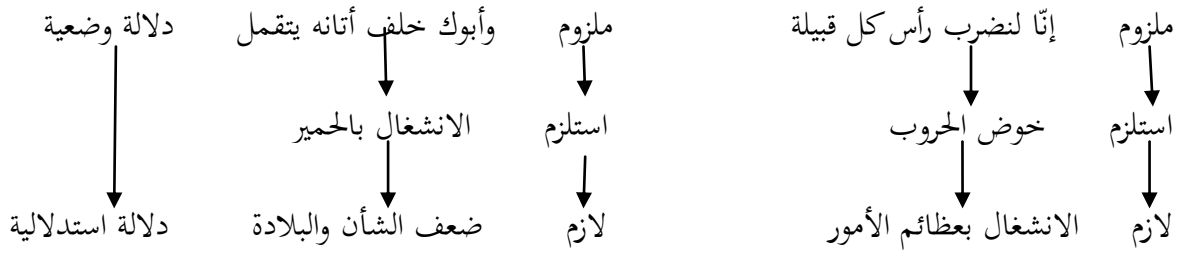
وفي مجال الموازنة بينه وبين جرير يستحضر الصورة الآتية:

إِنَّا لَنَضْرِبُ رَأْسَ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَأَبُوكَ خَلْفَ أَنَانِهِ يَتَقَمَّلُ²

ويحدّد طرفي الموازنة وهما: قبيلة الفرزدق المنشغلة بخوض غمار الحروب، وضرب الرقاب، وفي ذلك إشارة إلى قوتهم وشدّة بطشهم، والطرف الثاني يمثله عطية والد جرير المنشغل بالاهتمام بحميّره، وأي انشغال هذا مقارنة بانشغال الطرف الأوّل، وعليه تبدو المفارقة واضحة بين الطرفين. والبيت يتضمن كنايةتين:

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 231.

² - المصدر نفسه، مج 1، ص 146.



والفرزدق بعقده لهذه الموازنة غير المتكافئة قد رجحت الكفة لصالحه، بل أظهرت البون الشاسع بينه وبين خصمه. وحين نتقل إلى مجال البراعة في القول نجد الفرزدق يدلي بدلوه أيضا؛ حيث نجده يقول مشيدا بشاعريته وما تلقاه قصائده من ذبوع:

وَعُرِّ قَدْ نَسَقْتُ مُشَى، هَهْرَاتٍ
طَوَالِعَ لَا تُطَيِّقُ لَهَا جَوَابَا
بَلْغَنَ الشَّمْسِ حَيْثُ تَكُونُ شَرْقَاً
وَمَسْقَطَ قَرْنِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا¹

فالشاعر يحدّثنا عن مقدار شهرة قصائده وبلوغها الآفاق، وأنها قد بلغت مشرق الشمس ومغربها وذلك كناية عن مدى شهرتها وذبوعها بين الناس.

وبهذا نكون قد عرضنا بعض النماذج الكنائية لكل من جرير والفرزدق، التي أردنا من خلالها أن نوضح كيف استخدمها الشعاران لغايتهمما الحجاجية، خاصة وقد انطلقنا من كون الكناية استدلال يتم فيه الانتقال من ملزوم إلى لازم؛ بحيث تبدو النتيجة المتوصل إليها منطقية، مما يعني استحواذها على قدر كبير من المصدقية والقبول، ومن ثم يحدث الاقتناع والتسليم، خاصة والشعاران بينهما محاجة، لا ينتصر فيها إلا من كانت حججه أقوى وأنفع.

وبعد أن تمّت وقفنا مع الصّور البيانية نتقل إلى البديع لنعرض بعض الألوان البديعية، وغايتنا من ذلك التليل على أنّ البديع لا تقف وظيفته على حدود التحسين والتزيين فقط، وإنما ينهض بوظيفة حجاجية إقناعية، وهو ما نحاول بحثه فيما يأتي.

¹ -نقااض جرير والفرزدق، مج 1، ص 343.

المبحث الخامس:

البديع

حفلت نصوص نقائض جرير والفرزدق بالكثير من ألوان البديع المختلفة، غير أننا سنقتصر مجال بحثنا على بعض الألوان التي ارتأينا أنها تخدم توجهنا في الدراسة، وبإمكاننا أن نظهر الجوانب الحجاجية فيها، وكيف أن كل شاعر قد وظفها لخدمة مسعاه الحجاجي.

ومن المحسنات البديعية المعنوية التي ارتأينا الوقوف عندها المطابقة والمقابلة اللتين أوردهما جرير والفرزدق في مجال المنافسة بينهما، وكانتا الأنسب طالما تقوم التقيضة أساساً على الافتخار بالنفس وهجاء الآخر، من خلال اعتماد أساليب المفاضلة والموازنة. وفيما يأتي سنقف مع هذين اللونين البديعيين اللذين اعتمدهما الشعرا وكيف استغلّاهما لجعل المتلقي يدعن لما يودّ كل طرف الوصول إليه.

1-المطابقة:

هي لون من ألوان البديع التي صنّفها القدامى واختلفوا في تسميتها بين المطابقة والطباق والتكافؤ، وقد تعرّض الدارسون، ومنذ القديم، للحدّث عنها وتبيين دورها في الكلام وما تقدّمه من فائدة في الاستعمال. عرّفها قدامة فقال: ((أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمه ويحكم فيه، أيّ معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين. والذي أريد بقولي متكافئين في هذا الموضع أي متقابلين إمّا من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرها من أقسام التقابل))¹.

وقد حدّدها ابن رشيق بقوله: ((جمعك بين الضدين في الكلام أو بيت شعر))²، وبذلك جعل المطابقة تكون في الشعر وفي النثر على حد سواء ولم يخصها بجنس دون غيره. وهو الأمر ذاته الذي ذهب إليه رجال البديع عندما جعلوها ((الجمع بين الضدين، أو بين الشيء وضده في كلام أو بيت شعر. كالجمع بين اسمين

¹-قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 147-148.

²-ابن رشيق: العمدة، ج 02، ص 05.

متضادين، أو فعلين متضادين، أو حرفين متضادين. وقد تكون المطابقة بالجمع بين نوعين مختلفين كالجمع بين اسم وفعل¹.

واضح من خلال هذين التعريفين أنّ المطابقة تقوم على الجمع بين الضدين، ولا يخفى على أحد ما لهذا الأسلوب من فائدة في تبيين الأمور وتجليتها، وهو ما يتّضح من العبارة المتداولة والمأثورة بأضدادها تعرف الأشياء". كما أنّ هذا الأسلوب يبدو مناسباً للنقائض التي يقف فيها الشاعران على طرفي نقيض، وكلّ واحد يثبت المحاسن لنفسه ويلحق المساوي بخضمه.

وللمطابقة أنواع* تتحدّد من خلال طريقة توظيف الشاعر للضدين. وفي ما يأتي سنعرض بعض نماذج مطابقة الإيجاب والسلب التي وظّفها الشاعران في إطار منافستهما.

1- مطابقة الإيجاب: وفيها يتمّ التصريح بإظهار الضدين. ومن الأمثلة التي تمثّل هذا النوع من المطابقة

ما أورده الشاعران في مجالي الفخر والمهزاء؛ حيث نجد الفرزدق يهجو بني كليب فيقول:

فَبَحِ الْإِلَهِ بَنِي كَلَيْبٍ إِنَّهُمْ
لا يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لِجَارِ
يَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نُهَاقِ حِمَارِهِمْ
وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ²

فالشاعر من خلال هذين البيتين يجمع لبني كليب جملة من الصفات السلبية، يسعى من خلالها لتأكيد ضعف بني كليب وعدم امتلاكهم لجوانب القوّة، ففي البيت الأوّل ينفي عنهم صفتين وهما: الغدر والوفاء للجار، وإن كان عدم الغدر سمة إيجابية إلا أنّ الفرزدق في هذا السياق قد حملها بطاقة سلبية؛ حيث نلمس من البيت أنّهم لا يغدرون؛ ليس لترفعهم عن ذلك وإنّما لضعفهم خاصّة وقد ألحق هذه الصفة بصفة أخرى وهي عدم الوفاء للجار وكتاها تلتقيان في إثبات الضعف. أمّا البيت الثاني فيجمع فيه بين الاستيقاظ والنوم وتظهر سخريته واضحة عندما جعل بني كليب يستيقظون لسماعهم نحيق الحمير، وبالمقابل تنام أعينهم عن الأخذ بثأرهم إذ يتغافلون عن ذلك، ممّا يجعل معنى هذا البيت يسير في مساق البيت الأوّل ويلتقي معه

¹ - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية. علم المعاني-البيان-البدیع، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2009، ص 77.

* - تنقسم المطابقة إلى ثلاثة أنواع: مطابقة الإيجاب وهي ما صرح فيها بإظهار الضدين، ومطابقة السلب وهي ما لم يصرّح فيها بإظهار الضدين، وإيهام التضاد وهو أن يوهم لفظ الضد مع أنه ليس بضد. للمزيد انظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص 79-80.

² - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 239.

في إثبات الضعف، لأنه لا يتقاعس عن الأخذ بالثأر إلا الضعيف. ومما سبق نستنتج أن الفرزدق قد استعمل هذا النوع من المطابقة لهجاء خصمه والتأكيد على ضعفه وهوانه.

ويستمر الفرزدق في هجائه لبني كليب من خلال إظهار جوانب أخرى يستطيع من خلالها التمكن من خصمه، وذلك بالتيل من قومه وإصاق كل منقصة بهم كما يتضح من قوله:

لا يَمْنَعُونَ لَهُمْ حَرَامَ حَلِيلَةٍ بِمَهَابَةٍ مِنْهُمْ وَلَا بِقِتَالٍ¹

فهو يسمهم بعدم قدرتهم على حماية حليلاتهم من الوقوع فيما يدنس شرفهن؛ بحيث لا يتمكنون من رد الاعتداء عليهن، لا بما يمتلكون من شجاعة وبأس تكسبهم هيبة، ولا بإقدامهم على القتال وشجاعتهم وقدرتهم على خوض المعارك. وهو بهذا يجزدهم من كل جوانب القوة المادية والتي تظهر من خلال إقبالهم على القتال، والقوة المعنوية والتي تتجلى من خلال ما يتمتعون به من مهابة ووقار.

ويقول في موضع آخر:

هَجَوْتُ صِغَارَ يَرْبُوعِ بُيُوتًا وَأَعْظَمَهُمْ مِنَ الْمَخْرَاقِ عَارًا²

فالشاعر يهجو بني يربوع باستعمال مطابقة الإيجاب بين لفظي صغار/أعظمهم وما تحمله اللفظتان من تضاد؛ حيث جعل الصغر لبيوت يربوع دلالة على حقارتهم وقلة شأنهم وضعة نسبهم، وبالمقابل جعل العظمة للخزي والعار، أي أنه جعل الصفة الإيجابية (الشرف) صغيرة والصفة السلبية (العار) كبيرة، والجمع بين المتضادين يقود إلى نتيجة واحدة وهي بُعدهم عن الشرف.

ومن جهة أخرى نجد جريرا هو الآخر يعتمد هذه التقنية التي تقوم على إظهار الضدين، يقول مخاطبا الفرزدق مفتخرا عليه:

فَأَنَا النَّهَارُ عَلَا عَلَيْكَ بِضَوْؤِهِ وَاللَّيْلُ يَقْبِضُ بِسَطَةِ الْأَبْصَارِ³

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 208.

² - المصدر نفسه، ص 192.

³ - المصدر نفسه، ص 243.

حيث نجد أنّ الشاعر، وهو بصدد الافتخار شبّه نفسه بالنّهار واللّيل وهما ضدان، وقد جعل نفسه النهار المنير الذي يغشى ضوءه كلّ شيء، حتّى الفرزدق فإنّه مع هذا الضوء المنتشر لا يكاد يبين، كما جعل نفسه اللّيل المظلم الذي يطبق بظلمته على كلّ شيء فلا تبصر العيون شيئاً. والشاعر بتشبيهه هذا يسعى ليجعل لنفسه سلطة كبيرة لا تضاهيها سلطة البشر، كما يحاول بجمعه بين الضدين أن يغلق كل المنافذ على الفرزدق حتّى لا يجد له ما يفسد عليه هذا، وهمّ جرير من الأمر كلّ، ليس هو إثبات أنّه يفوق الفرزدق فقط، بل ويعلوه أيضاً.

والمفارقة الدائرة بين الشعاعين تجعل كلاّ منهما يستحضر دائماً خصمه كلّما رام الحديث عن نفسه؛ بحيث يبدو الكلام وكأنّه موازنة بين طرفين مثلما يتّضح من قول جرير:

وَلَقَدْ بَنَيْتَ أَحْسَنَ بَيْتٍ يُبْتَنَى فَهَدَمْتُ بِبَيْتِكُمْ بِمِثْلِي يَذْبُلُ¹

يتضمّن هذا البيت حديثاً عن البناء المعنوي، مثلما يُفهم من لفظ البيت الذي يقصد به التّسب والشّرف، وهذا البناء يتجاوزه طرفان متضادان؛ بحيث يمثّل الطّرف الأوّل الفرزدق الذي قام بفعل البناء، ويمثّل الطّرف الثاني جرير الذي قام بفعل الهدم، ومن الواضح أنّ جريراً نسب لنفسه الفعل الأقوى والأكثر تأثيراً ما دامت له القدرة على إزالة الفعل الأوّل (البناء) وإفساده. ولم يكتفِ جرير بهدم بيت خصمه فقط، بل وسمه بالחסنة ليوحي بضعف نسبه وقلة شرفه مقابل ما نسب لنفسه من بيت ضخم، كما يستشف من توظيفه لاسم الجبل "يذبل" الذي يوحي بالقوّة والسموّ والعظمة والرّفعة.

وتظل صفة "القين"* من أكثر ما يودّ جرير إلصاقه بالفرزدق وتعبيره بذلك، وكأنّه الوتر الحساس الذي يعزف سنفونية هجائه عليه، ذلك أنّ شعراء النقائض كانوا يعدّون الحياة الحضريّة في باب المعايب القومية، فالأخطل هجا الأنصار لأنهم زراعون، وجرير ظلّ إلى آخر حياته يهجو بني مجاشع لأنهم قيون (حدّادون)، ذلك لأنّ القيانة وسائر الصناعات كان يقوم بها العبيد.²

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 156.

* - ذهب الحاوي إلى أن جريراً في توظيفه للفظ القين ((يتوسلها كالشّيمة وقد حملها على هذا المحمل بما يتقدّمها ويلحقها به من معاني مزريّة، وأحياناً تراه يعزفها وكأنّها غدت بذاتها تنطوي على دلالة الهجاء)). انظر كتاب: إيليا الحاوي: فن الهجاء وتطوره عند العرب، ص 321.

² - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي القديم، ص 374.

قال جرير:

عَنيفٌ بِهِزَّ السَّيْفِ قَيْنٌ مُجَاشِعٌ رَفِيقٌ بِأَخْرَاتِ الْفُؤُوسِ الْكَرَازِمِ¹

فالبيت يجمع بين صفتين متضادتين أحقهما بالفرزدق وهما: العنف/الرفق، ولكن جعل مجالهما مختلفا بحيث يهزّ السيف بعنف، ممّا يدل على ابتعاده عن هذا الميدان وعدم درايته به، في حين يكون رفيقا في تعامله مع ثقب الفأس، أي مع الحرفة التي يعرفها ويتقنها جيّدا وهي الحدادة. وجرير يسعى من وراء كلّ ذلك إلى تعبير الفرزدق بامتهانه للحدادة التي طالما أنف العرب من ممارستهم لمثل هذه المهن.

2-مطابقة السلب: وهي عكس الأولى؛ حيث لا يصرّح فيها بإظهار الضدين. ومن الأمثلة التي

تندرج ضمن هذا النوع ما ورد على لسان الفرزدق مفتخرا بنفسه:

غَمُوسٌ إِلَى الْغَايَاتِ يُلْفَى عَزِيمُهُ، إِذَا سَمِمَتْ أَقْرَانُهُ غَيْرَ سَائِمِ²

فالشاعر يتحدّث عن نفسه مفتخرا ببطولته في ميدان المعركة إذ يسارع إلى بلوغ غاياته، وحتى وإن ملّ أقرانه فإنّه لا يلحقه الملل. والملاحظ أنّ الشاعر استعمل مطابقة السلب في سُمِّتْ/غير سائم؛ حيث نسب صفة السّام إلى أصحابه في حين نفاها عن نفسه، وذلك دليل على قوّته وشدّة تحمله للمصاعب والمشاق، التي يعجز حتّى الأبطال عن مجابقتها، وبهذا يكون قد أثبت لنفسه البطولة.

ويلجأ الفرزدق إلى استعمال مطابقة السلب أيضا حينما يتحدّث عن خصمه جرير، ويجاوب المساس

به من خلال الطعن في نسبه وتعييره بوالده، يقول:

أَرَى اللَّيْلَ يَجْلُوهُ النَّهَارُ، وَلَا أَرَى عِظَامَ الْمَخَازِي عَن عَطِيَّةٍ تَنْجَلِي³

وقد احتوى البيت على مطابقتين: أرى/لا أرى، ويجلوه/لا تنجلي مثلما هو واضح من مضمون البيت؛ حيث ذهب إلى القول إنّ سواد الليل وظلمته الحالكة يزيحها نور النهار ويبددها، غير أنّ الجانب المظلم السوداوي عند عطية والد جرير، والمتمثّل في مخازيه العظيمة التي لا يزيحها أيّ شيء ممّا يدلّ دلالة واضحة

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 300.

² -المصدر نفسه، مج 2، ص 125.

³ - المصدر نفسه، ص 121.

على أنّ عطية سيء وسوءه مُمتدّ وبلا حدود، وهذه المنقصة لا تقف عنده فحسب، بل تمتدّ إلى ولده جرير وبذلك يكون الفرزدق قد بلغ مراده من هذا التوظيف.

ويستمر الفرزدق في الاستهانة بجرير ووالده وكليب كلّها فيقول:

نَظَرُوا إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ مَلْعُونَةٍ نَظَرَ الرَّجَالِ وَمَا هُمْ بِرِجَالٍ¹

يوظّف الشاعر مطابقة السّلب ليصف جريرا وقومه بأنهم متأخرين عن الناس لأنهم يركبون حميرا، وكيف أرسلوا إليه بنظراتهم التي قال إنّها تنطلق من أعين ملعونة، ووصف نظرهم بنظر الرجال ونفى عنهم أن يكونوا رجالا. لقد استعمل المطابقة بين نظر الرجال/ ما هم برجال ليثبت لهم في الأول الجنس الذي ينتمون إليه (الرجال)، وفي الثاني يسلبهم الصّفة المتولدة عن هذا الانتماء (الرجولة) وبالتالي يضحى الانتماء الجنسي لا قيمة له، بل يصبح انعدام الصّفة مع ثبات الجنس شيئا يندى له الجبين ويستوجب التحقير، وعليه يكون الفرزدق قد وُفق في انتزاع سمة الرجولة لا عن جرير فحسب، بل عن كليب كلّها.

وإن كان الفرزدق قد وظّف مطابقة السّلب ليحطّ من قيمة خصمه نجد جريرا هو الآخر يستفيد من هذه التقنية، ويقلب ما قاله الفرزدق على قومه وذلك بسلبهم الصّفة ذاتها كما يتضح في قوله:

لَا يَخْفَيْنَ عَلَيْكَ أَنَّ مُجَاشِعًا شَبَهُ الرَّجَالِ وَمَا هُمْ بِرِجَالٍ²

وقد جعل جرير هذا الأمر لا يخفى على أحد، على المتلقّي وعلى الفرزدق نفسه، وهو أنّ مجاشعا ليسوا رجالا، وإن كان الفرزدق قد أثبت لكليب أنّهم من جنس الرجال فإنّ جريرا قد سلبهم حتى الانتماء الجنسي عندما جعلهم أشباه رجال فقط، كما سلبهم صفة الرجولة وهنا يبدو قول جرير أكثر إقذاعا من قول صاحبه.

وجرير دائما لا يغفل الحديث عن قضية لطالما اتخذها مطية لهجاء الفرزدق وهي خيانة الزبير وما أداره حولها من تُهم، فيقول داعيا عليهم مُعنفا لهم:

فَبُعْدًا لِقَوْمٍ أَجَارُوا الزُّبَيْرَ، وَأَمَّا الزُّبَيْرُ فَلَا، يَبْعُدُ³

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 214.

² - المصدر نفسه، ص 230.

³ - المصدر نفسه، مج 2، ص 184.

فالشاعر يحمّل كلامه عبارات السخّط على أولئك الذين منحوا حقّ الجوار للزّبير لكنّهم لم يحفظوه وكانت النتيجة أن عُذر بالزّبير فلم يمنعه وقتل وسلب متاعه، لذلك نرى جريراً يحمّل بيته رغبتين متناقضتين كما تظهرهما مطابقة السلب في قوله: بعدا/لا يبعد، بحيث جعل الدّعاء بالبعد للقوم الخائنين أمّا الزّبير فنفى أن يلحقه هذا القرار. وجرير يودّ من وراء كلّ هذا هجاء الفرزدق ورميه بالمساوئ من خلال ما ألحقه بقومه. ويواصل جرير في المسار ذاته محاولاً رمي الفرزدق بكلّ منقصة، ويرى في التأخّر عن خوض المعارك والابتعاد عنها تأكيداً لذلك فيعيّره قائلاً:

وَيَوْمًا بِلِقَاءِ يَا ابْنَ الْقِيُونِ، شَهْدُنَا الطَّعَانَ وَلَمْ تَشْهَدْ¹

يحمل البيت مطابقة بين فعلين: شهدنا/لم تشهد؛ حيث جعل الفعل المثبت لقومه بينما نفاه عن الفرزدق، وهو بهذه المقابلة بينه وبين الفرزدق، في مجال حضور المعارك، التي عبّر عنها بلفظ الطّعان لتأكيد الفتك والبطش فيها، يسعى لإثبات أفضليته على الفرزدق وأنه يفوقه قوّة وشجاعة.

وبعد أن أتينا على ذكر المطابقة، وما تحمله في طياتها من تناقض، وكيف تسمّى لكلّ شاعر أن يسخر هذا اللون البديعي لإظهار المفارقة بينه وبين خصمه، وذلك بإلحاق الذات بالقطب الموجب، ودفع الخصم إلى القطب السالب، نبقى في المجال ذاته لنقف على لون بديعي آخر لا تقلّ أهميته عن المطابقة ولا يتعدّ كثيراً عنها وهو المقابلة.

2- المقابلة:

تعدّ المقابلة لونا من ألوان البديع، عرّفها قدامة فقال: ((وهو أن يصنع الشّاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصّحة، أو يشرط شروطاً ويعدّد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده، وفي ما يخالف بضدّ ذلك))². فالمقابلة تقابل بين المعاني على سبيل الموافقة أو المخالفة.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 184.

² - قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، ص 141.

وعرّفها العسكري فقال: ((المقابلة: إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة))¹. وبذلك تكون المقابلة عنده سواء بالموافقة أي إيراد المعنى أو اللفظ نفسه، أو بالمخالفة وهي إيراد المعنى أو اللفظ بما يناقضه. وفي هذه الحالة يكون معناها أقرب إلى المطابقة. أمّا ابن رشيق فجعلها بين التقسيم والطباق، واعتبر ((أصلها ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخراً، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه))².

وقد اختلف البلاغيون في أمر المقابلة، فمنهم من يجعلها نوعاً من المطابقة ويدخلها في إيهام التضاد، ومنهم من يجعلها نوعاً مستقلاً من أنواع البديع، وهذا هو الأصح، لأنّ المقابلة أعمّ من المطابقة. وإن كانا يشتركان في المنطلق نفسه وهو قيامهما على التضاد إلاّ أنّه توجد فروق* بينهما، غير أنّهما ينهضان بوظيفة واحدة في الكلام، وهي أنّ كلاً من المقابلة والمطابقة يضفي على القول رونقاً وبهجة ويقوّي الصلة بين الألفاظ والمعاني، ويجلو الأفكار ويوضّحها شريطة أن تجري المطابقة أو المقابلة مجرى الطبع³.

وإنّ أكثر ما يهتمّنا من هذه الوظيفة، إلى جانب بعدها الجمالي، بعدها التّفعي الذي يقوم على توضيح المعنى وتحليلته، والذي يسهم في بعدها الحجاجي الذي يأخذ مداه التأثيري في التّفوس، ويجعلنا نناق وراء ما يُطرح من أفكار، ونذعن له من خلال قدرة هذا الأسلوب على إقناعنا من خلال ما يتيح لنا من التمييز بين الأضداد. ومن التّماذج التي وردت لدى الشّاعرين قول الفرزدق:

تَرَى كُلَّ مَظْلُومٍ إِلَيْنَا فِرَارُهُ وَيَهْرُبُ مِنَّا جَهْدَهُ كُلُّ ظَالِمٍ⁴

فالشّاعر بصدد الافتخار بقومه وما يتمتّعون به من مزايا تعكس جانب القوّة لديهم، وما يتميزون به من سيادة وسؤدد تجعل النّاس يقفون منهم على طرفي نقيض، كما تظهره المقابلة التي وظّفها الشّاعر في البيت

¹ -العسكري: الصناعتين، ص 304.

² -ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص 13.

*- أشار البلاغيون إلى وجود فروق بين المطابقة والمقابلة منها: أن المطابقة لا تكون إلاّ بالجمع بين ضدين، في حين تكون المقابلة غالباً بالجمع بين أربعة أضداد: ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه، وقد تصل المقابلة إلى الجمع بين عشرة أضداد. كما أن المطابقة لا تكون إلاّ بالأضداد في حين تكون المقابلة بالأضداد وبغيرها، ولكنها بالأضداد تكون أعلى رتبة وأعظم موقعا. للتوسع أكثر انظر: عبد العزيز عتيق: علم البلاغة العربية، ص 86-87.

³ - المرجع نفسه، ص 90.

⁴ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 277.

بجاء جعل المظلوم يفرّ إليهم طلباً للحماية واستئناساً بما يتميزون به من قوّة، في حين يفرّ منهم الظالم بكلّ ما أوتي من قوّة لأنّه يخشى قصاصهم منه. والبيت الشعري يشهد لقوم الشّاعر بالقوّة والسيادة، التي أهلتهم لإقامة العدل بين الناس من خلال نصرّة المظلوم وكفّ الظّالم عن ظلمه.

وتتطلب المفاضلة اعتماد المقابلة وهو ما يلجأ إليه جرير حينما يفاضل بين قومه ومجاشع قوم الفرزدق فيقول موازناً ومفاخرًا:

تَخِفُّ مَوَازِينُ الْخَنَائِي مُجَاشِعٍ وَيَثْقُلُ مِيزَانِي عَلَيْهِمْ فَيَرْجَحُ¹

وقد شبّه قومه وقوم الفرزدق بكفتيّ الميزان ورجح كفة قومه وجعلها الأثقل والأرجح، والتشبيه بالميزان واعتماده وسيلة للمقابلة يجعلها أكثر مصداقية وإقناعاً، وبالتالي التسليم بنتائجها وبما ذهب إليه جرير من أنّ قومه هم الأفضل مقارنة بمجاشع، وبالتالي يكون هو الأفضل مقارنة بالفرزدق.

ويبقى جرير في مجال المقابلة، ولكن يتخذ له جانباً آخر يسعى من ورائه إلى إثبات الأفضلية فيقول:

إِنِّي نَدَبْتُ فَوَارِسِي وَفَعَالَهُمْ وَنَدَبْتُ شَرَّ فَوَارِسٍ وَفَعَالٍ²

لقد نقل المفاضلة إلى مجال الفروسية وهو الأكثر دلالة على القوّة والشجاعة، وقابل بين فعال الفوارس ومآثرهم وجعل شرّها لفوارس خصمه ويستنتج ضمناً، وفي إطار هذه المقابلة، أنّ فوارسه وفعالهم هي الأفضل وبهذا يكون قد أضاف مجالاً آخر وهو الفروسية وأثبت فيه الأفضلية أيضاً.

وتبلغ المقابلة أوجّها عندما يستعملها في الافتخار بنفسه فيقول:

وَبَاسِطَ خَيْرٍ فَيْكُمْ بِيَمِينِهِ وَقَابِضَ شَرِّ عَنْكُمْ بِشِمَالِيَا³

وفي هذا البيت قابل جرير أربعة ألفاظ ضمّها صدر البيت بأربعة أخرى تموضعت في العجز تجتمع كلّها لتشكّل معنى واحداً وهو أنّه حاميههم والمدافع عنهم، ييسط لهم الخير بيمينه ويمنع عنهم الشرّ بشماله وبهذا يكون قد رفع نفسه إلى منزلة عالية طالما جعل مصلحة الجماعة غايته القصوى.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 363.

² - المصدر نفسه، ص 216.

³ - المصدر نفسه، ص 132.

ولم يقصر استعمال المقابلة على الفخر فقط، بل استغلّها في الهجاء أيضاً، وهذا ما نلاحظه في قوله:

كَانَ الْعِنَانُ عَلَى أَيْبِكَ مُحْرَمًا وَالْكَبِيرُ كَانَ عَلَيْهِ غَيْرَ حَرَامٍ¹

وفيه يتحدّث جرير عن والد الفرزدق الذي استحضر له صفتين وقابل بينهما وهما: العنان الذي كان محرّماً عليه والكبير الذي لم يكن محرّماً، وقد أبعده عنه صفة الفروسية عندما جعل العنان وامتطاء صهوة الخيول محرّماً عليه وبذلك نزع عنه هذه المفخرة، وبالمقابل أثبت له صفة أخرى وهي اشتغاله بالحدادة وما تجلبه له من منقصة، وباستعمال المقابلة ونفي الصّفة الإيجابية وإثبات السلبية يكون قد بلغ مراده من هجاء الفرزدق وتعييره بوالده.

ولا يكتفي جرير بنفي صفة الفروسية عن والد الفرزدق فحسب، بل ينفى عنها هو الآخر، وبالمقابل ينسبها لقيس عندما يفتخر بها فيقول:

قَيْسٌ تَبَيْتُ عَلَى الثُّغُورِ جِيَادُهُمْ وَتَبَيْتُ عِنْدَ صَوَاحِبِ الْمَاخُورِ²

وقد اعتمد جرير على المقابلة بين قيس والفرزدق، في إطار الرّدّ على هجائه لقيس، وقد أظهر قيساً بمظهر البطولة والفروسية؛ حيث بيّنت فرسانها على الثغور لحمايتها من كلّ اعتداء وبالتالي توفير الأمان لقومهم، في حين أظهره في صورة العابث اللاهي الذي لا يهّمه من الحياة سوى إشباع رغباته في بيوت الريبة والاهتمام بأموره الخاصّة دون الجماعة.

بهذا نكون قد استعرضنا مختلف الآليات البلاغية التي وظفها جرير والفرزدق في نقائضهما، وبناء على ما تقدّم نسجل الملاحظات الآتية:

- تنوّعت الأساليب البلاغية المعتمدة من قبل الشاعرين ممّا ينمّ عن طاقة إبداعية كبيرة وقدرة هائلة على تطوير هذه الآليات لخدمة مساعهما الحجاجي.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 200.

² - المصدر نفسه، مج 2، ص 273.

-اعتمد جرير والفرزدق على الطاقة الإقناعية للتشبيه؛ انطلاقاً من اعتبار التشبيه صورة استدلالية يتم الانتقال فيها من لازم يصرح به إلى ملزوم يتم استنتاجه، وقد خرجت بهما الغاية من اعتماد هذه الآلية إلى حد التشبيه بالحيوان، على ما يمثله من تدني. وعليه كانت شريعتهما استغلال كل الحجج المتاحة لإثبات الغلبة.

-اعتمدا التمثيل بعدّه قياساً يتم من خلاله قياس حالة حاضرة بحالة سابقة، وتقريب المعنى إلى الأذهان وبالتالي الاقتناع والقبول، إضافة إلى اعتماد الأمثال ممّا منح حججهما جانباً من المصدقية وبالتالي التسليم والإذعان.

- أكسبها الاستعارات بعدها الحجاجي من خلال توظيف الحجج التي تحظى بالقبول والتسليم، وخاصة إذا كانت حقائق مسلم بها لدى الآخرين، والتدرج في الوصول إلى النتيجة مما يجعل المتلقي يقتنع بها وكأنها من نتاجه الخاص.

-كان حضور المطابقة والمقابلة واضحاً في نقائض جرير والفرزدق، وباعتبارهما يقومان على التضاد فقد كانا الأنسب لإظهار المفاضلة بين الطرفين. ولم يقتصر استعمالهما على الجانب الجمالي فقط، بل امتد إلى الجانب الحجاجي أيضاً.

-كانت المطابقة بنوعها حاضرة عند الشعاعين؛ حيث استعمالاً مطابقة السلب في الفخر والهجاء، أمّا مطابقة الإيجاب فقصرها الفرزدق على الهجاء فقط. كما استفادا من أسلوب المقابلة أيضاً، ولأنّها كانت تقوم في أغلبها على استحضر الطرفين فقد وجدنا الفخر والهجاء حاضرين فيها جنباً إلى جنب وكما تقتضيه طبيعة المفاضلة بين طرفين.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: أساليب الحجاج اللغوية في النقائض

المبحث الأول: الأفعال الكلامية

- جهود أوستن في النظرية الكلامية
- جهود سيرل في نظرية الأفعال الكلامية
- جهود العرب القدامى في الأفعال الكلامية
- الأفعال الكلامية في النقائض

المبحث الثاني: الروابط الحجاجية

- وظائف العامل الحجاجية
- الروابط الحجاجية في النقائض

المبحث الثالث: العوامل الحجاجية

- العامل إنما
- العامل ما....إلا

المبحث الرابع: السّلم الحجّاجي:

تعريفه

آليات السّلم الحجّاجي

أفعل التفضيل

المبحث الخامس: التّكرار

- حجّاجية التّكرار

- أنواع التّكرار

1- تكرار البنى الإفرادية

2- تكرار البنى التركيبية

إنّ البحث في آليات الحجاج اللغوية منبني أساسا على النظريات التي تقول بأنّ اللغة تنطوي على جانب حجاجي، ولعلّ أهمّ من يمثل هذا الاتجاه الباحثان أنسكومبر وديكرو اللذان انطلقا من كون الوظيفة الحجاجية هي وظيفة جوهرية وأساسية للغة، ذلك أنّ اللغة تخضع في تركيبها إلى آليات تمكّنها من النهوض بوظيفتها الحجاجية.

وعليه يتمحور موضوع الحجاج في اللغة حول بيان ما يتضمّنه القول من قوّة حجاجية تمثّل مكوّننا أساسيا لا ينفصل عن معناه، إذ يجعل المتكلم، في اللحظة التي يتكلّم فيها، يوجّه قوله وجهة حجاجية ما. وهو ما يُشرّع البحث في الترابطات الحجاجية الممكنة ما دامت مسوّغاتها موجودة في البنية اللغوية للأقوال وليست رهينة المحتوى الخبري ولا رهينة بنية استدلالية صناعية من خارج نظام اللغة¹.

انطلاقا من هذا يتمّ توظيف هذه الأدوات اللغوية لغايات حجاجية، إذ يعمد المرسل إلى توظيفها بمعانيها وخصائصها وإمكاناتها المعروفة، وتنوّع وظائفها في السياقات الممكنة. وليست هذه الأدوات هي الحجج بعينها، كما أنّها لا تستوعبها كلّها، وإنّما هذه الأدوات هي قوالب تنظّم العلاقات بين الحجج والنتائج، أو تعين المرسل على تقديم حججه في الهيكل الذي يناسب السياق².

ويعمد البحث في هذا الفصل إلى الوقوف على بعض الآليات اللغوية، التي تنهض، داخل الخطاب بوظيفة حجاجية يسعى من خلالها المخاطب إلى التأثير في المتلقي والسعي إلى إقناعه بالأفكار التي يروم إيصالها إليه، وحمله على التسليم بها.

وتتمثّل هذه الآليات اللغوية في مجموعة العناصر الأساسية في تحديد العلاقات الحجاجية من خلال الوقوف على الأفعال الكلامية، والعوامل والرّوابط الحجاجية، والسلم الحجاجي والتكرار، ذلك أنّي أعتقد أنّ البحث في هذه العناصر من شأنها توضيح الآليات الحجاجية اللغوية.

¹ -شكري المبعوث: الحجاج في اللغة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 352.

² -عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. مقارنة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2004، ص 478.

المبحث الأول:

الأفعال الكلامية*

تأتي في مقدمة الآليات اللغوية التي تؤدي وظيفة حجاجية في عملية التواصل اللغوي الأفعال الكلامية. وتعدّ نظرية الفعل الكلامي (نظرية الحدث الكلامي، الحدث اللغوي، النظرية الإنجازية) في نظر أغلب الباحثين جزءاً من اللسانيات التداولية، وبخاصة في مرحلتها الأساسيتين: مرحلة التأسيس عند أوستن، ومرحلة التوضيح والضبط المنهجي عند تلميذه سيرل، وكلاهما من فلاسفة أكسفورد¹.

ويعتبر أوستن (J.L. Austin) (1911-1960) مؤسس نظرية الأفعال الكلامية، وواضع المصطلح الذي تعرف به الآن، وتبدأ بسلسلة المحاضرات الشهيرة التي ألقاها في جامعة هارفارد الأمريكية سنة 1955 وقد اشتهرت باسم (محاضرات وليم جيمس) ثم نشرت في 1962 بعد موته من قبل أحد طلابه على شكل كتاب بعنوان "How to do things with words"².

وكان أوستن متأثراً في هذه النظرية بـ"فتحنشتاين" الذي رأى أنّ وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، وإنما لها وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمني والشكر، والتهنئة واللعن والقسم والتحذير... الخ. وليست اللغة عنده حساباً منطقياً دقيقاً، لكل كلمة فيها معنى محدد، بل الكلمة الواحدة تتعدّد معانيها بتعدّد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتتعدّد معاني الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها، فالمعنى عنده هو الاستعمال³. وعليه فمعنى الجملة لا يتحدّد بالألفاظ المكوّنة لها، وإنما يحدده السياق الذي ترد فيه.

*- الفعل الكلامي هو كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجائزي تأثيري، ويعد نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعالاً قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالوعد والطلب والأمر...)، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً، ومن ثم إنجاز شياً ما. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ط 1، دار الطليعة، بيروت، 2005، ص 40.

ويطلق على الأفعال الكلامية الأفعال الإنجازية أي أنها ((الأفعال التي تؤدي بالكلام، أي تنفذ بنطقها، بل إنّ بعضها منها لا يُصور أدائه وإنجازها بدون كلام أو نطق، ومن ذلك بعض مناسك العبادات، كتكبيرة الإحرام والشهدة...)). علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة. دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط 1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2010، ص 13.

¹ - محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط 1، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2011، ص 61.

² - هشام إبراهيم عبد الله الخليفة: نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر ومكتبة لبنان، 2007، ص 39.

³ - المرجع السابق، ص 43.

وقد تبين "أوستن" أنّ هناك جملاً أو مقولات تشبه المقولات الخبرية أو التقريرية لكنّها لا يُقصد منها الإخبار، وقد ركّز على صنف منها أسماه "الإنجازيات"، وفيها يُعتبر مجرد التّطرق بالكلمات إنجازاً لفعل أو عمل ما¹.

جهود أوستن في النظرية الكلامية:

تحدّد جهود أوستن في إرسائه لأسس النظرية الكلامية من خلال الإجراءات الآتية:

1- التمييز بين المنطوقات التقريرية والمنطوقات الأدائية:

ميّز أوستن بين نوعين من الأفعال أو المنطوقات وهي: منطوقات تقريرية (إخبارية): تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة أو كاذبة. ومنطوقات أدائية: تُنجز بها أفعال في أثناء نطقها، ولا توصف بصدق ولا كذب، بل تكون موفّقة (إذا تحققت لها شروط الملائمة)، أو غير موفّقة. وشروط قياسية ليست لازمة لأداء الفعل بل لأدائه أداءً موفّقا غير معيب فإذا لم تتحقّق كان في ذلك إساءة أداء للفعل².

ثمّ واصل أوستن وضع ضوابط لتفريق الفعل الأدائي عن غيره، فوضع معياراً نحويّاً لتحديد الفعل الأدائي وله الخصائص التالية: صيغة المتكلم المفرد، وزمن المضارع (الحال)، والصيغة الإخبارية، وحالة المبني للمعلوم. بعدها أدرك أنّ هذا المعيار لا يمكنه أن يكون فاصلاً بين المنطوق الأدائي وغيره، وأنّه رغم غلبة هذه الصورة القياسية للمنطوق الأدائي إلاّ أنّه قد يرد في بعض الصّور الأخرى مثل اشتغال الجملة على فعل مبني للمجهول³.

2- تقسيم المنطوقات الأدائية إلى صريحة وأولية:

قسم أوستن المنطوقات الأدائية إلى قسمين: إنشائية صريحة، وهي التي يكون الفعل فيها صريح الدلالة على الغرض الإنجازي أو المعنى الأدائي. مثل: أعدك بأن أكون هناك. أما غير الصريحة أو الأولية، فالغرض الأدائي

¹ - هشام إبراهيم عبد الله الخليفة: نظرية الفعل الكلامي، ص 40.

² - للتوسع أكثر انظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 45 و علي محمد حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 29.

³ - علي محمد حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 37.

أو المعنى الإنجازي فيها قد يكون مقصودا أو ربما لا يكون مقصودا مثل: سأكون هناك. بحيث لا يمكن الاكتفاء بالتص فقط بصورة حتمية لفهم الدلالة الإنجازية¹.

3- التمييز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي:

بعد أن تبين لأوستن أنّ تمييزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم، راح يبحث عن إجراء آخر يمكن من خلاله التمييز بين الفعل الإخباري والأدائي، وذلك بالوقوف على جوانب الفعل الكلامي، فذهب إلى أنّ الفعل الكلامي مركّب من ثلاثة أفعال تُعدّ جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، وهذه الأفعال هي²:

1- الفعل اللفظي: Locutionary act

وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي ينتج عنه معنى محدّد، وهو المعنى الأصلي وله مرجع يُحيل إليه.

2- الفعل الإنجازي: Illocutionary act

وهو الفعل الأساسي الذي يتأتى من خلاله معنى الإنجاز، وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.

وتتضح العلاقة بين الفعل اللفظي والفعل الإنجازي في أنّ الأول يتحقّق في ألفاظ أو تعبيرات لغوية ذات دلالات مرجعية إحصائية، أمّا الفعل الإنجازي فيتمثل في تحقيق ألفاظ أو تعابير لغوية تنطوي-زيادة على ما يُحوّله مستوى الفعل اللفظي من دلالة-على قوى إنجازية قد يمثّلها الإخبار، أو الاستفهام، أو غير ذلك، هذه القوى الإنجازية هي التي تمثّل القصد التداولي من تحقيق الفعل اللغوي، وبهذا يكون الفعل الإنجازي هو الفعل الذي تبرز من خلاله معالم الاستعمال³.

3- الفعل التأثيري: Perlocutionary act

ويقصد به الأثر الذي يُحدثه الفعل الإنجازي في السامع. وقد فطن أوستن إلى أنّ الفعل اللفظي

¹ -علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 38.

² -محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 47.

³ -المرجع السابق، ص 42.

لا يعتقد الكلام إلا به، والفعل التأثيري لا يلزم الأفعال جميعاً، فمنها من لا تأثير له في السامع، فوجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي حتى غدا لبّ هذه النظرية وبه تُعرف وتسمى أحياناً النظرية الإنجازية¹.

4- تصنيف الأفعال الكلامية :

ذكر أوستن في هذا التصنيف الأفعال الإنجازية الصريحة التي ترد على الصورة القياسية أو المعيارية لهذا النوع، وقد جعلها خمسة أصناف هي²:

1. أفعال الأحكام: Verdictives: وهي التي تتمثل في حكم يصدره قاض أو حَكَم.
2. أفعال القرارات Exercitives: وتتمثل في اتخاذ قرار بعينه كالإذن أو الطرد، أو الحرمان أو التعيين.
3. أفعال التعهد Comissives: وتتمثل في تعهد المتكلم بفعل شيء مثل الوعد أو الضمان، أو التعاقد، أو القسم.
4. أفعال السلوك Behabitives: وهي التي تكون ردّ فعل لحدث ما كالاعتذار، أو الشكر أو المواساة، أو التحدي.
5. أفعال الإيضاح Expositives: وتستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأي مثل الاعتراض أو التشكيك، أو الإنكار، أو الموافقة، أو التصويب، أو التخطئة.

لم تقف حدود النظرية الكلامية عند هذه الجهود التي بذلها أوستن في إرساء دعائمها، بل عرفت شيئاً من التطور والتغيير على يد من جاءوا بعده، وتراءى لهم أنّ هذه النظرية تحتاج إلى ضبط وتعديل، ويأتي في مقدمتهم تلميذه سيرل (J.Searle) الذي بذل هو الآخر جهوداً معتبرة في سبيل إرساء دعائم هذه النظرية. وفيما يأتي نعرض لمختلف آرائه التي ساهم من خلالها في بلورة هذه النظرية.

جهود سيرل في نظرية الأفعال الكلامية:

بني سيرل اجتهاداته في بلورة هذه النظرية استناداً إلى تلك الأسس التي وضعها أستاذه وسابقه أوستن، والتي تراءى له أنّها لم تكن دقيقة بما يكفي فحاول أن يتجاوز هنات أستاذه، وقد تجلّت إسهاماته

¹ -محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 47.

² -المرجع نفسه، ص 48.

في النظرية الكلامية فيما يأتي:

1-التص على الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي:

نص سيرل على أنّ الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وأنّ للقوة الإنجازية دليلاً يسمّى دليل القوة الإنجازية يبيّن لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يُؤدّيه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثّل في اللغة الإنجازية في نظام الجملة والتبر والتنغيم، وعلامات الترقيم في اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل، وما يسمّى الأفعال الأدائية¹.

وبناءً على ما سبق يمكن القول إنّ الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي التي أشار لها "سيرل" تتضمن عناصر أو خصائص صوتية، وصرفية، ونحوية، ومعجمية متكاملة تتعاون كلّها في التعبير عن الفعل الإنجازي الذي يعبر به المتكلم في اتصاله بالسامع عن موقف اتصالي معين. وبذلك حوّل الاهتمام من الجملة بوصفها الوحدة التحليلية الأساسية والاتصالية (عند البنيوية والتحويلية) إلى الاهتمام بالفعل الكلامي أو الإنجازي عند التداوليين، أي أنه نقل الاهتمام من الوحدة الصغرى (للغة بوصفها نظاماً) إلى الوحدة الصغرى (للكلام بوصفه أداءً واستعمالاً اتصالياً)².

2-الرّبط بين الفعل الكلامي والعرف اللغوي الاجتماعي:

لم يقف سيرل عند حدود ربط الفعل الكلامي بقصد المتكلم فحسب، بل ذهب أبعد من ذلك؛ حيث إنّ الفعل الكلامي عنده أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو —مرتبط أيضاً بالعرف اللغوي والاجتماعي³.

3-تطوير شروط الملاءمة عند أوستن:

من خلال النظر إلى ما أتى به أوستن، في التمييز بين الأفعال الكلامية، تبين أنّ هناك حاجة ماسّة إلى مزيد من الشروط التي إذا تحققت في الفعل الإنجازي الكلامي كان موفقاً وناجحاً، وإذا لم يتمّ الالتزام بها

¹ -محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 49.

² -علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 51.

³ -المرجع السابق، ص 49.

فلن يتحقق الهدف الذي من أجله تمّ التّطرق بهذا الفعل الكلامي. وقد طوّر سيرل شروط الملاءمة ليتجاوز بذلك قصور الشروط التي قدّمها أوستن، وهذه الشروط هي¹:

1. شروط المحتوى القضوي: ويتحقق بأن يكون للكلام معنى قضوي نسبة إلى القضية التي تقوم على مُتحدّث عنه أو مرجع، ومتحدّث به أو خبر، والمحتوى القضوي هو المعنى الأصلي للقضية ويتحقق شرط المحتوى القضوي في فعل الوعد مثلا إذا كان دالّا على حدث في المستقبل يلزم به المتكلّم نفسه.
2. الشرط التمهيدي: ويتحقق عندما يكون المتكلّم أو المتلقّي "قادرا على إنجاز الفعل. ولكن لا يكون واضحا لكلّ من المتلقّي أو المتكلّم أنّ المتلقّي سينجز الفعل المطلوب في المجرى الاعتيادي للأحداث.
3. شرط الإخلاص: ويتحقق حين يكون المتكلّم مخلصا في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد ولا يزعم أنّه قادر على فعل ما لا يستطيع.
4. الشرط الأساسي: ويتحقق حين يحاول المتكلّم التأثير في المتلقّي لينجز الفعل.

4- تعديل التقسيم الثلاثي للأفعال الكلامية :

رأى "سيرل" أنّ تمييز أوستن بين الأفعال اللفظية والأفعال الإنجازية لا يمكن أن يكون تمييزا عاما تماما، إذ لا يوجد لدينا فعلاّن مختلفان بل اسمان مختلفان لفعل واحد بعينه، وعليه جعل الأفعال الكلامية أربعة أقسام، أبقى منها على الإنجازي والتأثيري ولكنّه جعل القسم الأوّل (اللفظي) قسمين:

- 1- الفعل التّطقي: ويشمل الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية.
- 2- الفعل القضوي: ويشمل المتحدّث عنه أو المرجع، والمتحدّث به أو الخبر. ونصّ على أنّ الفعل القضوي لا يقع وحده، بل يُستخدم دائما مع فعل إنجازي في إطار كلامي مركّب، لأنك لا تستطيع أن تنطق بفعل قضوي دون أن يكون لك مقصد من نطقه².

¹ -محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 49-50.

² -علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 54.

5- التمييز بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة:

استطاع سيرل أن يميّز بين الأفعال الإنجازية المباشرة، وغير المباشرة، فبيّن أنّ الأفعال الإنجازية المباشرة هي التي تطابق قوّتها الإنجازية مراد المتكلّم، أي يكون ما يقوله مطابقاً لما يعنيه. أمّا الأفعال الإنجازية غير المباشرة فهي تلك التي تخالف فيها قوّتها الإنجازية مراد المتكلّم.

الفعل الإنجازي يُؤدّي على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر، فلو قلت لصاحبك وأنتما جالسان على المائدة: هل تناولني الملح؟ فإنّ هذا فعل إنجازي غير مباشر، إذ معناه الحرفي هو الاستفهام وهو مصدرّ بالدليل الإنجازي وهو "هل"، لكن الاستفهام غير مراد لك، وأنت لا تنتظر أن يجيبك صاحبك بنعم أو لا، بل مرادك أن تطلب منه طلباً مهذباً كي يُناولك الملح¹.

6- تعديل التصنيف الخماسي لأوستن:

عدّل سيرل تصنيف أوستن الخماسي تعديلاً يكاد يكون جذرياً، ووسّع مفهوم الأفعال الكلامية توسيعاً جعله يضمّ معظم وظائف اللّغة، وأهداف استعمالها في المواقف الاتصالية العادية². وقد وجّه لتصنيف أوستن الخماسي جملة من الملاحظات³:

1- عدم وجود مبدأ واضح أو متين قام على أساسه تصنيف أوستن، ولم تسلم إلاّ الأفعال الالتزامية (التعهدات)، إذ صنّفها على أساس منهجي واضح هو الغرض الإنجازي. أمّا الأصناف الأخرى فقد صنّفت بحسب اعتبارات مختلفة، حيث عُرفت أفعال الإيضاح في حدود علاقات الحديث، وعُرفت أفعال الأحكام أو القرارات في حدود الممارسة وعلى اعتبار المنزلة. أمّا الأفعال السلوكية فلا تبدو في نظر سيرل مُعرّفة على الإطلاق، ومنه جاء ضعف هذه المجالات وعدم تماسكها.

2- تداخل مجال الأفعال نتج عنه وقوع فعل معيّن في مجالين مختلفين رغم عدم اختلاف معاني هذا الفعل، مثل الفعل يصف؛ حيث يُدرجه أوستن ضمن أفعال الأحكام وأفعال الإيضاح. ونتج كذلك اجتماع

¹ -محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 51-53.

² -علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 59.

³ -المرجع نفسه، ص 59-60.

أفعال غير متجانسة في قسم واحد كما فعل مع "يتحدّى" و"يعتذر" إذ جعلها في قائمة أفعال السلوك رغم اختلافها.

3- كلّ الأفعال المدرجة داخل المجالات عند أوستن، لا تفي حقًا بشروط التعريفات المعطاة لها حتى لو أخذنا هذه التعريفات بطريقة فضفاضة إلى حدّ ما.

4- أهملت مجالات أوستن بعض الأفعال الإنجازية؛ بحيث لم تسمح التعريفات الخاصّة بهذه المجالات بدخول بعض الأفعال الإنجازية إليها نظرًا لمحدوديتها وعدم شموليتها.

5- كان هدف أوستن في تقسيمه الحماسي تحديد جنس الفعل إذا كان إنجازيًا أم لا، وهذا في نظر سيرل خطأً تسبّب في عدم اتساق المجالات وتشوّهها، ولهذا اعتبر سيرل تقسيمه الحماسي تحديدًا لأنواع الفعل وليس جنسها، فالأمر نوع والقسم نوع، وكلّ نوع منها يُصنّف وفق معناه تحت مجال ملائم.

وقد أقام سيرل تقسيمه على أسس منهجية ثلاثة هي¹:

1- الغرض الإنجازي: Illocutionary Point

2- اتجاه المطابقة: Direction of fit

3- شروط الإخلاص: Sincerity Condition

مجالات الأفعال الإنجازية عند سيرل:

1- الإخباريات: Assertives

الغرض من الإخباريات هو نقل المتكلم لواقعة ما (بدرجات متفاوتة)، من خلال قضية محدّدة يُعبر بها عن الواقعة، أي تعهّد المتكلم (بدرجات منوّعة) من خلال منطوقه بكون شيء ما حقيقة واقعة، بالإضافة إلى تعهّده بصدق القضية المعبر عنها. فالغرض الإنجازي العام هنا هو التقرير، واتجاه المطابقة في أفعال هذا الصنف من الكلمات (القول) إلى العالم، وشروط الإخلاص فيها يتمثّل في النّقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها².

¹ -محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي، ص 51.

² -علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 61.

لقد كان هذا المجال من أهمّ الإضافات التي قدّمها سيرل في المفهوم الإنجازي؛ حيث استبعد أوستن قبله الكثير من صور الإخباريات بوصفها مجرد إخبار أو تقرير أو وصف، لكنّ سيرل أشار إلى أنّ إنجازيتها تتمّ من خلال خطوتين، الأولى تتمثّل في أنّ الإنجاز يتحقّق من خلال "نطق الكلام أو أدائه"، والثانية من خلال "الإخبار أو الوصف" باعتبار الإخبار أو الوصف غرضين إنجازيين شأنهما شأن أي غرض آخر كالرفض أو القبول¹.

وقد أكّد العلماء هذا الرأي من خلال قولهم بأنّ كلّ الجمل إنجازية، ولكنّ هذا الإنجاز قد يظهر في البنية السطحية من خلال استخدام ألفاظ إنجازية بعينها مثل "أقسم وأعد"، أو من خلال كونها متضمّنة في البنية العميقة للمنطوق لتدل بمعناها العام على إنجاز الإخبار أو الوصف².

2- التوجيهيات: Directives

غرضها الإنجازي هو محاولة المتكلّم توجيه المتلقّي إلى فعل شيء ما، أو التأثير عليه ليفعل شيئاً معيناً، واتّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات (القول)، وشرط الإخلاص فيها هو الرّغبة الصادقة، أو الإرادة والملاحظ أنّ كثيراً من أفعال القرارات (أو الممارسة) وأفعال السلوك عند أوستن تندرج ضمن هذا الصّنف عند سيرل³.

3- الالتزاميات: Cominissives

وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلّم -بدرجات متفاوتة- بفعل شيء ما في المستقبل، واتّجاه المطابقة في هذه الأفعال هو من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد⁴. وعلى الرّغم من أنّ سيرل تسلّم "بأنّ تعريف أوستن للأفعال الالتزامية تعريف رائع جداً، ويأخذه كما هو، غير أنّه يضع عليه اعتراضاً تافهاً

¹ -مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 83.

² -آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم. علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط 1، دار الطليعة، بيروت، لبنان 2003، ص 35.

³ -علي محمود حجي: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 62.

⁴ -محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 52.

-على حدّ تعبيره-مؤداه أنّ كثيرا من ألفاظ الأفعال التي أدرجها أوستن في قائمته على أنّها التزامية لا تنتمي إلى هذه الفئة على الإطلاق. ومن ثمّ فكثير ممّا عدّه أوستن أفعالا التزامية لا يدخل فيها¹.

4- التعبيرات (البوحيات): Expressives

وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي للإنسان، على أن يكون هذا التعبير تعبيرا حقيقيا خاصا لحالة سيكولوجية محدّدة في الواقع، واتجاه المطابقة في هذه الأفعال هو الاتجاه الفارغ، إذ ليس لهذه الأفعال اتجاه مطابقة، لأنّه بأداء الفعل التعبيري"لا يحاول المتكلّم أن يُؤثّر في العالم ليمائل الكلمات، ولا الكلمات لتمائل العالم، و الأخرى أنّ صدق القضية المعبر عنها يكون مفترضا"، وشرط الإخلاص يمكن اعتباره في صدق التعبير عن الموقف النفسي.

وهي تتضمن كثيرا من أفعال السلوك التي عرضها أوستن كالشكر والتهنئة والاعتذار والتعزية والترحيب وما فعله سيرل هنا يصبّ أغلبه في إعادة تعريف هذا المجال وتحديد أغراضه بصورة دقيقة².

5- الإعلانيات: Declaration

وغرضها الإنجازي هو إحداث تغيير في العالم، بحيث يطابق العالم القضية المعبر عنها بالفعل الإنجازي بمجرد الأداء الناجح للفعل، ويتم ذلك بالاستناد إلى مؤسسة غير لغوية (اجتماعية أو قانونية)؛ بحيث تُسوِّغ هذه المؤسسة للفعل الإنجازي عند أدائه بصورة ناجحة إحداثا للتغيير المطلوب، واتجاه المطابقة في أفعال هذا الصنف هو الاتجاه المزدوج، فقد يكون من الكلمات (القول) إلى العالم، وقد يكون من العالم إلى الكلمات. ولا تحتاج الأفعال هنا من شرط الإخلاص سوى الاعتقاد بأنّ الفعل وقع ناجحا، والرغبة في وقوعه ناجحا. وأفعال هذا المجال عند أوستن كانت مبعثرة في أكثر من مجال أبرزها مجال الأحكام، ومجال القرارات، وما يُحسب لسيرل هو تجميعها في مجال واحد محدّد³.

وبهذا يكون سيرل قد أسهم بنصيب وافر في النظرية الكلامية، وذلك من خلال إعادة ضبط وتعديل ما جاء به أوستن، أو من خلال تلك الإضافات التي دَعّمها بها.

¹-علي محمود حجي: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 62.

²-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³-المرجع نفسه، ص 63.

وبعد أن وقفنا على مختلف الجهود التي بذلها كلّ من أوستن وتلميذه سيرل، في إطار نظرية الأفعال الكلامية، ووقفهم على الإنجاز المباشر وغير المباشر، وتصنيفهم للأفعال ضمن مجموعات يوحد بينها الغرض العام، سنحاول فيما يأتي أن نتعرّف على إسهامات الدارسين العرب القدامى في الأفعال الكلامية وفق ما أتيح لهم من معرفة.

جهود العرب القدماء حول الأفعال الكلامية:

لم يعرف العرب القدامى "نظرية الأفعال الكلامية" بنفس الجهاز المفاهيمي والمصطلحي الذي قدّمه الدّرس التداولي الحديث، غير أنّهم أثاروها ضمن مباحثهم البلاغية، وهو الأمر الذي دفع بالباحثين إلى المقارنة بين جهود العرب القدامى وما جاء به أعلام النّظرية وخاصّة أوستن وسييرل، وذهبوا إلى القول بوجود تشابه حقيقي بين ما قدّمه أوستن وسييرل وما قدّمه العرب قديماً، وعلى وجه الخصوص قضية الإنشاء والخبر المتفرعة عن علم المعاني*¹.

وقد أدرج مسعود صحراوي "الأفعال الكلامية" ضمن مباحث علم المعاني، وتحديدًا ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة بـ "الخبر والإنشاء" وذهب إلى القول: ((تعتبر نظرية "الخبر والإنشاء" عند العرب - من الجانب المعرفي العام - مكافئة لـ: مفهوم "الأفعال الكلامية" عند المعاصرين))²، وعليه فإنه يعتبر "الخبر والإنشاء" كنظرية مماثلة تماماً لنظرية الأفعال الكلامية دون الاكتفاء باعتبارها نظرية شبيهة.

لقد صنّف القدامى الكلام إلى خبر وإنشاء وتبعهم في ذلك المتأخرون، وهو تصنيف عائد في أصله إلى مدرسة السّكاكي الذي اكتفى بتقسيم الكلام، من حيث مطابقته أو عدم مطابقته للواقع، وتبعه في ذلك الشّراح من بعده، معتمدين في ذلك على مجموعة من المعايير** للتمييز بين الخبر والإنشاء، ثم ميّزوا في الإنشاء بين نوعين*** الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي. وقد صاحبتهم اختلافات في تصنيفاتهم للخبر والإنشاء تارة، ولأقسام الإنشاء تارة أخرى.

* -علم المعاني هو: ((تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحتز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)). السّكاكي: مفتاح العلوم، ص 247.

¹ -علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 100.

² -مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 49.

** -هذه المعايير هي: قبول الصدق والكذب وهو الأشهر، ومطابقة النسبة الخارجية، وإيجاد النسبة الخارجية، وقصد المتكلم، وعدد النسب، وتبعية النسبة الخارجية للنسبة الكلامية أو العكس. للتوسع أكثر انظر مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 58 وما بعدها.

*** -ينقسم الإنشاء إلى نوعين: إنشاء طلبي وإنشاء غير طلبي. فالإنشاء غير الطلبي هو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب كصيغ المدح والذم، والعقود، والقسم، والتعجب، والرجاء. والإنشاء الطلبي وهو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، ويكون بخمسة أشياء: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني والنداء. أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، تدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2003، د.ط، ص 69-70.

كما ميّز علماءنا العرب القدامى الأفعال الكلامية بنوعيتها المباشرة وغير المباشرة، لكنهم لم يتفقوا على مصطلح موحّد لوصف أفعال الكلام غير المباشرة أو تسميتها، فاستعملوا "الخروج على خلاف مقتضى الظاهر" و"مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه" وأحياناً يستعملون عبارة "أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو توبيخ... وغيرها. كما استعملوا "التلويح" و"التعريض" و"المجاز المركّب"، وكلّها طرق مختلفة لوصف ظاهرة واحدة¹.

ويعدّ عبد القاهر الجرجاني والسكاكي من أبرز العلماء الذين توسّعوا في عرض هذه الظاهرة؛ حيث ذهب الجرجاني إلى أنّ ما خالف الأصل يستلزم غير الظاهر، وعرض للتلميح عند التعبير بالمفهوم عن القصد وعقد فصلاً "في اللفظ يطلق والمراد غير ظاهره" ويقصد به الكناية والمجاز، وكان في ذلك متأثراً بالحقيقة والمجاز، ففي الكناية هناك إرادة الحقيقة والمجاز معاً، أما في المجاز فإرادة المجاز دون الحقيقة².

وفي إطار الحديث عن دلالة اللفظ على المعنى قال الجرجاني: ((الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تُخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل))³. ويفهم من كلام الجرجاني أنه كان يدرك معنى الفعل المباشر الذي يطابق معناه دلالة اللفظ، وغير المباشر، والذي تتوصل إلى معناه لا بدلالة اللفظ، بل تحيلك إليه قرائن أخرى.

وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار السكاكي ((أهمّ من عرض للأفعال الطلبية التي تجاوزت معناها الأصلي إلى معنى مقامي، فقد تجاوز سرد الأغراض التي يخالف فيها ظاهر اللفظ مراد المتكلم إلى بيان كيفية انتقال المعنى الأصلي إلى المعنى المقامي))⁴. فقد تبيّن له أنّ الألفاظ لها معنى وضعي ومعنى مقامي يحدّده السياق الذي يحتويها.

¹ - هشام إبراهيم عبد الله الخليفة: نظرية الفعل الكلامي، ص 444.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. مقارنة لغوية تداولية، ص 374-375.

³ - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 192.

⁴ - محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 118.

إنّ ما سبقت الإشارة إليه هو ما يمكن استنتاجه من قول السكاكي: ((اعلم أنّ الطّلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر))¹.

وفي شرحه لهذا الأمر وحديثه عن أبواب الطّلب الخمسة وهي: التمني والاستفهام والأمر والنهي والتداء وخروجها عن معناها يقول: ((متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل، تولّد منها ما ناسب المقام، كما إذا قلت لمن همك همّ: ليتك تحدّثني، امتنع إجراء التمني، والحال ما ذكر على أصله، فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموح في حصوله، وولّد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال، أو كما إذا قلت: هل لي من شفيح، في مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشّفيح، امتنع إجراء الاستفهام على أصله، وولّد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني))². ثمّ واصل الحديث عن مختلف أنواع الطّلب وخروجها عن معناها.

وخلاصة ما يمكن قوله هو أنّ السكاكي، بصورة عامّة، يرى أنّ أيّ نوع من أنواع الإنشاء أو الخبر تقوم فيها جملة ما بإنجاز غرض معيّن من خلال إجراء الغرض على أصل الاستعمال، فإنّ هذه الجملة تكون جملة إنجازية مباشرة، وعند خرقها لشروط إجرائها على أصل استعمالها فإنها تنجز فعلا غير مباشر³.

وبعد هذه الوقفة المختصرة عن جهود العرب في نظرية الأفعال الكلامية، ننتقل إلى مجال التطبيق لنرصد مختلف الأفعال الكلامية التي احتوتها نقائض جرير والفرزدق، استنادا إلى ما ورد ذكره من تصنيف عند أوستن وتلميذه سيرل.

الأفعال الكلامية في التقائض:

بعد هذا العرض المفصّل والدقيق عن الأفعال الكلامية من الناحية النظرية ولاسيما عند علمين من أعلام التّظريّة الكلامية، نحاول إنزال هذه التّظريّة إلى حيّز التطبيق من خلال الاستفادة من هذه المفاهيم في هذه المقاربة النقدية في التقائض.

وفي هذا الموضوع من البحث سنعمد إلى دراسة الأفعال الكلامية (الإنجازية) التي وردت في نقائض جرير والفرزدق. وقبل الشّروع في ذلك نشير إلى أنّنا سنتكئ على تصنيف سيرل للأفعال الكلامية. مع ضرورة الإشارة

¹-السكاكي: مفتاح العلوم، ص 431.

²-المصدر نفسه، ص 416.

³-علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 103.

إلى أنّ الدارسين العرب قد اختلفوا في تسمية هذه الأصناف، على أننا سننطلق في دراستنا التطبيقية من اعتبار كلّ بيت شعري وحدة خطائية، تتضمّن فعلا كلاميا واحدا أو أكثر بحسب الموقف اللغوي.

1- الإخباريات (التقريبات):

ويندرج ضمن هذا الصنف كل ما يصلح أن يكون مادّة للإخبار، أو ما أسماه القدماء الأسلوب الخبري، والخبر كما حدّه السكاكي ((هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، أو التصديق والتكذيب، وكقولهم: هو الكلام المفيد بنفسه إضافة أمر من الأمور إلى أمر من الأمور نفيا أو إثباتا))¹، وبذلك لا ينحصر الخبر في إثبات أمر إلى أمر، وإنما يتجاوزه إلى النفي أيضا. وقد أشار أوستن وسيرل إلى أنّ الخبر قد يكون فعلا إنجازيا، وإنجازه هو عملية الإخبار². وعليه سنتناول في هذا الصنف كلّ ما يدخل ضمن الإخبار أو التقرير، سواء أكان ذلك إثباتا فندرجه ضمن الإخبار، أو إنكارا للإثبات فندرجه ضمن النفي. وفيما يأتي سنعرض لكل هذا بالتفصيل:

-الإخبار أو الخبر:

بالنظر إلى الأساليب الخبرية أو التقريبات التي وردت في النقائض نجدها كثيرة ومتنوعة، فالشاعر يخبر عن نفسه وعن الآخر لأنه بصدد نقش صور بتفاصيل محدّدة، ويريد لهذه الصور أن ترتسم في الأذهان كما يريد لها هو عن نفسه وعن الآخر، لذلك فمجال الإخبار واسع ويحضر في النقائض بشكل مكثّف، وغايتنا ليست حصر نماذج الإخبار بل الوقوف على القوّة الإنجازية التي يحملها الخبر، وعليه سنقف على بعض النماذج التي نوردها على سبيل التمثيل لا الحصر، ومن ذلك قول الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ³

فالشاعر يخبر بأنّ الله قد بنى له بيتا، ووصف هذا البيت بأنه أعزّ وأطول من بيت جرير، وبذلك فهذا الفعل الكلامي يورده على سبيل المفاخرة، غير أنّ الفرزدق لا يقصد منه المعنى المادي، بل يقصد رفعة النسب

¹-السكاكي: مفتاح العلوم، ص 252.

²-علي محمود حجي الصراف: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 109 .

³-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 134.

وعلو المكانة. ولتحقيق الأفضلية لنفسه على جرير وظف أفعال التفضيل (أعزّ - أطول) التي تخدم مسعاه وترفعه فوق خصمه. وقال:

إِنَّا لَتَوَزَّنُ بِالْجِبَالِ حُلُومُنَا وَيَزِيدُ جَاهِلُنَا عَلَى الْجُهَالِ¹

فالشاعر يقرّ بأن أحلامهم بوزن الجبال، لكنّ الفعل الكلامي يتضمّن معنى آخر يقصد إليه الشّاعر وهو إثبات رجاحة العقل لقومه، وذلك مما يفخر به المرء وخاصّة وأنه من آيات السيادة.

ويواصل الفرزدق افتخاره فيقول:

وَقَدْ عَلِمَ الْجِيرَانُ أَنَّ قُدُورَنَا ضَوَامِنُ لِلْأَرْزَاقِ وَالرِّيْحُ زَفَزَفُ²

يسرد الفرزدق ما هو معلوم لدى الأقوام الآخرين عنهم، ومفاد هذا الخبر أنّ قدورهم تضمن الرزق للمحتاجين في الليالي الباردة، وغاية هذا الفعل الكلامي غير المباشرة هي اتصاف قومه بالكرم، وهذه الصّفة محمودة عند العرب منذ القدم. ولتعديل القوّة الإنجازية لهذا الفعل وظّف الشّاعر "والريح زفزف" للدلالة على أنّ صفة الكرم ثابتة فيهم، ويؤتونها حتّى في الظروف القاهرة، والتي لا يثبت لها إلا الكرم أصلا.

ولم يكن الإخبار مقتصرًا على الفخر، بل نجده حاضرا في الهجاء أيضا، ومن ذلك ما توجه به الفرزدق

إلى جرير قائلا:

وَأَنْتُمْ عَضَارِيطُ الْخَمِيسِ عَتَادُكُمْ إِذَا مَا غَدَا أَرْبَاقُهُ وَحَبَائِلُهُ³

فالشاعر يخبر لا عن نفسه أو قومه، بل عن قوم خصمه فيقرّر بأن موقعهم في مؤخّرة الجيش لأنهم تباع وعدّتهم الجبال. ولهذا الفعل الكلامي غرض غير مباشر يتمثّل في تحقيرهم وتعييرهم بكونهم رعاة غنم، وقد عدّل القوّة الإنجازية باستعمال الحبال التي تربق بها الأغنام.

وفي موضع آخر نجد جريرا يقول:

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 207.

² - المصدر نفسه، مج 2، ص 15.

³ - المصدر نفسه، ص 45.

ألهي أباك عن المكارم والعلی لئ الكتائف وارتفاع المرجل¹

من خلال هذا الفعل الكلامي يخبر جرير بالسبب الذي جعل والد الفرزدق ينشغل عن المكارم والعلی وقد حصرها في "ليّ الكتائف وارتفاع المرجل"، والقصد من إجراء هذا الفعل هو التحقير والتعيب.

ويمتد جرير بهجائه إلى شخص الفرزدق فيقول:

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً وجاءت بوزواز قصير القوائم²

يقوم هذا الفعل الكلامي على الوصف، فيصف خصمه وصفا ماديا (خفيف الجسم قصير القوائم) ووصفا معنويا (الفجور)، وبذلك يقدم هجاءً خلقيًا وخلقيًا ضمّنه قصدا غير مباشر يتمثل في السخرية والتهكم.

ومما سبق نستنتج أن جريرا والفرزدق، قد استندا على الإخبار لحاجة كل واحد منهما إلى إثبات الصفات والقيم الإيجابية بالنسبة للذات وإثبات العكس للآخر، ولقد كان الإخبار ضروريا طالما يقوم بدور التعريف وبالتالي يدفع إلى تشكيل القناعات واتخاذ المواقف ومن خلاله يقع التأثير ويحدث الإقناع.

- أسلوب النفي:

النفي نقيض الإثبات، ومن هنا تظهر علاقته بالأسلوب الخبري، فإذا كان الإخبار هو إثبات حكم أو معلومة فإنّ النفي إنكار لها، ولذلك عدّه السكاكي ضمن الأساليب الخيرية.

ونقائض جرير والفرزدق حافلة بمختلف أدوات النفي* التي وظّفها الشعاعان بغرض الإثبات والإنكار، والتي غالبا ما تكون عند الإخبار عن الخصم، وذلك بغية سلبه بعض الصفات مما يؤدي إلى إظهاره في صورة مشينة. ولتبيان حقيقة الأمر نقف عند بعض النماذج التي تتضمن النفي قصد إبراز الغايات الحجاجية في أشعارهما.

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 168.

²- المصدر نفسه، ص 285.

*- حصرت الباحثة هند عبد الرزاق في دراستها لنقائض جرير والفرزدق استعمالهما لثماني أدوات فقط من أدوات النفي وهي: لا، ما، لم، لما، لن، ليس، كلاً، غير. وقد كانت موزعة على مساحة واسعة بلغت سبعا وستين وألف جملة في أربع وسبعين قصيدة، وكانت نسبة حضور هذه الأدوات متفاوتا، وكان أكثر الأدوات تواترا هي (لا) تليها (لم-ما) بحيث شكل حضورها معا 82,9% من حضور مجموع الأدوات، أما بقية الأدوات فقد حضرت بنسب ضعيفة. للتفصيل أكثر أنظر: النفي في نقائض جرير والفرزدق، ص 85 وما بعدها.

لقد صبَّ كلُّ شاعر اهتمامه على التَّيل من خصمه، مستغلاً في ذلك كلَّ ما أتيح له من أساليب تدعّمه وتحقّق له الانتصار، ولعلَّ أنجع الأساليب سلب الخصم كلَّ الإيجابيات وتجريده من كلِّ المحاسن، يقول جرير هاجياً لـ"مجاشع" وسالبا إياهم كلَّ ما يرتبط بالنخوة والغيرة على الشرف:

إِذْ لَا تَغَارُ عَلَى الْبَنَاتِ مُجَاشِعٌ يَوْمَ الْحِفَاظِ وَلَا يَفُونَ بِجَارٍ¹

احتوى البيت على موضعي نفي، ففي الصّدر نفي عنهم الغيرة على البنات أي حفظ الحرمات مما ينمّ عن ضعفهم، وفي العجز نفي عنهم الوفاء للجار، وكلاهما خصلتان تجلبان المعرّة والذل لصاحبهما. وقد نجد لهذا السلوك مسوّغاً، من خلال مواجهة الفرزدق بحقيقة قومه وقد نفي عنهم الرجولة لما قال:

لَا يَخْفِينَنَّ عَلَيْكَ أَنَّ مُجَاشِعًا شَبَّهُ الرَّجَالَ وَمَا هُمْ بِرِجَالٍ²

لقد وجّه لهم هجاءً قاسياً عندما سلبهم صفة الرجولة، وضمّن هذا البيت أداتي نفي: لا وما؛ حيث نفي عن مجاشع صفة الرجولة وجعل هذه الحقيقة غير خافية على الفرزدق.

ومّا يصبّ في مجال الهجاء الأخلاقي قوله:

زَارَ الْفَرَزْدَقُ أَهْلَ الْحِجَازِ فَلَمْ يَحْظَ فِيهِمْ وَلَمْ يُحْمَدِ³

وبذلك نجده يؤكّد من خلال استعماله للتّفي الخلق السيئ الذي لا يلقي إلاّ الذم، وبالتالي فإنّه لن ينال الحظوة وحمد أفعاله من طرف أهل الحجاز. وجرير لا يقف باللّوم عند حدود شخصه فقط، بل ويخرج بالهجاء من دائرة الفرزدق ليصل به إلى قبيلته فينفي عنهم راحة عقولهم فيقول:

أَبْلَغُ بَنِي وَقْبَانَ أَنَّ حُلُومَهُمْ حَقَّتْ فَلَا يَزِنُونَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ⁴

فهو يعيّر قوم الفرزدق بخفة عقولهم لدرجة أنه جعلها لا تبلغ مقدار حبة الخردل للدلالة على ضآلتها، والكلّ يعلم أنّ ضآلة العقول ليست من مؤهلات القوّة ولا السيادة.

كما يتّخذ من الجانب الديني مطيّة لهجاء الفرزدق فيخطبه قائلاً:

¹-نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 243.

²-المصدر نفسه، مج 1، ص 230.

³-المصدر نفسه، مج 2، ص 121.

⁴-المصدر نفسه، مج 1، ص 165.

أُنَيْتَ حُدُودَ اللَّهِ مُدُّ أَنْتَ يَافِعٌ وَشَبْتِ فَمَا يَنْهَكَ شَيْبُ اللَّهَارِمِ¹

فهو يؤكد أنّ تجاوز حدود الله سمة متأصلة فيه منذ حداثة سنّه، وحتى، وبعد أن كبر، فإنّ شبيهه لا ينهاه عن هذا السلوك، مما يعني أنه لا يتعظ ولا يعتبر ولا يستفيد من تجاربه في الحياة، خاصة وقد أقرّ أنّ هذا السوء لازمه حتى شبيهه، وهو أشين وأدّل.

ولم يكن الهجاء الغرض الوحيد الذي تضمّن أسلوب النقي فحسب، بل نجده في مجال الفخر أيضا حيث يفخر جرير بنسبه الذي لا يمكن للفرزدق بلوغه كما في قوله:

بَيْرُبُوعٌ فَخَرْتُ وَآلَ سَعْدِ فَلَا مَجْدِي بَلَعْتَ وَلَا افْتِخَارِي²

ويبدو إصرار جرير على المفارقة بينه وبين خصمه واضحا، وذلك من خلال تأكيده على عدم بلوغ الفرزدق مجده وافتخاره والذي ترجمه تكثيف النقي؛ حيث تكررت "لا" مرتين في شطر واحد. ثمّ يحصر المفاخرة في الخثولة فيضع الأحوال في كفتي الميزان ثمّ يرجح الكفة لصالحه فيقول:

جَنِّي بِخَالِكَ يَا فِرْزَدِقُ وَاَعْلَمَنْ أَنْ لَيْسَ خَالِكَ بِالِغَا أَخْوَالِي³

فهو لم يوظّف أداة النقي "ليس" لينفي بها إمكانية أن يضاهيه الفرزدق في التّسب من جهة أحواله فحسب، بل أسبق هذا النقي بالفعل "اعلمن" الموجّه على وجه التحديد إلى الفرزدق الذي خصّه بالكلام خاصة وقد أسبق اسمه بأداة النداء ليسترعي انتباهه، وكلّ هذا من شأنه أن يظهر كلامه وكأنّه حقيقة لا تُنكر.

ولم يكن جرير وحده من استغلّ هذه التقنية، بل نجد الفرزدق، هو الآخر، استفاد من "النقي" في إنكار الكثير من الصّفات وتجريد جرير منها، ويظهر ذلك جليا من خلال ما يأتي:

قال الفرزدق:

قَبَّحَ الْإِلَاهُ بَنِي كَلَيْبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ وَلَا يَفُونَ لِجَارِ⁴

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 285.

²-المصدر نفسه، ص 181.

³-المصدر نفسه، ص 235.

⁴-المصدر نفسه، ص 239.

فالشاعر يحاول التل من قوم جرير فيسلبهم صفتين هامتين وهما: الغدر ومراعاة حرمة الجوار، وإن نفى عنهم صفة "الغدر" فيبدو الأمر إيجابياً، غير أن السياق الذي وردت فيه يحيلها إلى المجال السلبي، ذلك أن بني كليب لا يغدرون ليس شهامة منهم وإباءً وإنما يتمنعون عن ذلك بسبب ضعفهم، وهو السبب ذاته الذي يحول بينهم وبين الوفاء للحجار.

ويقول في موضع آخر:

نساءً بالمضايق ما يُؤاري
مخازيهُنَّ مُنتقَبَ الحِمارِ
وما أبكارهُنَّ بثيباتٍ
ولَدنَّ مِنَ البُعولِ ولا عذارى¹

وهنا يحاول الفرزدق المساس بجرير، من خلال الحديث عن نساء قومه فوسمهن بالفجور الذي لا تواريه خمرهن، ثم يمتد به الحديث في البيت الثاني ليصف نتائج فجورهن، ذلك أتمنّ لسن بعدارى، ولم يلدن من الأزواج. وإن كان الشاعر قد سلب النساء العقّة والطهارة في ظاهر كلامه، فإنه يضمن قوله معنى آخر، وهو أن أبناء القبيلة أبناء فجور.

وفي موضع آخر يتجاوز الحديث عن قبيلة جرير إلى جرير نفسه فيقول:

ولم ترثِ الفوارسَ من نُميرٍ
ولا كعباً ورثتَ ولا كلاباً²

فهو ينفي عن جرير أن يكون قد ورث شيئاً ذا قيمة، فينفي عنه أن يكون قد ورث فوارس نمير كما لم يرث لا كعباً ولا كلاباً، وبهذا يكون قد جرّده من كلّ مزية تكون له فخراً، وفي المقابل ألصق به كلّ أشكال الضعف والخنوع والذل.

ومما سبق يتضح لنا أنّ كلاًّ الشعاعين قد وظّفنا "النفي" في مسار واحد وهو تجريد الخصم أو قبيلته أو أفراد قبيلته، من الصفات والمزايا التي تعزز جانبه، وتدعم القوّة والرّفعة وعلو الشّان، والعمل على نفي هذه الميزات عنه من شأنه أن يضعف جانبه ويجعلنا ننساق وراء الحكم عليه بالدونية.

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 170.

²- المصدر نفسه، ص 336.

2- التوجيهيات (الطلبات)

وهي كلّ الأفعال الكلامية التي تتضمن معنى الطلب بغض النظر عن الصيغة التي ترد فيها¹، وبذلك فهي تضمّ مختلف أساليب الإنشاء الطلبي من أمر ونهي واستفهام ونداء وغيرها. ولكل هذه الأفعال قوّة إنجازية مباشرة تفهم من الصيغة الحرفية، وقوّة إنجازية غير مباشرة يستلزمها المقام.

وفي ظلّ البلاغة الجديدة لم تعد الأساليب الإنشائية تنهض بالوظيفة الجمالية، بل صارت تُؤدّي وظيفة إقناعية ((إذ يتمّ عزل الأساليب البلاغية من سياقها البلاغي لتجاوز الوظيفة الجمالية الإنشائية إلى الوظيفة الإقناعية الاستدلالية)).² ويذهب أحد الدارسين إلى أنّ معظم الأساليب البلاغية تمتلك خاصية التحوّل لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية³.

فالأساليب الإنشائية تُؤدّي دورا هامّا في العملية الحجاجية، ذلك أنّ ((الأساليب الإنشائية خلافا للخبرية لا تنقل واقعا ولا تحكي حدثا، فلا تحتمل تبعا لذلك صدقا أو كذبا، وإنما تثير المشاعر وتُشحن من ثمة بطاقة حجاجية هامة، لأنّ إثارة المشاعر ركيزة كثيرا ما يقوم عليها الخطاب الحجاجي)).⁴

ومن التوجيهيات التي وردت في التقائض نورد ما يأتي:

1- الاستفهام:

يعدّ الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجا، وهو ما يتوسّل به الكثير في فعلهم، على اعتبار أنّ ((طرح السؤال يمكن أن يضخّم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطّف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم)).⁵

¹ - محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 104 .

² - محمد أبحر: خطاب المناظرة في الادب الأندلسي، ص 231 .

³ - صابر الحباشة: من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص - حجاجية المفردة القرآنية نموذجاً - ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 4، ص 193 .

⁴ - سامية الدريدي: الحجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهلية حتى القرن الثاني للهجرة. بنيتة وأسانيبه، ص 139-140 .

⁵ - محمد القارصي: نظرية المسألة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد القديمة من أرسطو إلى اليوم، ص 399 .

وقبل الحديث عن الاستفهام ودوره في العملية الحجاجية، وكيف يتحوّل إلى وسيلة إقناعية، ارتأينا أن ننتقل من مهاد نظري نؤسّس من خلاله لدلالة الاستفهام التي شكّلت اختلافا لدى الدارسين.

فقد اختلف البلاغيون في تحديد معنى دقيقا للاستفهام، فمنهم من يرى أنّ الاستفهام والاستخبار والاستعلام شيء واحد، ومنهم من فرّق بين هذه المصطلحات، ووقف على الفروق الدقيقة في معناها البلاغي ومنهم من اكتفى بالمعنى اللغوي¹. يقول الزركشي: ((الاستخبار، وهو طلب خبر ما ليس عندك، وهو بمعنى الاستفهام، أي طلب الفهم، ومنهم من فرّق بينهما بأنّ الاستخبار ما سبق أولاً ولم يُفهم حقّ الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً))². فالزركشي يجعل الاستخبار والاستفهام بمعنى واحد، ويشير إلى مذهب الآخرين في التفرقة بينهما، والذي يبنّي أساساً على الترتيب، فالشخص يسأل ليستخبر أولاً، فإن لم يحصل له الفهم وعاود السؤال ثانية فهو يستفهم.

وقد استقرّ في الأذهان أنّ الاستفهام والسؤال شيء واحد، غير أنّ أبا هلال العسكري يقول بوجود فرق بينهما، ذلك أنّ ((الاستفهام لا يكون إلّا لما يجهله المستفهم أو يشكّ فيه، لأنّ المستفهم طالب لأن يفهم، وقد يجوز أن يسأل فيه السائل عمّا يعلم، وعمّا لا يعلم))³. فالفرق بين الاستفهام والسؤال يبنّي على محتوى السؤال وعلاقته بمعرفة السائل، فالإنسان يسأل عمّا لا يمتلك معرفة إزاءه، فيسأل إن كان جاهلاً للأمر ليعرفه، أو شاكاً فيه ليؤكّد معرفته، وباختصار فهو يستفهم عمّا لا يعلم فقط. أما السؤال فيستعمل للحالتين معاً؛ بحيث يحقّ له أن يسأل عن الأمر، وهو جاهل به، كما وهو عارف به. وهذا ما يفتح المجال للحديث عن ارتباط السؤال بمقاصد المتكلم، والتي يودّ إيصالها إلى المخاطب، وتحدّد من خلال السياق الذي ترد فيه.

وعرّفه السكاكي فقال: ((الاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن، إمّا أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون. والأوّل هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصوّر الطرفين، والثاني هو التصوّر، ولا يمتنع انفكاكه من التصديق))⁴.

¹ - محمد مختار الشيباني: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم. دراسة أسلوبية، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، د. ط، ص 24.

² - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 326.

³ - أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية. تح محمد باسل عيون السود، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ص 39.

⁴ - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 415.

والتصديق: هو طلب السؤال عن شيء حدث وقوعه أم لا، وتكون الإجابة عليه بكلمة (نعم) للإثبات، و(لا) للتفي. فالتصديق إدراك نسبة الفعل بدقة، لأن المتكلم متردد بين إثبات الشيء ونفيه. ولهذا يطلب تحديد الإجابة وتعيينها. والتصوّر: هو إدراك المفرد، والاستفسار عن كيفية حدوث فعل ما، وتكون الإجابة عن ذلك بتحديد الفعل، ومن قام به على وجه الدقة، على اعتبار أن المتكلم عارف بأن الحدث قد وقع لكنه لا يعرف كيفيته بدقة¹.

والاستفهام قسمان: قسم بمعنى الخبر، وقسم بمعنى الإنشاء. والاستفهام بمعنى الخبر يأتي على ضربين: ((أحدهما نفي وإثبات، فالوارد للتفي يسمى استفهام إنكار، والوارد للإثبات يسمى استفهام تقرير، لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب، وبالثاني إقراره به))².

لكن السؤال لا يرد دائما بالمعنى الحقيقي الذي وُضع له، وإنما يخرج عن معناه الحقيقي للدلالة على معان أخرى، فالسؤال يخرج عن مقتضى الظاهر ليحقق مقاصد تنتصر للأطروحة المقترحة³.

وقد ميّز ديكر و أنسكومير الاستفهام الحجاجي من غيره، واعتبراه نمطا من الاستفهام يستلزم تأويل القول المراد تحليله، انطلاقا من قيمته الحجاجية⁴. مما يعني أن الاستفهام يحمل في طياته افتراضات ضمنية لا يصحّح بها المتكلم، وتجعل الاستفهام حجاجيا.

وبالنظر إلى أدوات الاستفهام التي وظّفها كلٌّ من الفرزدق وجري، في نقائضهما، نجد أنها كثيرة ومتنوعة ((وربما يعود هذا لحاجتهم الملحة للسؤال، بوصفه ملاذا ابستمولوجيا تركز إليه الذات في حوارها الجدلي مع الآخر))⁵، لكن تظلّ مجالاتها محصورة، وقد وجّه أكثرها إلى غاية إقناعية. ففي مجال الافتخار نجده يركّز على الافتخار بالنسب، ويسعى حثيثا لإقناعنا برفعة نسبه وعلو شأنه مستعملا في ذلك أدوات استفهامية مختلفة مثلما يتّضح من الآتي:

¹ - حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء. دراسة جمالية بلاغية نقدية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005، د. ط، ص 135-136.

² - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 328.

³ - عبد العزيز لحويديق: الحجج في المناظرة. مقارنة حجج المناظرة أبي حنيفة مع الملحدّين ضمن كتاب الحجج مفهومه ومجالاته، ج 4، ص 327.

⁴ - أبو بكر العزاوي: الحجج والخطاب، ص 57.

⁵ - عبد الفتاح أحمد اليوسف: الخطاب السجالي في الشعر العربي. تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، 2014، ص 218.

قال الفرزدق مفتخرا بعلو نسبه:

كَمْ مِنْ أَبِي لِي يَا جَرِيرٌ كَأَنَّهُ قَمْرُ الْمَجْرَّةِ أَوْ سِرَاجِ نَهَارٍ¹

فهو يستعمل "كم" التي تشير إلى كثرة العدد، لكنّه لا يعني حقيقة السؤال عن العدد، وإنما وظّفها للفخر والتباهي، والدلالة على الكثرة والغلبة والعظمة للتأكيد على علو نسبه، إذ يصرح بأن الشرف ممتد في آبائه ممّا يعزّز فخره أكثر. وهذا الاستفهام يمكن أن نعتبره حجة يخدم نتيجة من قبيل "كثرة آبائه وعلو نسبه"، وهو يحمل طاقة حجائية تكمن في أنّ نسبه لا يُضاهى، وبالتالي وجّه المتلقّي إلى خيار واحد وهو الإقرار بأفضلية الفرزدق من حيث النسب.

وبعد أن كان فخره ممتدا حصره وضيّق مجاله؛ حيث قال:

بَأَيِّ أَبِي يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ تَبْتَعِي رِهَانِي إِلَى غَايَاتِ عَمِّي وَخَالِيَا²

فالشاعر استعمل "أي" للتساؤل عن أيّ أب يكون مفخرة لجرير مقابل فخره بأعمامه وأحواله. وهو تساؤل يشكّل حجة لصالح النتيجة "أنا أفضلك نسبا من جهة العمومة والخولة"، وهذا الاستفهام يحمل طاقة حجائية تتمثّل في عدم قدرة جرير على المراهنة بأعمامه وأحواله، وبالتالي يوجّه الكلام إلى غاية واحدة وهي أفضلية نسب الفرزدق القريب.

ثم يعمد إلى الموازنة بين قومه وقوم خصمه فيقول:

أَبْنُو كَلَيْبٍ مِثْلُ آلِ مُجَاشِعٍ أَمْ هَلْ أَبُوكَ مُدْعِدِعًا كَعِقَالٍ³

استعمل الشاعر أداتي استفهام: همزة التسوية التي تصدّرت البيت، وقد استفهم بها إن كان بنو كليب قوم جرير يساؤون قومه آل مجاشع. ثم يترك الانتماء القبلي ليقلّص مجال المفاخرة إلى النسب القريب فيتساءل في عجز البيت باستعمال "هل" إن كان والده في حال دعدعته أي زجره لغنمه كعقال وهو عقال بن سفيان بن مجاشع. وقد أراد من خلال هذا التساؤل الإقرار بأنّ جريرا لا يضاهيه نسبا لا على المستوى القريب (الأب) ولا على المستوى البعيد (القبيلة).

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 239.

²-المصدر نفسه، ص 127.

³-المصدر نفسه، ص 202.

ويتمدد توظيف أدوات الاستفهام إلى مجال الهجاء ويبقى مرتبطاً بالنسب وما يدور في فلكه، ومن ذلك قوله مخاطباً جرير:

يَا بِنَّ الْمَرَاغَةَ كَيْفَ تَطْلُبُ دَارِمًا وَأَبُوكَ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارٍ¹

فهو يتساءل عن الكيفية التي يسعى من خلالها لبلوغ مجد دارم، مما يعني أنه لا يمتلك ما يؤهله لذلك وخصّ قوله بالحديث عن أبيه الذي ينشغل برعي الأتّن والاهتمام بها، وفي ذلك إشارة إلى ضعة مكانته الاجتماعية. وبذلك نعتبر هذا الاستفهام حجّة موجهة لخدمة النتيجة "ضعة عطية والد جرير"، وتكمن طاقته الحجاجية في أن "من يملك نسبا وضيعا لا يفاخر الشرفاء".

وباستعمال أداة الاستفهام نفسها يواصل الفرزدق محاولة التّيل من خصمه من خلال التركيز على أطراف أخرى، يقول:

كَمْ خَالَةٍ لَكَ يَا جَرِيرَ وَعَمَّةٍ فِدْعَاءَ قَدْ حَلَبْتُ عَلَيَّ عِشَارِي²

وفيه يعيّر بكثرة خالاته وعمّاته اللواتي يمتهنّ الرّعي، وفي ذلك إشارة إلى ضعة مكانته الاجتماعية، وبذلك فقد أغلق الفرزدق على جرير كلّ مجالات الافتخار بالنسب. وهذا الاستفهام حجّة تخدم نتيجة من قبيل "ضعة مكانة عمّاته وخالاته"، وتكمن طاقته الحجاجية في أن ضعة نسبه أورتته ضعة مكانته الاجتماعية، وهذا يوجّهنا نحو خيار واحد وهو "دونية جرير مقابل رفعة الفرزدق".

ويتكئ جرير هو الآخر على الأسلوب الاستفهامي في الردّ على الفرزدق، ولكنه ينحو به منحى آخر لأنّ موازين القوّة تختلف بين الشّاعرين، وينقلنا إلى مجال الحرب ويبيّن فخره على السؤال فيقول:

أَلَا تَسْأَلُونَ النَّاسَ مَنْ يَنْهَلُ الْقَنَا وَمَنْ يَمْنَعُ الشُّغْرَ الْمَخُوفَ تَلَاتِلُهُ³

وهو استفهام يمكن اعتباره حجّة تخدم نتيجة من قبيل "نحن من ينهل القنا ويمنع الثغور"، وتكمن طاقته الحجاجية في أن قوم جرير أقوىاء في مجال الحرب التي تخيف حتى الشجعان. وبذلك يوجّهنا إلى خيار واحد وهو التسليم بقوّة قوم جرير الحربية.

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 235.

²- المصدر نفسه، ص 241.

³- المصدر نفسه، مج 2، ص 69.

وعندما يطعن جرير في فخر الفرزدق القبلي يقول:

إذا قيل: أيُّ النَّاسِ شَرُّ قَبِيلَةٍ وَأَعْظَمُ عَارًا قَيْلٍ: تِلْكَ مُجَاشِعٌ¹

أجرى حواراً على لسان الغائب، وجعل أحد الطرفين يتساءل عن أي القبائل أكثر شراً وأعظم عارا ويُنطق الطرف الثاني بالجواب ويحصره في مجاشع. وبذلك يهدم مجد الفرزدق وفخره بجعله "مجاشع" رمزاً للعار والشرور.

ويمتد بهجائه إلى الحرفة التي توارثها فيخطبه قائلاً:

يا ابنَ القُيُونِ وَكَيْفَ تَطْلُبُ مَجْدَنَا وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ القُيُونِ نِجَارٌ²

فهو يتساءل عن طلبه بلوغ مجده، وهو غير مؤهل لذلك لأنه موسوم بسمة القيون التي تطبعه حيثما ذهب، وهو يرمي من ذلك إلى التحقير وتصغير الشئان والسخرية من خصمه.

كانت هذه مختلف نماذج الاستفهام التي استخدمها جرير والفرزدق، والاستفهام في مجمله قد خرج به الشاعران إلى إنجاز غير مباشر تعددت أغراضه وفق السياق الذي ورد فيه. وسنقف فيما يأتي على نوع آخر وهو الأمر.

2- الأمر:

يُعد الأمر أسلوباً إنشائياً ينتمي إلى صنف الأفعال التي وسمها "أوستن" (Actes perlocutionnaires) أي الأقوال التي فيها إنجاز لأفعال معينة، ولكنه إنجاز ضمني لأن صيغتي الأمر تحمل معنى الدعوة، ومن ثمة تبدو صلته بالحجاج وثيقة لأنه يهدف إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين تحدده طروحات الشاعر ومبادئه³. وبذلك فهو يُصنّف ضمن الأفعال الإنجازية، غير أنّ هذا الإنجاز غير مصرح به، وإنما يتضمّن القول والغاية منه توجيه المتلقي إلى سلوك معين. وعليه، وفي إطار العملية الحجاجية، فالأمر عمل لا قولي كما حدّده "أوستن" لأنه لا ينقل واقعا، بل ينجزه أثناء عملية التلقظ⁴.

¹- نقاض جرير والفرزدق، مج 2، ص 109.

²- المصدر نفسه، ص 226.

³- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيتها وأساليبه، ص 149.

⁴- سامية الدريدي: دراسات في الحجاج. قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2009، ص 15.

وانطلاقاً من كون النقائض، التي دارت بين جرير و الفرزدق، تصب في بوتقة الخطاب السجالي والخطاب السجالي يجفل بمختلف أساليب القول الإنشائية التي تدخل في تشكّل هذا الخطاب، ويُعدّ الأمر واحداً من ضمن هذه الأساليب. ذلك أن الأمر في الخطاب السجالي ينهض بوظيفة هامة، فـ((هو فعل قوليّ خطابي استفزازي للآخر، فالوظيفة الاستفزازية لفعل الأمر، تساهم في احتدام الجدل اللغوي/المعرفي بين الخطابين))¹.

والأمر الحقيقي يبنى على مكانة الأمر، التي تستوجب أن تكون أعلى من مكانة المأمور؛ بحيث تحوّل له هذه المكانة سلطة يستطيع من خلالها توجيه أوامره وإلزام المأمور بها. وتتنضح طبيعة الأمر من خلال السياق الذي يرد فيه.

يقول الفرزدق مخاطباً جريراً:

فَأَسْكُتْ فَإِنَّكَ قَدْ غُلِبْتَ فَلَمْ تَجِدْ لِلْقَاصِعَاءِ مَأْتِرَ الْأَيَّامِ²

واضح أنّ هذا الأمر يتضمّن إسكات الخصم ومطالبته بالتسليم بالهزيمة. فالفعل اللغوي (اسكت) هو

أمر أصدره الفرزدق لخصمه جرير بموجب السلطة التي حوّنها له انتصاره عليه، وما على جرير إلا الانصياع لهذه السلطة. وهذا الأمر هو حجة صريحة يخدم نتيجة ضمنية من قبيل "انتهاء المنافسة والتسليم بالهزيمة".

كما يخرج الأمر عن معناه الحقيقي إلى أغراض أخرى تفهم من السياق، كقول الفرزدق:

أُولَئِكَ آبَائِي، فَجِئَنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتُنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعِ³

فالشاعر يفتخر بنسبه، ويأمر خصمه بشيء من التعجيز بأن يأتي بمثل ما يفاخره به. وهذا الأمر يستند فيه الشاعر إلى سلطة "علو النسب" والفعل "جئني" يتضمن إقامة الدليل والحجة، وبمكنا اعتباره حجة ساقها الشاعر لخدمة نتيجة محدّدة، وهي افتقار جرير إلى نسب رفيع يفاخر به.

وقد يقترن الأمر بالنداء، ليعطي الخطاب خصوصية أكثر، كما يظهر في قول الفرزدق:

¹ - عبد الفتاح أحمد يوسف: الخطاب السجالي في الشعر العربي، ص 212.

² - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 192.

³ - المصدر نفسه، مج 2، ص 111.

فاجمَعْ مَسَاعِيكَ الْقِصَارَ وَوَافِنِي بِعُكَاظٍ يَا بَنَ مَرْبِقِ الْأَحْمَالِ¹

فهو يأمر خصمه بأن يجمع مساعيه، ويعدّ العدّة لمجاراته، ويقرن هذا الأمر بالنداء المصحوب بالسخرية حين دعاه "يا بن مريق الأحمال"، وما ذاك إلا للحطّ من قيمته وإضعاف شأنه. والبيت قد تضمّن فعلي أمر (اجمع-وافني) وهما دعوة صريحة للمبارزة الكلامية.

فالقول (اجمع مساعيك القصار) حجّة موجهة لخدمة نتيجة ضمنية من قبيل "ما تجمعه قليل" ممّا يوحي بأنّ الغلبة ستكون من نصيب الفرزدق. أمّا القول (ووافني بعكاظ) يتضمّن معنى الإسراع، وبالتالي يمكننا أن نعتبره حجّة موجهة لخدمة نتيجة ضمنية من قبيل "تأكد الفرزدق من هزيمته لجرير".

ولم يكن الأمر مرتبطاً بالفرزدق فقط، إنّما نجد جريراً هو الآخر يُجري هذا الأسلوب على لسانه ولا يتوانى في توجيه الأوامر لخصمه، كلّما سنحت الفرصة، وفي ذلك إقرار ضمني بأنه لا يقلّ مكانة عنه بل يصرّح بأنه يعلوه مكانة، وهي الدّعى العامّة التي يسعى جرير من خلال هذه المشاحنة الكلامية لإثباتها. يقول مخاطباً الفرزدق:

فَانْفُخْ بِكَبِيرِكَ يَا فِرْزَدُقُ إِنِّي فِي بَادِخٍ لِمَحَلِّ بَيْتِكَ عَالٍ²

فهو يطلب من الفرزدق أن ينفخ كبره أيّ الالتزام بمهنته، وقد أتبع فعل الأمر بأداة النداء "يا"، والمنادى "الفرزدق" حيث وظّف النداء لجلب الانتباه من جهة وتخصيص الكلام من جهة أخرى، فجرير يأمر الفرزدق أن يلتزم بعمله، وفي ذلك إذلال للفرزدق واحتقار له، وهو نابع من المهنة التي يمتننها والتي شكّلت عند جرير منطلق قوّة لهجاء الفرزدق وتعييره بذلك. ويقول أيضاً:

جِنِّي بِخَالِكَ يَا فِرْزَدُقُ وَاغْلَمَنْ أَنْ لَيْسَ خَالِكَ بِالْعَا أَخْوَالِي³

لا يقف جرير عند حدود المطاولة على الفرزدق فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى أخواله، وهو يعلم عدم قدرته على المبارزة الكلامية. ويأخذ الأمر منحى آخر عندما يخرج عن معناه الحقيقي، خاصّة عندما يكون تحقيقه يتجاوز قدرات المخاطب، بل مستحيلاً كما في قوله:

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 207.

²-المصدر نفسه، ص 216.

³-المصدر نفسه، ص 235.

فَجَنِّي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهُ¹

أنا الدهرُ يُفني الموتَ والدَّهرُ خالدٌ

وعندئذ يكون غرضه التعجيز دون سواه.

ولا يترك جرير منقصة إلا ويعير بها الفرزدق، ويتخذ من الأمر وسيلة تساعد على بلوغ هدفه، ومن

ذلك قوله:

قَتَلُوا أَبَاكَ وَثَأْرُهُ لَمْ يُقْتَلِ²

وَأَمَدَحَ سَرَاةَ بَنِي فُقَيْمٍ إِنَّهُمْ

فهذا القول هو حجة صريحة تخدم نتيجة ضمنية مفادها "جبن الفرزدق"، فجرير من خلال توظيفه لهذا الفعل، يسخر من سلوك الفرزدق المتمثل في مدح قاتلي أباه بدل من الثأر منهم، وفي ذلك دليل على عجز الفرزدق وعدم قدرته على الانتصار لأبيه والثأر له، ذلك أن الثأر منتهى الفحولة العربية.

ويواصل على سبيل الاستهزاء متصيداً مواطن أخرى تراءت له مناسبة للتبيل من خصمه فيقول:

لَيْسَ ابْنُ ضَبَّةَ بِالْمَعَمِّ الْمُخَوَّلِ³

وَأَفْخَرُ بِضَبَّةَ إِنَّ أُمَّكَ مِنْهُمْ

فالشاعر ضمن قوله فعل الأمر (افخر) وفيه يطلب منه أن يفخر بضبة، ثم يتبع هذا برابط مدرج للحجج وهو الرابطة "لأن" الذي يفيد التعليل، وبذلك فهو يطلب منه الافتخار بضبة ويعلل هذا الفعل بكون أمه منهم، ثم ينفي أن يكون الانتساب إلى ضبة مما يستوجب الفخر لا من جهة العمومة ولا من الخؤولة، وبهذا يتضح لنا أن القول (وافخر بضبة...) هو حجة يخدم نتيجة ضمنية من قبيل "إنك تفخر بما لا يحقق الفخر"، وعليه فإن فخره بلا قيمة.

3- أسلوب النهي:

النهي كالأمر، فهو من الأساليب الإنشائية التي تندرج ضمن الأفعال الإنجازية. وتوجد بين الأمر والنهي قرابة دلالية، ذلك أنهما لا يختلفان دلالياً إلا في كون "الأمر" يطلب الفعل على جهة الاستعلاء، و"النهي" يطلب

¹- نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 79.

²- المصدر نفسه، مج 1، ص 156.

³- المصدر نفسه، ص 165.

الكفّ عن فعل أو تركه¹. فالأمر والنهي يشتركان في كونهما طلب على جهة الاستعلاء، غير أنّهما يقعان على طرفي نقيض، ذلك أنّ الأمر طلب القيام بالفعل والنهي طلب عدم القيام به أو تركه.

يقول السكاكي: ((والنهي محذو به حذو الأمر في أصل استعمال: لا تَفْعَلْ، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشّروط المذكور، فإن صادف ذلك، أفاد الوجوب، وإلاّ أفاد طلب التّرك فحسب، ثمّ إن استعمل على سبيل التضرّع، كقول المبتهل إلى الله: لا تكلفني إلى نفسي، سُمّي دعاء، وإن استعمل في حقّ المساوي الرتبة لا على سبيل الاستعلاء، سُمّي التماساً، وإن استعمل في حقّ المستأذن، سُمّي: إباحة، وإن استعمل في مقام تسخّط التّرك، سُمّي: تهديداً))². ومّا تقدّم يتّضح أنّ للنهي صيغة واحدة هي صيغة الفعل المضارع المقرون بلا التّاهية، وأنه يكون حقيقياً إذا أُجري استعماله على سبيل الاستعلاء، فإن لم يتحقّق ذلك خرج إلى استعمالات أخرى.

وفيما يأتي نقف مع بعض أساليب النّهي، ومختلف استعمالاته التي ورد فيها في نقائض جرير والفرزدق.

يقول جرير مخاطباً خصمه الفرزدق:

لا تَذْكُرُوا حُلَلَ الْمُلُوكِ فَإِنَّكُمْ بَعْدَ الزُّبَيْرِ كَحَائِضٍ لَمْ تُغْسَلِ³

فالفعل الكلامي (لا تذكروا)، هو حجّة تحمل نتيجة ضمنية من قبيل "توقفوا عن التفاخر" ويعلّل سبب ذلك بكونهم عجزوا عن منع قتل الزبير، وبالتالي لا مجال للمفاخرة.

ويقول ناهيا الفرزدق عن المفاخرة:

لا تَفْخَرَنَّ إِذَا سَمِعْتَ مُجَاشِعًا يَتَخَاوِرُونَ تَخَاوِرَ الْأَنْوَارِ⁴

¹ - عبد العزيز العمري: أساليب اللغة العربية. دراسة لسانية، ط 1، مطبعة سحلماسة، مكناس، المغرب، 2010، ص 12.

² - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 429.

³ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 163.

⁴ - المصدر نفسه، ص 247.

فالفعل الكلامي (لا تفخرن) الذي ألحق به نون التوكيد الثقيلة ليؤكد بها ما ينهيه عنه، قد وظفه لخدمة نتيجة غير مصرح بها من قبيل "مجاشع ليست بالقوية" فهو يرى أن آل مجاشع يصدرن أصوات كالثيران دليلاً على حمقهم وحيوانيتهم، لا على قوتهم، وهذا لا يندرج ضمن ما يُفخر به.

وفي المسار ذاته، نجد أنه يستخدم الفعل الكلامي نفسه، فيقول:

لا تَفْخَرْنَ فَإِنَّ دِينَ مُجَاشِعٍ دِينُ الْمَجُوسِ تَطُوفُ حَوْلَ دُورٍ¹

فالفعل (لا تفخرن) يعتبر حجة موجهة لخدمة نتيجة ضمنية من قبيل "مجاشع لا دين لها"، أو "ديانتها باطلة"، ومن لا دين له لا مفخرة له، أمّا إذا وضعنا الدين الإسلامي في الحسبان فإنّ الديانات الفاسدة كلّها تتطير أمامه وتصبح بلا قيمة.

3- الالتزاميات (الوعديات):

وهي أفعال كلامية يلتزم فيها المتكلم طوعاً بفعل شيء للمخاطب في المستقبل، على أن يخلص في كلامه، ويعزم على الوفاء بما التزم به كأفعال الوعد، والوعيد، والمعاهدة، والضمان، والإنذار... الخ، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات. وبذلك تشترك مع الطلبيات في اتجاه المطابقة، لكنّ المرجع فيها المتكلم لا المخاطب².

يقول الفرزدق:

وَإِنَّ مُجَاشِعًا قَدْ حَمَلْتَنِي أُمُورًا لَنْ أُضَيِّعَهَا كِبَارًا³

يقرّ الفرزدق في هذا البيت بأنّ قبيلته "مجاشع" قد حملته أموراً، وهو لن يضيّعها. فالفعل "حملتني" تدل على الالتزام الذي يأتي من باب التوصية وما يشبهها، ونراه يلزم نفسه ويتعهد بالمحافظة على هذه الوصية فالشاعر يعد بالالتزام بما طلب منه.

¹- نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 248.

²- محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 107.

³- المصدر السابق، ص 188.

4- التعبيرات (البوحيات):

التعبيرات أفعال كلامية تعبّر عن مشاعر المتكلم في حالات الرضا والغضب والسرور والحزن والنجاح والفشل... الخ، وهي لا تقتصر على ما هو خاصّ بالمتكلم من الأحداث، بل تتعدّها إلى ما يحدث للمشاركين في الفعل، وتنعكس آثاره على المتكلم. ويدخل فيها أفعال الشكر، والاعتذار، والتهنئة، والمواساة، وإظهار الندم، والحسرة، والتمني، والشوق والحب والكره... الخ. وليس لهذا النوع اتجاه مطابقة، وإذا تحقّق شرط الإخلاص أنجز الفعل إنجازاً ناجحاً¹.

قال الفرزدق:

وَلَكِنَّ اللَّئَامَ إِذَا هَجَوْنِي غَضِبْتُ فَكَانَتْ نُصْرَتِي الْجِهَارًا²

فالشاعر في هذا الفعل الكلامي يعبر عن مشاعره النفسية الخاصة (الغضب)، والناجحة عن سلوك خصمه الذي قام بهجائه، ويحيل غضبه هذا إلى السخط على جرير.

وفي موضع آخر يقول:

عَجِبْتُ لِرَاعِي الضَّانِ فِي حُطْمِيَّةٍ وَفِي الدَّرْعِ عَبْدٌ قَدْ أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ³

فهذا الفعل الكلامي يعبر عن التعجب من حال جرير، وهو راعٍ، وقد لبس الدرع معلنا عن استعداده لخوض الحرب، وملاحمه وحركاته تفضحه وتظهر هذا التناقض الواقع فيه. وتمثّل القوّة الإنجازية غير المباشرة لهذا الفعل في السخرية والتهكم.

ولم يكتف الفرزدق بالتعبير عن مشاعره فقط، بل راح يفصح حتّى عن مشاعر خصمه، موجّها إياها لخدمة مقصده الخاص، كما يتّضح من قوله:

وَدَّ جَرِيرُ اللَّؤْمِ لَوْ كَانَ عَانِيًا، وَلَمْ يَدُنْ مِنْ زَارِ الْأَسْوَدِ الصَّرَاغِمِ⁴

¹ - محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 108.

² - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 188.

³ - المصدر نفسه، مج 2، ص 59.

⁴ - المصدر نفسه، ص 124.

فالشاعر يعبر عن مشاعر جرير النابعة من الجبن والخوف من مواجهة الأسد الضرغام؛ حيث رغب في أن يكون أسيرا لا لشيء إلا لئيتعد عن مواجهة الفرزدق، بل حتى عن سماع زئيره. وتتمثل القوة الإنجازية لهذا الفعل في تعظيم الذات مقابل استصغار الآخر.

وينقل جرير الغلبة والانتصار إلى ميدان المنافسة الشعرية والبراعة في فنّ القول؛ حيث تصنع هي الأخرى نشوة لا تقلّ عن نشوة الانتصار في المعارك الحربية لأنها تعكس قوة ذاتية وتصنع مجدا لا تصنعه إلا الذات الشاعرة. قال الفرزدق منتشيا:

غَلَبْتُكَ بِالْمَفْقَى وَالْمَعْنَى وَبَيْتَ الْمُحْتَبِي وَالْخَافِقَاتِ¹

يحمل هذا البيت زهوا وإعجابا بالذات التي حققت انتصارا، وأثبتت أفضليتها في فنّ القول، هذا المجال الذي تصنعه الكلمة والبراعة في القول بعيدا عن الحسب والتسب والأجداد. والشاعر يعبر من خلال هذا الفعل الكلامي عن الغلبة والانتصار على خصمه في إطار المنافسة الشعرية الدائرة بينهما.

وفي هذا البيت يحدّد الفرزدق تلك القصائد التي حققت له الغلبة، وقد اتخذ لها ألقابا² للتدليل على مكانتها في نفسه بناءً على ما صنعته له من مجد. والبيت الشعري، كفعل كلامي، يتضمّن إحساسا بالزهو والفرح الناتج عن الانتصار.

يقول جرير معبرا عن مشاعر الرضا والسخط:

بَنَى الْخَطْفَى حَتَّى رَضِينَا بِنَاءَهُ، فَهَلْ أَنْتَ إِنْ لَمْ يُرْضِكَ الْقَيْنُ قَاتِلُهُ³

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 164.

² - يحيل الفرزدق بهذه الألقاب إلى قصائد بعينها، فيقصد بالمفقى قوله:

ولست وإن فقأت عينيك واجدا أبا عن كليب أو أبا مثل دارم

ويقصد بالمعنى قوله:

وإنك إذ تسعى لتدرك دارما، لأنت المعنى يا جرير المكلف

ويقصد ببيت المحتبي قوله:

بيتا زرارة محتب بفنائها ومجاشع وأبو الفوارس نمشل

أما الخافقات فيريد قوله:

وأين تقضي المالكان أمورها؟ بحق وأين الخافقات اللوامع؟

³ - المصدر السابق، ص 79.

ففي هذا الفعل الكلامي يعبر جرير عن مشاعر متناقضة بينه وبين خصمه الفرزدق (الرضا/ وعدم الرضا) فهو يظهر رضاه عما بناه له جدّه الخطفي، ويقصد البناء المعنوي المتمثل في علو السب ورفعة الشأن، ويتساءل عن ردة فعل الفرزدق في حالة عدم رضاه عن القين (والده وجاهه) إن كان سيقتله.

ويخرج بالغضب عن الإطار الفردي الخاص، ليكسبه طابعا عاما فيقول:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا¹

فبهذا الفعل الكلامي يجعل أثر الغضب قويا وواسعا؛ بحيث يكون غضب "تميم" قبيلة الشاعر مساويا لغضب الناس جميعا، وعليه تكون القوة الإنجازية غير المباشرة لهذا الفعل هو التأكيد على عظمة قبيلة "تميم" وشدة بأسها.

5- الإعلانات (الإيقاعات):

وهي التي يكون إيقاع الفعل فيها مقارنا للفظه في الوجود، وتتسع لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبة والوصية، والوقف، والإجارة، والإبراء من الدين، والتنازل عن الحق، والتزواج، والطلاق والإقرار والدعوى والإنكار والقذف، والوكالة... الخ².

قال الفرزدق:

ضَرَبْتُ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتَ بِنَسْجِهَا وَقَضَىٰ بِهِ عَلَيْكَ الْكِتَابُ الْمَنْزُلُ³

شبه الفرزدق بيت جرير بيت العنكبوت في الدل والهوان، وجعل هذا الحكم يستمد شرعيته من القرآن الكريم، وهو بذلك يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَهْوَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾* وعليه يجعل هذا الحكم حكما إلهيا لا مجال لدحضه والطعن فيه.

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 322.

²-محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 102.

³-المصدر السابق، ص 135.

*-سورة العنكبوت، الآية 41.

وفي مجال آخر نجده يقول:

وإنَّ مُجاشِعًا قَدْ حَمَلْتَنِي أُمُورًا لَنْ أُضَيِّعَهَا كِبَارًا¹

فالفعل الكلامي يتضمن وصية أوصته بها قبيلته "مجاشع"، وللقبيلة سلطة تمارسها على أفرادها، وبموجب هذه السلطة يتحتم على الشاعر الخضوع لها، وهاهو من جهته يتعهد بالالتزام بما جاء في الوصية. واختيار قبيلته له وإلزامه بهذه الوصية فيها قدر من التعظيم لشأنه لا يقل عن عظمة الأمور الموصى بها، والتزامه بالتنفيذ تأكيد على حسن تقدير القبيلة لشخصه.

ويتحدث جرير عن الوصية فيقول:

وأوصى جُبَيْرٌ إِلَى غَالِبٍ وَصِيَّةَ ذِي الرَّحِمِ الْمُجْهِدِ
فقال: ارْفُقَنَّ بِلَيِّ الكَتِيفِ، وَحَكَّ المَشَاعِبِ بِالمِبرِدِ²

في هذين البيتين يتحدث جرير عن وصية لا ترتبط به وإنما ترتبط بالفرزدق، وقد جعل طرفي الوصية جُبَيْرٌ وغالب، وغالب هو والد الفرزدق أما جُبَيْرٌ فهو قين لصعصعة جدّ الفرزدق، وقد نسب جرير غالباً إليه افتراء وهو ما يؤكده مضمون البيت عندما جعل الوصية بين أب وابنه، وغاية جرير من ذلك هو طعن الفرزدق في نسبه وتعييره بكونه قين ابن قين. وهذا ما يؤكده البيت الموالي الذي يحدد مضمون الوصية؛ حيث أوصاه بالاهتمام بأدوات الحدادة مما يدل على انتسابه إلى القيون.

لقد كانت غاية جرير من إجراء هذا الفعل الكلامي التأكيد على انتساب الفرزدق إلى القيون نسبا وممارسة. ويتربّب عن هذا تحقيره والخطّ من قيمته ومحاولة غلق باب الافتخار بالنسب عليه. وإن كان لا يوجد في البيتين ما يدلّ على الالتزام بمضمون الوصية، إلا أننا ندرك أنّ طبيعة الوصية تحتمّ الالتزام بها خاصّة وأنّ جريرا قد أكسبها شرعية عندما جعلها من أب إلى ابنه، وقوة هذه العلاقة تحتمّ على الابن الالتزام بوصية والده براء وإحسانا.

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 182.

²-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وقال الفرزدق متحدّثا عن الهبة:

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَزُولٌ¹

وفيه ينتقل الفرزدق للحديث عن الشاعرية، وبتوظيفه لهذا الفعل الكلامي جعل قصائده هبة بلغته من شعراء مشهورين* ومشهود لهم بالشاعرية، ولللفعل قوّة إنجازية غير مباشرة، وهي فحولة الشاعر ما دامت قصائده قد وُهبّت له من قبل شعراء فحول، وبالتالي فشاعريته لا تقلّ عن شاعريتهم.

وقال جرير:

وَقَضَتْ لَنَا مُضَرَ عَلَيَّكَ بِفَضْلِنَا وَقَضَتْ رِبِيعَةَ بِالْقَضَاءِ الْفَيْصَلِ²

فهذا الفعل الكلامي يتضمّن إصدار حكم، ومضمون هذا الحكم لصالح جرير وقومه بما يمثّله اللفظ (لنا)، على الفرزدق. وقد حدّدت السلطة الممثّلة لهذه الحكومة في مضر وربيعة، وإن اشتركت الاثنتان في الحكومة فإنّ مضمون الحكم مختلف؛ بحيث قضت مضر بفضل جرير وقومه على الفرزدق، في حين قضت ربيعة "بالقضاء الفيصل" الذي لا يدع مجالاً للمفاضلة بين جرير والفرزدق. وتتمثّل القوّة الإنجازية غير المباشرة في الافتخار بالذات وتعظيمها مقابل تصغير الآخرين.

وقال في موضع آخر:

قَضَتْ الْغَطَارِفُ مِنْ قُرَيْشٍ فَاَعْتَرَفَ يَا ابْنَ الْقُبُورِ عَلَيَّكَ وَالْأَنْصَارُ³

يتضمّن الفعل الكلامي حكماً أصدره الغطارف من قريش في حقّ الفرزدق، والغطارف هم سادة القوم وسمحاؤهم، وما عليه إلاّ الإقرار والالتزام بما قُضي عليه به، وذلك بموجب السلطة التي يتميز بها سادة القوم. ولم يفوّت جرير مواجهة الفرزدق ببعض الحوادث التي تمخضت عن أحكام توجّب عليه الالتزام بها بموجب سلطة الجهة الصادرة عنها، ومن ذلك ما قاله مدكراً هاجياً:

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 146.

*-الشعراء الذين احتواهم بيت الفرزدق هم: النوايع، وهم: النابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، ونابغة بني شيبان، وأبويزيد ربيعة بن مالك بن ربيعة ولقبه المخبل، وذو القروح امرؤ القيس، وجرول الحطيئة.

²-المصدر السابق، ص 165.

³-المصدر نفسه، مج 2، ص 221.

نَفَاكَ الْأَعْرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، بِحَقِّكَ تُنْفَى عَنِ الْمَسْجِدِ¹

يشير هذا الفعل الكلامي إلى الحكم الذي أصدره الخليفة عمر بن عبد العزيز في حقّ الفرزدق، والذي يقضي بإبعاده عن المدينة، وقد عبّر عنه بعبارة "نفاك". وقد خصّه الإبعاد عن الاقتراب من المسجد نظراً لنجاسته، ورجسه، وهو بذلك ينعتّه بأقبح الصفات، لاسيما ما يتعلّق بالنّقي عن المساجد، وهي إشارة إلى سوء أخلاقه وضعف تدينه.

وبهذا نكون قد وقفنا على مختلف الأفعال الكلامية التي وظّفها كلّ من جرير والفرزدق في نقائضهما وذلك حسب التصنيف الخماسي الذي أقامه أوستن وعدّله سيرل، وقد كان توظيف الشعاعين لهذه الأفعال متبايناً فكثر بعضها كما في التوجيهيات وقلّ بعضها الآخر كما في الالتزاميات.

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 181.

المبحث الثاني:

الرّوابط الحجاجية:

في إطار التّظرية اللّغوية، أظهر الدّارسون اختلافهم في تناولهم للعوامل والرّوابط الحجاجية على مستوى المفاهيم؛ حيث ذهب بعضهم إلى توحيد مفهوم الرّابط والعامل، في حين ذهب آخرون إلى القول بالتمييز بينهما ويؤكد ذلك ما ورد في القاموس الموسوعي للتداولية من أنّ الباحثين لا يميّزون تمييزاً صارماً بين الرّابط والعامل، فالعامل (Operateur) يعرف بأنه وظيف (Foncteur) يكون حدّه (Argument) قضية بسيطة، أما الرّابط فهو وظيف يكون حدّه زوجاً مرتّباً من القضايا¹.

وقد ميّز ديكرو بين نوعين من المكوّنات اللّغوية التي تحقّق الوظيفة الحجاجية: الرّوابط الحجاجية وهي ما يربط بين الأقوال مثل أدوات الاستئناف (الواو، الفاء، لكن، إذن...)، والعوامل الحجاجية وهي ما يكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على الإسناد مثل الحصر والتّقي، أو مكوّنات معجمية تحيل في الغالب إحالة غير مباشرة مثل "منذ" الظرفية و"تقريباً" و"على الأقل"... وغيرها².

ويُعدّ أبو بكر العزاوي من الدّارسين الذين فصلوا بين العوامل والرّوابط؛ حيث اعتبر أنّ العوامل الحجاجية لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، لكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما. ومن بين هذه العوامل: ربما، تقريباً، كاد، قليلاً، كثيراً، ما... إلآ، وأدوات القصر³.

أمّا الرّابط الحجاجي فقد كان ما يربط بين قولين أو أكثر، ثمّ تمّ التحلي عن هذا التّصور لكون ظاهرة الرّبط معقّدة، وأصبح الرّابط الحجاجي هو ما يربط بين وحدتين دلّاليتين أو أكثر، في إطار استراتيجية حجاجية واحدة⁴.

¹ -جاك موشلار وأن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف عز الدين المجدوب، ط 2، المركز الوطني للترجمة تونس، 2010، ص 185.

² -شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 376-377.

³ -أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، ص 33.

⁴ -المرجع نفسه، ص 35.

وقد ذكر عز الدين النّاجح في دراسته لـ"العوامل الحجاجية في اللّغة العربية" أنه في تأصيله للعامل اعتمد دراسة الباحث رودولف قيقليون (Rodolphe Ghigliion) وقد منحه فضل السّبق في إحصاء أكبر عدد ممكن من العوامل الحجاجية، وإن كان يحصرها في الصّرفام Les morphèmes غير أنه لا يميز بين الرّوابط والعوامل، وهو ما جعله يقول:

((إنّ فضل دراسة قيقليون للعوامل الحجاجية يكمن حينئذ في جعله التّوعين معاً، أي الرّوابط والعوامل، آيلين إلى نوع واحد هو العوامل الحجاجية، وقد أمكن له ذلك بإنائته الكلام الذي تدخل عليه هذه العوامل وهذه الرّوابط على التخاطب ويجعله كلّ تخاطب إنما غاية الإقناع والحجاج. وهذا من نقاط القوّة في هذه الدّراسة، وسنأخذ برأيه في هذه الدّراسة غير فاصلين بين العوامل والرّوابط))¹.

وإذا كان النّاجح قد صرّح بأنه لا يقيم فرقا بين الرّابط والعامل، فقد حدّد العامل بكونه ((عنصرا لسانيا يصدق عليه تعريف الصرفم، له وظيفة الحدّ من غموض الملفوظ ومن تعدّد نتائجه وذلك بتقديم النتيجة الملائمة للمتقبل وبالقضاء على كلّ استلزام لا يعضّد النتيجة"ن" وآلية ذلك إنما هو التوجيه الحجاجي لتكون النتيجة واحدة))².

ومن هنا نكون قد تبينا اختلاف الدّارسين في نظرهم للعوامل والرّوابط الحجاجية؛ حيث يقول بعضهم بالتفريق بينهما في حين يذهب البعض الآخر إلى الجمع بينهما وجعلهما عوامل حجاجية، وما يهّمنا هو التركيز على الوظيفة الحجاجية التي تقوم بها الرّوابط والعوامل داخل النّص الحجاجي.

وظائف العامل الحجاجية:

يقول ديكرود: ((القيمة الحجاجية للملفوظ ليست نتيجة لمداه الإبلاغي لكن الجملة تكون حاملة لصرفم أو تعابير أو موجّهات، إضافة إلى محتواها الإبلاغي تصلح لإعطاء وجهة حجاجية للملفوظ تجعل المتقبل في اتجاه من الاتجاهات))³. وعليه فالعوامل الحجاجية توجّه الملفوظ إلى نتيجة معيّنة، ذلك أنّ العامل الحجاجي بدخوله على الملفوظ يكسبه مظاهر حجاجية ثلاثة هي:

¹ - عز الدين النّاجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ط 1، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، 2011، ص 24.

² - المرجع نفسه، ص 61-62.

³ - Oswald Ducrot : Les échelles argumentative, éditions de minuit , 1980, p15.

1. القضاء على تعدد الاستلزمات والنتائج.
2. فتح المواضع وتنشيطها. فالموضع يكون هو العمدة في ارتباط (ق1) أي المعطى بالنتيجة أي (ق2).
3. تقوية التوجيه نحو النتيجة "ن"¹.

ومن هنا يتضح، وبشكل جلي، الدور الحجاجي الذي تنهض به العوامل والروابط الحجاجية التي تتمحور أساساً حول التوجيه، والكلام يكون مفتوحاً على احتمالات ونتائج متعددة، والمتكلم بتوظيفه للعوامل والروابط يقوم بتقييد هذه الاحتمالات والنتائج، وأكثر من ذلك، فإنه يعمل على توجيهه إلى نتيجة محددة. فهي لا تكفي بالتوجيه فحسب، بل تعمل على تقويته أيضاً.

الروابط الحجاجية في النقائض:

استناداً إلى ما جاء به ديكرز ضمن نظرية الحجاج اللغوية، فقد اقترح وصفاً للأدوات والروابط خرج به عن الوصف التقليدي لها، وأضاف إليها مكوناً حجاجياً خوّل لها النهوض بوظيفة حجاجية، وعليه فإنّ هذه الأدوات تعدّ من الآليات اللغوية التي يتكئ عليها المخاطب لإقناع المخاطبين والتأثير فيهم، نظراً لما تحمله هذه الأدوات من قوّة حجاجية.

وفيما يأتي سنحصي بعض الروابط الحجاجية التي وردت في مدوّنة البحث، على أننا نتناولها مصنّفة ضمن مجموعات، وذلك حسب الوظيفة التي تنهض بها داخل الخطاب.

- الروابط المدرجة للحجج: (لام التعليل)

في إطار التواصل اللغوي، تستخدم ألفاظ كثيرة لتعليل الأفعال والمواقف والآراء، وهذا السلوك ينطوي على الرغبة في إقناع الآخرين بما نقول أو بما نفعل، حتّى ولو لم يُطلب منا ذلك. وتحتوي اللغة العربية على كثير من ألفاظ التعليل التي تربط بين الحجّة والنتيجة، وبذلك تهب الكلام مزية للتسليم به والافتناع بفحواه.

¹ - عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 35.

وتندرج ألفاظ التعليل ضمن الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، وبناء حججه فيه، إذ لا يستعمل المرسل أي أداة من هذه الأدوات، إلاّ تبريرا أو تعليلا لفعله، بناء على سؤال ملفوظ به أو مفترض¹.

وفيما يأتي نستعرض بعض ألفاظ التعليل التي وظّفها كلٌّ من جرير والفرزدق ضمن نقائضهما لأجل تبرير أفعال معيّنة، سواء كانت هذه الأفعال صادرة عن الذات أو الآخر، وتبعا لذلك تتحدّد وجهة التبرير والغاية منها. فإذا كان الفعل يتعلّق بالذات فإنّ التبرير يُشحن بالفخر ويؤجّه لصالحها، أما إذا تعلّق الفعل بالآخر فإنّ التبرير يُشحن بالسلبية ويؤجّه للانتقاص من الآخر/الخصم.

يقول الفرزدق:

وَابْنُ الْمَرَاغَةِ قَدْ تَحَوَّلَ رَاهِبًا مُتَبَرِّئًا لِمَتَسَكِّنٍ وَسُؤَالٍ²

فالشاعر يوظّف لام التعليل ليربط بين الحجّة والنتيجة، أي بين تنصّر جرير الذي لبس البرنس كالرهبان، وما يتحصّل عليه من عطاء وهبات نتيجة هذا الفعل.

ويقول جرير:

إِنَّا، وَقَيْنُكُمْ يُرْقِعُ كِيرَهُ، سَرْنَا لِنَغْتَصِبَ الْمُلُوكَ، وَسَارُوا³

فالشاعر يفاخر الفرزدق، موازنا بين ما يقوم به الفرزدق (ترقيع الكير) وبين ما يقوم به وقومه (الخروج لاغتصاب الملوك)، وقد وظّف لام التعليل للربط بين السبب والنتيجة، وليبرّر سبب خروجهم، والذي حدّده بمنزلة الملوك ومقارعتهم، وقد جعل هذا الفعل مشتركا بينهما، فهم ساروا إلى الملوك، والملوك ساروا إليهم، وبذلك يجعل قومه في منزلة الملوك. ويؤجّه سياط هجائه إلى الجانب الأخلاقي للفرزدق فيقول عنه:

يُوصَلُ حَبْلِيهِ إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ لِيُرْقِيَ إِلَى جَارَاتِهِ بِالسَّلَالِمِ⁴

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. مقارنة لغوية تداولية، ص 478.

² - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 202.

³ - المصدر نفسه، مج 2، ص 225.

⁴ - المصدر نفسه، مج 1، ص 285.

فهو يصفه بأنه شخص غير مأمون الجانب، ذلك أنه يوصّل حبله مستتراً بظلمة الليل، وقد وظّف لام التعليل ليعطي مسوّغاً لهذا السلوك، وهو الوصول إلى جاراته؛ حيث جعلها تربط بين الحجّة والنتيجة، وكلّ ذلك يصبّ في فساد الفرزدق وسوء خلقه.

-روابط التعارض الحجاجي: (بل-لكن)

تعدّ "لكن" من أدوات التعارض الحجاجي، وهي تفيد الاستدراك، وفي إطار دراسة العوامل الحجاجية، خاصة الأداة "Mais"، ميّز ديكر و أنسكومبر بين الاستعمال الحجاجي والاستعمال الإبطلائي لها، غير أنّه في اللّغة العربية تقابلها أداتان هما "بل" و "لكن"، وكلاهما تُستعملان للحجاج والإبطال. وفي حال استعمالها للحجاج، يقدّمان لها الوصف الحجاجي الذي ملخصه: إنّ التلفظ بأقوال من نمط "أ لكن ب" يستلزم أمرين:

1- أنّ المتكلّم يقدّم "أ" و "ب" باعتبارهما حجّتين، الحجّة الأولى موجّهة نحو نتيجة معيّنة "ن"، والحجّة الثانية موجّهة نحو النتيجة المضادة لها، أي "لا-ن".

2- أنّ المتكلّم يقدّم الحجّة الثانية باعتبارها الحجّة الأقوى، وباعتبارها توجّه القول أو الخطاب برمته¹.

ويكون هناك تعارض حجاجي بين الحجّة التي سبقت الرّابط "لكن" والحجّة التي ترد بعده، وبذلك فإنّ القول سيّجّه نحو النتيجة "لا-ن". وقد تستعمل للإبطال، فتكون الحجّة التي تليها لا تعارض سابقتها.

ويظهر لنا عمل هذه الأداة من خلال الأمثلة الآتية:

يقول الفرزدق مفاخراً خصمه جرير:

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ إِذَا أَنْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ²

فقول الشّاعر "ولا نقتل الأسرى" يتضمّن حجّة تخدم نتيجة من قبيل "نطلب افتدائهم"، والجملّة الواردة بعد الرّابط "نفكّهم" يتضمّن حجّة تخدم نتيجة مضادّة للنتيجة السابقة "لا-ن"، أي نتيجة من قبيل "نفك أسرهم" أو "نطلق سراحهم".

¹- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 61-62.

²- نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 150 .

وعليه فإنّ القول بمجمله يوجّه نحو النتيجة "لا -ن"، لأنّ الحجّة الواقعة بعد الرّابط هي الأقوى حججياً، وأكثر تموضعا أعلى السّلم الحججياً.

يقول الفرزدق:

فَلَوْ غَيْرَ الْوَبَارِ بَنِي كَلَيْبٍ
هَجَوْنِي مَا أَرَدْتُ لَهُمْ حِوَارًا
وَلَكِنَّ اللَّثَامَ إِذَا هَجَوْنِي
غَضِبْتُ فَكَانَ نُصْرَتِي الْجِهَارًا¹

فالقول الوارد قبل "لكن" يتضمّن حجّة من قبيل: لو هجاني غير الضّعفاء ما أحببتهم، والجملة التي جاءت بعد الرّابط تخدم نتيجة مضادة وهي أنه لا يسكت عن هجاء اللثام، ويجاهر بهجائهم لأنهم لا يستحقون غير ذلك.

ويقول الفرزدق مؤنبا جرير:

لَكَ الْوَيْلُ لَا تَفْتُلْ عَطِيَّةَ إِنَّهُ
أَبُوكَ، وَلَكِنْ غَيْرُهُ فَتَبَدَّلِ²

في هذا الموضع يتوجّه الفرزدق بخطابه إلى جرير، ويضمّن قوله الرّابط الحججياً "لكن"؛ حيث إنّ القول الوارد قبله حجّة موجّهة لخدمة نتيجة واضحة وهي "الابقاء على والده"، غير أنّ ما ورد بعد الرّابط موجّه لخدمة نتيجة مضادة للأولى وهي "التخلّص منه بالمبادلة". ولأنّ ما بعد "لكن" هو الأقوى حججياً، فإنّ الفرزدق يروم من خصمه التنصّل من علاقة الأبوة، وذلك بأن يتخلّص من والده. ويقف وراء هذا الطلب، الذي يبدو غريباً للوهلة الأولى، نتيجة ضمنية مفادها التخلّص من النّسب الوضع، الذي لا يمكن في الحقيقة التخلّص منه بهذه الطريقة، مما يوحي إلينا بأنّ الفرزدق ليس سوى ساخر مستهزئ.

-روابط التساوق الحججياً: (حتّى-الواو....)

تعمل هذه الرّوابط الحججياً على الرّبط بين الحجج أو بين الحجج والنتائج، وهي تربط بين الحجج التي لها نفس التوجّه الحججياً، أي إنّها تخدم النتيجة ذاتها. وفي هذا المجال سنقف على رابطتين اثنتين وهما: حتّى والواو.

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 188.

²-المصدر نفسه، مج 2، ص 121.

-الرابط حتى:

ذهب ديكر و أنسكومبر من خلال دراستهما للأداة المقابلة لـ"حتى" الحججية إلى أنّ الحجج المربوطة بهذا الرابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حججية واحدة (Classe argumentative) أي إنّها تخدم نتيجة واحدة، والحجّة التي ترد بعد "حتى" هي الأقوى، كما أنّ القول المشتمل عليها لا يقبل الإبطال والتعارض الحجج¹.

يقول الفرزدق:

أَلَا رَبِّ جَبَّارٍ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ، سَقَيْنَاهُ كَأْسَ الْمَوْتِ حَتَّى تَضَلَّعَا²

فالرابط الحجج "حتى" يربط بين حجّتين لهما نفس التوجّه الحجج "سقيناه كأس الموت" و"انتفخت أضلاعه حدّ الموت"، وهما تخدمان نتيجة واحدة هي "القتل"، مع الإشارة إلى أنّ الحجّة الثانية الواردة بعد الرابط أقوى حججياً من التي قبله. والقول بمجمله يوظفه الشاعر لخدمة قضية محدّدة وهي الإقرار بقوة قبيلته التي بلغت حد قتل الجابرة.

ولـ"حتى" استعمالات كثيرة، فهي لا تفيد عطف الحجج والرّبط بينها فحسب، بل تفيد أيضاً الغاية سواء كانت زمانية أو مكانية، كما تفيد التبرير والتفسير والتعليل. وفي كلّ ذلك فهي لا تخرج عن وظيفتها الحججية.

وفيما يأتي نعرض بعض النماذج التي وُظف فيها هذا الرابط الحجج، ضمن نقائض جرير والفرزدق، مع تحديد الغرض الذي سيق لأجله كما يحدّده السياق. ومن بين استعمالات "حتى" نجدتها تفيد التبرير كما يظهر من قول جرير:

إِنِّي أَنْصَبْتُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ حَتَّى اخْتَطَفْتُكَ يَا فَرَزْدَقُ مِنْ عَالٍ³

¹- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 76.

²- نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 205.

³- المصدر نفسه، مج 1، ص 160.

فالشاعر يقدم تبريرا يعلل به انصبابه من السماء، ويجعل غايته من ذلك اختطاف الفرزدق من الأعلى وبذلك فقد جعل ما قبل "حتى" علة لما بعدها. وغاية الشاعر من كل هذا التأكيد على قوته الساحقة لخصمه، خاصة وأنه بتوظيفه لمفردات: انصببت، من السماء، اختطفتك، من عل، يجعل نفسه كالطير الجارح الذي ينصب على فريسته من الأعلى، فيظفر بها ولا يخطئها.

ونجد "حتى" تفيد التعليل أيضا كما يتضح من قول الفرزدق:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ حَدَّهُ ضَرِينَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ¹

ففي هذا البيت يعلل الشاعر سلوكهم مع الجبار المتكبر، فيجعل ما قبل "حتى" وهو الضرب علة لما بعدها وهي رجوعه وانقطاعه عن التكبر. وهذا يخدم نتيجة يسعى الفرزدق لتأكيدا دائما وهي قوة قبيلته التي لا تقهرها قوة، والتي تمكنهم من الوقوف في وجه الجابرة ومنعهم من التكبر والتجبر.

وفي استعمالات أخرى تفيد "حتى" الغاية الزمانية كما في قول الفرزدق:

كِلَانَا لَهُ قَوْمٌ هُمْ يُحْلِبُونَهُ بِأَحْسَابِهِمْ حَتَّى يُرَى مَنْ يُخَلِّفُ²

فالشاعر يفاخر خصمه بالحسب، ويرى أن لكل واحد منهما قوما يمدونه بالمكارم والمفاخر، وعليهما أن يفاخر أحدهما الآخر، إلى أن ينقطع أحدهما. وما جاء قبل "حتى" يعتمد على المنافسة بذكر أحساب القوم والاستمرار في ذلك، أما ما جاء بعدها فقد حدّد نهاية هذه المنافسة، وهي الانقطاع عن ذكر المفاخر والعجز عن الاستمرار، وبهذا يكون للرابط الحجاجي "حتى" غاية زمانية؛ حيث إن التفاخر بالحسب يظل مستمرا بين الشعارين إلى أن ينقطع أحدهما، وتُسجّل الغلبة لخصمه.

-الرابط (الواو):

لا يقف دور هذا الرابط الحجاجي عند مجرد الجمع بين الحجج فحسب، بل تفيد ترتيب هذه الحجج، كما أنها تعمل على تقوية الحجج بعضها ببعض لتحقيق النتيجة المرجوة. قال الفرزدق مفتخرا:

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 113.

²-المصدر نفسه، ص 23.

جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَّةَ رَبُّنَا فِينَا وَحُرْمَةَ بَيْتِهِ الْمَعْمُورِ¹

فالشاعر يعدد آيات الشرف والسيادة التي منحها الله لقومه وهي: الخلافة والنبوّة وخدمة البيت وقد ربط بينها ب(الواو) وربّتها لتصبّ في نتيجة واحدة وهي "رفعة شأنهم"، خاصّة وقد جعل كلّ ذلك اصطفاً إلهياً، لا دخل لخيارات البشر فيه.

وفي إطار الافتخار بالشاعرية نجده يقول:

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوْبُغُ إِذْ مَضُوا وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْفُرُوحِ وَجَزُولُ²

فالشاعر يعدد، في هذا البيت، أسماء الشعراء الذين ورث عنهم الشعاعية، وقد اتخذ من الرّابط الحجاجي (الواو) أداة للرّبط بين مختلف الأسماء، والتي تعدّ حججاً موجّهة لخدمة نتيجة واحدة وهي الإقرار بقدرته في مجال الشعر؛ بحيث تبدو مكانته لا تقلّ عمّن ورث عنهم، وهم: النّوْبُغُ الثلاثة (النابغة الذبياني-النابغة الجعدي-ونابغة بني شيبان) والمخبّل وامرئ القيس والحطيئة.

ولم يكن توظيف روابط التساوق الحجاجي، واستخدامها للرّبط بين الحجج وتقويتها لخدمة نتيجة معيّنة محصوراً في الفرزدق فحسب، بل نجد جريراً هو الآخر يستخدم هذه الرّوابط لصالحه، سواء أتمّ توظيفها في الفخر أو الهجاء. ومن ذلك ما أورده عند حديثه عن أثر مقتل الزبير؛ حيث قال :

لَمَا أَتَى خَبْرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعْتُ سَوْراً الْمَدِينَةَ، وَالْجِبَالَ الْخُشْعُ
وَبِكَى الزُّبَيْرِ بِنَاتِهِ فِي مَاتِمٍ، مَاذَا يُرَدُّ بُكَاءُ مَنْ لَا يَسْمَعُ³

ولإظهار فظاعة هذا الحدث، جعل المكان كلّه يتأثر بخبر مقتل الزبير؛ حيث أورد جملة من الآثار وأجراها كحجج لخدمة نتيجة واحدة وهي شناعة الحدث، وقد ربط بين هذه الحجج بالرّابط الحجاجي (الواو)، وهذه الحجج هي: تواضع سور المدينة، وخشوع الجبال، وبكاء بناته. وغرض جرير من إظهار شناعة هذا الحدث هو التّيل من خصمه الفرزدق الذي لطالما عمّره بذلك.

وفي موضع آخر نجده يقول:

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 256.

²-المصدر نفسه، مج 1، ص 146.

³-المصدر نفسه، مج 2، ص 292.

وقَدْ كُنْتُ نَارًا يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّهَا وَسَمًّا عَلَى الْأَعْدَاءِ أَصْبَحَ مُمَقْرًا؟¹

بيّن الشاعر من خلال هذا البيت مدى تأثيره في الناس والأعداء؛ بحيث جعل نفسه نارا حارقة يحتمي الناس من حرّها، وعلى الأعداء سُمًّا شديد المرارة، وقد ربط بين هاتين الحجتين بـ(الواو)، وأدرجهما لخدمة نتيجة واحدة مفادها "قوة بأسه".

وبهذا نكون قد وقفنا مع مجموعة من الروابط الحجاجية التي وظّفها الشاعران لتدعيم مسارهما الحجاجي، وقد تنوّعت وظيفتها داخل النصّ الشعري "النقائص"؛ حيث استعملت لربط الحجّة بالنتيجة من خلال توظيف لام التعليل، أو من أجل التعارض الحجاجي باستعمال لكن وبل، أو لتحقيق التساوق الحجاجي كما يتّضح من استعمال الواو وحتىّ.

وفيما يأتي سنخصّص وقفنا للعوامل الحجاجية؛ حيث نرصد بعض ما ورد منها مع التركيز على الدور الحجاجي الذي تؤدّيه بغية التأثير والإقناع.

¹-نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 315.

المبحث الثالث:

العوامل الحجاجية

إنّ الدّارس للحجاج يلاحظ أنّ الدّارسين قد فرّقوا بين العوامل والرّوابط الحجاجية، لأنّ لكلّ قضيّة دلالتها ووظيفتها من حيث الأداء اللّغوي والوظيفة الدلالية، وفيما يلي بعض العوامل الحجاجية الواردة في نقائص جرير والفرزدق، مع الإشارة إلى أنّنا لن نقف مطوّلاً مع الوظيفة النّحوية إلّا بالقدر الذي يساهم في إبراز الوظيفة الحجاجية.

ومن العوامل التي وظفها الشّاعران نذكر ما يأتي:

-العامل إنّما:

تستعمل للقصر أدوات كثيرة، تعدّ إنّما واحدة منها، قال عنها الجرجاني: ((اعلم أنّها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره، فإذا قلت إنّما جاءني زيد، عقل منه أنّك أردت أن تنفي أن يكون الجائي غيره. فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك: جاءني زيد لا عمرو، فإنّك تعقلهما في حالين))¹. ومنه نستنتج أنّ "إنّما" تعمل على إثبات الفعل لما ورد بعدها ونفيه عن غيره.

وحسب التوجيه في الحجاج عند ديكرو، فإنّ "إنّما" وُجّهت الملفوظ نحو نتيجة محدّدة ضيقة، وهي أنّ الجائي ليس إلّا زيد، وهذه هي النتيجة التي يروم الباث ايصالها للمتلقّي الذي يعتقد أنّ الذي جاء قد يكون شخصا آخر²، وهو بذلك يحصر المجيء في شخص محدّد بذاته، لكي لا يسأل المستمع ولا يتوقّع شخصا آخر، وهو بهذا الكلام يكون محصورا في شخص معين.

ويؤكّد السّكاكي إفادة "إنّما" للقصر، ويعلّل ذلك بتضمّنها معنى (ما وإلّا)، وبذلك فهي تعمل عملها. كما يشير إلى وظيفة أخرى وهي التأكيد الذي يتّضح من قوله: ((وترى أئمة النّحو يقولون: إنّما تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه، ويذكرون لذلك وجها لطيفا... وهو: أنّ كلمة (أن)، لما كانت لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه، ثم اتصلت بها (ما) المؤكّدة لا النافية، على ما يظنه من لا وقوف له بعلم النّحو، ضاعف -

¹ -الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 229.

² -عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 54.

تأكيداً، فناسب أن يضمّن معنى القصر، لأنّ قصر الصّفة على الموصوف، وبالعكس، ليس إلاّ تأكيداً للحكم على تأكيد))¹.

ويقول الجرجاني: ((اعلم أنّ موضوع "إنّما" على أن تجيء الخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة. تفسير ذلك أنّك تقول للرجل: إنّما هو أخوك وإنّما هو صاحبك القديم، لا تقوله لمن يجمل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به. إلاّ أنّك تريد أن تنبّه للذي يجب عليه من حقّ الأخ وحرمة الصّاحب))².

واضح من قول الجرجاني أنّ "إنّما" لا تنهض بوظيفة إخبارية، فهي لا تقدّم معلومات، أو خبراً يجمله المخاطب، بل تنهض بتوجيه الكلام إلى وجهة معيّنة. وهو ما يجعل هذه الوظيفة تتقاطع مع وظيفتها الحجاجية. قال جرير:

ألا إنّما قيسٌ نُجومٌ مُضيئةٌ يشقُّ دُجى الظّلماءِ بالليلِ نورها³

فالشاعر يصف قيساً مشبّهاً إياها بالنجوم المضيئة، موظفاً في ذلك أداة الحصر "إنّما" ليحصر صفاتها في مجال واحد وهو الضياء الذي يبدّد ظلمة الليل الحالكة، ويذكرك يعطي لهذا الضياء قيمة أكبر. وعند حديثه عن الفرزدق يقول:

ألا إنّما كان الفرزدقُ ثعلباً ضغاً وهو في أشدّاقٍ ليثٍ ضبارم⁴

وفيه يصبّ هجاءه على الفرزدق، وأنّه لم يكن غير ثعلب، وبتوظيفه للعامل "إنّما" أبعد كلّ الإمكانات المتاحة كأن يكون أسداً أو نمراً أو أيّ اسم حيوان يوحي بالقوّة، ووجه القول وحصره في إمكانية واحدة أثبتتها له وهي كونه "ثعلباً"، وقد ألحق هذه الصّفة بالفرزدق على سبيل التحقير والتقليل من شأنه، خاصّة عندما نلّم بأطراف الصّورة كما يوضّحها عجز البيت، والتي تظهر هذا الثعلب يرسل صوته بين أشدّاق أسد شديد

¹ - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 403.

² - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 227.

³ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 383.

⁴ - المصدر نفسه، مج 2، ص 159.

غليظ. وباكتمال أطراف الصورة يتضح جلياً سبب تضيق الإمكانيات التي يتيحها القول وحصر تشبيه الفرزدق في الثعلب دون سواه.

ويقول جرير:

أَلَا إِنَّمَا مَجْدُ الْفَرَزْدَقِ كَبِيرُهُ وَذُخْرٌ لَهُ فِي الْجَنْبَيْنِ قَعَاقِعٌ¹

ففي هذا البيت تقوم "إنما" بحصر الإمكانيات الحجاجية التي يتيحها القول وتضيق دائرتها، وتجعل مجد الفرزدق محصوراً في أدوات الحدادة (كبيره)، وبذلك يكون جرير قد أبعد كل العناصر الإيجابية التي يمكنها أن تساهم في صنع مجد الفرزدق، وحصرها في إمكانية واحدة ذات قيمة سلبية، خاصة إذا وضعنا في الحسبان ازدياد العرب لامتهان الحرف.

يقول الفرزدق:

وَإِنْ تَهْجُ آلَ الزُّبَيْرِ قَانَ، فَإِنَّمَا هَجَوْتَ الطَّوَالَ الشُّمَّ مِنْ هَضْبٍ يَدْبُلُ²

فالشاعر يردّ على جرير الذي هجاه وهجا آل الزبير، موضحاً له أنه بهجائه لهم يكون قد هجا السادة الأشراف، وهو باستعماله للأداة "إنما" يكون قد حصر هجاء جرير ووجهه إلى السادة، وبهذا يكون قد أبطل مشروعية هجاء جرير لأنّ السادة الأشراف لا يلحقهم الهجاء، ولا ينال منهم، وبالتالي يكون عمل جرير عديم القيمة، وينقلب على صاحبه.

-العامل ما.....إلا:

يعدّ من التراكيب التي تترتب فيها الحجج حسب درجتها الحجاجية؛ حيث تُرتّب في سلّم حجاجي واحد، فهو عامل يوجّه القول وجهة واحدة نحو الانخفاض، وهو ما يستثمره المرسل عادة لإقناع المرسل إليه.³

ويكون وفق الشكل التالي:

¹ -نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 106.

² -المصدر نفسه، مج 2، ص 121.

³ -شكري المبخوت: الحجج في اللغة ضمن كتاب أهم نظريات الحجج في التقاليد القديمة من أرسطو إلى اليوم، ص 381.

أداة النفي (ما) ————— نتيجة ————— أداة استثناء (إلا) ————— حجة

ويتمثل الدور الحجاجي لهذا العامل في حصر الإمكانيات الحجاجية للملفوظ. يقول الجرجاني:

((اعلم أنك إذا قلت: "ما جاءني إلا زيد" احتمل أمرين: أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجيء، وأن تنفيه عمّن عداه، وأن يكون كلاما تقوله لا لأنّ بالمخاطب حاجة إلى أن يعلم أنّ زيدا قد جاءك، ولكن لأنّ به حاجة إلى أن يعلم أنه لم يجيئ إليك غيره. والثاني أن تريد الذي ذكرناه في "إنما" ويكون كلاما تقوله ليعلم أنّ الجائي زيد لا غيره))¹.

والملاحظ أنّ القيمة الخبرية لا تتغيّر، لكن القيمة الحجاجية هي التي تتغيّر نظرا لما يضيفه هذا العامل من حصر للإمكانيات المتاحة للقول. وقد فطن القدماء إلى الدور الذي يلعبه هذا العامل في النفي والإثبات، وفي ذلك يقول الجرجاني: ((وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو "ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا" فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشكّ فيه. فإذا قلت: "ما هو إلا مصيب"، أو "ما هو إلا مخطئ"، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته. وإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت: "ما هو إلا زيد"، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس زيد وأنه إنسان آخر ويجد في الإنكار أن يكون زيدا))². وبهذا فإنه أكد على الوظيفة الحجاجية لا الوظيفة الإخبارية.

ومن الأمثلة على ورود هذا العامل في نقائص جرير والفرزدق نذكر ما يأتي:

قال الفرزدق*:

وما استعهد الأقدام من زوج حرة من الناس إلا منك، أو من محارب³

ويمكننا إظهار الوظيفة الحجاجية للعامل "ما...إلا" في قول الفرزدق كما يأتي:

¹ - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 230.

² - المصدر نفسه، ص 228.

* - روى أبو عبيدة أنهم لا يستنون من خاطب، إلا من كليب أو محارب، يقولون للخاطب الذي يخاطب إليهم: نزوحك إلا أن تكون كليبيا، أو محاربا. ولا يأخذ أحد على أحد عهدا يريد التزويج إلا من كليب، أو من محارب، فإذا فعل ذلك زوج، وإن علموا أنه من إحدى القبيلتين لم يُزوج. انظر كتاب: نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 194.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ما — يُشترط في الزّواج — إلا — على كليبي (جرير) أو محاربي

فالشاعر يؤكّد أنّه لا أحد من النَّاس يُشترط عليه في الزّواج إلاّ إذا كان منتمياً إلى كُليب أو محارب. وبذلك يكون قد وجّه الاشتراط في الزّواج إلى عنصرين اثنين لا ثالث لهما وهما الكليبي والمحاربي، فيكون قد أغلق باب الشكوك وتعدّد الاحتمالات. ومضمون هذا البيت يتنزّل في لبّ الهجاء؛ حيث يبدو جرير باعتباره من كُليب دون النَّاس جميعاً قيمة ولا يقاسمه إياها إلاّ المحاربي الذي يساويه مكانة.

أمّا جرير فيحوّل مجال فخره إلى الحرب وما يتبعها من قوّة وشجاعة ترفع القبيلة فوق القبائل الأخرى، وتجعلهم يسلمون لها. ففي مجال الحرب وما ينجرّ عنها من اقتتال وسفك للدماء، يجعل دم الواحد منهم لا يوفيه إلاّ دمان من غيرهم، يقول:

وما بات قَوْمٌ ضامنينَ لنا دَمًا فتوفينا إلاّ دِمَاءَ شِوَأِعٍ¹

وتظهر حجاجية هذا العامل من خلال ما يأتي:

ما — يكفينا دم واحد منا — إلاّ — بدمين من غيرنا

وبهذا جعل قيمة دمهم مضاعفة لدم الآخرين، ممّا يعنى أنه رفع قبيلته فوق النَّاس أجمعين، وعليه يكون القصاص في شريعته النَّفس بنفسين، وما ذلك إلاّ إعلاء لشأن قبيلته.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 109.

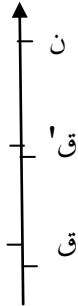
المبحث الرابع:

السلم الحجاجي:

يبني المخاطب كلامه على جملة من الحجج التي يستعملها لخدمة نتيجة معينة، غير أن هذه الحجج لا تمتلك القدر نفسه من التأثير، فهي تتباين قوة وضعفاً، وبالتالي فهي تخضع إلى نوع من الترتيب، ولذلك علاقة أكيدة بالعملية الحجاجية إذ ((يتمثل صلب فعل الحجج في تدافع الحجج وترتيبها حسب قوتها، إذ لا يثبت، غالباً إلاّ الحجّة التي تفرض ذاتها على أّمّا أقوى الحجج في السياق. ولذلك يرتّب المرسل الحجج التي يرى أنّها تتمتع بالقوة اللازمّة التي تدعّم دعواه))¹.

تعريفه:

نظرية السلم الحجاجية صيغت لأول مرة على يد ديكرود سنة 1973، ثم عدّها سنة 1980 والسلم الحجاجي هو قسم حجاجي موجه، ويمثل له بواسطة النتيجة "ن" والحججتين "ق، وق"، بحيث تستجيب هذه العناصر الثلاثة لتعريف القوة الحجاجية كما يأتي²:



وقد عرفه طه عبد الرحمان بقوله: ((هو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموقّية بالشّروطين التاليين:

أ- كلّ قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته؛ بحيث تلزم عن القول الموجود في الطّرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب- كلّ قول كان في السلم دليلاً على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه))³.

¹ -ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 499-500.

² -جاك موشلار وآن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ص 298.

³ -طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 277.

آليات السلم الحجاجي:

تختلف الحجج التي يستعملها المتكلم لصالح نتيجة ما وتباين قوتها؛ بحيث ((تنظم الحجج التي تنتمي إلى قسم حجاجي واحد في علاقة ترتيب: إذ بعض الحجج هي أقوى من بعض، وبعضها أضعف من بعض))¹.
ويستخدم السلم الحجاجي لترتيب الحجج باعتباره آلية تمكّنا من إظهار قوة الحجج في مجالات متعدّدة. ويتحقّق السلم الحجاجي بآليات لغوية كثيرة، نذكر منها: التعدية، أفعال التفضيل، صيغ المبالغة، والشاهد أو الدليل، وغيرها من الآليات الأخرى.

وفيما يلي، لن نقف مع هذه الآليات جميعها، بل سنقتصر بحثنا على أفعال التفضيل، التي توحى بمجرّد التسمية بالمفاضلة، ممّا يعني أنّ ثمة شيء يتموقع أعلى من شيء آخر.

-أفعال التفضيل:

في إطار المفاخرة والمهاجاة بين جرير والفرزدق، تبين لنا سابقاً أنّ غاية كلّ واحد منهما هي إثبات الأفضلية لنفسه ورفعها عالياً، والحطّ من مقدار خصمه. ولغتنا العربية تشتمل في طياتها على كثير من الصيغ التي تمكّن المخاطب من خدمة هدفه على أحسن وجه. وفي مجال المفاضلة تتصدّر أفعال التفضيل مختلف الصيغ.

وتندرج أفعال التفضيل في دائرة المشتقات، وحدّه ((اسم، مشتق، على وزن "أفعل"، يدل- في الأغلب- على أنّ شيئين اشتركا في معنى، وزاد أحدهما على الآخر فيه))²، وهو ثلاثة أقسام:

1- مجرد من (ال) والإضافة وله حكمان:

أ- وجوب إفراده وتذكيره في جميع حالاته؛ حيث لا تتغيّر في هذه الحالة صيغة أفعال التفضيل مع الجمع، أو المثني، أو المذكر أو المؤنث.

ب- وجوب دخول (من) الجارة للمفضل عليه، شرط أن يكون قصد التفضيل باقياً ويستلزم ذلك أحكاماً منها:

¹ -جاك موشلار وآن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ص 298.

² -عباس حسن: النحو الوافي، ج 3، ط 3، دار المعارف، مصر، د.ت، ص 395.

- جواز حذفهما معا، بشرط وجود دليل عليهما، وإذا حُذفا من اللفظ كانا ملحوظين في البنية والتقدير، وصارا بمنزلة المذكورين.

- وجوب تقديمهما أحيانا على عاملهما وحده.

- امتناع الفصل بينهما وبين "أفعل" إلا بمعموله أو "لو" و ما يتبعها أو النداء¹.

ومن الأمثلة التي وظف فيها الشعرا نأفعل التفضيل نذكر ما ورد على لسان جرير:

لَقَوْمِي أَحْمَى فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ وَأَضْرَبُ لِلجَبَّارِ، وَالنَّقْعُ ساطِعُ

وَأَوْتُقُّ عِنْدَ الْمُرْدَفَاتِ، عَشِيَّةً لِحَاقًا، إِذَا مَا جَرَدَ السَّيْفَ لَامِعُ

وَأَمْنَعُ جِيرَانًا، وَأَحْمَدُ فِي الْقَرَى إِذَا اغْبَرَّ فِي الْمَحَلِّ النُّجُومُ الطَّوَالِعُ²

وقد ضمن الشاعر هذه الأبيات مجموعة من أفعال التفضيل، ذلك أنه في مجال مفاخرة ويتوجب عليه أن يعدد مجالات المفاضلة بما لا يدع فرصة لخصمه، فنجده يصرح بأن قومه أفضل من قوم الفرزدق والذي عبر عنه بكاف الخطاب في (منكم) وجعل مجال المفاضلة الحرب مستعملا ثلاثة أفعال تفضيل على مدار بيتين (أحمى، أضرب، أوثق)، أما البيت الأخير فخصه بالعلاقات الاجتماعية مبرزا صفتين إيجابيتين ارتبطتا بالعرب منذ القدم وعدتا من مفاخرهم وهما: حماية الجار وإكرام الضيف في الظروف الصعبة، وذلك بتوظيفه لفعل تفضيل (أمنع، أحمد). وكلا المجالين ينم عن قوة القبيلة في الحرب والسلام.

لقد أراد جرير أن يثبت أفضلية قومه على قوم الفرزدق فوظف أفعال التفضيل ليرفع قومه فوق قوم الفرزدق، مع الإشارة إلى أنه لم يكتف بدلالة التفضيل، بل أعطى كلامه مصداقية أكبر من خلال تقويته لتلك المعاني والتأكيد عليها باستعمال لام التوكيد في قوله (لقومي) وعبارة (في الحقيقة) اللتين تحيلان على أن جريرا واثقا مما يقول، وبالتالي يكون أكثر تأثيرا في نفوس المتلقين.

ويقول في موضع آخر:

¹-عباس حسن: النحو الوافي، ج3، ص 401 وما بعدها.

²-نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 107-108.

أَلْسُنَا نَحْنُ قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَدُّ
 وَأَضْرَبَ بِالسُّيُوفِ إِذَا تَلَاقَتْ
 وَأَطْعَنَ حِينَ تَخْتَلِفُ الْعَوَالِي
 وَأَحْمَدَ فِي الْقِرَى وَأَعَزَّ نَصْرًا
 غَدَاةَ الرَّوْعِ أَجْدَرَ أَنْ نَغَارَا
 هَوَادِي الْخَيْلِ صَادِيَةً حِرَارَا
 بِمَأْزُولٍ إِذَا مَا النَّقْعُ ثَارَا
 وَأَمْنَعَ جَانِبًا وَأَعَزَّ جَارَا¹

ففي هذه الأبيات الشعريّة الأربعة وظّف جرير سبعة أفعال تفضيل: ثلاثة في الأبيات الثلاثة الأولى، وأربعة في البيت الأخير. وهذا الاستعمال المكثّف لأفعال التفضيل يدلّ دلالة قويّة على رغبة الشاعر في إثبات الأفضلية لنفسه وسعيه الحثيث من أجل ذلك. وقد توزّعت مجالات المفاضلة بين الحرب والسلم لتشمل مختلف الخلال الحميدة التي تنبئ بالشرف والقوّة والسيادة.

ويعمد الفرزدق إلى تطبيق التقنية ذاتها، فنجده يقول:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ²

في هذا الموضوع يفاخر الفرزدق جريرا ببيته الذي بناه الله أعزّ وأطول من بيت خصمه، وهو لا يقصد البيت الحقيقي وإنما يقصد علو النسب، واستعماله لفعل التفضيل (أعزّ-أطول) يفيد مباشرة أنّ نسب جرير دون نسبه، وبالتالي يؤكّد أفضليته عليه.

وفي مجال الهجاء يخاطب خصمه قائلاً:

يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ أَنْتَ أَلَامٌ مِنْ مَشَى وَأَذَلُّ مِنْ لَبْنَانِهِ أَظْفَارُ³

واضح، من هذا البيت، أنّ المفاضلة في الهجاء تأخذ اتجاهها عكسياً، إذ لا تحسب لصالح المهجّو بل عليه، وفيه يصوّر جرير في منتهى اللؤم و الدّل مقارنة ببني البشر جميعاً، وذلك يتّضح من خلال توظيفه لفعل التفضيل (الأم-أذل) المشحونان طبيعياً بدلالة سلبية مما يؤكّد سلبية جرير ودونيته.

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 186.

²-المصدر نفسه، ص 134.

³-المصدر نفسه، مج 2، ص 229.

2- أن يكون أفعال التفضيل مقرونا ب(ال) ويتوجب أمرين: الأول: أن يطابق صاحبه في التذكير والتأنيث، والإفراد وفروعه. والثاني: عدم مجيء (من) الجارة للمفضل عليه، لأنّ المفضل عليه لا يُذكر في هذا القسم¹.

وقد احتوت مدوّنة البحث على نماذج من أفعال التفضيل التي وردت مقرونة ب"ال" التعريف، منها ما جاء في قول الفرزدق:

هَلْ يُعَدَّلَنَّ بِقَاصِعَانِكَ مَعَشْرٌ لَهُمُ السَّمَاءُ عَلَيْكَ وَالْأَنْهَارُ
وَالْأَكْرَمُونَ إِذَا يُعَدُّ قَدِيمُهُمْ وَالْأَكْثَرُونَ إِذَا يُعَدُّ كَثَارُ²

ففي سبيل مفاخرة جرير نجد الفرزدق وظّف لفظتي (الأكرمون-الأكثرين) للدلالة على أنهم الأكرمون إذا عدّت مفاخرهم القديمة، والأكثرين إذا عدّوا مجالات مفاخرتهم، وبذلك تثبت له الأفضلية مقارنة بجرير الذي يكون دونه مرتبة في مجال المفاخرة المذكور.

ويقول في المعنى ذاته:

الْأَكْثَرُونَ إِذَا يُعَدُّ حِصَاهُمْ وَالْأَكْرَمُونَ إِذَا يُعَدُّ الْأَوَّلُ³

وقد ورد هذا البيت في إطار افتخار الفرزدق ببني دارم الذين جعلهم الأكثر عددا والأكرم آباءً وأجدادا. وبالنظر إلى ما يترتب عن هذا نجد كثرة العدد تهب القوة والمنعة، وكرم النسب يهب الشرف والسيادة، وبنو دارم جعلهم قول الفرزدق الأفضل في كلّ ما ذكر.

¹ -عباس حسن: النحو الوافي، ج 3، ص 412.

² -نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 230.

³ -المصدر نفسه، مج 1، ص 138.

المبحث الخامس:

التكرار

يعدّ التكرار من الظواهر التي لا يخلو الكلام منها، وغالباً ما يعتمد المتكلم إلى التركيز على جوانب محدّدة لغايات مختلفة. وفي نصوص النقائص ((يبرز التكرار بكونه أحد تلك التقنيات الجمالية التي اعتمد عليها الشعاعان (جرير والفرزدق) بوعي أو بدون وعي، قصداً إلى استغلال الوظائف الانفعالية والتأثيرية للغة الشعريّة))¹، ولا شك أنّ التركيز على الجانب التأثيري للغة كان واضحاً في نقائضهما؛ حيث اتخذوا من التكرار وسيلة للتأثير ومن ثمّ الإقناع، وهو الأمر الذي نوّد بحثه في هذا الموضوع، وغاياتنا الوقوف على حضور التكرار عند الشعاعين وكيف وظّفه كلّ واحد لخدمة غايته الحجاجية الإقناعية.

وقبل أن نتعرض للتكرار في نقائص جرير والفرزدق ارتأينا أن نمهد بجانب نظري بدأ لنا أنه لا يخلو من فائدة، نحدّد من خلاله معنى التكرار والغاية من إجرائه في الكلام. وقد أورد ابن منظور تحت الجذر "كرر" أنّ الكرّ هو الرجوع، وكرر الشيء وكرره: أعاده مرّة بعد أخرى². من خلال هذا التعريف يتبين لنا أنّ التكرار هو الإعادة. وإلى ذلك ذهب ابن الأثير عندما جعل حدّه ((دلالة اللفظ على المعنى مرّداً))³، وإن كان العسكري يرى أنّ ثمة فرق بين التكرار والإعادة فـ((التكرار يقع على إعادة الشيء مرّة واحدة وعلى إعادته مرّات، والإعادة للمرّة الواحدة))⁴. واضح ممّا سبق أنّ الفرق القائم بين التكرار والإعادة بناه العسكري على أساس الكم، ذلك أنّ الإعادة تكون مع المرّة الواحدة فقط أما التكرار فيكون للمرّة الواحدة وللمرّات.

وقد تنبّه القدماء إلى التكرار وما يؤدّبه من دور في الكلام، فأولوه عنايتهم وتناولوه في كتاباتهم، وتحدّثوا عن أقسامه وفائدته في الكلام. ومن هؤلاء القدماء نذكر ابن الأثير الذي جعل التكرار قسمين: أحدهما يوجد في اللفظ دون المعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ⁵. وإلى ذلك ذهب ابن رشيق؛ حيث قال: ((أكثر ما يقع يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقلّ، فإذا تكرّر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك

¹ - هند بنت عبد الرزاق هوبل المطيري: النفي في نقائص جرير والفرزدق. دراسة أسلوبية، ص 85.

² - ابن منظور: لسان العرب، مج 13، ص 46.

³ - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 3، ص 03.

⁴ - العسكري: الفروق اللغوية، تح محمد باسل عيون السود، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، ص 51.

⁵ - المصدر السابق، ص 03.

الخذلان بعينه)¹. وبذلك فهو يتفق مع سابقه في كون التكرار يكون في اللفظ وفي المعنى، وجعل أكثره في اللفظ، واعتبر أسوأ أنواع التكرار ذلك الذي يكون في اللفظ والمعنى معا وأنه الخذلان بعينه.

وبالنظر إلى الوظيفة التي ينهض بها التكرار قُسم إلى مفيد وغير مفيد، و((المفيد في التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له وتشبيها من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذي كررت فيه كلامك إما مبالغة في مدحه، أو في ذمه أو غير ذلك))².

وحدّد ابن رشيق المواضع التي يتكرّر فيها الاسم، إذ لا يجب أن يتكرّر الاسم إلا على جهة التشويق والاستعذاب في الغزل أو التسيب، أو على سبيل التنويه بالمدح والإشارة إليه بذكر، أو على سبيل التقرير والتوبيخ، أو التعظيم، أو التهديد والوعيد، أو التوجع إن كان رثاءً وتأبينا، أو الشهرة وشدة التوضيح بالمهجو أو على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص³.

وعليه، فالتكرار لا ينتج عن عفوية وإنما ينتج عن قصد مُسبق؛ بحيث لا يلجأ المخاطب إلى التكرار إلا لهدف يسعى لبلوغه، ويتحدّد حسب الغرض الأساس الذي يتضمّنه الخطاب إن كان مدحا أو هجاء أو رثاء. وإنه لمن غير المعقول أن يكون توظيف التكرار لغاية الإخبار فحسب، دون أن تكون له غايات أخرى، ذلك أنّ وظيفة التكرار ((تتجاوز وظيفة الإخبار والإبلاغ إلى وظيفة التأثير والإقناع، وهي وظيفة تنتج عن التكرار بما يثير من دلالات الإلحاح، والمبالغة في التأكيد))⁴.

حجاجة التكرار:

يخضّر التكرار في التّصوُّص على اختلافها، وتتعدّد غاياته، ذلك أنه ((أسلوب من أساليب تلوين الأداء في اللغة، وله أبعاده الأسلوبية والدلالية، التي تبعث على تأكيد المعاني والوصول بها إلى أرقى درجات التحليل والوصول بالمتلقّي إلى أرفع مستويات الإقناع))⁵، وعليه يُسند للتكرار وظائف عدّة لعلّ أبرزها الوظيفة الحجاجية.

¹ - ابن رشيق القيرواني: العمدة، ج 2، ص 64.

² - ابن الأثير: المثل السائر، ج 3، ص 04.

³ - المصدر السابق، ج 2، ص 64 وما بعدها.

⁴ - علي محمد علي سلمان: الحجاج عند البلاغيين العرب ضمن كتاب الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 33.

⁵ - هند بنت عبد الرزاق هويل المطيري: النفي في نقائض جرير والفرزدق. دراسة أسلوبية، ص 85-86.

فالتكرار ينهض بوظيفة هامة في العملية الحجاجية؛ حيث يوفر طاقة مضافة تحدث أثرا جليلا في المتلقي، وتساعد على نحو فعال في إقناعه أو حمله على الإذعان، ذلك أنّ التكرار يساعد على التبليغ والإفهام ويُعين المتكلم على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان¹. ومن هنا تظهر أهميته بالنسبة للمخاطب والمخاطب على حدّ سواء، فبالنسبة للمخاطب يعمل التكرار على ترسيخ المعنى في ذهنه والتأكيد عليه وبالتالي يتولّد التسليم والإذعان. أمّا من جهة المخاطب فإنّه يساعده على إيصال المعنى، كما يساهم في إخراج ما في النفس من مشاعر اتجاه المواقف والأشخاص من خلال التركيز على كلمات معيّنة.

فتكرير الألفاظ يجعلها تسجّل حضورها في الذهن، هذا الحضور من شأنه أن يقود إلى التأثير ومن ثمّ التصديق. فالشاعر يركّز على إيصال معانٍ بذاتها إلى المتلقي، ومن ثمّ يجعل اللفظ محور كلامه فيعمد إلى تكراره في ذهن السامع لأنّ الألفاظ التي تطرق أسمعنا وأذهاننا لأوّل مرّة لا نعيها اهتماما في حين أنّ ورودها لأكثر من مرّة يثير الاهتمام ((فمن خلال التكرار يظهر الملفوظ الثاني للكلمة محل القيمة)². وبذلك يتّضح أنّ الملفوظ الأوّل يظهر في الكلام كتعبير عادي لا يثير أيّ اهتمام عكس الملفوظ الثاني الذي يهزّ النفس ويحركها وبالتالي تتمركز فيه الوظيفة الحجاجية.

أنواع التكرار:

أشار البلاغيون وعلماء اللغة إلى أنّ التكرار يكون على مستويات مختلفة، فيكون على مستوى الحرف والكلمة والجملة ويكون على مستوى المعنى أيضا. وكلّ هذه الأنواع تنهض بوظائف مختلفة تتحدّد وفق السياقات التي ترد فيها.

وإن كان التكرار يقع في اللفظ كما يقع في المعنى فإنّ التكرار اللفظي يعدّ الأكثر شيوعا، ونقائض جرير والفرزدق لا تخلو منه؛ حيث تطفح بالتكرار الذي وظّفه الشعرا وبشكل جليّ ممّا يوحي بوجود غايات ومقاصد وراء هذا الأسلوب.

ومن أنواع التكرار التي وردت في النقائض نذكر ما يأتي:

¹ - سامية الدريدي: الحجج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيتة وأساليبه، ص 168.

² - Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : Traité de l'argumentation, p 237.

1- تكرر البنى الإفرادية (الصرفية):

وهو التكرار الذي يكون على مستوى المفردة الواحدة، وفيه يعمد الشاعر إلى تكرر لفظة في بيت شعري واحد أو في أبيات متوالية؛ حيث يركّز على لفظ بعينه ويجعله محور كلامه فيكرّره ويكون تكراره هذا مقصودا لذاته، تقف وراءه غايات ومقاصد تفهم من سياق الكلام.

وقد كانت نقائض جرير والفرزدق مليئة ببعض الألفاظ التي شكّلت حضورها القويّ في بناء القصائد التي كان حضورها واضحا حتى على مستوى البيت الواحد؛ بحيث نجد أنّ كلّ شاعر يركّز على بعض المفردات التي يتكئ عليها، ويتخذها سندا قويا يعزّز بها موقفه ويقوّيه سواء أكان ذلك في الفخر أو الهجاء.

ففي الهجاء تحتلج في نفسية الهاجي نوازع كثيرة وأحاسيس سلبية وتسيطر عليه مشاعر بغیضة اتّجاه الآخر فـ((لا يهجو الهاجي دون انفعال بشعور البغض، ولا يتهمّم إلاّ مثارا بشعور الاستخفاف لذلك نرى ما يجيء من التكرار في الهجاء هادفا إلى محل الزّراية والعيب، ألصق بالنفس ممّا يجيء من التكرار في المدح))¹.

ومن القضايا الهامة التي تكرّرت بشكل ملفت في أشعار جرير وبنى عليها هجاءه للفرزدق التأكيد على صفة "القين" وإصاقها بالفرزدق، وتوسيع دائرتها لتشمل والده وجدّه وقومه أجمعين. وجرير باستحضاره المكتّف لهذه الصّفة كأنه يودّ أن ينقشها في الذاكرة الفردية والجماعية، وبذلك تكون غاية هذا الحضور التأكيد من جهة، ثمّ التأثير والإقناع من جهة ثانية.

قال جرير:

يَقُولُونَ كَلَّا لَيْسَ لِلْقَيْنِ غَالِبٌ بَلَى إِنَّ ضَرْبَ الْقَيْنِ بِالْقَيْنِ يُعْرَفُ²

يحاول جرير الطعن في نسب الفرزدق، وإن كان يؤكد أنّ والده غالب بن صعصعة قين وبالتالي فهو قين ابن قين، بل ينسبه إلى قين آخر معتمدا في ذلك على المشابهة بين القينين: الفرزدق والقين والده؛ حيث نلاحظ أنّ جريرا كرّر لفظ القين ثلاث مرّات، وألحق هذه الصّفة بثلاثة أشخاص وهم: الفرزدق، وغالب، وقين

¹ - عز الدين علي السيد: التكرير بين المثير والتأثير، ط 1، دار الطباعة، مصر، 1978، ص 181.

² - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 39.

والده، وجعل انتساب الفرزدق محصورا بين هذين الشخصين، وأيّ شخص ثبت انتسابه إليه فهو لا يغيّر حقيقة كونه "ابن قين".

وقال:

وَأَنْتَ ابْنُ قَيْنٍ يَا فَرْزَدُقُ فَارْزُدْهُزْ بِكَبِيرِكَ، إِنَّ الْكَبِيرَ لِلْقَيْنِ نَافِعٌ¹

في هذا البيت يحتمل جرير كلامه نعمة تقريرية تدفعنا إلى التسليم بما يقول، فهو يتوجه بكلامه إلى الفرزدق مستعملا ضمير الخطاب "أنت" ثم يذكره باسمه مقرونا بالنداء "يا+فرزدق"، وبين الضمير والاسم يمرر عبارة "ابن قين" فتبدو حقيقة لا مجال لنكرانها. وفي هذه العبارة لم يصرح بكونه قين وإنما جعلها منحدرّة إليه من نسبه، وما دامت كذلك لا يمكنه التملص منها، وهذا ما يؤكده الشطر الثاني عندما يلبس جرير ثوب الناصح وينصحه بالتمسك بالكبير لأنّ الكبير ينفع القين، وفي هذا الكلام تأكيد ضمني على أنّ الفرزدق قين.

ويلج على المعنى ذاته فيقول في لهجة تقريرية لا تخلو من شماتة:

هُوَ الْقَيْنُ وَابْنُ الْقَيْنِ لَا قَيْنَ مِثْلُهُ لِفَطْحِ الْمَسَاحِي، أَوْ لَجَدْلِ الْأَدَاهِمِ²

يؤكد حضور لفظة "قين" ثلاث مرّات في شطر واحد استراتيجية جرير في محاولته للنيل من الفرزدق واتخاذ من هذه الصفة محورا لهجائه، وقد شحن لفظة "قين" بدلالات مختلفة: فالأولى تحيل على ذاته وهويته والثانية تحيل على نسبه وانتمائه، والثالثة تحيل على ممارسته لهذه الصنعة وأفضليته فيها، وإن كان الإقرار بهذه الأفضلية "لا قين مثله" ذات توجه سلمي تحمل في طياتها معنى الدم أكثر من المدح.

ونستشف من تكرار اللفظ تكرار حضور معناه في حياة الفرزدق حتى بدا لصيقا بشخصه، بل ممتزجا به ومؤشرا عليه، فهو مرتبط بذاته ونسبه ونشاطه اليومي الذي توارثه عن آباءه وأجداده، وكلّ هذه العناصر لا مجال له للفكك منها. ومن هنا يتضح قصد جرير من هذا التكرار الذي يرسخ في الأذهان ارتباط القين بالفرزدق وكأنّ بينهما علاقة تلازمية تجعل التسليم بما قيل والاعتناع بدونية الفرزدق من خلال دونية "القين" كما رسخ في الثقافة العربية.

¹-نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 106.

²-المصدر نفسه، ص 158.

وفي مجال المفاخرة بالنسب قال جرير مفاخرا الفرزدق:

خالي الذي اعتسَرَ الهدْيَلِ وخَيْلُهُ في ضيقٍ مُعْتَرِكٍ لها ومَجَالِ
جَنِّي بِخَالِكَ يَا فِرْزَدَقُ واعْلَمَنَّ أَنْ لَيْسَ خَالُكَ بِالْعَا أُخْوَالِي¹

تتمحور هذه الأبيات حول المفاخرة بالنسب، وحضور لفظ "خال" يحددها بالمفاخرة بالنسب من جهة الأحوال وذلك من خلال المفاضلة بين خاله وخال الفرزدق، وهنا تحضر ثنائية (الأنا/الآخر) ويعكسها الضمير المتصل بالاسم: ياء النسبة في "خالي" وكاف الخطاب في "خالك".

وقال جرير:

لَئِنْ زَلَّ يَوْمًا بِالْفِرْزَدَقِ حِلْمُهُ وَكَانَ لِقَيْسٍ حَاسِدًا لَا يَضِيرُهَا
مَنْ الْحَيْنِ سُقَّتِ الْخُورَ خُورَ مَجَاشِعِ إِلَى حَرْبٍ قَيْسٍ وَهِيَ حَامٍ سَعِيرُهَا
فَلَا تَأْمَنَنَّ الْحَيَّ قَيْسًا فَإِنَّهُمْ بَنُو مُحْصَنَاتٍ لَمْ تُدَنَّسْ حُجُورُهَا
أَلَا إِنَّمَا قَيْسٌ نُجُومٌ مُضِيئَةٌ يَشْقُ دُجَى الظُّلْمَاءِ بِاللَّيْلِ نُورُهَا
تُعَدُّ لِقَيْسٍ مِنْ قَدِيمٍ فَعَالِهِمْ يُبُوتُ أَوَاسِيهَا طَوَالَ وَسُورُهَا
فَوَارِسُ قَيْسٍ يَمْنَعُونَ حِمَاهُمْ وَفِيهِمْ جِبَالُ الْعِزِّ صَعْبٌ وَعُورُهَا
وَقَيْسٌ هُمْ قَيْسُ الْأَعْنَةِ وَالْقَنَا وَقَيْسٌ حُمَاهُ الْخَيْلِ تَدْمَى نُحُورُهَا
أَلَمْ تَرَ قَيْسًا لَا يُرَامُ لَهَا حِمَى وَيَقْضِي بِسُلْطَانٍ عَلَيْكَ أَمِيرُهَا²
أَمِيرُهَا²

يدير جرير حديثه في هذه الأبيات على قبيلة "قيس" التي تكرر حضورها في هذه الأبيات الثمانية عشر مرّات، ممّا يوحي بثقل القيسيين الذين راح يعدّد مناقبهم للفرزدق ويشيد بامتيازاتهم. فهو يستهلها بأنّ حسد الفرزدق وبغضه لقيس لا يؤثّر فيها، ويرجع ذلك لمكانة الطرفين، ثم ينصح الفرزدق بأن لا يفكر في اقتحام حيّهم لأنّهم لا يقبلون الاعتداء عليهم. ثم يحدّد مكانة قيس بالنسبة إلى القبائل الأخرى فيشبهها بالنجوم

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 235.

²-المصدر نفسه، ص 383.

المضيئة التي يتلألأ ضياؤها، ثم ينتقل إلى الحديث عن أمجاد قيس ومكاسبها خاصة في مجال الحرب والتي تمنحها قوة وهيبة.

ويقول الفرزدق:

تَرَى النَّاسَ مَا سَرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا
أُلوْفِ أُلُوْفٍ مِنْ دُرُوعٍ وَمِنْ قَنَا
وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
وَخَيْلٍ كَرَبَعَانِ الْجَرَادِ وَحَرَشَفُ¹

أورد الفرزدق هذين البيتين على سبيل المفاخرة بمكانة قبيلته بين القبائل الأخرى. فالبيت الأول يكرس المكانة الاجتماعية التي تتم عن السيادة، والتي تجعل الناس يخضعون لسلطتها بوعي منهم وبلا وعي. والشاعر يحدثنا عن هذه المكانة، والمقام مقام حجّ والناس منشغلون بأداء مناسك هذه الشعيرة الإسلامية، وقلوبهم خاشعة خاضعة لربّ الأرض والسماء، ومع ذلك لم ينسهم هذا المقام مكانة هذه القبيلة، التي أخبرنا الشاعر أنّ الناس يهتدون بها فإذا سارت ساروا خلفها، وفي هذه الحركة إعلان عن التبعية واعتراف لها بالسؤدد، وإن أشارت إليهم بالتوقف توقفوا. والبيت يؤكد خضوع الناس للقوم، وتكرار الشاعر للفظ الناس مرّتين تأكيد على تبعيتهم وخضوعهم من جهة، وإعلاء مكانة القوم بينهم، من جهة أخرى.

أما البيت الثاني فتكررت لفظة "ألوف" مرّتين، وهي مفردة تدل على الكثرة غير أنّ الشاعر لم يكتف بما تحيل إليه هذه اللفظة بل أردفها بأخرى، ثم حدّد هذه الكثرة في الدروع والقنا والفرسان الذين يمتطون الجياد والمقاتلين المشاة، وكلّ هذا يشكل جيشاً قوياً ضخماً لا تلحقه الهزيمة. وبهذا التوكيد اللفظي كرّس الفرزدق القوة الحربية المتأتية أساساً من الكثرة العددية، وهي الأخرى تدخل في تشكيل مكانة القبيلة.

وفي إطار المنافسة الدائرة بين الشعاعين، لم يغفل واحد منهما كلّ ما من شأنه أن يكون مفخرة له، لذلك اعتبر الفرزدق أنّ الافتخار بما فعله جدّه في الجاهلية من دعائم فخره، وفي ذلك نجده يقول:

وَمِمَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَخْيَى الْوَيْدَ فَلَمْ يُؤَدِّ²

تضمّن البيت ثلاثة ألفاظ تتعلّق بالوآد، وهذا التكرار يوحي بإصرار الفرزدق على المفاخرة بهذا الفعل الذي ارتبط بجدّه صعصعة بن ناجية، وكأنّه يأبى أن يطوله التسيان لذلك يلحّ على حضوره في الذاكرة. وإن كان

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 21.

²-المصدر نفسه، ص 175.

لفظ الوئيدة وما يشتق منه يهزّ أنفسنا تعاطفا وإشفاقا عليها، فإنه في الوقت ذاته يحرك في أنفسنا مشاعر الإكبار لهذا الرجل الذي وهبها الحياة كما يتضمّن الفعل "أحيا". وبذلك فقد حقّق للشاعر أن يفخر بهذا الصنيع الذي أتاه جدّه ولم يسبقه إليه أحد، وحقّق له أن يجعله ضمن مفاخر الآباء والأجداد.

وهو حين يفخر بانتسابه إلى دارم يمدح هذا النسب ويرفعه فوق الجميع، يقول:

هُوَ الشَّيْخُ وَابْنُ الشَّيْخِ لَا شَيْخَ مِثْلَهُ، أَبُو كُلِّ ذِي بَيْتٍ رَفِيعِ الدَّعَائِمِ¹

تكرّر لفظ "الشَّيْخُ" في صدر البيت فقط ثلاث مرّات، فقد وصف بالأوّل دارم وجعله لصيقا بهويته والثاني جعله ممتدا في نسبه، والثالث أجراه على سبيل المفاضلة الإيجابية. فالشاعر بهذا التكرار يرفع دارما ويعظّم قدره، ويرسخ في الأذهان هذه المكانة التي لا تقف حدودها عند دارم فحسب، بل تمتد إلى الفرزدق وله نصيب منها باعتباره سليله ووارث مجده ومفاخره.

وحين يتحوّل الفرزدق إلى هجاء جرير يوظّف كلّ ما يجعله لاذعا مؤثرا في النفس أيما تأثير ويتخذ من التكرار وسيلة لبلوغ غايته القصوى من الهجاء، ومما يصبّ في هذا المجال قوله:

فَإِنَّكَ كَلْبٌ مِنْ كُليبٍ لِكَلْبَةٍ غَدَتَكَ كُليبٍ فِي خَبِيثِ المَطَاعِمِ²

فالفرزدق يضرب وبقوّة على مواطن ضعف جرير، ولا يجد له أكثر إيلا من تعبيره بضعة نسبه وهوانه، وينطلق من قبيلته (كليب) ويشق من اسمها ما يقوّي مذهبه؛ بحيث تتواتر في البيت أربع كلمات (كلب- كليب- كلبه- كليب) يجمعها الدّل والهوان. فالفرزدق يوجّه خطابه لجرير ويبدأ من شخصه مقرّرا بأنه كلب مستعملا في ذلك أداة التوكيد "إنّ" حتّى لا يدع مجالاً للإنكار، ثم ينسبه إلى كُليب وتلك حقيقة أيضا لا مجال لنكرانها، وإن كان الشاعر يقصد من ورائها ضعف هذه القبيلة وضععتها، ثم يجعله ابن كلبه وهو لفظ يحمل أكثر من دلالة: فهو يقوّي ادعاءه الأوّل بأنه كلب، ويشير إلى ضعة والدته أيضا، كما أن نسبه إلى أمّه دون أبيه فيها قدر كبير من الإذلال والتحقير. ثم إنّ الانتماء إلى هذا النسب لا يوحى بحياة رغدة، فكليب لمكانتها تلك لا توفّر إلّا المطعم الخبيث وقد غدته منه.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 145.

² - المصدر نفسه، ص 150.

لقد كانت غاية الفرزدق من هذا التكرار التهكم والتحقير وتصغير الشأن لدرجة التسوية بالحيوان، والتأكيد على ضعة نسب جرير، واستحضاره المكثف لهذه المعاني يجعل المتلقي يشمئز من جرير، ويحكم عليه بالدونية، وينظر إليه بعين الاستصغار.

2- تكرر البنى التركيبية: (ويكون ذلك أفقياً وعمودياً)

لم يكن التكرار في نقائض جرير والفرزدق محصوراً في تكرار المفردة الواحدة، وإنما تجاوز هذا المستوى وظهر التكرار على مستوى البنى التركيبية التي يتجاوز فيها اللفظ المفرد، والملاحظ أنّ هذا التكرار سجّل حضوره على مستوى البيت الواحد وذلك ما يعرف بالتكرار الأفقي، كما كان متواتراً على مستوى أكثر من بيت وهو ما يعرف بالتكرار العمودي. وفيما يأتي سنقف مع هذا النوع من التكرار عند كلا الشاعرين، على أن تكون غايتنا من هذا العرض إظهار الجانب الحجاجي للتكرار سواء أكان تكرر البنى التركيبية أفقياً أو عمودياً.

قال جرير:

وإنَّ عُدَّتِ الأَيَّامُ أَخْرَيْتَ دَارِمًا	وَتُخْرِيكَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ أَيَّامُ دَارِمِ
فَخَرْتُ بِأَيَّامِ الْفَوَارِسِ فَافْخَرُوا	بِأَيَّامِ قَيْنِكُمْ جَبِيرٍ وَدَاسِمِ
بِأَيَّامِ قَوْمٍ مَا لِقَوْمِكَ مِثْلُهَا	بِهَا سَهَّلُوا عَنِّي خَبَارَ الْجَرَائِمِ ¹

فجرير في هذه الأبيات يتخذ من "الأيام" محوراً لمفاخرته من جهة، ولهجاء خصمه من جهة أخرى ويتخذ من التكرار وسيلة حجاجية قوية؛ حيث تكرر لفظ الأيام خمس مرّات، واحدة منها وردت مفردة والأخرى كانت مضافة، وهذا الحضور يؤكد على قيمة "الأيام" في العقلية العربية وكيف أنّ القبائل تعدّها من أهم مفاخرها التي لا تملّ من تراددها، وتتحدّد قيمة الأيام بنتائجها، فتكون فخراً في حال النصر وهجاء في حال الهزيمة.

والملاحظ أنّ جريراً وظّف الأيام بجانبها السلبي والإيجابي، وجمع فيها بين الفخر والهجاء، وذلك في إطار المقابلة بينه وبين خصمه الفرزدق ويبدو ذلك جلياً من خلال المركبات الاسمية التي استعملها، فأيام دارم ساقها على سبيل هجاء الفرزدق، خاصّة وقد جعلها سبباً لحزبه، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى هزائم دارم وغياب انتصاراتهم التي تشكّل مفاخرهم. ثمّ ينتقل إلى المقابلة فيجعل نفسه يفتخر بأيام الفوارس مقابل فخر الفرزدق

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 158.

بأيام القيون، وهو يحيل إلى القوة والسيادة مقابل الضعف والمذلة، ليصل في النهاية إلى نتيجة مفادها عجزه عن مجاراته في المفاخرة بالأيام لأن قومه ليس لهم أيام مثله. وجرير بهذه المفاضلة التي بناها على التكرار يسعى لإقناعنا برفعة شأنه مقابل دونية خصمه.

ولا يحصر جرير دائرة الهجاء في شخص الفرزدق فحسب، بل يوسّعها لتشمل كل ماله علاقة بالفرزدق ويمكنه التأثير فيه من خلالها، ومن ذلك هجائه لـ"ضبة" أحواله؛ حيث قال:

يا ضَبَّ قَدْ فَرَعَتْ يَمِينِي فاعلموا	طُلُقًا وما شَعَلُ القِيُونُ شمالي
يا ضَبَّ عَلِيَّ أَنْ تُصِيبَ مَوَاسِمِي	كوزًا على حَنَقٍ ورَهْطٍ بِلالِ
يا ضَبَّ إِنِّي قَدْ طَبَخْتُ مُجاشِعا	طَبْخًا يُرِيْلُ مَجامِعَ الأَوْصالِ
يا ضَبَّ لولا حَيْنُكُمْ ما كُنْتُمْ	عَرَضًا لِنَبلي حين جَدَّ نِضالي
يا ضَبَّ إِنَّكُمْ البِكارُ وإِنِّي	مُتَحَمِّطٌ قَطْمٌ يُخافُ صِيايِ
يا ضَبَّ إِنَّكُمْ لِسَعْدٍ حِشوةٌ	مِثْلُ البِكارِ ضَمَمَها الأَغفالِ
يا ضَبَّ إِنَّ هوى القِيونِ أَضَلَّكُمْ	كَضلالِ شِيعَةِ أَعورِ الدَّجالِ ¹

في هذه الأبيات الشعرية، التي بلغ عددها السبع، يتواتر التركيب "يا ضب" في مطلع أبياتها بطريقة ملفتة للانتباه؛ حيث تكرر في الأبيات كلها، وقد ورد هذا الاسم مرّحًا مقرونًا بحرف النداء "يا" المخصّص للبعيد، وإلحاح جرير على حضور هذا التركيب له أكثر من دلالة، فهو يرسل خطابه إلى "ضبة" ويحرص على ألا يفوتوا هذه الرسالة لذلك يلح على استحضاره في مطلع كل بيت وكأنه يسترعي انتباههم، ويحاول السيطرة على تفكيرهم حتى لا يفوتوا أو يخطئوا ما يودّ إيصاله إليهم.

أشار ابن رشيق في عمدته إلى أنّ الشاعر كثيرًا ما يعمد إلى تكرار اسم في قصيدته، ولا يكون فعله هذا عفويًا وإنما تحكمه غايات، وواضح أنّ المقام مقام هجاء وبالتالي فإنّ تكرار اسم "ضب" كان لغاية الاحتقار والتنقيص من الشأن، وهو ما نجده في موضع آخر حين يدير جرير كلامه على قبيلة "مجاشع" ويخصّ بالذكر "بنات مجاشع" فيقول:

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 234-235.

ضَرَبَ الخَمِيسُ عَلَى بَنَاتِ مُجَاشِعِ
 حَتَّى رَجَعْنَ وَهَنَّ غَيْرُ عَذَارِي
 إِنَّ المَوَاجِحَ مِنْ بَنَاتِ مُجَاشِعِ
 مَأْوَى اللُّصُوصِ وَمَلْعَبُ العُهَّارِ
 تَبْكِي المُغِيبَةَ مِنْ بَنَاتِ مُجَاشِعِ
 وَلَهَى إِذَا سَمِعَتْ نُهَاقَ حِمَارِ
 لَا تَبْتَغِي كَمَرًا بَنَاتُ مُجَاشِعِ
 وَيُرْدُنَ مِثْلَ بِيَازِرِ القَصَارِ¹

فالشاعر يعير قبيلة "مجاشع" بضعفها وعدم قدرتها على حماية نساءها خاصة عندما تشتد المعارك مما نتج عنه امتهاهن وفقدان عفتهن، ثم يؤكد أن "بنات مجاشع" لا ينعمن بقدر من الأخلاق.

ويعمد الفرزدق هو الآخر إلى التكرار وذلك بالتركيز على بعض التراكيب التي يستطيع من خلالها التفاد إلى مساعيه التي يودّ بلوغها، والتي يكون تأثيرها أكثر على الخصم، ومن ذلك ما خاطب به جرير قائلاً:

يَا ابْنَ المَرَاغَةِ إِنَّمَا جَارَيْتَنِي
 بِمُسَبِّقِينَ لَدَى الفَعَالِ قِصَارِ
 يَا ابْنَ المَرَاغَةِ كَيْفَ تَطْلُبُ دَارِمًا
 وَأَبُوكَ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارِ²

لقد خاطب الفرزدق جريرا مناديا إياه "يا ابن المراغة" التي كثرها مرتين ليحيل بذلك إلى النسب الوضع الذي ينتسب إليه من جهة، وإلى ضعة المكانة الاجتماعية التي يحظى بها وسوء معيشته من جهة ثانية. وكأنّ الفرزدق يسعى لترسيخ هذه الحقيقة في ذهن جرير بالدرجة الأولى وفي ذهن الآخرين الذين لا خيار لهم أمام هذا الإصرار فينساقون وراء هذا الحكم، وبذلك يكون الفرزدق قد نجح في رسم الصورة التي يريد لها لخصمه ونجح في تسويقها للآخرين.

ولا يقف الفرزدق في هجائه عند شخص جرير فحسب، بل يمتدّ به إلى قبيلته "كليب" فيمطرها بوابل من الصفات التي تسلبها كلّ مزية تذكر.

يقول الفرزدق:

وَإِنَّكَ قَدْ تَرَكْتَ بَنِي كَلَيْبِ
 كَلَيْبٌ دِمْنَةٌ حَبَّتْ وَقَلَّتْ
 لِكُلِّ مُنَاضِلٍ غَرَضًا مُصَابَا
 أَبِي الآبِي لَهَا إِلَّا سَبَابَا
 وَتَحَسِبُ مِنْ مَلَائِمِهَا كَلَيْبُ
 عَلَيهَا النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا

¹-نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 247.

²-المصدر نفسه، ص 235.

فَأَغْلَقَ مِنْ وَرَاءِ بَنِي كَلَيْبٍ عَطِيَّةً مِنْ مَخَازِي اللَّؤْمِ بَاباً¹

يجعل الفرزدق في هذه الأبيات قبيلة خصمه "كليب" محور اهتمامه كما يتضح من خلال تكراره للفظ "كليب" أربع مرّات، وما كان استحضاره لها إلاّ ليستحضر لها منقصة في كلّ مرة: فـ"كليب" ضعيفة يبلغها كلّ قاصد لها ولا تقوى على ردّ أيّ اعتداء، وهي خبيثة لم تجن من خبثها إلاّ السّباب، ولكثرة مخازيها ومساوئها تحسب النّاس كلّهم غاضبين عليها، وعطيّة والد جرير قد أغلق على بني كليب باب اللّؤم ولم يترك لها مجالاً للمكارم. بهذه الطريقة تظهر غاية الفرزدق من التّكرار وهي التّأكيد على مساوئ كليب وبالتالي يكون الانتساب إليها منقصة، وبهذا يسلب جريراً كلّ مفخرة في نسبه الكليبي.

كانت تلك كلّ المباحث التي اختيرت لبحث الآليات اللّغوية في نقائض جرير والفرزدق، وذلك للتّأكيد على حضور الجانب الحجاجي في الآليات اللّغوية كما في الآليات البلاغية. وبعد الحديث عن الأفعال الكلامية، والرّوابط والعوامل الحجاجية، والسّلم الحجاجي، والتّكرار خلصنا إلى ما يأتي:

- نظرية الأفعال الكلامية، وإن كانت غريبة الأصل حديثة المنشأ، إلاّ أنّ الدّارسين العرب القدامى قد تعرضوا لبعض مباحثها، وإن كان بتسميات أخرى.

- اشتملت مدوّنة البحث على مختلف الأفعال الكلامية، حسب التصنيف الذي اعتمده، وهو التصنيف الخماسي المعدّل من قبل سيرل، غير أنّ نسبة حضور هذه الأفعال كان متبايناً من صنف لآخر، ومن شاعر لآخر.

- كانت الطلبيات (التوجيهيات) الأكثر حضوراً في نقائض جرير والفرزدق، وذلك ناتج عن طبيعة النقائض، التي يكون الكلام فيها متبادلاً بين الشّاعرين المتناقضين؛ حيث يحاول كلّ طرف توجيه خصمه وجهة ما.

- وظّف جرير والفرزدق روابط وعوامل حجاجية مختلفة، وتعدّدت وظائفها بين الرّبط بين الحجج وترتيبها، وتوجيه الكلام لخدمة نتيجة مقصودة، وحصر الإمكانيات الحجاجية.

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 339.

- كان التكرار حاضرا عند الشعاعين وبمختلف أنواعه، وفي ذلك إصرار على تثبيت المعاني في الأذهان، والتأثير النفسي الموصول إلى الإقناع. ولم يكن التكرار مقتصرًا على جانب بعينه، بل سجّل حضوره في مجالي الفخر والهجاء؛ حيث يتسنى لكلّ شاعر التأكيد على المعاني الإيجابية لنفسه، وإصاق السلبية منها بخصمه، ومنه ثبت أنّ وظيفة التكرار في النقائض كانت حجاجية إقناعية إلى أبعد حد.

الفصل الرابع

الفصل الرَّابِع: بنية الحجج في النِّقائض

المبحث الأوَّل: مقدّمات الحجج

1- الوقائع

2- القِيَم

المبحث الثَّاني: الحجج وأنواعها في النِّقائض

1- الحجج شبه المنطقية

2- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع

3- الحجج المؤسّسة لبنية الواقع

المبحث الثَّالث: العلاقات الحججية

1- العلاقة السببية

2- علاقة الاقتضاء (الشَّرطية)

3- علاقة التّتابع

بعد أن عرضنا، في الفصلين السابقين، مختلف الآليات الحجاجية البلاغية منها واللغوية التي توسلها جرير والفرزدق في حجاجهما، نسعى في هذا الفصل للكشف عن بنية الحجاج في نقائضهما، وذلك بالاعتماد على ما جاء به برلمان وتيتكا في كتابهما "مصنّف في الحجاج. البلاغة الجديدة"، وما وضعاه من تصنيف لمختلف الحجج التي يحفل بها النصّ الحجاجي.

وأول ما نبدأ به مقدّمات الحجاج التي أفردناها بمبحث، وسنقف من خلالها على محطتين هامتين كان وجودهما بارزا وبوضوح في مختلف النصوص الشعريّة، كما أنّهما يشكلان دعامين هامتين ينطلق منهما المحاجج في بناء حجاجه، وتأتي أهميتهما من كونهما يحظيان بالقبول والتسليم من قبل الجميع. الدّعمة الأولى تشكّلها الوقائع، وقد تجسّدت في النقائض، من خلال الأيّام وبعض الحوادث التاريخية إضافة إلى حوادث اجتماعية مختلفة ارتبطت بجرير والفرزدق. أمّا الدّعمة الثانية فتمثلها القيم المتفق عليها، وهي: العقل، والعقّة، والشّجاعة والعدل، وما يتفرّع عنها من قيم أخرى.

بعدها سنخصّص المبحث الثاني لرصد مختلف الحجج التي تدخل في بنية النصوص الشعريّة والتي استغلّها الشعاعان لخدمة أهدافهما، مع الإشارة إلى أنّنا سنخصّص بالذكر الحجج التي أمكن لنا استنباطها من النصوص الشعريّة، التي بدا لنا أنّها تتلاءم وتلك التصنيفات والتحديدات التي جاء بها برلمان وتيتكا.

ولا يمكننا أن نُنهي الحديث عن بنية الحجاج دون أن نقف على العلاقات الحجاجية التي خصّصنا لها المبحث الثالث وهي علاقات متعدّدة تربط بين مختلف أجزاء القصيدة الشعريّة، سنقف عند بعضها لنوضّح كيف أنّ الشّاعر قد سخّرها لتنهض بدورها الإقناعي من جهة، وليعضّد بها مختلف الآليات الحجاجية من جهة أخرى.

المبحث الأول:

مقدمات الحجاج:

حدّد بيرلمان وتيتكا في كتابهما "مصنّف في الحجاج" جملة من المقدمات التي يمكن لها أن تشكّل نقطة انطلاق للمحاجج فينطلق منها ليجمع كلامه أكثر تأثيراً، وبالتالي الوصول إلى إقناع الآخرين بصحّة طروحاته ممّا يجعلهم يدعون لها ويسلمون بصحّة ما يدعو إليه.

وتتمثّل هذه المقدمات في جملة من الوقائع والحقائق والقيّم والمواضع التي تشكّل محل اتفاق مبدئي¹، وكونها محل اتفاق بين الجماعة هو الذي يمنحها جانبا من المصدقية، وهو الذي يجعل منها نقطة انطلاق مناسبة للحجاج طالما أنّ المحاجج ينطلق ممّا هو مُسلمّ به، وذلك يجلب له نصيبا من التسليم والإذعان للأطروحة التي يحاجج لصالحها.

وقد اتضح لنا، ممّا سبق، أنّ لكلّ من جرير والفرزدق قضية جوهرية شكّلت محور نقائضهما وسعى كلّ طرف للدفاع عنها، وهي إثبات الأفضلية لنفسه مقابل الخطّ من شأن خصمه وتحقيره. وفيما يلي سنسعى لرصد مختلف المقدمات التي انطلق منها كلّ شاعر في إطار المعركة الكلامية الدائرة بينهما، ومن بين هذه المقدمات نذكر:

1- الوقائع:

تتجسّد الوقائع في مدوّنة بحثنا من خلال الأحداث التاريخية والحوادث الاجتماعية، وقد برزت الأحداث التاريخية أكثر من خلال حديث الشعارين عن الأيّام باعتبارها وقائع تاريخية مشهورة ومسلمّ بها، إضافة إلى بعض الأحداث التاريخية كمقتل الزبير. أمّا الحوادث الاجتماعية فكانت كثيرة غير أنّها ارتبطت بشخص الفرزدق سواء تلك التي تصبّ في الفخر أو الهجاء.

1- الأيّام:

تكاد تكون الحروب ملمحا بارزا في الحياة اليومية لعرب الجاهلية، وكثيرا ما كانت العصبية القبلية سببا في منازعاتهم التي تصل بهم في أحيان كثيرة إلى الاقتتال ممّا نتج عنه كثرة الحروب بين القبائل العربية، وقد أطلق

¹ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيته وأساليبه، ص 183.

عليها "أيام العرب"، وتقف وراء هذه الأيام أسباب كثيرة؛ حيث ((كان العرب يقتتلون على المياه، والآبار، والمراعي وكلّ مظاهر الخصب، وعلى حماية اللّطائم، وما يُجنى من القوافل، وطُرق التجارة في الجزيرة، وفي سبيل الكرامة وعزّة النفس، وحماية الجار والعرض، وفي الثأر والتّجدة للصدّيق أو الحليف أو القريب، ولأجل الرّئاسة وزعامة القبائل وفي سبيل النفوذ الخارجي))¹.

وأيام العرب كثيرة منها ما كان في الجاهلية ومنها ما كان في الإسلام، وقد كانت الأيام الجاهلية أشدّ ظهوراً بين جرير والفرزدق؛ حيث حصرا دائرة اهتمامهما ضمن أيام محدّدة فـ((كان جرير يفتخر بأيّام لتميم عامّة حيناً، وأيّام ليربوع خاصّة حيناً آخر، وذلك يكون في وجه مجاشع رهط الفرزدق، وأيّام لقيس عيلان أمام الفرزدق والأخطل. وأنّ موقف الفرزدق جعله يفخر بأيّام تميم كثيراً إذ جعل نفسه زعيمها والمتكلّم باسمها، كما افتخر بأيّام لدارم رهطه خاصّة ولعل ذلك قليل))².

لقد اتكأ الشّاعران على الأيام وجعلوها منطلقاً لإثبات قوّتهم وشجاعتهم من جهة، وإثبات ضعف وجبن الطّرف الآخر من جهة ثانية. وتوظيفهما للأيام دليل على سعة اطلاعهما على الجانب التاريخي ومعرفتهما الدّقيقة بهذه الأحداث. ولم تقف معرفتهما عند حدود التاريخ الخاص، بل امتدت حتّى إلى معرفة أيام الخصم وتفاصيلها، وهذا ما يسهّل عليهما حسن استغلالها. ذلك أنّ معرفة جوانب القوّة والضعف في الخصم هو ما يمكّن من الانتصار عليه.

وقد كان لجرير ((إلمام عميق بماضي الأيام والوقائع بين القبائل، يذكر الأيام بأسمائها يعدّد الأشخاص ويصف النتائج، ويتخذ منها سبيلاً للهجاء وللّفخر والتّباهي))³، ومن الأيام التي فاخر بها جرير الفرزدق يوم "طخفة" * وفيه يقول:

غَضِبْنَا يَوْمَ طِخْفَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ فَصَفَدْنَا الْمُلُوكَ بِهَا اعْتِسَاراً⁴

1 - أحمد الشايب: تاريخ النقائص في الشعر العربي، ص 37-38.

2 - المرجع نفسه، ص 258.

3 - إيليا حاوي: فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د. ط. د. ت. ص 428.

* - ويسمى "ذات كهف" و"خزار" قيل إنه لبني يربوع والبراجم على المنذر بن ماء السماء، أسروا فيه أخاه حسان، وابنه قابوس، وجزّت ناصية قابوس وكان سبب ذلك إزالة الردافة عن عوف بن عتاب الرياحي. ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص 176.

4 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 186.

وقد جعل آية انتصارهم في هذا اليوم أنهم استطاعوا أن يأسروا حتى الملوك، وهذا دليل قوة وشجاعة لا يمكن أن يُردّ، خاصة وأنّ الحروب تُقاس بنتائجها، ولعلّ أهم نتائجها الأسرى فما بالك إن كانوا سادة قوم أو ملوكا وبذلك يكون قد ذكر اليوم (طحفة)، وذكر النتائج التي أسفر عنها (تصفيد الملوك)، وهذا كافٍ ليكون مفخرة له طالما كانت نتائجه إيجابية. ويشير إلى واقعة ذي نجب*، فيقول:

حَمِينَا يَوْمَ ذِي نَجَبٍ حِمَانَا وَأَحْرَزْنَا الصَّنَائِعَ وَالنَّهَابَا¹

وفيه يعمد الشاعر إلى ذكر النتائج وقد كانت حماية الحمى وإحراز الغانم ممّا يوحي بانتصارهم. وفي موضع آخر يقرن ذكر هذا اليوم مع يوم إباد فيقول:

وَمَا شَهِدَتْ يَوْمَ الْإِيَادِ** مَجَاشِعٌ وَذَا نَجَبٍ يَوْمَ الْأَسِنَّةِ تَرَعَفُ²

حيث يركّز في هذا البيت على سمة أخرى ترتبط بالحرب وهي الدماء، لكنّه صوّر الأسنة تسيل دما للتدليل على كثرة الطعن، وما يصاحبه من كثرة الجرحى والقتلى. وجريير لا يكتفي بذكر الأيام فقط وإنما ينطلق من قناعة أخرى وهي أنّه يجوز على الأفضلية في هذا المجال لذلك نجده لا يتوانى عن التصريح بذلك فيقول:

تَرَانِي إِذَا مَا النَّاسُ عَدُّوا قَدِيمَهُمْ
وَأَنْ عُدَّتِ الْأَيَّامُ أَحْزَيْتَ دَارِمًا
وَفَضَّلَ الْمَسَاعِي مُسْفِرًا غَيْرَ وَاجِمٍ
فَخَرْتُ بِأَيَّامِ الْفَوَارِسِ فَأَفْخَرُوا
وَمُخْزِيكَ يَا ابْنَ الْقَنْ أَيْامَ دَارِمٍ
بِأَيَّامِ قَبْنِكُمْ جُبَيْرٍ وَدَاسِمٍ
بِهَا سَهَّلُوا عَنِّي خَبَارَ الْجَرَاهِمِ³

*-يوم ذي نجب: وهو لبني يربوع على بني عامر، وفيه قُتل حسان بن معاوية بن أكل المرار، وقيل عمرو بن معاوية، أما حسان فأسره دريد بن المنذر، وكانت بنو عامر أتت به تغزو بني حنظلة بن مالك بعد يوم جيلة بعام، ففتنحى لهم بنو مالك بن عمرو بن عمرو بن عدس، وتركوا في صدورهم بني يربوع، فهزمت بنو عامر هزيمة عظيمة وقُتل رئيسها عمرو بن الأحوص. انظر ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص 183-184.

¹ -نقائض جريير والفرزدق، مج 1، ص 314.

** -يوم إباد هو يوم العظالي، ويوم الأفاقة، ويوم أعشاش، ويوم ملبحة، وكان لبني شيبان ورئيسهم بسطام بن قيس على بني يربوع. انظر: ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص 176.

² -المصدر السابق، مج 2، ص 27.

³ -المصدر نفسه، مج 2، ص 158.

فجرير يضع نفسه في موازنة مع خصمه الفرزدق، ويتخذ من الأيّام مجالا لهذه الموازنة، ولا يسعه إلا مخاطبة الفرزدق على سبيل التحقير والتقليل من شأن قبيلته، وخاصة حين يجعل أيام دارم مجلبة للخزي فلا الفرزدق يجد فيها مفخرة لدارم، ولا هو يجد في أيام دارم مفخرة له.

ولم يقف توظيف جرير لهذه الوقائع الحربية عند حدود الفخر، بل اتخذها مطية لهجاء الفرزدق كما يتضح من قوله:

وَيَوْمَ الصَّفَا كُنْتُمْ عَبِيدًا لِعَامِرٍ وَبِالْحَزْنِ * أَصْبَحْتُمْ عَبِيدَ اللَّهَازِمِ
وَلَيْلَةَ وَادِي رَحْرَحَانَ ** رَفَعْتُمْ فِرَارًا وَلَمْ تَلُورُوا زَفِيفَ النَّعَائِمِ¹

فجرير يكتف استحضاره للأيام التي آلت إلى هزائمهم، ليعتدوا من خلالها من مواجهة خصمه، والإقرار بضعفه وافتقاره للقوة، خاصة وأن نتائج هذه الأيام معلومة لدى الجميع. وتكثيف استحضار الهزائم تدليل قوي على الضعف، ولذلك ذكر يوم الصفا ويوم الحزن وليلة رحرحان وكلها لم يحالف الحظ فيها أهل الخصم فاتخذها منطلقا لهجائه. والملاحظ أن جريرا لا تهمه تواريخ الوقائع بقدر ما تهمه نتائجها، لذلك وجدناه في البيت الأول يجمع بين يومين أولهما كان في الجاهلية والآخر كان في زمن الخلافة الراشدية (عثمان بن عفان)، وإن جمعه بين الوقائع الماضية والحاضرة له أكثر من دلالة لعل أهمها ديمومة هزائمهم رغم امتداد الزمن.

ولم يكن الفرزدق ببعيد عن خصمه؛ حيث اتخذ هو الآخر من هذه الوقائع التاريخية منطلقا لتدعيم جانبه وإثبات الأفضلية لنفسه، وذلك بالتركيز على الوقائع التي ألحقوا فيها الهزيمة بخصومهم، وكان التصريح ليفهم. ويبدو أن الشاعر لا يجد ما يدلل به على هزيمة الخصم أكثر من الحديث عن عجزه عن توفير الحماية الكافية للحُرَمَات، وفي ذلك يقول:

* - ورد في البيت ذكر يومين: يوم الصفا ويوم الحزن. ويوم الصفا هو يوم شعب جيلة، من أعظم أيام العرب، كان لبني عامر بن صعصعة وعبس حلفائهم على الحليفين أسد وذبيان، وكان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة. انظر ابن رشيقي: العمدة، ج2، ص 177-178.

ويوم الحزن هو يوم الوقيظ كان في فتنة عثمان بن عفان، وهو للهازم، ورئيسهم أبحر بن بُجَيْر، علي بن مالك بن حنظلة، وفيه أندر ناشب بن بشامة العنبري بني عمرو بن تيم فدخلوا الدهناء فنجوا. المصدر نفسه، ص 186.

** - وهو يوم رحرحان الثاني، وكان لبني عامر بن صعصعة ورئيسهم الأحوص على بني دارم، وفيه أسر معبد بن زُرارة، أسره عامر بن مالك وأخوه طفيل ومات في الأسر. انظر: المصدر السابق، ص 181.

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 306.

وَلَمْ تَمْنَعُوا يَوْمَ الْهُذَيْلِ بِنَاتِكُمْ بَنِي الْكَلْبِ وَالْحَامِي الْحَقِيقَةَ مَانِعُ
عَدَاةَ أَتَتْ خَيْلُ الْهُذَيْلِ وَرَاءَكُمْ وَسُدَّتْ عَلَيْكُمْ مِنْ إِرَابِ الْمَطَالِعِ¹

فالشاعر يتحدث عن يوم "إراب" * الذي أغار فيه الهذيل بن هبيرة التغلبي على بني الرياح بن يربوع ولحققتهم هزيمة نكراء لم يستطيعوا معها الدود عن حرماهم وحماية بناتهم من الموت ومن الأسر، والملاحظ أنّ الفرزدق يركّز على ما خلفه هذا اليوم لأنه يسعى من خلاله لإثبات قوّة جانبهم من جهة وإظهار ضعف الخصم من جهة أخرى.

والفرزدق لم يكتف بذكر الحادثة وما ترتّب عنها من مخازي فحسب، بل ذهب إلى إظهار قوّة الجيش من خلال ما ألحق به من أوصاف؛ حيث قال:

وَرَدُّوا إِرَابَ بِجَحْفَلٍ مِنْ وَائِلٍ جَبِ الْعِشِيِّ ضُبَارِكِ الْأَرْكَانِ
تَرَكَوْا لِتَغْلِبِ إِذْ رَأَوْا أَرْمَاحَهُمْ بِإِرَابِ كُلِّ لَسِيمَةٍ مِدْرَانِ²

فهو يذكر أنهم بلغوا "إراب" بجيش ضخم كثير الخيل تتعالى أصواته المختلطة بالعشي، وهذا المشهد الزاخر بالحركية والجلبة واختلاط الأصوات وارتفاعها يوحي بالقوّة، ومن شأنه أن يبيث الرّهبة والخوف في النفوس، وهو ما حدث؛ حيث لم تكن لهم الشجاعة الكافية لمواجهة العدو فتركوا نساءهم وراء ظهورهم يعلوهم الدرن وفروا هارين، ولا شيء أذل على الضّعف والجن من الفرار وترك النساء.

ونجده يشير إلى حادثة أخرى وهي يوم النّسار** فيقول:

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 114.

*- ويوم "إراب" لبني ثعلبة بن بكر ورئيسهم الهذيل بن حسان، على بني الرياح بن يربوع، وكان الهذيل سبي نساء بني رياح، والتقى بهم على إراب، وقد سبقه بنو رياح إليه ليمنعوهم الماء، حتى يرد السبي، فأقسم الهذيل: لئن رددتم إلينا ماء فارغا لأنأتينكم فيه برأس إنسان تعرفونه، فاشترتوا منه بعض السبي وأطلق البعض. ابن رشيقي: العمدة، ج 2، ص 175.

2 - المصدر السابق، ص 237.

**- وكان سبب يوم النّسار أنّ بني تميم كانوا يأكلون عمومتهم بني ضبة، وبني عبد مناة، فأصاب بنو ضبة رهطاً من بني تميم، فطالبتهم بنو تميم، فانزالت جماعة الزّباب فحالفت بني أسد بن خزيمه، وهم يومئذ حلفاء لبني ذبيان بن بغيض. فلما بلغ بني تميم ذلك استمدّوا بني عامر بن صعصعة فأمدهوهم، والتقوا بالنّسار فصبرت عامر واستحزّ بهم الشّرّ، وانفضت بنو تميم وهربت فهزموها وقتلوا وسبوا. انظر: المصدر نفسه، مج 1، ص 174 وما بعدها.

أَلَسْنَا بِأَصْحَابِ يَوْمِ النَّسَارِ وَأَصْحَابِ أَلْوِيَةِ الْمُرَبِّدِ¹

فالشاعر يذكر اليوم باسمه، ثم يوظف لفظة "أصحاب" للدلالة على أن التصر فيه كان حليفهم.

من خلال ما سبق ذكره نكون قد وقفنا على الوقائع التاريخية ممثلة في الأيام وكيف كان كل شاعر يتخذها منطلقاً لإثبات الأفضلية من خلال التركيز على إظهار جوانب القوة، التي تتجلى من تلك الانتصارات التي حققتها القبيلة وتلك الهزائم التي ألحقتها بالخصوم. ولقد كان استحضار هذه الأيام يتم عبر ثنائية الفخر / الذات، والهجاء/الآخر.

—حادثة مقتل الزبير:

على الرغم من كون هذه الحادثة* التاريخية لا تلامس شخص الفرزدق مباشرة غير أنها دارت عليها الكثير من أشعار جرير، وهو الأمر الذي حدا ببعض إلى اعتباره زبيري الهوى؛ حيث كان ((يقيم مناخة كبرى لمقتل الزبير ويُنمي إليه الصفات الدينية ويجعل الحجاج بيكونه ويلعنون الذين آمنوه وجاوروه وتخلوا عنه، وقلما نفع على نقيضة لا يُذكر فيها مقتل الزبير))². فما أكثر تلك الأشعار التي راح يشنّع من خلالها بخصمه؛ حيث كان يؤصّل بموجبها لخصلة يودّ إلصاقها بالفرزدق وهي عدم القدرة على حماية الجوار. يقول:

هَلَا الزُّبَيْرَ مَنَعَتْ يَوْمَ تَشَمَّسَتْ حَرَبٌ تَضَارُّمُ نَارِهَا، مَذْكَارُ
وَدَعَا الزُّبَيْرُ فَمَا تَحَرَّكَتِ الْحَبَى لَوْ سُمَّتْهُمْ جُحَفَ الْحَزِيرِ لَنَارُوا
عَرُّوا بِعَقْدِهِمُ الزُّبَيْرَ، كَأَنَّ هُمْ أَنْوَارُ مَحْرَبَةٍ، هُنَّ حُورُ³

فالشاعر يلح على فكرة أنّ الزبير قد استجار بقوم الشاعر، لكنهم لم يوفوا حقّ هذا الجوار، وفي ذلك

يقول:

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 176.

* - حكى الأصفهاني فقال: وقف الزبير على مسجد بني مجاشع فسأل عن عياض بن حماد فقال له النعمان بن زمام: هو بوادي السباع فمضى يريد. ومرّ الزبير ببني حماد فدعوه إلى أنفسهم فقال: أكفوني خيركم وشركم، ومرّ بعرق سويقة يريد أن يلحق بأهله فقام عمرو بن جرموز وفضالة بن حابس ونُفيع بن كعب أحد بني عوف ويقال نفيح بن عُمير، فلحقوه بالعرق، فقتل قبل أن ينتهي إلى عياض، قتله عمرو بن جرموز. انظر كتاب الأغاني، ج 18، ص 40.

² - إيليا الحاوي: شرح ديوان جرير، ط 1، دار الأبحاث، الجزائر، 2009، ص 08.

³ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 218.

وَمَجَاشِعٌ قَصَبَتْ هَوْتَ أَجْوَأْفُهُ، غَرَّوْا الزُّبَيْرَ، فَأَيَّ جَارٍ ضَيَّعُوا¹

فجرير لا يكتفي بالتأكيد على إضاعتهم لحق الجوار، بل يشنّع بفعلتهم هذه من خلال إعلاء قدر المغرّر به كما يظهر من عبارته "فأيّ جار ضيعوا"، ثمّ لا يتوانى في إلحاق هذا الفعل الشنيع بـ"مجاشع" قبيلة الفرزدق.

ولإظهار فظاعة ما حدث ركّز جرير على تبيان نتيجة هذه الجريمة التي وقعت في حقّ الزبير فجعل أثر ذلك يظهر على المحيط ككلّ، فقد حزنت لمقتله أسوار المدينة، وخشعت الجبال وبكّته بناته دموعاً غزيراً وقد صوّر ذلك الحدث قائلاً:

لَمَّا أَتَى حَبْرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعْتُ سُورُ الْمَدِينَةِ، وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ
وبكى الزُّبَيْرُ بِنَاتِهِ فِي مَأْتَمِّ، مَاذَا يُرَدُّ بُكَاءَ مَنْ لَا يَسْمَعُ
قَالَ النَّوَّاحُ مِنْ قُرَيْشٍ: إِنَّمَا غَدَرَ الْحُنَاتُ، وَلَيْسَنَّ وَالْأَقْرَعُ
تَرَكَ الزُّبَيْرُ عَلَيَّ مَنِّي لِمَجَاشِعٍ سَوْءَ الشَّاءِ إِذَا تَقَضَّى الْمَجْمَعُ
فَقَتَلَ الْأَجَارِبُ يَا فَرَزْدَقُ جَارِكُمْ فَكَلُوا مَرَاوِدَ جَارِكُمْ فَتَمَتَّعُوا
لَوْ حَلَّ جَارِكُمْ إِلَيَّ مَنَعْتُهُ بِالْحَيْلِ تَنْحِطُ وَالْقَنَا يَتَزَعَّرُ²

فالشاعر لا يكتفي بذكر النتائج فقط، بل يحاول التّيل أكثر من شخص خصمه فيدعي أنّه لو لجأ إليه لما فرّط فيه. وبهذا يكون جرير قد استغلّ هذه الحادثة أحسن استغلال ووظّفها بطريقة مزدوجة: واحدة هجا من خلالها الفرزدق وعيّره بعدم قدرته على حماية الجار والغدر به وبذلك أثبت دونيته، والثانية ووظّفها لصالحه عندما أظهر البطولة حينما قال بأنّ الزبير لو استجار به لمنعه وحماه ولما حصل له ما حصل. وبذلك تظهر قدرة الشاعر في تكييف الأحداث لصالحه وحسن استغلال كلّ ما يجمل صورته في عين المتلقّي.

-الأحداث الاجتماعية:

لم تكن منطلقات الشعراء محصورة في تلك الأحداث التاريخية فحسب، وإنما اتكأ على أحداث اجتماعية أخرى وجدا فيها أرضية صالحة لتدعيم أطروحتهما. وإنّ كانت الأحداث التاريخية، كما تبين، منطلقاً

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 291 .

2 - المصدر نفسه، ص 292.

مشاركاً بين الشعارين فإنّ الأحداث الاجتماعية تتخذ طابعا شخصيا يرتبط بخصوصية كلّ شاعر، وعليه راح كلّ شاعر ينقّب في الأحداث التي من شأنها أن تقوّي جانبه وتضعف خصمه .

ويبدو أنّ جريرا لم يجد ضمن حياته الاجتماعية ما يتوسّل به من مفاخرة أمام خصمه الفرزدق، لذلك حوّل وجهته إلى شخص الفرزدق، فلم يفوّت عليه أيّ حدث تراءت له فيه منقصته. وفيما يأتي نسرّد مختلف هذه الأحداث التي احتوتها مدوّنة البحث وهي:

-حادثة نَبوّ السيف في يد الفرزدق:

إنّ براعة الشّاعر ضمن المناقضة، باعتبارها منافسة أدبية، لا تظهر من خلال اعتماد الأحداث بتفاصيلها الحقيقية، وإنما من حسن استغلال هذه الأحداث وتوجيهها لخدمة المصلحة الخاصّة، وإظهارها بصورة تماشى والتوجّه العام في المحاججة. وفي إطار هذا السياق تتنزّل هذه الحادثة، وهي حادثة لم تكن الحقيقة فيها كاملة* على ما قيل فيها من كونها مكيدة، إلا أنّ جريرا لم يفوّتها، كعادته، واتخذها مطيّة للنيل من الفرزدق لما تحمله من التشكيك في قوّته، يقول:

أَكَلَّفْتَ قَيْسًا أَنْ نَبَا سَيْفٍ غَالِبٍ وَشَاعَتْ لَهُ أُخْدُوثةٌ فِي الْمَوَاسِمِ
بِسَيْفِ أَبِي رَغْوَانَ سَيْفٍ مُجَاشِعِ صَرَبَتْ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمِ
صَرَبَتْ بِهِ عِنْدَ الْإِمَامِ فَأَرْعَشَتْ يَدَاكَ وَقَالُوا مُحَدِّثٌ غَيْرُ صَارِمِ¹

فهو يعيّر الفرزدق بهذه الحادثة مشيرا إلى أنّ ما قيل عن سببها لا يتجاوز المزاعم، ويربط ذلك بالانتماء القبلي لخصمه عندما يقرّر بأنه لو كان منهم ما حدث ذلك:

وَلَوْ كُنْتَ مِنَّا يَا ابْنَ شِعْرَةَ مَا نَبَا بِكَفَيْكَ مَصْنُوقِ الْحَدِيدَةِ مُرْهَفِ²

* - روى الأصفهاني أنّ سليمان بن عبد الملك حجّ ومعه الشعراء، فمرّ بالمدينة منصرفاً فأُتي بنحو أربعمئة أسير من الروم. وطلب من البعض أن يضربوا رقاب الأسرى، وجعل يدفع الأسرى إلى الوجوه وإلى الناس فيقتلونهم، حتى دفع إلى جرير رجلاً، فدست إليه بنو عبس سيفاً قاطعاً في قراب أبيض، فضربه فأبان رأسه، ودفع إلى الفرزدق أسيراً فدست إليه القيسية سيفاً كليلاً، فضرب به الأسير ضربات فلم يصنع شيئاً، فضحك سليمان وضحك الناس معه. انظر كتاب: الأغاني، ج 15، ص 232.

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 296.

² - المصدر نفسه، مج 2، ص 34.

فجرير يلمح من خلال هذا البيت إلى ضعف الفرزدق المنحدر إليه من ضعف القبيلة التي ينتمي إليها، في حين يجعل مجرد الانتماء إلى قبيلته يهب الفرزدق القوّة والشجاعة ويمنع نبوّ السيّف في يده.

-حادثة طرد الفرزدق من المدينة:

تناول جرير هذه الحادثة للمساس بالجانب الأخلاقي للفرزدق، وأنه تنتفي فيه العقّة والطّهارة لذلك أمر الخليفة بإخراجه من المدينة، يقول:

وَجَدْنَا الْفَرَزْدَقَ بِالْمُؤَسَّمِينَ حَبِيبَ الْمَدَاخِلِ وَالْمَشْهَدِ
نَفَاكَ الْأَعْرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِحَقِّكَ تُنْفَى عَنِ الْمَسْجِدِ
وَشَبَّهْتَ نَفْسَكَ أَشَقَى ثَمُودَ فَقَالُوا: ضَلَلْتَ وَلَمْ تَهْتَدِ¹

ويؤكّد جرير على أنّ الفرزدق يستحقّ الإبعاد عن المدينة لسوء خلقه فيقول:

هُوَ الرَّجْسُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَاحْذَرُوا مَدَاخِلَ رِجْسٍ بِالْحَبِيبَاتِ عَالِمِ
لَقَدْ كَانَ اخْرَاجُ الْفَرَزْدَقِ عَنْكُمْ طَهُورًا لِمَا بَيْنَ الْمُصَلَّى وَوَأَقِمِ²

لا يؤكّد جرير من خلال هذه الحادثة على فساد الفرزدق فحسب، بل على عظم فساده وخطورته على المجتمع، ويظهر ذلك من خلال القرار الذي اتّخذه خليفة المسلمين بإبعاده عن المدينة، ولو لم يكن لفساده خطورة لما تطلّب ذلك تدخل أعلى هيئة رسمية في البلاد. بهذه الطريقة يُظهر جرير أمر الفرزدق حتى لا يدع مجالاً لدحض هذه الحقيقة أو التفكير فيها.

¹ - نقائص جرير والفرزدق، ج 1، ص 181.

² - المصدر نفسه، ص 285.

—حادثة عقر التوق يوم صوعر:

يعتبر يوم صوعر* من الأيام الإسلامية المشهورة، وهي مذبحه حيوانية نتجت عن معاقره بين غالب والد الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحي؛ حيث أسرف غالب في عقر التوق، ويكون بذلك قد غطى بعمله على عمل سحيم.

وتأخذ هذه الحادثة الفريدة بعدا مُزدوجا عند الشعاعين، ذلك أنّ الفرزدق قد أكثر من الافتخار بها، غير أنّ جريرا لم يجد له سبيلا إلى نفيها فعمد إلى الإنقاص من قيمتها الإيجابية وتحويل مسارها من الفخر إلى الهجاء. وبداية نقف مع وجهها المشرق الذي أصرّ الفرزدق على أن يظهرها به، يقول مفاخرا:

وصاحب صوعرٍ وأبي شريحٍ، وسلّمى من دعائم ثابتات¹

ولم يقف الفرزدق عند نسبة هذه المفخرة إلى والده فحسب، بل جعل لنفسه نصيبا منها عندما كتى عن نفسه بقوله "ابن صاحب صوعر" كما يتضح من قوله:

وقد علم الأقبام حولي وحولكم
وَعِنْدِي حُسَامًا سَيْفِهِ وَحَمَائِلُهُ²
بني الكلب أني رأس عزي وكاهله

فالفرزدق اتخذ من العقر مفخرة له ولقومه، على الرغم من كون هذا الفعل مما نهي الإسلام عنه، لأنها أهلت لغير الله، غير أنّ الجانب الإيجابي الذي أظهره الشاعر لهذه الحادثة هو جعلها عنوانا للجدود والكرم. وبالتالي كان العقر دليلا على البدل والعطاء.

* أجذبت بلاد تميم، وأصابت بني حنظلة سنة في خلافة عثمان فبلغهم خصب عن بلاد كلب بن وبرة، فانتجعها بنو حنظلة، ونزلوا أقصى الوادي، وتسرع غالب بن صعصعة فيهم وحده دون بني مالك بن حنظلة، ولم يكن مع بني يربوع من بني مالك غير غالب، فنحر ناقته فأطعمهم إياها، فلما وردت إبل سحيم بن وثيل الرياحي حبس منها ناقة، فنحرها من غد، فقبل لغالب: إنما نحر سحيم مواءمة لك، أي مساواة لك، فضحك غالب وقال: كلا، ولكنه امرؤ كريم، وسوف أنظر في ذلك، فلما وردت إبل غالب حبس منها ناقتين، فنحرهما، فأطعمهما بني يربوع، فعقر سحيم ناقتين، فقال غالب: الآن عرفت أنه يوائمني، فعقر غالب عشرة، فأطعمها بني يربوع، فعقر سحيم عشرة، فلما بلغ غالبا فعله ضحك، وكانت إبله ترد لحمس، فلما وردت عقرها كلها عن آخرها، فالكثير يقول: كانت أربع مائة، والمقل يقول: كانت مائة، فأمسك سحيم حينئذ. الأصفهاني: الأغاني، ج 21، ص 198.

¹ - نقائض جريير والفرزدق، مج 2، ص 162.

² - المصدر نفسه، مج 2، ص 60.

أما جرير فإنه، من باب الانتقاص من الفرزدق وتحويل مفاخره إلى مخازي، قلل من شأن هذه الحادثة إلى حدّ تقزيمها وتحويلها إلى مجرد حدث بسيط هو أقرب إلى الخجل منه إلى الافتخار، يقول:

لَقَدْ سَرَّيْنِي أَلَّا تَعُدُّ مُجَاشِعٌ مِنْ الْفَخْرِ إِلَّا عَقْرَ نَابٍ بِصَوْعِرٍ¹

فهو يؤكد على أنّ من دواعي سروره ألاّ تجد مجاشع ما تفخر به إلاّ هذه الحادثة، وكأنّها قد تبخرت أمجادها ومحامدها، وقلّ رجاها العظماء الذين يصنعون تاريخها المجيد.

ويقول في موضع آخر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النَّيْبِ أَفْضَلَ سَعِيكُمْ، بَنِي ضَوْطَرَى، هَلَّا الْكَمِيِّ الْمَقْنَعَا²

فجرير يبلغ برفضه حدّ الاستنكار؛ حيث يستنكر عليهم اعتبار حادثة العقر من أفضل أعمالهم التي تستوجب الفخر، ويجبذ لو أنّهم يفتخرون بكونهم فوارس شجعان يظهرون بطولاتهم في ساحات الوغى.

وإن كانت لجرير رؤيته الخاصة اتجاه هذه الحادثة فإنّ للفرزدق رؤيته الخاصة أيضا، لذلك نجده يقول ردّا على ما أبداه خصمه:

أَلَمْ تَعَلَّمَا يَا ابْنَ الْجَشْرِ أَهَّأ إِلَى السَّيْفِ تُسْتَبْكِي إِذَا لَمْ تُعَقِّرِي؟³

فالفرزدق يقول إنّ إبله معوّدة على العقر، فإن تأخر ذلك عنها واستبطأته حنت إليه واعتراها البكاء. ومن هنا تظهر قدرة كلّ شاعر في الانتصار لنفسه والنيل من خصمه حتّى وإن كانت الحادثة واحدة فكّل شاعر ينظر إليها من الزاوية التي تخدم مسعاه، وتفوق الشاعر لا تصنعه الحقيقة فحسب، بل كيفية تفاعله مع هذه الحقيقة.

—حادثة جعثن أخت الفرزدق:

لقد كان لـ"جعثن" أخت الفرزدق النصيب الأوفر من هجاء جرير والتشنيع بها، ولم تنل امرأة من التشنيع ما نالته هذه المرأة التي قيل إنّها كانت امرأة عفيفة مسلمة سالحة. غير أنّ جريرا ما كان له أن يترك حدثا يمرّ

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 282.

² - المصدر نفسه، ص 205.

³ - المصدر نفسه، ص 281.

دون أن يحوّله لصالحه. و ما رُوي عن جعثن* يؤكّد أنّ ما قاله عنها جرير، وما صوّره بتلك الطريقة المسفرة والمبتذلة ليس سوى اختلاقاً من صنع خياله. فهو يخلّق الكثير من الأمور بغية التّيل من الفرزدق، وفي ذلك نجده يقول مذكراً مؤثّياً:

أَنَسَيْتَ وَيْلَ أَيْبِكَ غَدْرَ مُجَاشِعٍ وَمَجْرَ جِعْثِنَ لَيْلَةَ السَّيِّدَانِ¹

لقد أكثر الشاعر من استحضار هذه الحادثة بطريقة مُفحشة، وبالتفاصيل التي شاءت مخيلته الحاقدة أن تخرجها بها، حتّى وإن كانت بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة، وقد أكثر من ترادها وبتفاصيل مغايرة، ولم تكن الغاية منها إلاّ المساس بشخص الفرزدق بإظهاره لا يحمي الحمى ولا يصون شرفه وذلك دليل ضعف لا محالة. يقول:

لَمْ يَخْفَ غَدْرُكُمْ بَعُورَ هَمَامَةٍ وَمَجْرُ جِعْثِنَ وَالسَّمَاعُ الْأَشْنَعُ
أَخْتُ الْفَرَزْدَقِ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ بَاتَتْ وَسِيرُهَا الْوَجِيفُ الْأَرْعُ
قَدْ تَعَلَّمُ النَّحْبَاتُ أَنَّ فِتْنَاتِهِمْ وَطِئَتْ كَمَا وَطِئَ الطَّرِيقُ الْمُهْبِيعُ²

كانت هذه مختلف الحوادث التي أصرّ جرير أن يعيّر الفرزدق بها، غير أنّنا لا نجد الفرزدق يواجه خصمه بحوادث كهذه وإنّما نجده يستحضر بعض الحوادث على سبيل المفاخرة؛ حيث نجده يّح على ذكر حادثتين ارتبطتا بالفخر بأصوله فما فتى يذكرهما في شعره، وكثيراً ما يذكرهما معا وهما: حادثة العيادة بقبر أبيه وحادثة فداء الويدة.

—حادثة فداء الويدة: ترتبط هذه الحادثة بقضية الواد التي اتصلت بالمرأة، وشهدتها بعض القبائل في المجتمع العربي قبل مجيء الإسلام، ولم يؤثر عن أحد من العرب أنّه افتدى وليدة من الواد غير صعصعة جدّ الفرزدق. وقد كان من حديث صعصعة بن ناجية بن عقّال أنه كلّما ولدت امرأة جارية يكفل ابنتها لئلا

*-روي أنّ غالب جاور طلبة بن قيس بن عاصم بالسّيدان، فكانت ابنته ظمياء تحدّث جعثن فاشتتهى الفرزدق حديثها. وشغلت أخته ليلة فأخذ الفرزدق الجلجل الذي كانت تصفّق به لظمياء لتجيء وحركه، فجاءت ظمياء كالعادة، فارتابت بالفرزدق وهتفت وعادت إلى رحلها. فلما سُمع بالأمر تجمع فتيان من مُقاعس، فاستخرجوا جعثن من خبائها، ثمّ سحبوها ليستوعوا بها، ولم يكن أكثر من ذلك. أبو عبيدة: نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 163.

1- المصدر نفسه، مج 2، ص 244.

2- المصدر نفسه، ص 297.

توآد، فسَمي تبعا لذلك محيي الموءودات* .وهي مكرمة لم يسبقه إليها أحد من العرب على حدّ قوله، ومن ثمّ حقّ للفرزدق أن يفخر بها، وهو الأمر الذي لم يفوّته وراح يتطاول من خلاله على جرير؛ حيث قال:

وَكَانَ لَنَا شَيْخَانِ ذُو الْقَبْرِ مِنْهُمَا وَشَيْخٌ أَجَارَ النَّاسَ مِنْ كُلِّ مَقْبَرِ
عَلَى حِينٍ لَا تُحْيَا الْبَنَاتُ، وَإِذْ هُمْ عُكُوفٌ عَلَى الْأَنْصَابِ حَوْلَ الْمُدَوَّرِ
أَنَا ابْنُ الَّذِي رَدَّ الْمَنِيَّةَ فَضْلُهُ، وَمَا حَسَبٌ دَافَعْتُ عَنْهُ بِمُعُورِ
أَبِي أَحَدُ الْعَيْثَيْنِ صَعْصَعَةُ الَّذِي، مَتَى تُخْلِفِ الْجَوَازِءُ وَالنَّجْمُ يُمَطِّرِ
أَجَارَ بَنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجْرُ عَلَى الْفَقْرِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفَرٍ¹

فالفرزدق يفاخر بجده الذي كان له فضل فداء الوئيدة، وقد تفتّن في التعبير عن هذا المعنى، حيث قال إنّه: أجار الناس من كلّ مقبر، وردّ المنية فضله، وأجار بنات الوائدين. فهو يكتف المعنى وإن تنوّعت صيغ التعبير عنه، وكأنّه يصرّ على ترسيخ هذا المعنى في ذهن من خلال تكراره.

واضح ممّا ورد في الأبيات السابقة أنّ الفرزدق يربط بين حادثتين لهما علاقة بالقبر وهما: إحياء الوئيدات وحمايتهن من القبر وبطلها جدّه صعصعة بن ناجية، والعبادة بالقبر وبطلها والده غالب، ولطالما جمع في حديثه بين الحادثتين وجعلهما مناط فخره. وإن كنا تحدثنا آنفا عن الحادثة الأولى، سنأتي على ذكر الحادثة الثانية فيما يأتي:

- العبادة بقبر أبيه:

أكثر الفرزدق من المفاخرة بوالده الذي توافرت فيه جملة من المحامد التي كانت سنداً له في مواجهة خصمه جرير، الذي لم يكن لوالده أيّ مفخرة تذكر، بل اجتمعت فيه جملة من المساوئ التي ما كان له أن يخفيها مقابل ما يجوز عليه الخصم، الذي كان لوالده الفضل حيّاً وميتاً إذ كان الناس يقصدون قبره للعبادة

* روى صاحب الأغاني عن سبب تسمية صعصعة بمحيي الموءودات أنه مرّ برجل من قومه وهو يحفر بئراً وامرأته تبكي، فقال لها صعصعة: ما يبكيك؟ قالت: يريد أن يبد ابني بسبب الفقر، فقال لها اشتريني منك بناقتين وجل ولا تمد الفتاة، وقال صعصعة هذه مكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب فجعل على نفسه ألاّ يسمع بموءودة إلاّ فداها، فجاء الاسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة وقيل: أربعمائة. انظر: الأصفهاني: الأغاني، مج 21 ص 194-193

¹ -نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 280.

به. وتعدّ العيادة بالقبر* مكرمة تنضاف إلى مكارم غالب بن صعصعة، وهي توحى بكرمه اللامحدود؛ حيث إنّه كان كريما في حياته وفي مماته أيضا، فقد كان قبره مقصدا يستعيدون به، وما ذلك إلا دليل على فيض كرمه. وقد ذكر أبو عبيدة ((أنّ العرب كانت تستجير بقبره، وكان المستجير به يصير إلى مجنته، وتُقضى حاجته، وكان هو علما في ذلك، ولم تعرف العرب الاستجارة بالقبر إلا بقبر غالب))¹، وهو الأمر الذي حذا بالفرزدق أن يفاخر به جريرا مقابل ما عُرف عن والد جرير من قلة ذات اليد والبخل الشديد. قال عن ذلك مزهواً:

ومنا الذي منَع الوائِداتِ وأخى الوئيدَ فلم يؤدِ
وناجيةَ الحَيرِ والأفرعانِ، وقبْرَ بكاطمةَ المَوردِ
إذا ما أتى قَبْرُهُ غارمٌ أناخَ إلى القَبْرِ بالأسعدِ
فذاك أبي وأبوهُ الذي لمقَعَدِهِ حُرْمُ المَسجِدِ²

فهو يفخر بكون قبر والده الموجود بكاطمة يستجيب لطلبات العائدين به فلا يردهم خائبين، وكأنهم إذا قصدوا قبره بلغوا نجم سعدهم .

كانت تلك مختلف الوقائع التي شكّلت مقدّمات للحجاج ومنطلقا له، وقد تمثّلت في الأيام(الوقائع الحربية) و الأحداث التاريخية والاجتماعية التي اتخذها كلٌّ من جرير والفرزدق في حربهما الكلامية والمنافسة الدائرة بينهما، وقد خوّلت لهما الغاية الاستعانة بكلّ ما يقوّي جانبهما، بغض النظر عن حقيقته.

2-القيّم:

تحتكم الجماعة إلى مجموعة من القيم التي تنظّم علاقات الأفراد فيما بينهم وعلاقاتهم بالجماعات الأخرى، وهي لا تتسم بالكونية بل تخضع لحدود الزمان والمكان أي إنّها متغيرة من جماعة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر مع أنّه توجد قيم تتجاوز حدود الزمان والمكان خاصّة إذا كانت ذات طابع إنساني يخوّل لها امتداد

*- أورد الأصفهاني ثلاث قصص عن العيادة بقبر غالب اخترنا منها واحدة، وهي تروي قصة امرأة اشتاقت إلى ولدها(حبّيش)الذي كان في جيش تميم بن زيد، فقبل لها عليك بالفرزدق فاستجيري بقبر والده، فأنت قبر غالب بكاطمة حتى علم الفرزدق مكانها، ثم أتته، وطلبت إليه حاجتها، فكتب إلى تميم بن زيد فأنفذه إليها. انظر: الأغاني، ج 21، ص 248.

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 280.

² -المصدر نفسه، ص 175.

الصلاحية. وتحظى القيم بقدر كبير من القبول والتسليم، فتخضع لها الجماعة وتكون قاسما مشتركا بين الجميع، يحتكمون إليها ويسيروا وفقها.

وتأتي أهمية القيم بالنسبة للعملية الحجاجية من كونها تشكل مجال اتفاق الجماعة، وبالتالي فهي تصلح لأن تكون مقدمات للمحاجة، وذلك بالاحتكام إلى ما تحتكم إليه الجماعة. ويعدّ الالتزام بالقيم معيارا للحكم على الناس والمفاضلة بينهم، ووفقها تبلور مسوغات المدح والهجاء.

وقد رسّخت الحياة العربية قيما دون غيرها رأتها الأنسب والأصلح لتلك الحياة بكلّ ملاساتها. وسعى الكلّ إلى امتثال هذه القيم لبلوغ النموذج الأمثل للفضيلة، ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذا المجال فراحت ألسنتهم تثبت هذه القيم وتدعو لها بالاستحسان والاستهجان من خلال وصفهم للأشخاص الذين يتمثلونها.

ويذهب بعض الدارسين إلى أنّ الشعراء يتفقون على الفضائل الأربعة التي حددها قدامة بن جعفر وجعلها متصلة بالمدح وهي: العقل، الشجاعة، العدل والعفة، وبها يُمدح الرجال وتحتها تندرج كلّ القيم العربية¹، ويتضح ذلك من قول قدامة: ((إنه لما كانت فضائل الناس، من حيث إنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل والشجاعة، والعدل، والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع خصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا))². وبهذا يكون قد حدّد مجال المدح من خلال هذه الفضائل الأربع التي ذكرها، وسلب هذه الفضائل وغياها يشكل مجال الهجاء، مع الإشارة إلى أنّ هذه الفضائل هي فروع كبيرة تتفرّع عنها فضائل أخرى.

وفي تفصيل ما يندرج تحت هذه القيم قال قدامة: ((من أقسام العقل ثقابة المعرفة والحياء والبيان والسياسة والكفاية والصّدق بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجري هذا المجرى. ومن أقسام العفة القناعة وقلة الشره وطهارة الإزار وغير ذلك مما يجري مجراه. ومن أقسام الشجاعة: الحماية والدفاع والأخذ بالثأر والنكاية في العدو والمهابة وقتل الأقران والسير في المهامه الموحشة، وما أشبه ذلك. ومن أقسام

¹ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيتها وأساليبه، ص 183.

² - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د. ط. د. ت. ص 96.

العدل: السماح ويرادف السماح التغابن، وهو من أنواعها، والانظام والتبرع بالنائل وإجابة السائل وقرى الأضياف، وما جانس ذلك))¹.

وإذا كانت هذه تمثل جلّ المعاني التي يتّصل بها المدح حسب قدامة ولا يُمدح الرجل إلاّ بها، فإنّ سلب هذه المعاني هو ما يبرز الوجه السّلي المعاكس ويشكّل لنا دائرة الهجاء.

وبالنّظر إلى هذه القيم التي ذكرها قدامة نجد أنّ نصوص النقائض قد حفلت بها، سواء أكانت بغرض المدح أو الهجاء، ومما ذكر عند الشّاعرين نسرده ما يأتي:

1-العقل:

أراد كلّ من جرير والفرزدق أن يثبت لنفسه الأفضلية، من خلال إثبات هذه الصّفة لنفسه أو لقومه، على اعتبار أنّ هذه القيمة كانت دائماً معيار مفاضلة وعلة سؤدد وسيادة. قال الفرزدق مفاخراً:

أَحْلَامُنَا تَرِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَتَخَالُنَا جَنّاً إِذَا مَا نَجْهَلُ²

فهو يلحق صفة التعقّل بقومه، إذ جعل عقولهم بوزن الجبال من حيث الرّزانة وعدم التسرّع واتخاذ القرارات الطائشة، التي من شأنها أن تلحق الضّرر بأصحابها، لكنّه لا يكتفي بذكر هذه الصّفة فحسب بل يُظهر الجانب المعاكس لها وهي أنّهم يصبحون كالجحّ إذا استبدّ بهم الجهل. ولعلّ الشّاعر يريد من الشّطر الثّاني أن يدلّل على قوّتهم وشدّة بطشهم أو أنّ لهم القدرة على تلبّس الحالتين وقتما شاءوا فيكونون في منتهى العقل متى أرادوا ذلك وفي منتهى الجهل متى أرادوا ذلك أيضاً.

ولم يتمالك جرير نفسه أمام ما تطاول به الفرزدق فيسارع إلى إثبات هذه الصّفة لقومه فيقول:

أَحْلَامُنَا تَرِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَيَفُوقُ جَاهِلُنَا فَعَالَ الْجُهْلُ³

لكنّه لا يقول بكلّ ما قال به الفرزدق، وإن شاركه في الشّطر الأوّل فإنّه يخالفه في الشّطر الثّاني؛ بحيث نسب الجهل لجاهلهم الذي أظهره في منتهى القوّة، وعليه يكون جرير قد وُفّق في إظهار صفة العقل لقومه أكثر

1 - قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، ص 98.

2 - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 138.

3 - المصدر نفسه، ص 164.

من صاحبه، ففي الوقت الذي جمع الفرزدق لقومه الرزاة والجهل، مع أنّ الجهل ليس من الرزاة في شيء نجد جريرا ينسب الرزاة لقومه، وشدة الجهل لجاهلهم الذي أورده بصيغة المفرد، مما يجعلنا نستنتج أن الرزاة سمة القوم العامة أمّا الطيش ففي بعضهم فقط.

وبعد أن جرى جرير خصمه في إثبات الصفة لقومه يحاول أن ينفيها عنه وينقضها عليه فيقول :

أَبْلُغَ بَنِي وَقْبَانَ أَنَّ حُلُومَهُمْ خَفَّتْ فَلَا يَزِنُونَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ¹

فهو يخاطب الفرزدق ويطلب منه أن يبلّغهم فحوى رسالته، والتي تتضمن وسمهم بالحمق؛ حيث نبرهم بـ "بني وقبان" وهو نبز لبني مجاشع، ولا يكفي بهذا بل يسمهم بخفة عقولهم، وبعد أن كانت بثقل الجبال جعلها أخفّ من حبة الخردل، وبذلك يكونون للسفة أقرب منه للعقل.

ويبدو جرير أكثر تعقلا حين يسعى إلى إقناع خصمه بكلّ هدوء وحكمة، وهو حين يتلبس ثوب الحكمة والوقار يكون أكثر إقناعا، يقول:

مَهَلًا فَرَزْدُقُ إِنَّ قَوْمَكَ فِيهِمْ خَوَّرَ الْقُلُوبَ وَخَفَّةَ الْأَحْلَامِ
الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمَى بِجَمِيعِهِمْ وَالنَّازِلُونَ بِشَرِّ دَارٍ مُقَامٍ²

فجرير يدعو الفرزدق إلى التمهّل وعدم التسرع، وكأنّه بذلك يثبت له ما وسم به قومه، ثمّ يؤكد له تلك الحقيقة المرّة، وهي أنّ قومه يتسمون بالجبن وخفة العقول، ولا يكفي بإصدار الحكم إنّما يدلّل عليه بما يقف شاهدا على صحّته وهو أنّهم لا يترثون ولا يبالون بعاقبة الأمور وذلك دليل خفة عقولهم، كما أنّهم لا يتخيرون المنازل وإنّما يتخذون ما تركه الناس وذلك دليل جبنهم وضعف عزيمتهم.

لكنّ الفرزدق لا يأبه لقول جرير فيلحّ مؤكدا على هذه الصفة:

إِنَّا لَتَوَزَّنُ بِالْجِبَالِ حُلُومَنَا وَيَزِيدُ جَاهِلُنَا عَلَى الْجُهَالِ³

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 165.

2 - المصدر نفسه، ص 200.

3 - المصدر نفسه، ص 207.

ويظهر إصرار الفرزدق على هذه الصفة من خلال تكثيفه لأدوات التوكيد؛ حيث أخبر بأن حلومهم بوزن الجبال، لكنّه لم يكتف بإلقاء هذا الخبر ابتدائياً لأنّه يعلم يقيناً أنّ جرير يشكك في هذا الخبر ولا يسلم به لذلك عمد إلى تدعيمه بأكثر من مؤكّد حيث استهلّ الخبر بـ"إنّ" ودعّمها باللام "ليقوي الخبر من جهة وينفي عنه الشك من جهة ثانية.

لا أحد ينكر ما للعقل من قيمة بالنسبة للفرد والجماعة، ويكفيه أنّه السمة الفارقة بين الإنسان والحيوان، وأنّ في غيابه لا تستقيم الحياة، إلّا أنّ اهتمام جرير والفرزدق بهذه الصفة وإصرارهما على اتصاف قومهما بها لا يمكن أن يكون ناتجاً عما تمثله هذه الصفة في ذاتها وإتّما فيما تدلّل عليه من سيادة وسؤدد لا يمكن أن يبلغهما إلّا الإنسان العاقل.

2- العنفة:

عند الحديث عن الجانب الأخلاقي للشاعرين يُجمع الكتب على أنّ جريراً كان أكثر تعففاً* مقارنة بالفرزدق الذي عُرف بفساد أخلاقه ممّا جعل ذلك مطيّة لهجائه. قال جرير:

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا	وَجَاءَتْ بَوُزُوزٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ
وَمَا كَانَ جَارًا لِلْفَرَزْدَقِ مُسْلِمًا	لِيَأْمَنَ فِرْدًا لَيْلُهُ غَيْرُ نَائِمِ
يُوصِلُ حَبْلِيهِ إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ	لِيَرْقَى إِلَى جَارَاتِهِ بِالسَّلَالِمِ
أَتَيْتَ حُدُودَ اللَّهِ مُدُّ أَنْتَ يَافِعُ	وَشِئْتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَبَبُ اللَّهَازِمِ
تَتَّبِعُ فِي الْمَاخُورِ كُلِّ مُرْبِيَةٍ	وَلَسْتَ بِأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكَرَائِمِ
رَأَيْتُكَ لَا تُوفِي بِجَارٍ أَجْرَتَهُ	وَلَا مُسْتَعْفًا عَنِ لِيَامِ الْمَطَاعِمِ ¹

*- يذهب بعض الباحثين إلى رفض فكرة أن جريراً كان أكثر تعففاً من الفرزدق ومنهم الحاوي الذي يقول: ((وإننا قد نسخر هنا، ثمّ ينعنون جريراً بالعنفة لغزله الوجداني، وبخاصة سكينه ابنة الحسين إذ قالت: "إتّك عفيف وفيك ضعف". فأية عنفة تلك التي يصف بها مشاهد الدعارة والزنى)). انظر ايليا الحاوي: فن الهجاء وتطوره عند العرب، ص 329. وإننا نستغرب معه إجماع الدارسين على عفته برغم ما يظهره شعره من مجون، وكأنّ عفته مربوطة بحياته الشخصية لا بأشعاره، وحينذاك يكون التساؤل: من أي خلفية ينطلق جرير في وضع أشعاره تلك؟؟

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 285.

فجرير يؤكّد سوء أخلاق الفرزدق وإصراره على الرذيلة والفساد حتّى إنّ الشّيب قد علاه وهو لا يترفع عن مجونه وفسوقه الذي لازمه منذ صغره، فهو لا ينتهي أبداً، وجانب العفة مفقود تماماً لديه حتّى إنّ لا يتعفّف في مأكله ومشربه.

ولا يقف الهجاء عند حدود شخص الفرزدق وجريير بل يمتدّ حتّى إلى النّساء، والحديث عن سوء أخلاق النّساء يعود على القبيلة ككلّ، لأنّ المرأة مناط شرفها وعزّتها وبها يرتبط النّسب الصّريح الذي يُعدّ مفخرة الإنسان العربي. ومن الحديث على الجانب الأخلاقي للنّساء ما ورد على لسان الفرزدق الذي راح يشنّع بنساء بني كليب ملحقا بهنّ أسوأ النّعوت، وخاصة إذا تعلّق الأمر بالعفة والشرف، يقول:

أَلَا قَبِيحَ الْإِلَهِ بَنِي كَلَيْبِ	ذَوِي الْحُمُرَاتِ وَالْعَمَدِ الْقِصَارِ
نِسَاءً بِالْمَضَائِقِ مَا يُوَارِي	مَخَازِيَهُنَّ مُنْتَقِبُ الْخِمَارِ
وَمَا أَبْكَارُهُنَّ بِثَبِيَّاتِ	وَلَدَنْ مِنَ الْبُعُولِ وَلَا عَذَارِي ¹

فهو يهجو نساء بني كليب بأسوأ النّعوت، فهنّ لا يستترن عن الرّجال ولا يتمنّعن ويتحصنّ وهو ما جعلهنّ يؤنّين الفاحشة النّكراء فلا هنّ متزوّجات ولا هنّ عذارى، وما كلّ ذلك إلّا لفجورهنّ وعدم تعفّفهنّ.

3- الشّجاعة:

تندرج تحت هذه الصّفة جملة من الصّفات التي حاول الشّاعران استحضارها ليتخذها منها منطلقاً لإثبات الشّجاعة لهما ولقبيلتيهما . وتبقى الحرب المجال الذي يتصدّر كلّ المجالات الأخرى لإثبات الشّجاعة والقوّة، لذلك نرى الشّاعرين يتسابقان لإثبات تميّزهم بذلك، يقول جرير:

أَلَسْنَا نَحْنُ قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَدَّ	غَدَاةَ الرَّوْعِ أَجْدَرَ أَنْ نَعَارَا
وَأَضْرَبَ بِالسُّيُوفِ إِذَا تَلَاقَتْ	هَوَادِي الْحَيْلِ صَادِيَةً حِرَارَا
وَأَطْعَنَ حِينَ تَحْتَلِفُ الْعَوَالِي	بِمَأْزُولٍ إِذَا مَا النَّفْعُ ثَارَا
غَضِبْنَا يَوْمَ طِحْفَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ	فَصَفَدْنَا الْمُلُوكَ بِهَا اعْتِسَارَا ²

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 170.

² - المصدر نفسه، ص 186.

فالشاعر قد حشد جملة من الأفعال التي تصبّ في بوتقة واحدة وهي قوّة القبيلة وشجاعتها، وقد أراد أن يثبت أفضليتهم في هذا المجال فاستعمل أفعال التفضيل (أجدر-أضرب-أطعن) ليؤكد براعتهم في مختلف فنون القتال من ابتداء الإغارة واستعمال مختلف أنواع الأسلحة من سيوف ورماح وغيرها، وتظهر شجاعتهم أكثر من خلال البيت الأخير الذي يتحدّث عن أسرهم للملوك، ولا بدّ أنّ ذلك صادر عن قوّة وعن شجاعة أيضا.

ويقول الفرزدق مفاخرا بموقفهم الإيجابي في الحرب:

لا قَوْمَ أَكْرَمُ مِنْ تَمِيمٍ إِذْ عَدَتْ
عَوْدُ النِّسَاءِ يُسْقَنَ كَالآجَالِ
الصَّارِبُونَ إِذَا الْكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ
والتَّازِلُونَ غَدَاةَ كُلِّ نِزَالٍ¹

وترتبط بالحرب قضية أخرى يغلب عليها الجانب الإنساني أكثر من القوّة؛ حيث يستجيب فيها المرء لإنسانيته أكثر من أيّ شيء آخر، ويرحم ضعف النفس البشرية، ويبلغ بالتسامح ذروته، وبذلك يمثّل جوهر ما يتمخض عن فكرة "العفو عند المقدرة"، يقول الفرزدق:

ولا نَقْتُلُ الْأَسْرَى * وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ²

إنّ إطلاق سراح الأسرى سلوك إنساني ينمّ عن الرّفعة والسموّ، وفيه قدر كبير من الشّجاعة والقوّة، كما أنّه انتصار معنوي يُضاف إلى الانتصار المادي.

4-الأخذ بالثأر:

يندرج "الأخذ بالثأر" ضمن قيمة الشّجاعة، لأنّه حسب أعراف المجتمع العربي الجاهلي دليل قوّة حقيقية، وقد ارتبط بهذا الفعل جانب أسطوري يحفّز على إتيانه وعدم تناسيه رغم مرور الزمن. وفي ظل مجتمع يكرّس هذه الفكرة كان عدم الأخذ بالثأر معرّة تلحق الفرد والجماعة على حدّ سواء، لأنّه دليل ضعف خاصّة في ظل مجتمع يحتكم إلى القوّة والأعراف، قال الفرزدق:

قَبَّحَ الْإِلَهِ بَنِي كَلَيْبٍ إِنَّهُمْ
لا يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لِجَارِ

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 201.

*- قيل إن هذا البيت الشعري يرتبط بمحادثة نبي السيف في يد الفرزدق حيث إنه بعد أن عجز عن قطع رقبة الأسير استوهبه من سليمان بن عبد الملك فوهبه إياه، فأعتقه وكساه، وقال قصيدته التي تتضمن هذا البيت. انظر: الأصفهاني: الأغاني، ج 15، ص 233.

² - المصدر السابق، مج 2، ص 150.

يَسْتَيْقِظُونَ إِلَىٰ نُهَاقِ حِمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأُوتَارِ¹

تتصافر المعاني المبتوثة على مدار البيتين لصالح نتيجة واحدة وهي ضعف بني كليب الذين تجتمع لديهم المتناقضات، فهم لضعفهم لا يقدرّون على الغدر ولا على الوفاء للجار، ولضعفهم أيضا يستجيبون لنهيق حمارهم ولا يستجيبون للتأر لقتلاهم. وقد أحسن الفرزدق تصوير تقاعسهم عن الأخذ بالتأر، وذلك عندما جعلهم يستيقظون لسماعهم نهيق الحمار في حين تنام أعينهم غفلة عن طلب التأر.

وإلى المعنى ذاته ذهب جرير؛ حيث سلب خصمه هذه الخصلة فقال:

لَا يَخْفَيْنَ عَلَيْكَ أَنَّ مَجَاشِعًا إِذْ يُؤْسَرُونَ فَمَا يُفَكُّ أَسِيرُهُمْ
لَوْ يُنْفَخُونَ مِنَ الْخُؤُورِ لَطَارُوا وَيُقْتَلُونَ، فَتَسَلَّمَ الْأُوتَارُ²

فهو يصرّح بداية بضعف مجاشع ويجعل ذلك غير خافٍ على الفرزدق، ويورد دليل ضعفهم، وهو أنّهم لو نُفخوا من القصب الفارغ لتطايروا في الهواء، ثمّ امتدّ بضعفهم إلى مجال الحرب ولم يكتفِ بإلصاق الهزيمة بهم فحسب، بل جعلهم يعجزون عن استرداد أسراهم من جهة والتأر لقتلاهم من جهة أخرى.

ويعبّره في موضع آخر فيقول:

وَمَا لَأَقَيْتَ وَبِئْسَ مِنْ كَرِيمٍ يَنَامُ كَمَا تَنَامُ عَلَى التَّرَاتِ³

فيذهب إلى أنّ الكريم لا ينام أبدا عن الأخذ بالتأر وبذلك سلبه صفتين إيجابيتين وهما: الكرم والأخذ بالتأر. وقد ثبت ممّا تقدّم أنّ الأخذ بالتأر كان من القيم التي استحضرها شعراء التّقاء وعدّوها من الصّفات التي يقوم عليها المدح والهجاء. مع الإشارة إلى أنّ الشّاعرين قد وظّفاها في غرض واحد فقط وهو الهجاء وكانت غالبيتها في إطار الهجاء القبلي.

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 239.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 223.

3 - المصدر نفسه، ص 167.

5- قرى الأضياف:

أدرجها قدامة ضمن قيمة العدل، وتعتبر هذه الصفة من ميزات الإنسان العربي جاهلية وإسلاماً، لذلك كانت مما يمدح به الرجل ويعير بعدم إتيانها. ويعدّ الكرم مما يتوجب أن يفخر به المرء حقاً، لما تتميز به هذه القيمة من خصوصية، فهي تعكس تفاعل الإنسان مع أخيه الإنسان بغض النظر عن أي اعتبار، وهي ضرب من التكافل الذي يسهم في تحقيق التوازن الاجتماعي. وتتماز هذه القيمة عن باقي القيم الأخرى في كونها بذل لصالح الآخر لا لصالح الذات، قال الفرزدق:

وإنّ مجاشعاً قد حمّلتني
أمورا لن أضيّعها كياراً
قري الأضياف ليلة كل ربح
وقدماً كنت للأضياف جارا¹

أظهر الشاعر قيمة هذه الصفة عندما جعلها وصية قومه له وأنّ عليه الالتزام بها، وتزيد قيمتها أكثر عندما يتخذ لها زمناً محدداً وحددته عبارته "ليلة كل ربح" وقتها يصبح قري الضيف مطلباً صعباً لا يقدر عليه إلاّ الكريم القادر. ويوضح لوحة الكرم هذه فيقول:

وقد علم الجيران أن قدورنا
ضوامن للأزراق والريخ زفرف
نعجل للضيفان في المحل بالقرى
قدورا بمعبوط ثمّد وتعرف
تفرغ في شيزى كأن جفانها
حياض جبي منها ملاء ونصف
تري حولهم المعتفين كأنهم
على صنم في الجاهلية عكف
قعودا وخلف القاعدين سطورهم
جنوح وأيديهم جموس ونطف²

وهو يرى أنّ الحديث عن الكرم لا يكون كافياً ما لم يستحضر صورته عند خصمه جرير لذلك يردف إلى الصورة السابقة قوله:

وكنا إذا نامت كليب عن القرى
إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف³

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 188.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 15.

3 - المصدر نفسه، ص 18.

وبذلك يجعل قبيلته تتفرد بإتيان هذه الفضيلة؛ حيث يصوّر قومه يسارعون إلى إقراء الضيف في الوقت الذي تنام فيه كليب عن هذا الفعل، وكليب إذا نامت عن الكرم فقد نامت عن المجد والسؤدد الذي تسعى كل قبيلة جاهدة لبلوغه.

ومّا سبق، نكون قد استعرضنا جملة من القيم الاجتماعية التي حدّدها قدامة بن جعفر، والتي يقيم من خلالها سلوك الإنسان بالمدح أو الهجاء. وقد رأينا كيف سعى كل من جرير والفرزدق إلى إثبات القيم الإيجابية إلى نفسه وقبيلته ونفيها عن الخصم، وبالمقابل نفي كل القيم السلبية عن النفس وإحاقها بالآخر، وذلك سعياً لإقناع المتلقي بأفضلية الذات ودونية الآخر.

المبحث الثاني:

الحجج وأنواعها في النقائض

كنا قد تحدثنا، في موضع سابق*، عن مختلف الحجج التي يمكن للمحاجج أن يدعم نصه الحجاجي بها، وسنخصّص هذا المبحث لعرض مختلف الحجج التي احتوتها النقائض، والتي وظّفها كل من جرير والفرزدق من أجل الوصول إلى مساعهما المتمثل في إثبات الأفضلية للذات والدونية للآخر، وجعل الآخرين يقتنعون بذلك وحملهم على التسليم به.

وسنعمد في عملنا هذا على تصنيف برلمان وتيتكا لهذه الحجج؛ حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام، يندرج تحت كلّ قسم مجموعة من الحجج، إضافة إلى جهود الدارسين العرب الذين تناولوا كتاب "مصنّف في الحجج البلاغة الجديدة" بالدراسة والعرض والتبسيط.

وقبل الشروع في هذا العمل لابد من الإشارة إلى أنّ طبيعة النصّ الشعري تختلف عن النصّ النثري لذلك فإننا لن نقف إلاّ على تلك الحجج التي احتوتها مدوّنة البحث حتّى لا نحمل النصّ أكثر ممّا يطيق، ولا نشعر بأننا نتعامل مع البحث بشيء من التعسّف.

وفيما يلي نعرض مختلف الحجج التي احتوتها نقائض جرير والفرزدق، على أننا لن نعمد إلى تفصيل هذه الحجج إلى فروعها، وإنما سنتناولها من خلال الأصناف الكبرى التي تحتويها، وقد جعلها برلمان وتيتكا ثلاثة أصناف كبرى وهي :

أولاً: الحجج شبه المنطقية :

وتندرج ضمن هذا الصنف الحجج الآتية:

1- التناقض وعدم الاتفاق:

تظهر هذه الحجّة في نقائض جرير والفرزدق من خلال مواجهة الخصم بعدم صلاحية مسعاه الذي يروم بلوغه، على اعتبار أنّه يقوم على التناقض و عدم الاتفاق، وبالتالي فهي حجّة مسخّرة ضدّ الخصم للانتقاص منه وإثبات دونيته، قال الفرزدق:

يَا بِنَ الْمَرَاةِ كَيْفَ تَطْلُبُ دَارِمًا وَأَبُوكَ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارٍ¹

*- كنا قد تعرضنا للحديث عن الحجج وأنواعها في المبحث الثالث من الفصل الأول عند الحديث عن جهود برلمان وتيتكا في النظرية الحجاجية، وكنا قد تتبعنا تصنيفه للحجج وبإسهاب، ونبينا في ذلك ألا نثير الجانب النظري ثانية ونخصّص هذا الموضوع للتطبيق فحسب.

¹ -نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 235.

يتضمّن البيت أطروحتين لا تتفق إحداها مع الأخرى، وبالتالي يبدو التناقض واضحاً بين ما يصبو إليه جرير (ابن المراغة)، وهو بلوغ مجد دارم، وبين حقيقة حاله وضعة نسبه، كما تضمّن الشطر الثاني، فمن يكون هذا نسبه وهذه مكانته الاجتماعية، فإنّه لا يطمح أبداً لبلوغ أي مجد.

وفي موضع آخر يقول:

فَإِنَّكَ إِذْ تَسْعَى لِتُدْرِكَ دَارِمًا لِأَنَّتَ الْمُعْتَى يَا جَرِيرُ الْمُكَلَّفُ
أَتَطْلُبُ مَنْ عِنْدَ النُّجُومِ وَفَوْقَهَا بَرْنِقٍ وَعَيْرٍ ظَهْرُهُ مُتَقَرِّفٌ¹

بداية يصرح الفرزدق لجرير بأنّه لن يجني من سعيه لبلوغ دارم إلاّ التعب، أي إنّ مسعاه فاشل، ثمّ يقابل بين ما يسمو إليه وبين عدّته في ذلك، فهو يسمو لبلوغ مجد دارم، وعبر عنها الفرزدق بـ"النجوم و فوقها" للدلالة على الرفعة والسؤدد، ونشتم منها رائحة الاستحالة والتعجيز أيضاً، وما أعدّه لذلك: حبل لربط الجداء وحمار مقروح الظهر. فالفرزدق يبرز هذه المفارقة بين الحال والآمال من منطلق أنّ هذه الملكية لا تمكّنه أبداً من بلوغ المجد.

ويّخذ هذا الصنف من الحجج أشكالا أخرى، تظهر من خلال ما يأتي:

- قلب البرهان على صاحبه:

تبنى هذه الحجّة على اعتماد حجّة الخصم، وإثبات أنّها في حقيقة الأمر تناقض ما يذهب إليه، أي إنّها تقف ضده. وبالتالي فهي لا تخدم مسعاه وإنّما تنقلب عليه، ولا تُسجّل له بل عليه. وهذه الاستراتيجية لا ترتبط بالحجاج فحسب، وإنّما تُعد من طرق بناء التقيضة أيضاً.

قال الفرزدق مُفَنِّداً اعتقادات جرير ومزاعمه في إطار سعي كلّ واحد منهما إلى الارتقاء بقومه ونفسه في ميدان المنافسة على المجد والسّيادة:

أَتَطْلُبُ يَا حِمَارَ بَنِي كُليبٍ بِعَانَتِكَ اللَّهُمِيمَ الرَّغَابَا
وَتَعْدِلُ دَارِمًا بَيْنِي كُليبٍ وَتَعْدِلُ بِالْمَفَقَّةِ السَّبَابَا²

فالفرزدق ينكر على جرير ما ذهب إليه في سبيل الارتقاء بقومه وأجدادهم إلى أجداد قوم خصمه، يُنكر عليه سعيه لبلوغ سادة القوم ووجهائهم بما يملكه من الحُمر الوحشية، إذ إنّ هذه الملكية في حدّ ذاتها لا تصنع مجداً، كما يُنكر عليه التسوية على المستوى الجمعي العام، الذي يظهر أكثر ما يظهر في الانتماء وعلى المستوى

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 22.

² - المصدر نفسه، مج 1، ص 333-334.

الشخصي الخاص والذي تمثل الملكة الشعرية أجلّ تمظهراته. ففي منظوره الخاص لا مجال لمساواة دارم بيني كليب، كما لا يمكن في مجال الإبداع الشعري أن تسوّى قصيدته المفقّنة، وكلّ ما يشاكلها من قصائده الهجائية المؤثّرة، التي تفعل فعلها في الخصم بقصائد جرير في السّباب والتي لا تؤثّر في الخصم. فالفرزدق إذن ينكر ما ذهب إليه جرير ويقلب برهانه عليه وينتصر لقومه ونفسه وشاعريته.

ومن المواضع التي اعتمد فيها الفرزدق حجّة قلب البرهان على صاحبه ما يرتبط برثاء جرير لزوجته خالدة؛ حيث نجد يقول:

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ
وَلُزْرْتُ قَبْرِكَ وَالْحَيِيبُ يُرَارُ¹

فالشاعر من فرط وجده بجليته وعدم تحمّله لخبر رحيلها يرغب في زيارتها في القبر لولا الحياء الذي يمنعه من الإقدام على هذا الفعل، غير أنّ الفرزدق لا يتقبّل منه هذا العذر الذي صنعه لنفسه، وأكثر من ذلك فهو لا يقبل أمر الزيارة ولا يرى في هذا الفعل أية مشروعية، وبالتالي فهو يردّ على جرير ما يُظهره من ودّ ومحبة اتجاه فقيدته، وما يصوّره من حزن وأسى على فقدانه لها، فهو يقلب هذا البرهان على صاحبه ويحكم ببطلان هذا الفعل فيقول:

إِنَّ الزِّيَارَةَ فِي الْحَيَاةِ، وَلَا أَرَى
مَيْتًا إِذَا دَخَلَ الْقُبُورَ يُرَارُ²

ومنطلق الشاعر في هذا الحكم هو أنّ التزاور لا يكون إلّا بين الأحياء الذين يحيون حياتهم الدنيوية أما الأموات فيسقط عنهم هذا الحق، ويُنتزع منهم مع آخر نفّس ويصبح لا نصيب لهم فيه. والزيارة كفعل اجتماعي لا تظهر قيمته إلّا لمن يعيه ويدرك أهميته وأثره، كما أنّ زيارة القبر لا تقدّم شيئاً لصاحبه الذي لم تعد تربطه بالحياة أية علاقة بعد أن انقطعت صلته بالدنيا وما فيها.

-السخرية:

وتتأتى حجّة السخرية من كون التناقض وعدم الاتفاق يقود أحيانا كثيرة إلى "الإضحاك"، إنّها توقع بالخصم، وتهدم ما بينه بالخطاب، بل تجعل كلّ الوضعية مضحكة حين تبرز العبثية، وتوغل في تصوير المفارقة الصارخة.

وبالنظر إلى التّصوص الشعرية لكلّ من جرير والفرزدق، نلاحظ أنّهما وظّفا هذه الحجّة بغرض إفحام الخصم من جهة، والإقناع بسلبيته من جهة ثانية، خاصّة وأنّ هذه الحجّة ترتبط ارتباطا وثيقا بغرض

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 214.

2 - المصدر نفسه، ص 232.

الهجاء؛ حيث ((كانت مهارة الهجاء تتركز في إدراكه لوجه النقص البارز في خصمه، وقدرته على الافتنان والتصرف في استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة الساخرة منه))¹. وفيما يأتي، سنعرض بعض النماذج التي رسمها كل شاعر لخصمه. يقول الفرزدق:

عَجِبْتُ لِرَاعِي الضَّانِ فِي حُطْمِيَّةٍ فِي الدَّرْعِ عَبْدٌ قَدْ أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ
وَهَلْ تَلْبَسُ الحُبْلَى السِّلَاحَ وَبَطْنُهَا إِذَا انْتَطَقَتْ عِبَاءٌ عَلَيْهَا تُعَادِلُهُ²

تظهر السخرية في هذين البيتين من خلال هذه الصورة المتناقضة التي رسمها الفرزدق لجرير، وقد افتتح البيت الأوّل بعبارة "عجبت" ممّا يوحي في نفس المتلقّي أنّ ما سيأتي على ذكره يتسم بالبعد عن المنطق السليم والمعقولة، ثمّ يُفصح عن الصورة التي أثارت تعجّبه، وهي منظر راعي الضّان، ويقصد به جرير، وهو يلبس الدرع. ويتجلى التناقض في هذه الصورة، انطلاقاً من كون الراعي الذي تمثّل الضّان جلّ اهتمامه، وقد لبس درعا، ممّا يعني أنّه مقبل على الحرب، وهو يستند على ما استقرّ في العقلية العربية من أنّ الراعي للبهائم، وللحرب فرسانها.

وتزداد السخرية حدّة في البيت الثّاني، عندما يشبّه جرير، وهو مقبل على الحرب، بالمرأة الحامل، موظّفاً استفهاماً إنكارياً ينطوي على كثير من الاستهزاء من صورة المرأة الحامل التي تلبس الدرع، هل ستعبأ حينها بحمل درعها وسلاحها أم بحمل بطنها؟ إنّ تصوير الفرزدق لجرير بهذه الصورة الساخرة، لا يجعلنا نسخر منه فحسب، بل يجعلنا مقتنعين بعدم أهليته للحرب، خاصّة وأنّ العرب تهزّم أحاديث البطولة والشّجاعة والفروسية، والفرزدق بقوله السّابق قد أغلق هذا الباب على خصمه.

ويجد الشّاعران في التّشبيه بالحيوان مجالا رحبا للسّخرية؛ حيث ((يعمد الشّاعر إلى الخطّ من شأن الآخر عن طريق التشبيهات المعكوسة، التي يكون فيها المشبّه به أقلّ منزلة من المشبّه، وبالتالي فالشّاعر يتعمّد الإساءة للطرف الآخر عن طريق السّخرية والاستهزاء))³. ومجرد التفكير في تشبيه الإنسان بالحيوان، يحمل دلالات سلبية، حتّى وإن ركّزنا على الجانب الإيجابي، كما أنّه ينطوي على قدر كبير من التّحقير والاستهزاء، وتحويل الآخر إلى مضحكة للآخرين.

1 - محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ص 109-110.

2 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 59.

3 - عبد الفتاح أحمد يوسف: الخطاب السجالي في الشعر العربي، ص 188.

يقول الفرزدق:

رَأَيْتُ ابْنَ الْمَرَاغَةِ حِينَ ذَكِّي تَحَوَّلَ غَيْرَ حَيْثِهِ حِمَارًا¹

فهو يشبهه جرير بالحمار، ويجعل وجه الشبه بينهما "الذكاء" والمأثور في ثقافتنا العربية أنّ الحمار مشهور بالغباء، وبالتالي فالفكرة التي يودّ ايصالها هي أنّ جريرا حينما يصبح ذكيا فهو كالحمار، أي إنّ ذكائه وغباء الحمار متساويان، و((حتى تتمّ السخرية جعل المشبه به "الحمار" أقلّ مرتبة من المشبه جرير، فذكاء جرير يعادل غباء الحمار، وبذلك فالفرزدق يلائم بين الذكاء والغباء، بين صفتين متناقضتين، وبذلك يصل إلى السخرية والتهمك والاستهزاء))².

وفي صورة أخرى، لا تقلّ سخرية عن السابقة، يقول:

فَأِنَّكَ كَلْبٌ مِنْ كُؤَيْبٍ لِكَلْبَةٍ
عَدَّتْكَ كُؤَيْبٌ فِي حَيْثِ الْمَطَاعِمِ
وَلَيْسَ كُؤَيْبِي إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ
إِذَا لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْأَتَانِ بِنَائِمِ³

وهنا تمتد أطراف السخرية لتتجاوز الخصم إلى الأم والعشيرة، فيكتف استحضاره لهذا اللفظ؛ حيث تكرر أربع مرّات في بيت واحد (كلب-كؤيب-كلبة-كؤيب)، كما أنّه لم يقف عند حدود النسب بل امتد إلى وصف طعامه بالخبيث، وجعل مكان نومه مشحونا برائحة الأتن الكريهة، حتى إنّ لا يستطيع النوم دونها، فالتشبيه بالكلب جرّه لاستحضار صفات أخرى. والمأثور أنّ الكلب مشهور بالوفاء، غير أنّ الفرزدق قد شبه جريرا به مستحضرا الصفات السلبية فقط، وهي التبعية للآخر، وانعدام الإرادة الحرّة، وبذلك تظهر الغاية الخفية من وراء هذا التشبيه، وهي الإصرار على اذلال جرير وقهره والتّيل منه.

وجرير لا يقلّ سخرية عن الفرزدق، خاصّة وهو القائل: ((إذا هجوت فأضحك))⁴ وبالتالي فهو يقيم السخرية على الهجاء، ويجعله مجالها الرّحّب، ويعكس أسلوبه في الهجاء وعيا مبكرا بالسّر الخفي الذي يضمن للخطاب السّاخر عموما فعاليته التأثيرية في المتلقّي⁵. ويردّ على الفرزدق معتمدا الأسلوب ذاته، وهو التشبيه

1- نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 191.

2- عبد الفتاح أحمد يوسف: الخطاب السجالي في الشعر العربي، ص 187.

3- المصدر السابق، مج 2، ص 150.

4- ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص 151.

5- خالد يعقوبي: القصيدة السياسية في العصر الأموي. أدلجة المعنى وحجاجية المبنى، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، ع 7-2015، ص 8، ص 78.

بالحيوان، واتخاذ ذلك مطيةً للسخرية والاستهزاء، ونراه يتخذ مسلكاً جديداً في التشبيه بالحيوان فيجعل من القرد طرفاً في الصورة التشبيهية، يقول:

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاسِقًا، وجاءت بوزوازٍ قصيرِ القوائمِ
وما كان جارٍ للفرزدق مسلم ليأمن قرداً ليله غير نائم¹

فجرير يشبه الفرزدق بالقرد في قصر قامته، وفي سلوكه المشين، والمتمثل خاصةً في الفجور. وتبرز هذه الصورة فُبح سلوك الإنسان عندما يُقبل على أفعال الحيوانات، وغاية جرير من تشبيه خصمه بالقرد خاصةً ((كونه يقبل التلقين ويجيد التقليد، أي يتسم بالتبعية فهو تابع دائماً، ومن ثمة فهو كائن مهمّش. والجديد في هذه الصورة تلك العلاقة التي بين القرد والفجور، والفجور-هاهنا-مثل في الزنا))². فجرير بتوظيفه لهذه الصورة الساخرة، والموضحة لسوء الجانبين: الخَلقي والخُلقي لدى الفرزدق، يدفعنا إلى احتقاره من جهة، والحكم بتدنيه من جهة ثانية، خاصةً وقد تدنى سلوكياً إلى مرتبة الحيوان.

ولم تكن السخرية، عند الشعاعين، لتقف عند حد، بل حضرت حتى في المواقف الأكثر إنسانية وعاطفية خاصةً إذا ارتبطت بفقدان عزيز وما يثيره من مشاعر تتدفق حيناً وأسى، ونعني بكلّ هذا ردّ الفرزدق على مرثية جرير لزوجته والتي يسخر فيها من حزنه وبكائه عليها فيقول:

فَلَنْ بَكَيْتَ عَلَى الْأَتَانِ لَقَدْ بَكَى جَزَعًا، غَدَاةَ فِرَاقِهَا الْأَعْيَارُ
يَنْهَسُنْ أذْرُعُهُنَّ حِينَ عَهْدَنَهَا وَمَكَانَ جُثُوثِهَا هُنَّ دُوَارُ
تَبْكِي عَلَى امْرَأَةٍ وَعِنْدَكَ مِثْلُهَا فَعَسَاءُ لَيْسَ لَهَا عَلَيْكَ خِمَارُ
وَلَتَكْفِينُكَ فَقَدْ زَوْجَتِكَ الَّتِي هَلَكْتَ مُوقِعَةَ الظُّهُورِ قِصَارُ³

ولئن اعتُبرت هذه المرثية من أرقّ ما قيل في رثاء زوجة فإنّ الفرزدق واجه جرير ومشاعره بشيء من السخرية اللاذعة فجعل البكاء على زوجته كالبكاء على أتان، بل يستغرب بكاءه عليها وعنده أختها ومثيلتها، ممّا يوحي بالتسوية بين زوجته والأتان، وهنا تتجلى استراتيجية الشاعر في النيل من الخصم من خلال رسم صورة كاريكاتورية تنبني أساساً على التشبيه بالحيوان، ثم يستمر في رسم هذه اللوحة التي تفيض سخرية واستهزاء حين يقترح عليه أن يتخذ الأتان عوضاً لها.

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 285.

2 - عبد الفتاح أحمد يوسف: الخطاب السجالي في الشعر العربي، ص 188.

3 - المصدر السابق، مج 2، ص 231-232.

2- حجة التعريف:

تدرج هذه الحجة ضمن حجة التماثل والحد وتقوم على التعريف بالذات وبالآخر، وبالتالي فهي تتضمن الفخر والهجاء، وفيها يعرف الشاعر بنفسه أو بخصمه بإثبات النسب والانتماء القريب والبعيد أو من خلال تحديد بعض الصفات وحتى من خلال الألقاب، وذلك ما نتبينه فيما يأتي:

يقول الفرزدق معرِّفاً بنفسه مستغلاً بذلك الاتكاء على عناصر مختلفة يعتبرها ملتصقة بهوية الفرد أو أنّ لها القدرة على النهوض بالتعريف:

أنا ابنُ عقالٍ وابنُ ليلىٍ وغالبٍ وفكّكِ أغلالِ الأسيرِ المُكفّرِ¹

فالشاعر يبدأ بذكر أناه، لكنّه لا يسترسل في الإفصاح عن هذه الأنا بما يمكنه أن يجلبها من صفات وأعمال وإنما يعرّج على ذكر نسبه محدداً آباءه فيذكر أسماء ثلاثة: عقال وليلى وغالب. فعقال هو عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، وليلى بنت حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، وغالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال. والفرزدق، بهذا، قد عرف بنفسه من خلال تحديد نسبه؛ حيث ذكر غالباً وهو والده، وليلى جدته لأبيه، وعقال جدّه البعيد. والملاحظ هنا أنّه ذكر اسم والدته على الرغم من أنّ العرب ينسبون إلى الآباء ومع ذلك فإنّ النسب الرفيع من جهة الأم يشكل مفخرة للعربي أيضاً. أما الشطر الثاني فقد استغله الفرزدق في التعريف أيضاً لكنّه اتجه إلى ذكر الصفة "فكّكِ الأغلال" ويعني به ناجية بن عقال، وهو جدّه لأبيه.

ويقول في موضع آخر:

أنا ابنُ الذي ردّ المنيةَ فضلهُ، وما حسبٌ دافعتُ عنه بمُغورِ²

فالفرزدق يعرف بنفسه من خلال انتسابه الأبوي، لكن لا يفصح عن الاسم بل يذكر ما اشتهر به، وقد حدّده بقوله "الذي ردّ المنيةَ فضله" ويقصد والده غالب بن صعصعة الذي عرف بأنّه محيي الوئيدات.

ثمّ ينتقل إلى التعريف بنفسه من جهة والدته فينتسب إلى آل ضبة فيقول:

وأنا ابنُ حنظلةِ الأغرِ وإنّي في آلِ ضبّةٍ للمعمِ المخولِ³

وبذلك فهو يعرف بنفسه من خلال نسبه المتمثل في أحواله آل ضبة، ويفاخر بأنّه كريم الأعمام والأخوال.

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 279.

2 - المصدر نفسه، ص 280.

3 - المصدر نفسه، مج 1، ص 138.

أما جرير فإنه ينتهج استراتيجية مغايرة، بحيث لا ينطلق فيها من التعريف بذاته، من خلال استحضار أناه والحديث عن نسبه القريب المتمثل في أبيه وأمه، وإنما يحدثنا عن نسبه البعيد (قومه) ويورد لهم بعض الصفات التي تجعل انتمائه إليهم مفخرة له، يقول:

قَوْمِي الَّذِينَ يَزِيدُ سَمْعِي ذِكْرَهُمْ سَمْعًا وَكَانَ بِضَوْنِهِمْ إِبْصَارِي¹

فجرير يفاخر بقومه الذين يزيد سمعه بذكرهم الطيب وما يتميزون به من مكارم، ويصير بضيائهم وبذلك فهو يعبر عن اعتزازه بقومه. ويعتمد الوصف أيضا كأسلوب للتعريف فيحدد بعض الفضائل التي يتصف بها قومه، وهي كما ذكرها فيقوله:

فَاتَا أَنَسٌ نُحِبُّ الْوَفَاءَ، حِدَارَ الْأَحَادِيثِ فِي الْمَشْهَدِ

وَلَا نُحْتَبِي عِنْدَ عَقْدِ الْجَوَارِ بِغَيْرِ السُّيُوفِ وَلَا نَرْتَدِي²

يستعمل صيغة الجمع للتعبير عن ذاته وقومه، ويعرف بإيراد جملة من الصفات التي يتصفون بها، ويأتي الوفاء في مقدمتها حتى لا يتحولون إلى أحاديث تلوكها الألسنة، ويدافعون عن الجوار بحد السيف. وجرير وإن ذكر صفات قومه هذه، فإنه يعرض بالفرزدق ويلمّح إلى خيانة الزبير ومقتله.

وتستخدم حجة التعريف في مجال الهجاء أيضا حينما يوظفها الشاعر للتعريف بخصمه، ومن ذلك ما ورد على لسان جرير في مخاطبته للفرزدق:

وَأَنْتَ ابْنُ قَيْنٍ يَا فَرَزْدَقُ فَارْزُدْهُ بِكَبْرِكَ إِنَّ الْكَبِيرَ لِلْقَيْنِ نَافِعٌ³

حيث يصرّ على إلصاق صفة القين بالفرزدق ويرأها مناسبة للتعريف به، وقد جعلها في والده مما يعني انتقالها الحتمي إليه. ولا يقف بهذه الصفة عند الفرزدق فحسب بل يعمّمها على قومه ككلّ فيقول مخاطبا مستعملا صيغة الجمع:

وَأَنْتُمْ قِيُونَ تَصْقَلُونَ سُيُوفَنَا وَنَعَصَى بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مُشَهَّرٌ⁴

فهو لم يكتف بإيراد صفة القيون، بل يعرف بحرفتهم أيضا وجعلهم ينهضون بصقل السيوف التي يستخدمها قومه في حروبهم، وكأنّه يلّمح إلى تحملهم لعبء صقلها في حين ينالون هم شرف استعمالها.

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 243.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 183.

3 - المصدر نفسه، ص 106.

4 - المصدر نفسه، ص 284.

وترتبط حجة التعريف بالتداء أيضا. ويبدو في هذه الحالة أنّ الشاعر ينطلق من جلب انتباه الخصم أولا ثم إيراد الأحكام والصفات التي يودّ إيصالها إليه، والتعريف به من خلالها، ومن ذلك ما ورد في قول الفرزدق:

فَهَلْ أَحَدٌ يَا ابْنَ الْمِرَاعَةِ هَارِبٌ مِنْ الْمَوْتِ إِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ نَائِلُهُ
فإِنِّي أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ بِنَفْسِكَ فَانظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ
أنا الْبَدْرُ يُعِشِي طَرْفَ عَيْنَيْكَ فَالْتَمِسْ بِكَفِّكَ يَا ابْنَ الْكَلْبِ هَلْ أَنْتَ نَائِلُهُ¹

في هذه الأبيات الشعرية يعرف الفرزدق بنفسه وبغيره، فعندما يعرف نفسه يلجأ إلى التشبيه البليغ فيجعل ذاته مكافئة مرّة للموت عندما تحدّث عن ملاحظته لجريه وفتكه به كالموت الذي لا مهرب منه مهما طال الزمن، ومرّة أخرى للبدر الذي يعيشي نوره الأبصار ولا يمكن الوصول إليه.

أما حينما يعرف غيره فإن الأمر يختلف كثيرا، خاصة إذا تعلق الأمر بخصمه جريه فيعمد إلى وصفه بأوصاف مشينة يحاول من خلالها أن يرسخ في ذهن المتلقي نتيجة مفادها أنّ جريه لا يرتقي إلى مستواه، لذلك وجدناه ينعته مرّة بـ"ابن المراغة"^{*} ناسبا إياه إلى أمه، ومرّة أخرى بـ"ابن الكلب" ناسبا إياه إلى أبيه. وفي كلتا الحالتين فإنه يقدم له تعريفا مشحونا بالسخرية والاستهزاء اللذان يقودان حتما إلى استصغاره والتقليل من شأنه.

ويحاول جريه الردّ على الفرزدق باستحضار معنى البيت الذي أورده سابقا فيقول:

أنا الْبَدْرُ يُعِشِي طَرْفَ عَيْنَيْكَ فَالْتَمِسْ بِكَفِّكَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ هَلْ أَنْتَ نَائِلُهُ²

والملاحظ أنّ الشاعر يعتمد البيت بألفاظه كلّها ما عدا واحدة؛ حيث يستبدل عبارة "يا ابن الكلب" بعبارة "يا ابن القين"، ورغم تشابههما في الدلالة على التّسبب إلا أنّهما يختلفان ذلك أنّ جريه ينسب الفرزدق إلى "القين" أي إلى الحرفة في حين ينسبه الفرزدق إلى الحيوان "الكلب"، وفي ذلك امتهان أكثر. ومما سبق يكون قد اتضح لنا كيف أن التعريف بالذات أو بالآخر يتمّ بأساليب مختلفة، و يستخدم كحجة يسخرها المحاجج بطريقة مزدوجة فتتضمن فخرا بالذات وقدحا للآخر.

3- حجة العدل:

¹ - نقائض جريه والفرزدق، مج 2، ص 45.

^{*} - ورد في لسان العرب أن ((المراغة: الأتان، وقيل الأتان التي لا تمتنع من الفحول، وبذلك لقب الأخطل أم جريه فسماه ابن المراغة أي يتمرغ عليها الرجال، وقيل: لأن كليباً كانت أصحاب حُرّ)). ابن منظور، مج 14، ص 59.

² - المصدر السابق، ص 78.

تبنى هذه الحجّة على قاعدة العدل وهي تلك القاعدة التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلية في مقولة واحدة¹. وإننا لتتساءل عن حضور هذه القاعدة ضمن المنافسة الدائرة بين جرير والفرزدق وسعي كلّ طرف إلى إحراز الغلبة بكلّ الطرق المتاحة والتي تهدف إلى غاية واحدة وهي تكريس حضور الذات مقابل إقصاء الآخر، فكيف يتحقّق العدل والإنسان لا ينظر إلى نفسه وإلى غيره النظرة ذاتها، خاصّة والمجال مجال منافسة كما أسلفنا.

قال الفرزدق:

إِذَا مَا احْتَبَّتْ لِي دَارِمٌ عِنْدَ غَايَةٍ جَرِيْتُ إِلَيْهَا جَرِيٍّ مَنْ يَتَغَطَّرُ
كَأَنَّ لَهٗ قَوْمٌ هُمْ يُحْلِبُونَهُ بِأَحْسَابِهِمْ حَتَّى يُرَى مَنْ يَتَغَطَّرُ
إِلَى أَمَدٍ حَتَّى يُزَايِلَ بَيْنَهُمْ وَيُوجِعَ مِنَّا النَّحْسُ مَنْ هُوَ مُفْرَفٌ²

ينطلق الشاعر من كونه وخصمه يعتمدان في منافستهما على ما يمدّهما به قوماهما، فكلّ واحد منهما يعتمد على قومه، يعينونه وينصرونه في مجال سباقهم، ومجال السباق هذا هو أن يعدّد كلّ واحد منهما مكارم قومه إلى أن ينقطع أحدهم فيسكت، وتكون الغلبة للآخر.

والملاحظ أنّ الشاعر وهو يقيم حجّة العدل في إثبات أفضليته على الخصم يظهر جانبا من المرونة والليونة في المنافسة وتقبل نتائجها كيفما كانت، وإن كان مضمون الأبيات الشعريّة يوحي بأنه على يقين تام بأنّ قومه يفضلون قوم خصمه ومع ذلك لا يجرمه حقّ المنافسة مثلما يظهر في قوله:

أَلَا تَسْأَلُونَ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْكُمْ إِذَا عُظِمَتْ عِنْدَ الْأُمُورِ الصَّنَائِعُ
تَعَالَوْا، فَعُدُّوا يَعْلَمُ النَّاسُ أَيُّنَا لِصَاحِبِهِ فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ تَابِعُ
وَأَيُّ الْقَبِيلَيْنِ الَّذِي فِي بُيُوتِهِمْ عِظَامُ الْمَسَاعِي وَاللُّهَى وَالِدَسَائِعِ³

ويقول أيضا:

هَلُمَّ نُؤَافِ مَكَّةَ ثُمَّ نَسْأَلُ بِنَا وَبِكُمْ قُضَاعَةً أَوْ نِزَارَا
وَرَهْطَ ابْنِ الْحُصَيْنِ فَلَا تَدَعُهُمْ ذَوِي يَمَنِ وَعَاظِمِي خِطَارَا
هُنَالِكَ لَوْ نَسَبْتَ بَنِي كَلْبِ وَجَدْتَهُمُ الْأَدِقَاءِ الصِّعَارَا¹

1 - عبد الله صولة: في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ص 45.

2 - نقاض جرير والفرزدق، مج 2، ص 23.

3 - المصدر نفسه، ص 112.

فالفرزدق يقيم منافسته على تكافؤ الفرص، فهو يفتح المجال لخصمه لإبداء مكارم قومه، وقد عرض عليه الاحتكام إلى الغير مما يعطي مصداقية لهذه المنافسة وخاصة الحكم الناتج عنها.

4- حجة التعدية :

تظهر هذه الحجة في مواطن متعددة من نقائص جرير والفرزدق، ومن أمثالها ما نوردته فيما يأتي:
قال الفرزدق:

وَجَدْنَا أَعَزَّ النَّاسِ أَكْثَرَهُمْ حَصِيًّا وَأَكْرَمَهُمْ مَنْ بِالْمَكَارِمِ يُعْرَفُ
وَكَلْتَاهُمَا فِينَا إِلَى حَيْثُ تَلْتَقِي عَصَائِبُ لَاقِي بَيْنَهُنَّ الْمَعْرِفُ²

يتلبس الشاعر ثوب الحكمة والرزانة، ويظهر بمظهر الحكيم الذي لا يخلو بصره وفكره من تأمل وتدبر، وهو بتوظيفه للفعل "وجدنا" يترك انطبعا بأن ما يقوله مستنبط من الواقع المعيش، وبالتالي يشي كلامه بكثير من المصداقية وهو ما يقود إلى الاقتناع والتسليم. فالشاعر يسعى لإثبات مكانة قومه فينتقل من حقيقة واقعة وهي أنّ الأيَّام والتجارب السابقة أثبتت أنّ أعزّ النَّاس هم الأكثر عددا ومعروفا، ويبني على هذه المسلّمة قياسا كالأتي:

- أعزّ النَّاس هم الأكثر عددا والأكثر معروفا
- نحن فينا كثرة العدد والمعروف
- نحن أعزّ الناس.

ويستغلّ الفرزدق حجة التعدية ليوصل لخصمه بعض المعاني التي لا يصرح بها أحيانا، فيلقي بالمقدمات ويترك له استنتاج ما يمكن أن تتمخض عنه تلك المقدمات التي تكون غالبا موجّهة إلى نتيجة معينة، ومن ذلك ما قاله مخاطبا جريرا:

أَلَا إِنَّ مِيرَاثَ الْكُلَيْبِيِّ لِابْنِهِ إِذَا مَاتَ رَيْقًا ثَلَّةً وَحَبَائِلُهُ³

يتحدّث الشاعر في هذا البيت بلهجة لاذعة ساخرة عن مكانة جرير من خلال الحديث عن قبيلته كُليب، ويُعيّزهم بكونهم رعاة غنم حتّى جعل الرّجل منهم لا يُورث ابنه إلاّ الأغنام والحبال التي تُشدّ بها وفي

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 191.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 18.

3 - المصدر نفسه، ص 43.

ذلك إشارة إلى بعد هذه القبيلة عن المكارم والأعجاب والسيادة. ومن خلال البيت يمكننا استخلاص القياس الآتي:

- ممتلكات الكليلي الحبال والأغنام وهي ميراثه

- أنت يا جرير من كليب

- ميراثك الحبال والأغنام.

ويستغل جرير الحجّة ذاتها فيقول:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا¹

فالشاعر يتحدث عن مكانة تميم وقيمتها والهبة والرّهبة اللتان تجمع بينهما، ويؤكد ذلك باعتماد حجّة تعديدية مبنية على علاقة التساوي بين طرفين، إذ جعل تميما تعدل كلّ الناس، وإذا ما غضبت تميم على أحد حسب الناس كلّهم غاضبين عليه، وهو يخصّ بكلامه هذا الراعي النميري، وبناء على ما ورد في البيت الشعري يمكننا استخلاص القياس الآتي:

- تميم تعدل كلّ الناس

- إذا غضبت عليك تميم

- كلّ الناس قد غضبوا عليك.

هذا ما يمكننا استخلاصه من هذا القياس، وهو ما ينتج عن غضب تميم وبمكنا ان نقرأ مضمون البيت بطريقة عكسية فيصبح رضا تميم من رضا الناس جميعا.

5- حجّة إدماج الجزء في الكلّ :

تندرج هذه الحجّة ضمن الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، ومن أمثلتها ما أورده الفرزدق في قوله:

مِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرَّجَالَ سَمَاحَةً	وَخَيْرًا إِذَا هَبَّ الرِّيحُ الرِّعَازُ
وَمِنَّا الَّذِي أُعْطِيَ الرَّسُولَ عَطِيَّةً	أُسَارَى تَمِيمٍ، وَالْعَيْونُ دَوَامِعُ
وَمِنَّا الَّذِي يُعْطَى الْمَائِنَ وَيَشْتَرِي الـ	عَوَالِي، وَيَعْلُو فَضْلُهُ مَنْ يُدَافِعُ
وَمِنَّا خَطِيبٌ لَا يُعَابُ وَحَامِلٌ	أَعْرَى إِذَا التَّفَتَ عَلَيْهِ الْمَجَامِعُ

¹ - نقاض جرير والفرزدق، مج 1، ص 322.

وَمِنَّا الَّذِي أَحْيَا الْوَيْدَ وَغَالِبٌ
وَمِنَّا غَدَاةَ الرُّوعِ فِتْيَانُ غَارَةٍ
وَمِنَّا الَّذِي قَادَ الْجِيَادَ عَلَى الْوَجَا
أَوْلَيْكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ
وَعَمَّرُوا وَمِنَّا حَاجِبٌ وَالْأَقَارِعُ
إِذَا مَتَعَتْ تَحْتَ الرَّجَاجِ الْأَشَاجِعُ
لِنَجْرَانٍ حَتَّى صَبَّخَتْهَا التَّنَزَائِعُ
إِذَا جَمَعْتُنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ¹

ففي إطار مفاخرة الفرزدق لجرير، اعتمد حجة اشتغال انطلق فيها من ذكر الجزء للوصول إلى الكل، فهذه الأبيات التي افتتح بها نقيضته مباشرة، ودون أي مقدمات، ضمناها الافتخار بقبيلته، من خلال الفخر بأشهر الأسماء الصانعة لمجدها، وقد بدأ بذكر أشرفها، على مدار الأبيات السبعة الأولى، ليصل في البيت الموالي لتحديد الكل الذي تتصل به الأجزاء التي ذكرها، والذي نفهمه من توظيفه لعبارة "أولئك آبائي"، مما يعني أن الفرزدق يحق له الافتخار بصنائع هؤلاء جميعاً لأنهم آباؤه، ومفاخرهم جميعاً هي مفاخره.

6- حجة تقسيم الكل إلى أجزائه :

وظف الشاعر هذه الحجة في إطار الحديث عن الشعاعية، ذلك أن مجال المنافسة بين جرير والفرزدق لم يكن محدوداً بالنسب والقبيلة والقوة، وإنما كانت منافسة أدبية أيضاً، سعى فيها كل طرف إلى إثبات الأفضلية في مجال القول أيضاً. ويصنف هذا ضمن الفخر الذاتي لأنه ملتصق بشخص الشاعر، وفيه إثبات لقدراته الذاتية خاصة وهو لا يستمد من القبيلة ولا من النسب، وفيه يتسنى للشاعر أن يثبت قدراته الإبداعية بعيداً عن كل ذلك.

قال جرير:

أَعْدَدْتُ لِلشُّعْرَاءِ كَأْسًا مُرَّةً
هَلَّا نَهَاهُمْ تِسْعَةٌ قَتَلْتُهُمْ،
أَفَيَنْتَهَوْنَ وَقَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهُمْ
ذَاقَ الْفَرَزْدَقُ وَالْأَحْيَطُ حَرَّهَا
وَلَقَدْ قَسَمْتُ لِدِي الرَّقَاعِ هَدِيَّةً
وَلَقَدْ صَكَّكَتُ بَنِي الْفَدَوِّ كَسِ صَكَّةً
عِنْدِي، مُخَالِطُهَا السِّمَامُ الْمُنَقَّعُ
أَوْ أَرْبَعُونَ حَدَوُّهُمْ فَاسْتَجَمَعُوا
أَمْ يَصْطَلُونَ حَرِيْقَ نَارٍ تَسْفَعُ؟
وَالْبَارِقِيُّ وَذَاقَ مِنْهَا الْبَلْتَعُ
وَتَرَكْتُ فِيهِ وَهِيَةً لَا تَرْقَعُ
فَلَقُوا كَمَا لَقِيَ الْقَرَيْدُ الْأَصْلَعُ²

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 110-111.

² - المصدر نفسه، ص 289-290.

فالشاعر يحاجج لصالح قضية هامة، وهي التأكيد على شاعريته، وإثبات أفضليته على الشعراء الآخرين، واعتمد في ذلك حجة تقسيم الكلّ إلى أجزائه. وتتضح هذه الحجة من خلال توظيف الشاعر لكلمة "الشعراء" ليبدّل بها على الكلّ؛ حيث تضمّن البيت الأول الحديث عن غلبته للشعراء وهزيمته لهم، ثم عمد إلى تفصيل ما فعله بأولئك الشعراء الذين بلغ عددهم تسعة وأربعين، وقد خصّ بالذكر شاعرين فقط هما الفرزدق والأخطل، على اعتبار أنه هزم الجميع ولم يصمد له غيرهما، مع أنّهما لم يسلما من حرّ ناره أيضا.

وقال الفرزدق مفتخرا برفعة نسبه وعلوّه على خصمه جرير:

وَلَسْتُ بِنَائِلٍ بِنِي كَلْبٍ	أرومتنا إلى يوم الممات
وَجَدْتُ لِدَارِمٍ قَوْمِي بِيوتاً	على بُنيانِ قَوْمِكَ قَاهِرَاتٍ
دُعْمَنَ بِحَاجِبٍ وَابْنِي عِقَالٍ،	وَبِالْقَعْقَاعِ تَيَّارُ الْفِرَاتِ
وَصَعَصَعَةَ الْمُجْبِرِ عَلَى الْمَنَايَا،	بِذِمَّتِهِ وَفَكَاكِ الْعُنَاتِ
وَصَاحِبِ صَوَّارٍ وَأَبِي شُرَيْحٍ	وَسَلْمَى مِنْ دَعَائِمِ ثَابِتِ
بِنَاهَا الْأَقْرَعُ الْبَابِي الْمَعَالِي	وَهُودَةٌ فِي شَوَامِحَ بِادِّخَاتِ
لَقِيْتُ مِنْ دَعَائِمِهَا وَمِنْهُمْ	زُرَّارَةً ذُو النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ
وَبِالْعَمْرَيْنِ وَالضَّمْرَيْنِ نَبِي	دَعَائِمِ، مَجْدُهُنَّ مُشَيِّدَاتِ
دَعَائِمِهَا أَوْلَاكَ وَهُمْ بَنُوها	فَمَنْ مِثْلُ الدَّعَائِمِ وَالْبُنَاتِ ¹

فالفرزدق يسعى إلى تأكيد نسبه الرفيع، وأفضليته وعجز جرير عن بلوغ هذا المجد التليد؛ حيث نجده يشير إلى دارم، وقد لمح إلى ذلك بتوظيفه كلمة "بيوت"، والتي يعبر بها عن المجد والشرف والتسبب، ثم يأتي إلى ذكر الأشخاص الذين يعتبرون الأعمدة التي يرتكز عليها هذا الصرح الشامخ، ولتأكيد ذلك حشد الكثير من الأسماء. والحجة التي اعتمدها الشاعر في الانتصار لأطروحته هي ذكر الكلّ، ثم عمد إلى ذكر الأجزاء التي تشكّل هذا الكلّ.

وفي مجال البطولة، يفتخر جرير بفوارس بني يربوع، الذين يعتبرون فخر القبيلة وعدتها، يقول:

يَيْرَبُوعٍ فَخَرْتُ وَآلِ سَعْدٍ	فلا مجدي بلغت ولا افتخاري
لَيْرَبُوعٍ فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ	يُوَارِي شَمْسَهُ رَهَجُ الْغُبَارِ

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 162-163.

عُتَيْبَةُ وَالْأُحَيْمِرُ وَابْنُ قَيْسٍ وَعَتَّابٌ وَفَارِسُ ذِي الْخِمَارِ¹

فالشاعر يصرح بأن فخره لا يُضاهى، فهو يفخر بيربوع، ثم انتقل مباشرة إلى الحديث عما يشكّل مفخرة يربوع وهم الفوارس الذين يكثر عددهم، وفي البيت الموالي يحدّد خمسة فوارس بذكر أسمائهم*. وفي موضع آخر يتخذ الفرزدق مجالا للفخر أيضا، ولكن يظهره في سياق حوار دار بينه وبين النوار وذلك من خلال الموازنة بين قوم جرير وقوم الفرزدق :

وَقَالَتْ عِنْدَ آخِرِ مَا نَهْتَنِي: أَتَهْجُو بِالْحَضَارِمَةِ الْوَبَارَا**
أَتَهْجُو بِالْأَقَارِعِ وَابْنِ لَيْلَى وَصَعَصَعَةَ الَّذِي غَمَرَ الْبِحَارَا
وَنَاجِيَةَ الَّذِي كَانَتْ تَمِيمُ تَعِيشُ بِحَزْمِهِ أَنَّى أَشَارَا
بِهِ رَكَزَ الرِّمَاحِ بَنُو تَمِيمٍ عَشِيَّةً حَلَّتِ الظُّعْنُ النَّسَارَا²

فالأبيات تتضمّن مفاضلة مثلما يبدو من سؤال النوار "أتهجو بالحضارمة الوبارا" والذي يتضمّن لوماً وتأنيباً للفرزدق عن مساواته لسادة قومه بقوم جرير الضعاف الوضعاء، وكأنّ لسان حالها يقول لا مجال للمساواة بينهما، ثم تذكر بعض الأسماء التي تشكّل مفخرة القوم وهم الذين يصنعون نسب الفرزدق الذي يفخر به من جهة الأم والأب على حد سواء، وقد ذكرت الأقارع وهما الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقيل ووالده غالب بن ليلى بنت حابس أخت الأقرع، وجدّه صعصعة المعروف بفيض كرمه، وناجية والد صعصعة الذي كان مستشارا يوم النّسار، وكانت تميم تستشيريه وتأخذ برأيه وحزمه. فالشاعر قد انطلق من الكلّ الذين يصنعون فخره، ثم عمد إلى ذكر الأجزاء التي تدرج ضمن هذا الكلّ وتصنعه.

7- حجة الاحتمال:

يرسم الفرزدق في الأبيات الشعريّة الآتية مشهدا قائما على الاحتمال؛ حيث يجبرنا بأنّ أمّ جرير تبكي على هلاك ولدها ولا يشاركها في نواحيها هذا إلاّ الحمير وكأنّه لا وجود في حياته إلاّ للحمير، وهذا القول ينمّ على التّحقير والتقليل من شأن الخصم وهوانه حتّى في موته، ثم ينتقل إلى التصريح بسبب هلاكه وهو أنه قد

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 181.

* - هؤلاء الفوارس هم على التوالي: عتيبة بن الحارث بن شهاب بن عبد قيس بن كباس بن جعفر بن ثعلبة بن يربوع، والأحيمير هو عبد الله بن الحارث بن عاصم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع، وابن قيس هو معقل بن قيس من بني يربوع، وعتّاب بن هرمي بن رياح بن يربوع، وفارس ذي الخمار مالك بن نوية بن حمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع، وذو الخمار فرس مالك بن نوية.

** - الوبار: الواحد وير: دويبة كالسنور لكنها أصغر منه، لقب بها قوم جرير تحقيرا لهم.

² - المصدر السابق، ص 188-189.

فتك به وقضى عليه بعد أن نجاه عن عدم الاحتراس منه لكنه لم ينته فكانت نهايته الهلاك. وهذا ما ورد في قوله:

تَبْكِي المِرَاعَةَ بِالرَّغَامِ عَلَى ابْنِهَا	والتَاهِقَاتُ يَنْحُنُ بِالْأَعْوَالِ
سَوْقِي النَّوَاهِقَ مَا تَمَّا يَبْكِيْنَهُ	وَتَعَرَّضِي لمَصَاعِدِ القُقَالِ
سَرَبًا مَدَامِعُهَا تَنُوحُ عَلَى ابْنِهَا	بِالرَّمْلِ قَاعِدَةً عَلَى جَلَالِ
قَالُوا لَهَا: اِخْتَسِي جَرِيرًا إِنَّهُ	أَوْدَى الهَزْبُورُ بِهِ أَبُو الأشْبَالِ
أَلْقَى عَلَيْهِ يَدَيْهِ ذُو قُومِيَّةِ	وَرَدُّ فَدَقَّ مُجَامِعَ الأَوْصَالِ
قَدْ كُنْتُ لَوْ نَفَعَ النَّذِيرُ نَهْيَتُهُ	أَلَّا يَكُونَ قَرِيَسَةَ الرِّيبَالِ ¹

ولعلّ هذا المشهد المأساوي الذي حدّد فيه نهاية جرير وعويل والدته عليه ومشاركة الحمير لها يعبر أكثر ما يعبر عن رغبة الفرزدق الملحة في التفوق على خصمه والانتصار السّاحق عليه، وكأنّ لاشعور الشّاعر هو الذي طفا على سطح أفكاره وجعله يتخيّل تفاصيل هذا الحدث. ويقف الفرزدق موقفاً آخر لا يقل شماتة عن الأوّل، يدير الحديث فيه عن عطية والد جرير، وبينى الموقف كلّ على حجة احتمالية كما يتّضح من الأبيات الشّعريّة الآتية:

أَمِنْ جَزَعٍ أَنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ غَالِبِ	أَبُوكَ الَّذِي يَمْشِي بِرَيْقٍ مُؤَصِّلٍ؟
ظَلَلْتُ تُصَادِي عَنْ عَطِيَّةٍ قَائِمًا	لِتَضْرِبَ أَعْلَى رَأْسِهِ غَيْرَ مُؤْتَلِ
لَكَ الْوَيْلُ لَا تَقْتُلْ عَطِيَّةَ إِنَّهُ	أَبُوكَ، لَكِنْ غَيْرُهُ فَتَبَدَّلِ
وَبَادِلِ بِهِ مِنْ قَوْمٍ بَضْعَةٌ مِثْلُهُ	أَبَا شَرِّ ذِي نَعْلَيْنِ، أَوْ غَيْرِ مُنْعَلِ
إِنْ هُمْ أَبَوَا أَنْ يَقْبَلُوهُ، وَلَمْ تَجِدْ	فِرَاقًا لَهُ إِلَّا الَّذِي رُمْتَ فَافْعَلِ ²

في هذه الأبيات يروي الفرزدق تفاصيل قصّة هي واردة في باب الاحتمال؛ حيث يصوّر أحداثاً منطلقها الأوّل هو جزع جرير من كونه لا يملك أبا كغالب، لذلك يسعى للتخلّص منه، فراح يخطّله ليشجّ رأسه غير متراجع عن هذا القرار. ويقحم الفرزدق صوته مرتفعاً بالتّصيحة؛ حيث يطلب منه أن لا يقتله وإنما يبادل به من هم في مثل ذلته وخساسته، فإن لم يعبأوا به ويقبلوا بالمبادلة، حينذاك فقط يمكنه العودة إلى خياره الأوّل.

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 205-206.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 121.

واضح مما سبق ذكره أنّ الفرزدق يحتمل وقوع أحداث ما يمكن لها أن تكون، لكنّ سياقها يكشف عن تعالي الفرزدق على جرير بفضل النسب الذي حظي به، وكونه ابن غالب صاحب المكرمات هو الذي خيّل له رغبة جرير في قتل والده الذي لم يكن كغالب، وينصح به بأن لا يقتل والده لكن يحيله على ما هو أسوأ من القتل وهو أن يبادل به غيره. لقد احتمل الفرزدق هذه الأحداث لغاية هامة وهي أنه يسعى لإظهار شعور جرير بالتقص من انتسابه لأبيه، وبهذا يكون الفرزدق قد وظّف هذه الحجّة لإظهار رفعة نسبه مقابل دونية جرير.

ثانياً: الحجج المؤسّسة على بنية الواقع

يندرج ضمن هذا النوع من الحجج الذي يؤسّس له الواقع جملة من الحجج، نذكر منها ما يأتي:

1- الحجّة السببية:

قال جرير مخاطباً الراعي النميري:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَآ كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا¹

فهو يعيّرهُ بضعة النسب وضعف المكانة الاجتماعية، ويطالبه بغضّ الطّرف، وهو إرخاء النّظر الناتج عن الضعة والمذلة، أي اظهار الخضوع والخنوع، وكلّ ذلك لا لشيء إلا لكونه ينتسب إلى نمير، وقبيلة نمير هذه مشهود لها بالضعف والهوان، وبذلك جعل مجرّد انتمائه لنمير سبباً كافياً لغض الطّرف وبالتالي ربط النتيجة بالسبب.

وقال الفرزدق:

حَقَّنَا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَصْبَحَتْ لَنَا نِعْمَةٌ يُثْنِي بِهَا فِي الْمَوَاسِمِ²

فالشاعر يفخر بصنيع قبيلته، وهي أنّها بفضل قوّتها وشجاعة فرسانها وإقدامهم في ساحات المواجهة الحربية، وما تمتلكه من وجاهة وسيادة كانت لها القدرة على حقن دماء المسلمين، ولا يخفى على أحد ما لهذا الفعل من قيمة في الحياة بالنّظر إلى ما يترتّب عليه من نتائج. فهذا الفعل المتمثّل في حقن دماء المسلمين، وما ينطوي عليه من مقوّمات إيجابية هو ما جعل النّاس يثنون عليهم في المجامع، وعليه فقد ربط السبب بالنتيجة وجعل حقنهم للدماء سبباً للثناء عليهم.

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 320.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 126.

2- حجة الشخص وأعماله :

قال الفرزدق بصدد الحديث عن عطية والد جرير:

أَرَى اللَّيْلَ يَجْلُوهُ النَّهَارُ وَلَا أَرَى عِظَامَ الْمُخَازِي عَن عَطِيَّةٍ تَنْجَلِي¹

يتضمّن هذا البيت حكماً على والد جرير الذي لا تزول مخازيه على مدار الليل والنهار، على الرغم من أنّ ظلمة الليل يزيلها نور الصباح إلا أنّ عطية لا يحو أفعاله المشينة بفعل حميد مما يعني صيرورة هذه المخازي في حياة عطية وامتدادها في خط مستمر لا ينقطع.

ويركّز جرير في هجائه على شخص الفرزدق كثيراً لأنه يجد في هذا الجانب ما يشفي غليله، ويمكنه من التشنيع به كلما سنحت له فرصة، يقول:

نَفَاكَ حَجِيجُ الْبَيْتِ عَن كُلِّ مَشْعَرٍ كَمَا رُدُّ ذُو النُّمَيْتَيْنِ الْمَرْيَفُ
وَمَا زِلْتَ مَوْقُوفًا عَلَى بَابِ سَوْءَةٍ وَأَنْتَ بِدَارِ الْمُخْرِيَاتِ مَوْقُوفُ²

فالشاعر يؤكّد على سوء أخلاق الفرزدق وما نجم عنه من طرد وإبعاد عن الأماكن المقدسة وأداء الشعائر الدينية التي تقوم على الاستقامة وطهارة النفس من كل ما يدنسها، مما يعني أنه يفتقر إلى هذا الجانب الأخلاقي وأنّ إتيان المخازي أصبح شيئاً لصيقاً بشخصه دالاً عليه.

إنّ الأمر الذي كان يلح عليه جرير هو إثبات سوء خلق الفرزدق، ومحاولته التأكيد على أن هذه الصفة متأصلة فيه منذ ولادته بل يظهر هذا الخلق على أنه مفطور عليه وسمة أساسية في شخصيته. قال:

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاسِقًا، وَجَاءَتْ بِوَزْوَاكِ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ³

فسوء الخلق متصل بالفرزدق منذ ولادته، فهو فاسق طائش غير متزن، وهو ما يؤكّده في موضع آخر:

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا وَجَاءَتْ بِوَزْوَاكِ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ
وَمَا كَانَ جَارًا لِلْفَرَزْدَقِ مُسْلِمًا لِيَأْمَنَ قِرْدًا لَيْلُهُ غَيْرُ نَائِمِ
يُوصِلُ حَبْلِيهِ إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ لِيَرْقَى إِلَى جَارَاتِهِ بِالسَّلَامِ
أَتَيْتَ حُدُودَ اللَّهِ مُدًّا أَنْتَ يَافِعٌ وَشَبْتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ⁴

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 121.

2 - المصدر نفسه، ص 38.

3 - المصدر نفسه، ص 159.

4 - المصدر نفسه، مج 1، ص 285.

فجرير يهجو الفرزدق من الناحية الأخلاقية ويصفه بالفجور، وجعل هذه الصفة لصيقة به بل أصيلة في طبعه منذ الولادة، ثم يوظف حجة الشخص وأعماله فيجعل هذه الصفة ثابتة في شخصه ودالة عليه، ويجعل تعدّي حدود الله سمة ثابتة فيه أيضا فهو أتاها منذ الطفولة وما زال على حاله تلك حتى بعد أن علاه المشيب فجرير يريد أن يثبت أنّ الفرزدق شخص غير مستقيم، وأنّ أعماله المشينة لصيقة به حتى أصبحت دالة عليه.

3- حجة السلطة (الحجج الجاهزة):

وتجدر الإشارة إلى وجود تداخل بين أصناف الحجج؛ بحيث تندرج الحجة الواحدة ضمن أكثر من صنف¹. وتعدّ الحجج الجاهزة ضمن حجة السلطة أو الحجج التي تستدعي المشترك.

وحجة السلطة قد تعرضنا لها في الجانب النظري، أما فيما يخص الحجج القائمة على استدعاء المشترك فإن الخطابات الحجاجية تبني جانبا من حججها على استدعاء المشترك ((أي الإسناد إلى ما يشكل موضوع اتفاق بين المتلقين أو يمثل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم، ذلك أنّ للمشارك سلطة على النفوس فهي تدعن لما تعوّدت عليه أو لكلّ ما يستدعي ما تعوّدت عليه))². وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار أنّ المشترك قد لا يكون كونيا عاما تشترك فيه كلّ الشعوب والثقافات، وإنما قد يكون خاصا، وحينها يمكن الحديث عن المشترك عند العرب والمتكوّن من الأمثال والحكم والأساطير والحكايات الشعبية والخرافات³.

فالحجج التي تستدعي المشترك تتمثل في النتائج التي لا تتسم بالخصوصية، وتعود إلى فرد دون سواه وإنما هي تلك التي يشترك فيها الكلّ فتعدّ ملكية عامة يتداولها الجميع. وقد حصرها محمد العمري في الخطابة العربية في ((تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم))⁴. وإلى الرأي ذاته ذهب عبد الهادي بن ظافر الشهري حين حصر الأدلة الجاهزة في النصوص الدينية وأقوال السلف والحكم والأمثال⁵.

لقد اهتم الأدباء، على اختلاف منجزاتهم، ومنذ القديم بتوظيف هذه النصوص؛ حيث يعمدون إلى هذا الرصيد الثقافي المشترك ويدخلونه في نسيج نصوصهم الخاصة ولغايات متعدّدة، لعلّ أقربها إلى الأذهان

¹ - سامية الدريدي: الحجج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيتها وأساليبه، ص 181.

² - المرجع نفسه، ص 287.

³ - المرجع نفسه، ص 294.

⁴ - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الاقناعي، ص 90.

⁵ - عبد الهادي بن ظافر الشهري: آليات الحجج وأدواته ضمن كتاب الحجج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 129.

تدعيم معانيهم بهذه النصوص، والسعي إلى التأثير في المتلقين من خلال الاستناد إلى مرجعية هذه النصوص وما تحظى به من مصداقية وقبول عند الجميع.

إنّ تقنية استحضار النصوص الغيرية المختلفة وتداخلها مع النص الأصلي قد أثارت انتباه النقاد والبلاغيين القدامى، وما تزال تحظى بالعناية وإلى الآن، وقد تعددت تسمياتها، ولعلّ أكثرها شيوعاً هو مصطلح "التناس"؛ حيث يفتح النص على غيره من النصوص، فتتماهى الحدود بين الشعري والنثري، وتتداخل الأجناس، وفي دراستنا هذه يتجلى انفتاح الشعر على النثر، و((انفتاح النص الشعري على المنثور يدلّ دلالة صريحة على ثقافة الشاعر الموسّعة التي لم تكن بصياغة ذاكرة شعرية تعتمد عليها فحسب، بل امتدّت إلى بناء ذاكرة نثرية جمعت بين النص الديني قرآناً وحديثاً وبين النصّ الدنيوي أمثالاً وحكماً وكلاماً))¹، لكنّه لا يقف عند حدود هذه الدلالة فقط، بل يتعداها إلى غاية أخرى إقناعية حجاجية.

إنّ هذه النصوص التي يستدعيها الشعراء، والتي وقع اختيارنا عليها ضمن بحثنا، يتمّ استحضارها بناءً على الطاقة الإقناعية التي تتوافر عليها هذه النصوص، والتي تبرز من جهة أخرى سبب اعتماد الشعراء عليها إذ ((جنح شعراؤنا إلى القرآن والحديث لأنهما ينهضان على حجة السلطة، وإلى الأمثال والحكم وكلام الناس لتأسيس حجة التداول المنبثقة عن المصادقات الاجتماعية))². وفيما يأتي، نحاول الكشف عن هذه التقنية وحضورها في نقائص جرير والفرزدق؛ حيث نعمد إلى رصد هذه الحجج عند الشاعرين والكشف عن طاقاتها الحجاجية، على اعتبار أنّ الشاعر يوظّفها بغرض التأثير والإقناع.

1- النصّ الديني:

في ظلّ مجتمع عربي إسلامي، يمثل النصّ الديني (قرآناً/حديثاً) سلطة مطلقة لا مجال للنقاش فيها، اعتقاداً وتسليماً واقتناعاً. لأنها موسومة بطابع القداسة، وعليه استند الشعراء إلى الطاقة الإقناعية التي تحتزنها هذه النصوص انطلاقاً من كون ((التضمن القرآني والحديثي هما أرقى النصوص رتبة وأكثرها حجّية، لأنّ الأول صادر

1 - سعيد العوادي: حركية البديع في الخطاب الشعري. من التحسين إلى التكوين، ص 295.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عن خالق الخلق، والثاني آت من أحسن الخلق، فكلاهما يندرج ضمن حجة السلطة، بل هما الأعلى درجة ضمن هذه الحجة¹.

وفيما يأتي نقف على مختلف النصوص الدينية التي اعتمدها شاعرنا، مع التركيز على الطاقة الإقناعية لهذه النصوص، وحسن انتقاء الشاعر لها بما يضمن دورها الفعال ضمن العملية الحجاجية.

– النص القرآني:

تستمد الحجج الجاهزة قوتها من مصدرها، فهي ليست من إنتاج المخاطب وإنما يلجأ إليها ليدعم خطابه ويمنحه قوة تمكنه من التأثير في الآخرين، وحملهم على الاقتناع بصحة ما يذهب إليه. وعليه راح الشعراء ينهلون من القرآن الكريم، لفظاً ومعنى، كما راحوا يقتبسون الآيات القرآنية، ويستفيدون مما ورد في القصص القرآني تصريحاً وتلميحاً.

وتحفل أشعار جرير والفرزدق بالاقتراس من القرآن الكريم، لكننا سنصب اهتمامنا على ما أوردها في نقائضهما مع التركيز على الجانب الحجاجي لها. والفرزدق، في محاولته للتبيل من خصمه جرير، يؤكد على أنه ذو منزلة رفيعة ويسعى لإثبات أنه دونه مكانة، وللتأكيد على دنو منزلته هذه يقول:

ضَرَبْتُ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتَ بِنَسْجِهَا وَقَضَىٰ بِهِ عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْمُنزَّلُ²

فالشاعر، وبعد أن أشار إلى كل ما من شأنه أن يحط من مكانة خصمه، راح يدعم ذلك بنص، له من السلطة والمصدقية ما لا يختلف عليه اثنان؛ حيث استوحى مضمون بيته الشعري من مضمون الآية القرآنية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾*.

1 – سعيد العوادي: حركية البديع في الخطاب الشعري. من التحسين إلى التكوين، ص 296.

2 – نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 135.

* – سورة العنكبوت الآية 41 .

وقد شبه بيت جرير ببيت العنكبوت في الوهن والضعف والذل . وهو حين يتحدث عن البيت ، فإنه يعني نسبه ، وبالتالي حكم عليه بضعف نسبه وهوانه . وعندما يتحدث عن علاقة جرير بقومه ينفي عنه قدرته على قيادة قومه لافتقاره للحكمة وسداد الرأي، فيشبهه بالسامري:

كَالسَامِرِيِّ يَقُولُ إِنَّ حَرَكْتَهُ دَعْنِي فَلَيْسَ عَلَيَّ غَيْرُ إِزَارِي¹

فالمخاطب لا يتبين صورة جرير إلا عندما يستحضر قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾* ، وكذلك عندما يلّم بحيثيات قصة سيدنا موسى عليه السلام وما حدث حينما ترك قومه مع أخيه هارون وما فعله السامري بهم ، وحينها لا يمكن أن يسمه إلا بالضلال .

وفي إطار الافتخار بالذات ، نجده يفتخر بقوة قبيلته ، فيقول:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ حَدَّهُ ضَرْنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ²

وقد ورد هذا البيت في سبيل الافتخار بقوتهم ، وأنهم لا يترفع عليهم أحد ، وأنهم يقهرون كل متكبر جبار ، إذا أشاح بوجهه عنهم تعظما وتجبرا يضربوه حتى تستقيم أخادعه . وقد اتكأ الشاعر على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾** .

في لوحة هجائية أخرى يستمد الفرزدق تفاصيلها من القصص القرآني ، نجده يقول في هجائه للحجاج بن يوسف:

فَلَمَّا عَنَا الْجَحَادُ حِينَ طَعَا بِهِ
فَكَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ نُوحٍ سَأَرْتَقِي
غَنَى قَالَ إِنِّي مُرْتَقٍ فِي السَّلَامِ
إِلَى جَبَلٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَاءِ عَاصِمِ
رَمَى اللَّهُ فِي جُنْمَانِهِ مِثْلَ مَا رَمَى
عَنِ الْقِبْلَةِ الْبَيْضَاءِ ذَاتِ الْمَحَارِمِ
جُنُوداً تَسُوقُ الْفَيْلَ حَتَّى أَعَادَهَا
هَبَاءً وَكَانُوا مُطْرَحِي الطَّرَاخِمِ

1 - نقائص جرير والفرزدق ، مج 1، ص 240.

*-سورة طه، الآية 85.

2 - المصدر السابق ، مج 2، ص 113.

**-سورة لقمان، الآية 18.

نُصِرَتْ كَنْصِرِ الْبَيْتِ إِذْ سَاقَ فَيْلَهُ إِلَيْهِ عَظِيمُ الْمُشْرِكِينَ الْأَعَاجِمِ¹

فالشاعر يشبه عتو مهجوه وطغيانه وكأنه يريد أن يرتقي إلى السماء تكبرا وجبروتا، وهو في ارتقائه هذا كابن نوح الذي أراد أن يعتصم من الطوفان بالجبل كما قصّ لنا ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾*.

ويقوده الحديث عن الهلاك إلى استحضار قصة أصحاب الفيل الذين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل وكأنه يخلص إلى نتيجة مفادها أنّ الهلاك على يد الله تعالى هو مصير كل كافر متجبر. والاتكاء على القصص القرآني يعدّ سمة بارزة عند شعراء النقائض ذلك أنهم ((كانوا يتناصون مع القصص القرآني بشكل لافت مثير للإعجاب، فقد استطاعوا التوفيق بمهارة وحنكة بين القصة القرآنية الأم والقصة الاجتماعية الهدف، فأسقطوا الأولى على الثانية سعيا وراء قوة التأثير واستقصاء العبرة))².

ويستند جرير، هو الآخر، إلى سلطة النص القرآني ليتخذ منه حجة ساطعة، تقوّي جانبه وتبّه طاقة إقناعية فيما يذهب إليه في مجالي الفخر والهجاء. فهو لا يقلّ عن صاحبه في توظيفه للقرآن الكريم، وفي شحن معانيه بنصوصه مما يكسبها طاقة إقناعية لا تقلّ عن تلك التي استغلّها الفرزدق. فهو عندما يفخر بقوّته من خلال الفخر بقوّة قبيلته، لا يسعه إلا أن يقول:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا
أَلَسْنَا أَكْثَرَ الثَّقَلَيْنِ رَجُلًا بِيْطْنٍ مِّنِّي وَأَعْظَمُهُ قِبَابَا؟³

فجرير لا يقف بقوّة قبيلته عند حدود الإنس فقط، بل يمتد بها إلى الجنّ أيضا، وذلك عندما وظّف لفظة "الثقلين" التي استوحاها من قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾**، فيذهب بالمعنى بعيدا إشارة

¹ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 252.

* - سورة هود، الآية 43.

² - نبيل علي حسنين: التناص دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائض جرير والفرزدق والأخطل، ص 241.

³ - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 322.

** - سورة الرحمان، الآية 31.

إلى أنّ قومه أقوياء ولا يستطيع أحد القضاء عليهم إلا الله تعالى .

وفي مجال الهجاء، يحاول التّيل من خصمه وذلك بالتركيز على كل ما يؤثّر في خصمه ويمكّنه منه، ولعلّ أكثر المعاني حضوراً في هجاء جرير للفرزدق هو تعبيره بكونه قين، ولكنه يستحضر هذا المعنى في نقائضه بصور متعدّدة . يقول:

فَدَيْنُكَ يَا فَرَزْدَقُ دِينَ لَيْلَى تَزُورُ الْقَيْنَ حَجًّا وَاغْتِمَارًا¹

فجرير اقتبس لفظي الحج والاعتمار من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾*، فالحج والعمرة شعيرتان إسلاميتان ومنسكان من مناسك الدين الإسلامي، يتمّ من خلالهما التوجّه إلى أفضل بقاع الأرض بيت الله للطواف والعبادة . لكنّ جريراً يحوّل المعنى ويشحنه بطاقة سلبية لهجاء الفرزدق . واستحضار الآية القرآنية، بمعناها السّلي، من شأنه أن يؤثّر في السّامعين ويجعلهم يقتنعون بفساد عقيدة الفرزدق .

ويواصل هجاءه اللادّاع للفرزدق بتوظيف النّص القرآني وحسن استثمار معانيه بما ينسجم ومعرّكته مع خصمه يقول :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ حِينَ يَدْخُلُ مَسْجِدًا رَجَسٌ فَلَيْسَ طَهْرُهُ بِطَهْوَرٍ²

فهو يبني بيته على معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾**. وهو بذلك يشبّه الفرزدق بالمشركين من حيث النّجاسة المعنوية، ذلك أن داخله خبيث، وفيه يصدق معنى الآية ﴿ . . لِمَسْجِدٍ أُبَسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾***. وفيها نفي لأن يكون الفرزدق ممن يرتادون المساجد، لأنّ الله طهر مساجده من

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 185.

*-سورة البقرة، الآية 158.

2 - المصدر السابق، مج 2، ص 271.

** - سورة التوبة، الآية 28.

***-سورة التوبة، الآية 108.

دنس المشركين ورجسهم المعنوي .وقد أخذ جرير هذه الصورة وألصقها بالفرزدق، مستغلا اشتهاره بتقواه بين الناس وفجور الفرزدق، ليستعدي عليه الأفاضل من الناس¹.

وفي موضع آخر نجده يقول:

إِنَّ الْبَيْثَ وَعَبْدَ آلِ مُقَاعِسٍ لَا يُقْرَأَنَّ بِسُورَةِ الْأَخْبَارِ²

فهو يخص بكلامه كلاً من البعيث والفرزدق ،محاوفا التيل منهما من خلال المساس بهما من الجانب الأخلاقي؛ حيث يصفهما بعدم الوفاء بالعهد ،ولكنّه لم يورد هذا المعنى على سبيل التصريح بل لمح إليه بالإشارة إلى سورة الأخبار، ويعني بما قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾*

إنّ إدراج النّص القرآني في بناء النّص الحجاجي سيقود حتما إلى إنجاح الفعل الحجاجي، وسيمكّن صاحبه من إحراز الغلبة على خصمه ذلك أن ((القرآن أعلى وأكبر وسائل الاستشهاد في الثقافة العربية الإسلامية، وهذا التفوق الدرّجي يجعل منه "الحجّة العليا"مما يجعل الفعل الحجّبي الذي يتمّ به أكثر إقناعاً))³. ولعلّ هذا ما يفسّر لنا اتكاء الشّاعرين بدرجة كبيرة، في حجّاجهما، على النّصوص القرآنية؛ حيث جعلنا منها حجّجا جاهزة لتدعيم موقفهما، وجعل الآخرين يذعنون لطحهما ويقتنعون به.

2-الحديث النبوي الشريف :

تدخل الأحاديث النبوية ضمن حجّة السلطة، إذ تنزل في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم(الكلام الإلهي)، واستدعاء هذا النوع من الكلام في المحاججة من شأنه أن يمدّ المحاجج بقوة تتأتى من قوّة مصدره ذلك أنّ هذه النّصوص لها من المصدقية والقبول ما لها، وإيرادها كحجّج دامغة لا يدع أي مجال للشك. وفيما يأتي سنحاول الوقوف مع بعض النّماذج التي استند فيها الشّاعران إلى الطاقة الإقناعية للكلام المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

1 -محمود عزام خالد: جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2007، ص 99.

2 -نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 246.

*-سورة المائدة، الآية 01.

3 -عبد اللطيف عادل: بلاغة الافئاع في المناظرة، ص 233.

يبي جرير هجاءه للفرزدق على كل ما يعيبه ويحطّ من مكانته لذلك نجده يعيره بنفخ الكير، وقد كثر حديثه عن هذا بصورة بارزة، ومما قاله :

وَأَنَّكَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ لَسْتَ بِنَافِخٍ بِكَبِيرِكَ إِلَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ¹

كما أنه لا يقف بهذه الصفة المهينة عند الفرزدق فحسب، بل يجعلها ممتدة إلى والده أيضا، ليؤكد من هذا أنها صفة متوارثة، يقول:

لَمَّا بَنَى الْخَطْفَى رَضِيْتُ بِمَا بَنَى وَأَبُو الْفَرَزْدَقِ نَافِخُ الْأَكْبَارِ²

إنّ إصرار جرير على تغيير الفرزدق بهذه الصفة هو تنشيط للذاكرة حتى لا تنسى، وهو ما نفسّر به إيراد المعنى الواحد في صوّر متعدّدة، وكلّ ذلك يذكّرنا بحديث النبي (ص) الذي يفاضل فيه بين المجلس الصالح والمجلس السوء فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنّ النبي (ص) قال: ((إنّما مثل المجلس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إنّما أن يحذيك، وإنّما أن تبتاع منه وإنّما أن تجد منه ريحا طيبة. ونافخ الكير إنّما أن يحرق ثيابك وإنّما أن تجد منه ريحا منتنة))³. واضح أنّ هذا الحديث النبوي ينصّ على أنّ مجالسة المسيء لا فائدة ترجى منها، بل لا بد وأن تجلب الضّرر، ولتقريب الصورة أكثر شبّهه بنافخ الكير لكن استحضار جرير للحديث، وفي سياق مذمته للفرزدق، يوجّه انتباهنا مباشرة إلى صورة نافخ الكير، فلا نرى الفرزدق إلّا بتلك الصورة السيئة والمؤذية التي وضّحها الحديث.

وفي موضع آخر، يشنّع جرير بصاحبه الذي ارتكب ما يستوجب الحدّ منذ حداثة سنّه، ومع ذلك ما زال لم ينهه شبيهه (كبر سنه) عن ارتكاب المنكرات، وفي ذلك يقول:

أَتَيْتَ حُدُودَ اللَّهِ مُذْ أَنْتَ يَافِغٌ وَشَبْتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ⁴

1 - نقاض جرير والفرزدق، مج 1، ص 287.

2 - المصدر نفسه، ص 247.

3 - النووي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تح هاني الحاج، دار الامام مالك للكتاب، البليدة-الجزائر، د. ط. د. ت، ص 139-140.

4 - المصدر السابق، ص 285.

وما وقوع الفرزدق في المنكرات إلا لأنه لا يقي نفسه الشبهات ،وقد أوتر عن الرسول (ص) أنه قال: ((إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام...))¹. إنّ استعراض الحديث يدفعنا إلى الحكم على الفرزدق بأنه لا يتقى الشبهات، ولا يستبرئ لدينه وعرضه، نحكم ونحن مطمئنين إلى هذا الحكم، وكأّنّ الحديث موجّه إليه على وجه التعيين.

إنّ استناد جرير إلى النصوص الدينية، في مهاجاته للفرزدق، تنطلق من الاقتناع بمدى تأثيرها في الخصم وفي جمهور السامعين، ممّا ينتج عنه إفحام الخصم وحمل السامعين على الاقتناع بصحّة ما ذهب إليه لأنّ سلطة هذه النصوص تتجاوز سلطة البشر .

وقد عمد الفرزدق، هو الآخر، إلى الحديث النبوي الشريف، في مهاجاته لجرير، فعندما يحاول الانتقاص من قدراته الحربية، ومدى صموده عند ملاقاته العدو لا يسعه إلا أن يقول:

عَجِبْتُ لِرَاعِي الضَّانِ فِي حُطْمِيَّةٍ وَفِي الدِّرْعِ عَبْدٌ قَدْ أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ
أَفَاحٌ وَأَلْفَى الدِّرْعَ عَنْهُ، وَلَمْ أَكُنْ لِأُلْقِي دِرْعِي مِنْ كَمِيٍّ أَقَاتِلُهُ²

فقد أورد أبو عبيدة في شرحه لنقائص جرير والفرزدق أنه أوتر عن النبي (ص) قوله : ((كل بائلة تفيخ))³؛ حيث بنى بيته على معنى الحديث معتمدا في ذلك على لفظ من أفاظه. والملاحظ أن استحضار الشاعر لنص الحديث ((في الغالب كان خفيا يحتاج إلى عمل كبير من أجل استيضاح جوانبه))⁴، كما أنّ استحضار الشعارين لنصوص الأحاديث النبوية يعدّ قليلا جدا مقارنة باعتماد النص القرآني .

2- الأمثال:

تعدّ الأمثال -أيضا- من الحجج التي تستدعي المشترك نظرا لما يتّسم به المثل من خصائص، لذا نجد الشعارين يتكئان على توظيف الأمثال في نصوصهم الشعريّة نظرا لما ينطوي عليه من طاقات إقناعية تأثيرية

1- النووي: رياض الصالحين، ص 211.

2- نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 59.

3- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4- نبيل علي حسنين: التناس. دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائص جرير والفرزدق والأخطل، ص 248-249.

خاصة وأنها تحظى بالقبول، فقد ((اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال باعتبارها من خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد))¹.

فالمثل يحمل في دلالاته القدرة على الإقناع والمحاورة، وذلك ما ذهب إليه ابن رشيق حينما قال: ((إنما سمي مثلاً لأنه مائل لخطر الإنسان أبداً، يتأسى به، ويعظ ويأمر ويزجر))²، وكل هذا من شأنه أن يؤثر في المخاطب ويحمله على تغيير سلوكه، بالاتجاه الإيجابي السوي الذي ارتضته العامة، واتفقت عليه. كما يمتلك - تلك القدرة - بناءً على الخصائص التي تميزه، ذلك أن من خصائصه* أن له طابعا إقناعيا برهانيا، لأنه يساق للإقناع، ويرد حجة ودليلاً على صدق مساقه وصحة دعواه³.

فالشاعر عندما يورد الأمثال في أشعاره، فإنه يسعى من وراء ذلك لإقناع مخاطبيه بصحة ما يدعو إليه، وما يعتقد، ويطلب في الوقت ذاته بمشاركتهم هذا الاعتقاد، ومطالبته هذه ((لا تكتسي صبغة الإكراه ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجرّ الغير إلى الاقتناع))⁴.

وقد استعان جرير والفرزدق في نقائضهما بالأمثال نظراً لما لها من قدرة على التأثير والإقناع، ولما تحتزنه من طاقات حجاجية تمكن كل طرف من بلوغ هدفه، خاصة وأن ((مؤسس الخطاب الحجاجي - أيا كان هذا الخطاب - يعي عادة الفضاء الذي يتحرك فيه خطابه، ويعرف ضرورة الرموز المعبرة عن انتماء متلقيه الثقافي والاجتماعي، فيوظفها بطريقة ذكية تمكن من الإقناع، والحمل على الأذعان))⁵.

لقد أُعتبر توظيف الأمثال في الشعر ظاهرة نادرة في الشعر الأموي بسبب المستوى التركيبي للشعر، والذي لا يتلاءم في معظم الأحيان مع التركيب الجملي للمثل مما يجعل الشاعر يتصرف في بنيته⁶ غير أن جريراً والفرزدق قد جرت على لسانيهما عبارات شاع تداولها بين الناس وأصبحت أمثالاً، كما أنهما

1 - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 93.

2 - ابن رشيق: العمدة، ج 1، ص 232.

* - جعل العروي للمثل أربعة خصائص، وهي أن المثل يرد معتمداً على التشبيه والتمثيل والكناية، وإجاز اللفظ، وأن له طابعا إقناعيا برهانيا، وأن له بعدا تداوليا. انظر من قضايا النقد القديم الحكمة والمثل المفهوم والعلاقة والتفريغ، ص 59-60.

3 - محمد أقبال العروي: من قضايا النقد القديم الحكمة والمثل، ص 60.

4 - طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38.

5 - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيته وأساليبه، ص 237.

6 - بدران عبد الحسين محمود: التناسل في شعر العصر الأموي، ص 282.

قد وظّفنا في أشعارهما الكثير من الأمثال مما ينمّ على قدرتهما على ((الاستفادة منها، وتخويرها مع المحافظة على تركيبها الأساس غاية إثراء المعنى الشعري وتكثيف دلالاته))¹.

ومن الأمثال التي وظّفها الشعّاران في نقائضهما نذكر قول جرير:

وَلَقَدْ تَرَكْتُ مُجَاشِعًا وَكَأَنَّهُمْ
فَقَعُ بِمَدْرَجَةِ الْحَمِيسِ الْجُحْفَلِ²

فجرير يورد هذا البيت ضمن الافتخار بقوّته والإطاحة بخصمه، فهو يذكر أنه نال من قوم مجاشع وألحق بهم الذل والهوان في معركتهم؛ حيث طحنهم بجيش كثير العدد قوّي الجلبة، وتركهم كالكمأة البيضاء. ولجعل المخاطبين ينساقون مع ما ذهب إليه عوّل على ما هو متداول بين الناس وجعلهم يستحضرون المثل القائل: "أذلّ من فقع بقاع" وبذلك نجده ((يعقد الصّلة بين السياق المشاهد وبين السياق الغائب، ويستحضر بهذا مصداقية الحجّة التي أدخلها في خطابه))³، وبهذا يكون خطابه أكثر إقناعاً وحجّة أقوى في الدلالة على قوّته أمام ضعف خصمه.

وجرير لا يكتفي بإلحاق الذل بمجاشع فقط، وإنما ينتقل إلى الفرزدق ذاته ويحاول التّيل منه من خلال وسمه بالذل والهوان، هذا الذل متأتّي من ذل التّسب الذي يفخر به . يقول متهكما :

كَانَ الْفَرَزْدَقُ إِذْ يَعُودُ بِجَالِهِ
مِثْلَ الدَّلِيلِ يَعُودُ تَحْتَ الْقَرْمَلِ⁴

وهذا القول، في الحقيقة، هو ردّ على قول الفرزدق :

يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ أَيْنَ خَالِكَ إِنَّنِي
خَالِي الَّذِي غَصَبَ الْمُلُوكَ نُفُوسَهُمْ
خَالِي حُبَيْشُ ذُو الْفَعَالِ الْأَفْضَلِ
وَإِلَيْهِ كَانَ حِبَاءُ جَفْنَةَ يُنْقَلُ⁵

¹-نبيل علي حسنين:النص.دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائص جرير والفرزدق والأخطل،ص 286.

²-نقائص جرير والفرزدق،مج 1،ص 164.

³-عبد الهادي بن ظافر الشهري:آليات الحجاج وأدواته،ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته،ج 3،ص 133.

⁴-المصدر السابق،ص 165.

⁵-المصدر نفسه،ص 146.

فهذا النسب الذي يفخر به الفرزدق (الخؤولة)، يقبله عليه ويحوّله إلى ما يثير السخرية ويعمد إلى إظهاره في صورة تثير الشفقة، ذلك أنه حين يفخر بنسبه وبخاله على وجه الخصوص فإن هذا الانتماء لا يحقّق له الفخر الذي يرجوه، وإنما هو، في نظر جرير، ذليلاً يحتمي بذليل. وهو بهذا يؤكّد ذله من جهتين: من جهته هو ومن جهة أحواله، وللتأكيد ما ذهب إليه يدعّمه بالمثل القائل: "ذليل عاد بقرملة" وعليه لا يمكن إلا التسليم برأيه.

إنّ توظيف الشاعرين للمثل ضمن نقائضهما، لا يمكنه أن ينهض بالوظيفة التأثيرية الإقناعية ما لم يحسنا إدراجه ضمن السياق العام لكلامهما؛ بحيث يتماشى مضمونه مع مضمون الأبيات الشعرية فلا يحدث انقطاعاً أو عدم انسجام وذلك ما ذهب إليه حازم القرطاجني حينما آثر التوظيف السياقي للمثل داخل القصيدة، لأنه يعتبره مؤكّداً للمعنى الذي سيق من أجله، ومؤثراً في نفسية المتلقّي، وهو ما يكشف عن الطابع التصديقي والإقناعي للمثل من جهة، وجماليته الفنية من جهة ثانية¹.

من أجل ذلك، نجد الفرزدق يدعّم طروحاته بإيراد الأمثال؛ بحيث يستند على معانيها المكتّفة من جهة وطاقاتها الإقناعية من جهة ثانية. ففي سبيل الحطّ من قيمة جرير يبدأ بالمسّاس بقومه والتأكيد على هوانهم وضعفهم. يقول:

هُنَالِكَ لَوْ تَبَغِي كُليّاً وَجَدْتَهَا
بِمَنْزِلَةِ الْقِرْدَانِ تَحْتَ الْمَنَاسِمِ²

فهو يشبّه كُلياً بالدويبة الصغيرة التي تعلق بظفر خفي البعير، إشارة إلى منزلتهم الحقيرة والتأكيد على ذلهم من خلال استحضار المثل القائل "أذل من قراد بمنسم"³. والفرزدق لا يكفيه ذل وهوان قوم جرير ما لم يشف غليله من جرير ذاته، وذلك من خلال الحديث عن مكانته بين قومه. يقول:

جَرَّ الْمُخْزِيَاتِ عَلَيَّ كُليّاً
وكان لهم كِبْكَرٍ ثَمُودَ لَمَّا
جَرِيرٌ ثُمَّ مَا مَنَعَ الدِّمَارَا
رغاً ظَهراً فَدَمَرَهُمْ دَمَارَا⁴

1 - محمد اقبال العروبي: من قضايا النقد القديم الحكمة والمثل، ص 66.

2 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 144.

3 - الميداني: مجمع الأمثال، ج 1، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د. ط. د. ت. ص 283.

4 - المصدر السابق، مج 1، ص 187.

يؤكد الفرزدق فكرة أنّ جريرا سيئ، وسوءه لا يعود عليه وحده بل يمتد أثره إلى قومه، فيجلب لهم العار ويجرّ عليهم كلّ ما من شأنه أن يذلهم ويخزيهم، بل هو مصدر شؤم لهم، ولكي يمنح فكرته هذه دلالة أعمق وأقنع شبهه ببكر ثمود عاقر الناقة، الذي لم يجلب لقومه سوى الهلاك والدمار، وقد استمد معناه من المثل القائل "كانت عليهم كراغية البكر" ويعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار بن سالف، ويضرب في التشاؤم بالشّيء¹.

إنّ تعامل الشاعر مع المثل ينم عن وعي تام بقدرة المثل على التأثير، فللتأكيد على الوجود السلبي لجرير والقول بكونه مصدر شؤم لقومه استحضر مضمون المثل المذكور ليدفعنا للرّبط بين الشّخصين (جرير/بكر ثمود) وبين الحالتين، ومن هنا تتأتى الطاقة الإقناعية والحجاجية للمثل لأنّها ((تقوم في جوهرها على "القياس"، قياس الحالة الحاضرة الراهنة على أخرى مشابهة يعرفها الجميع ويدركون أبعادها فمتى سلّموا فإنهم يسلمون بالحاضرة))².

وفي موضع آخر يقول:

فَقُلْتُ أَظَنَّ ابْنَ الْحَبِيثَةِ أَنِّي شَغِلْتُ عَنِ الرَّامِي الْكِنَانَةَ بِالْبَبْلِ³

فالشاعر يشير إلى أنه تفتّن إلى حيلة جرير بهجائه للبعيث وهو يقصد من ورائه الفرزدق، ولم يجد ما يتمثل هذه الحالة أكثر من استدعاء المثل وما يختزله من معنى القصّة التي أوجدها، فضمّن بيته معنى المثل القائل "شغل عن الرامي الكنانة بالببل"؛ حيث شبه جرير الذي أراد بهجائه الفرزدق لا البعيث بالأسدي الذي أراد رمي الفزاري ولم يرد رمي الكنانة، أي أنه لم يعلم أنّ غرض الرامي أن يرميه هو لا كنانته⁴. لكنّ الفرزدق يحوّل المعنى السلبي الذي يكرّسه المثل وهو أنه يضرب لمن يغفل عما يراد به ويكاد له، ويلقي به على عاتق جرير، ليقول من خلاله إنّ جريرا ظنّ أنني لن أتفتن لمراده لكنني لست غافلا عنه وعن مقصده.

1- الميداني: مجمع الأمثال، ج 2، ص 141.

2- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيته وأساليبه، ص 295.

3- نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 97.

4- الميداني: مجمع الأمثال، ج 1، ص 363-364.

لقد اتكأ كلٌّ من جرير والفرزدق في حججهما على استحضار نصوص تتميز بحجّة السلطة وحجّة التداول، فكلاهما يسعى إلى التأثير والإقناع، ولن يجدا، لذلك، أفضل من الاعتماد على ((أقوال تشكّل سلطة مرجعية معترفاً بها قادرة على تجاوز معارضة الخصم وانتزاع تسليمه))¹.

وبهذا نكون قد وقفنا على مختلف الحجج الجاهزة التي وظّفها جرير والفرزدق في نقائضهما، وقد كانت موزّعة بين النصّ الديني وما يندرج ضمنه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية والنصّ الشعبي، إن صحّ لنا تسميته كذلك، وما يندرج تحته من أمثال.

ثالثاً: الحجج المؤسسة لبنية الواقع

ثمة حجج كثيرة يضمها هذا الصنف، ويمكن من خلالها التأسيس للواقع، ومن بينها نذكر:

1- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة :

قال جرير:

لا يُلبِثُ القُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَهَارُ²

يندرج هذا البيت ضمن مراثية جرير لزوجته، وهذا الحدث المحزن جعل كلامه يفيض حكمة استقاهها من تجربته الخاصة لكن يشاركه فيها جميع الناس. فالفراق واقع أكيد لكلّ قرنين، وتواتر الليل والنهار واستمرارية الزمن كفيل بإبصاليهما إلى هذه النتيجة الحتمية. وجرير ينطلق من حالة شخصية ليؤسس بها واقع جميع الناس لأنّ سبب الفراق هنا هو الموت، والموت حقّ على كلّ نفس وبالتالي سيطال كلّ حيٍّ وسيفارق بين كلّ من جمعهما لقاء.

قال جرير:

لا خَيْرَ فِي مُسْتَعْجَلَاتِ الْمَلَاوِمِ ولا فِي خَلِيلٍ وَصَلُهُ غَيْرُ دَائِمِ³

فهذا البيت الذي يفيض حكمة حمّله الشاعر خلاصة تجربته في الحياة وتقلّبه مع الأيام. وفيه يحدّد العلاقات الاجتماعية التي تربط الأشخاص، والتي ينبغي أن تبنى على الثقة والإخلاص المتبادل، فهو يصدر حكماً بالأخيار في لوم الآخرين دون تزيّث وتعقل، وعلى الشخص أن يلتزم لرفيقه الأعذار قبل أن يلقي بملامته عليه ويتخذ منه موقفاً دون بصيرة لأنّ المسارعة إلى اللوم دون تبيين لا يخلف إلاّ الندامة، كما أنه

1 - عبد اللطيف عادل: بلاغة الحجج في المناظرة، ص 233.

2 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 216.

3 - المصدر نفسه، ص 150.

لا خير في خليل لا يُقيي حبل الوصال مشدودا بخليله لأنّ عدم استمرارية هذه العلاقة سيورثها الفتور ومع الزمن ستؤول إلى الانقطاع التام.

ومّا يندرج ضمن هذه الحالات الخاصّة نجد:

- التّمودج وعكس التّمودج :

استند جرير والفرزدق في نقائضهما على أنواع عدّة من الحجج التي اتخذها ركيزة أساسية في بناء حججهما ومن بينها استحضار حجة التّمودج وعكس التّمودج، والملاحظ أنّ التّمودج يُستحضر كحجة دامغة في مجال الفخر بينما يكون عكس التّمودج مقترنا بالهجاء.

قال جرير:

لَقَوْمِي أَحْمَى فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ وَأَضْرَبُ لِلجَبَّارِ، وَالنَّعْغُ سَاطِعٌ
وَأَوْثَقُ عِنْدَ الْمُرْدَفَاتِ، عَشِيَّةً لِحَاقًا إِذَا مَا جَرَدَ السَّيْفَ لَامِعٌ
وَأَمْنَعُ جِيرَانًا، وَأَحْمَدُ فِي الْقَرَى إِذَا اغْبَرَّ فِي الْمَحَلِّ النُّجُومُ الطَّوَالِعُ¹

يبدو أنّ الشاعرا بصدد المفاضلة بين قومه وقوم خصمه فنسب جملة من الفضائل لقومه، هذه الفضائل تندرج ضمن أعراف الحياة العربية، وهي بطابعها الإيجابي تصنع التّمودج، وتجعل قبيلة الخصم دون قبيلة الشاعرا، فجرير يحتج لصالح سمو القبيلة ورفعة قدرها وأفضليتها على القبائل الأخرى خاصة قبيلة الخصم.

وفي مجال المفاخرة أيضا نجد جريرا يقول:

وَإِنِّي لَمَنْ قَوْمٌ تَكُونُ خِيُوهُمْ بِشَغْرِ وَتَلْقَاهُمْ مَقَانِبَ فُودًا
يَحْشُونَ نِيرَانَ الْحُرُوبِ بِعَارِضٍ عَلْتُهُ نُجُومُ الْبَيْضِ حَتَّى تَقْدَا
وَكُنَّا إِذَا سِرْنَا حَيِّ بِأَرْضِهِمْ تَرَكْنَاهُمْ قَتْلَى وَفَلًا مُشْرَدًا
وَمُكْتَبَلًا فِي الْقِدِّ لَيْسَ بِنَاذِعٍ لَهُ مِنْ مِرَاسِ الْقِدِّ رَجُلًا وَلَا يَدَا
وَإِنِّي لَتَبْتَرُ الرَّئِيسَ فَوَارِسِي إِذَا كُلُّ عَجْعَاجٍ مِنَ الْخَوَرِ عَرْدَا²

فالشاعر يحاجج لصالح قوة قومه وشجاعتهم خاصة في ميادين القتال، وبالتالي فهو يرفع لصالحه باعتباره واحدا منهم، وما يشكل مفاخرة لهم فهو مفاخرة له أيضا، لذلك نجده يفخر بانتسابه إلى قوم فرسان شجعان أقوياء، لا يخافون خوض الحروب ولا ترهبهم مكانة الخصوم لأنّ النصر حليفهم دائما، وإذا ما غزوا قوما

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 107-108.

² - المصدر نفسه، مج 1، ص 345.

تركوهم بين قتيل وشريد وأسير مُكَبَّل في القيود. والملاحظ أنّ جريرا في البيت الأخير ينسب الفوارس إليه باستعمال "ياء النسبة" وكأنه بذلك ينسب كلّ صفاتهم الإيجابية إليه، وبالتالي فهو لا يقف عند اعتبار فرسان قومه التّمودج الأمثل، بل يمتد إلى نفسه ليجعل منها التّمودج الأمثل في القوّة والشجاعة والفروسية، وبذلك يجد لنفسه ما يرفعه فوق الفرزدق.

ولأنّ الفخر بالقبيلة يتمّ باستحضار أمجادها ومكارمها نجد الفرزدق يفخر بقبيلته من خلال إظهار قدرة هذه القبيلة على البدل والعطاء حتّى في الظروف القاسية وهو ما يمنح فعلها قيمة أكبر، ويكون مؤشّر قوّة وسؤدد، يقول:

قَدْ عَلِمَ الْجِرَانُ أَنَّ قُدُورَنَا ضَوَامِنُ لِلْأَرْزَاقِ وَالرَّيِّ زَفْرَفُ
نُعَجِّلُ لِلضَّيْفَانِ فِي الْمَحَلِّ بِالْقَرَى قُدُورًا بِمَعْبُوطٍ تُمُدُّ وَتُعْرِفُ¹

فالشاعر يرفع لصالح قومه ويصفهم بالكرم والجود، ودليله في ذلك إقراء الطّعام في الليلة الباردة التي تعصف رياحها شديدة قويّة، وفي السنّة المجذبة التي تقلّ خيراتها ينفقون الإبل السّمينة السليمة لإطعام الجائعين، وعطاؤهم هذا غير محدود فكلّما نفذ ما في القدور مُلئت بالطعام ثانية. والملاحظ أنّ الشاعر يوظّف في البيت الثاني لفظ "نعجّل" للدلالة على الاستجابة السريعة الناتجة عن الرغبة في هذا الفعل والإقبال عليه وفق ما تقتضيه طبيعة هذا البدل، لأنّه من المكارم التعجيل في إقراء الضيف.

قال جرير:

وَمَا لَأَقَيْتَ وَبَيْتِكَ، مِنْ كَرِيمٍ يَنَامُ كَمَا تَنَامُ عَنِ التَّرَاتِ²

يكرّس هذا البيت جانبا نراه سلبيا غير أنّ العرف العربي أولاه أهمية خاصّة في الحياة الجاهلية وهو الأخذ بالثأر، وجعله من المكارم التي تشكّل فخر القبيلة والفرد على حدّ سواء. وعدم الأخذ بالثأر مما يعيب الإنسان ويكون مدعاة لهجائه، وفي هذا البيت يعيّر جرير الفرزدق بنومه عن الثأر، وذلك دليل جبن وضعف ويندرج هذا ضمن عكس التّمودج.

ويركز جرير عدسة انتقاده على الجانب الأخلاقي للفرزدق فيقول:

زَارَ الْفَرَزْدَقُ أَهْلَ الْحِجَازِ، فَلَمْ يَحْظَ فِيهِمْ وَمَ مُحَمَّدٍ
وَأَخْرَجْتَ نَفْسَكَ عِنْدَ الْحَطِيمِ وَيِنَّ الْبَقِيْعَيْنِ وَالْعَرَقَدِ

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 15 .

² - المصدر نفسه، ص 167.

وَجَدْنَا الْفَرَزْدَقَ بِالْمُؤَسَّمِينَ حَبِيبَ الْمَدَاخِلِ وَالْمَشْهَدِ
نَفَاكَ الْأَعْرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، بِحَقِّكَ تُنْفَى عَنِ الْمَسْجِدِ¹

توحي هذه الأبيات بأنّ الفرزدق لم يكن على حُلق حميد بل كان سيئ السيرة، وسوء الخلق سمة ثابتة فيه فحيثما حلّ أخزى نفسه وقومه إذ لا يراعي حتى قدسية المكان، وما ذاك إلاّ لأنّ الفساد سمة متأصلة فيه ولذلك نفاه عمر بن عبد العزيز وأبعده عن المسجد لفساد دينه.

ولم يكن التغني بالمزايا الشخصية أساس المفاخرة بين الشعاعين، بل شغل الفخر القبلي مجالها الأرحب لذلك نجد منجزات القبيلة حاضرة حضوراً إيجابياً أو سلبياً، يقول الفرزدق:

سَأرْمِي وَلَوْ جُعِلَتْ فِي اللَّيَامِ وَرُدَّتْ إِلَى دِقَّةِ الْخَنَدِ
كُلَيْباً فَمَا أَوْقَدَتْ نَارَهَا لِقِدْحِ مُفَاضٍ وَلَا مِرْفَدِ
وَلَا دَافَعُوا لَيْلَةَ الصَّارِحِينَ لَهُمْ صَوْتٌ ذِي عُرَّةٍ مَوْقِدِ
وَلَكِنَّهُمْ يَلْهَدُونَ الْحَمِيرَ رُدَافِي عَلَى الظَّهْرِ وَالْفَرْدَدِ²

فهو يعدّد مساوئ كليب في كونها لم توقد ناراً لأيسار ولا لضيفان وذلك دليل على ضعف جانبها المادي الذي يتحوّل لها سعة في الإنفاق وضعف مكانتها الاجتماعية. كما أنّه لا أثر لهم في مجال الحرب لأنهم يفتقرون للشجاعة والفروسية والإقدام فلا أثر لهم في هذه المكارم لكنهم يتقلون ظهور الحمير بملازمتهم لها بدل ملازمة الخيل وميدان الحروب.

قال جرير هاجياً لقوم خصمه:

لَا يُخَفِّينَ عَلَيْكَ أَنَّ مُجَاشِعاً لَوْ يُنْفَخُونَ مِنَ الْخُورِ لَطَارُوا
إِذْ يُؤَسَّرُونَ فَمَا يُفَكُّ أَسِيرَهُمْ وَيُقْتَلُونَ، فَتَسَلَّمُ الْأَوْتَارُ³

يمتد جرير بهجائه إلى قوم الفرزدق فيجعل مجاشعا ضعافاً جبناً، إذا أسروا لا يفكّ أسيرهم لفقدانهم كلّ جوانب القوّة سواء أكانت الشجاعة والإقدام، أو المادية التي تمكّنهم من افتداء أسراهم، أمّا في حالة القتل فإنهم لا يأخذون بثأر قتلاهم للأسباب السالفة الذكر.

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 181.

2 - المصدر نفسه، ص 176-177.

3 - المصدر نفسه، ص 223.

ويقول في موضع آخر:

وَأَنْتُمْ فَرَزْتُمْ عَنْ ضِرَارٍ وَعَنْجَلٍ وَأُسْلِمَ مَسْعُودٌ غَدَاةَ الْحَنَاتِمِ
 فِي أَيِّ يَوْمٍ فَاضِحٍ لَمْ تُقَرَّنُوا أُسَارَى كَتَقَرِّينِ الْبِكَارِ الْمُقَاهِمِ
 وَيَوْمَ الصَّفَا كُنْتُمْ عَبِيداً لِعَامِرٍ وَبِالْحَزَنِ أَصْبَحْتُمْ عَبِيدَ اللَّهَازِمِ
 وَلَيْلَةَ وَادِي رَحْرَحَانَ رَفَعْتُمْ فِرَاراً وَلَمْ تَلُوءُوا رَفِيفَ النَّعَائِمِ¹

فجرير يهجو الفرزدق بموقف قبيلته في جانب من جوانب الحياة العربية والتي يحكم من خلالها بالشجاعة والقوة وخاصة في مجال الحرب مجال إظهار الشجاعة والقوة والبطولة والفروسية، فهو يعيرهم بضعفهم وفرارهم وعدد لذلك وقائعا وأحداثا(يوم الصفا-يوم الحزن-وادي رحرحان)، وبذلك فهو يحاجج خصمه بعكس النموذج مادام هذا كله يصب في الجانب السلبي للقبيلة.

- الحجاج بالمقارنة:

عندما يجتمع الحجاج بالنموذج وعكس النموذج ينتج عنه ما يسمى بالحجاج بالمقارنة، وفيه تظهر المفاضلة بين الطرفين. قال جرير:

فَعَرْتُ بِأَيَّامِ الْفَوَارِسِ فَافْخَرُوا بِأَيَّامِ قَيْنَيْكُمْ جُبَيْرٍ وَدَاسِمِ²

فالشاعر يعقد مقارنة بين مفاخره ومفاخر الفرزدق، ويجعل لقومه الشجاعة والبسالة والإقدام في ميادين القتال طالما حصر فخره في أيام الفوارس، الذين إذا ما ذكروا ذكرت معهم الانتصارات والأعجاد التي يطرزونها بدمائهم، أما خصمه الفرزدق فقد حصر فخره في أيام القيون، والقيانة كما هو مأثور عن العرب لا تشكل مفخرة فهي في الأساس مما يعير به القوم لأنهم أنفوا ومنذ القديم من ممارسة الحرف، ورأوها مما يشغل العبيد والخدم لا السادة. إن اعتماد الحجاج بالمقارنة ووضع أيام الفوارس وأيام القيون في كفتي ميزان يرجح بالضرورة أيام الفوارس، وبذلك يكون جرير قد رجح كفته مقابل كفة الفرزدق، وأثبت الأفضلية لنفسه.

واستنادا إلى هذه المفارقة يبني مقارنة أخرى أساسها الإرث وما يخلفه الآباء للأبناء، يقول:

وَأُورِثَكَ الْقَيْنُ الْعِلَاةَ وَمِرْجَالاً وَإِصْلَاحَ أَخْرَاتِ الْفُؤُوسِ الْكَرَامِ
 وَأُورِثْنَا آبَاؤَنَا مَشْرِيفَةً، ثُمِّيْتُ بِأَيْدِينَا فُرُوحَ الْجَمَاجِمِ³

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 1، ص 305-306.

2 - المصدر نفسه، مج 2، ص 158.

3 - المصدر نفسه، ص 159.

ففي هذين البيتين يعقد جرير مقارنة بين إرثه وإرث الفرزدق منطلقاً من كون الإرث يكون من جنس ما يملكه الشخص، وانطلاقاً من كون الفرزدق ابن قين وما كان بوسعهِ إلا أن يترك له العلاة والمرجل والانشغال بإصلاح الفؤوس، في حين جعل نفسه ابن الفوارس الذين ورثوه السيوف وما تمثله من فروسية وما تحقّقه من انتصارات وما تصنعه من أمجاد. إنّ اعتماد الحجاج بالمقارنة بين البون الشاسع بين الطرفين؛ حيث يضعهما في كفتي ميزان فترجح كفة دون أخرى ومعها تُستمال القلوب والعقول وتأرجح مع الطرف المنتصر بشيء من الفناعة والرضا.

كانت هذه مختلف الحجج التي تراءى لنا وجودها في نقائص جرير والفرزدق، ومن خلال عرضها خلصنا إلى أنّ كلّ حجّة تعالج الأمر من زاوية خاصّة لكنها تصبّ جميعها في بوتقة واحدة وهي إثبات الأفضلية للذات والدونية للآخر.

بعدها سنعرّج على آخر محطة في هذا الفصل وهي ترتبط بالعلاقات الحجاجية التي لا يخلو أي نص حجاجي منها، والتي تدخل في تشكيل بنيته أيضاً. ونظراً لتعدد العلاقات الحجاجية سنقف مع بعضها لتتناولها بالقدر الذي يمكننا من تبين دورها الحجاجي.

المبحث الثالث:

العلاقات الحجاجية

لا يتشكل النص الحجاجي من المقدمات التي ينطلق منها المحاجج في بناء خطابه، ولا من الحجج التي يدعّم بها طروحاته ويوظّفها لخدمة مسعاه الحجاجي، وإنما يبني أيضا على مختلف العلاقات الحجاجية التي تربط أجزاء النص فتعبه قدرا من الانسجام والتلاحم مما يدفعنا إلى الاقتناع بما ورد ومن ثمّ التسليم بفحوى الخطاب. و((الواقع أنّ مفهوم العلاقة الحجاجية مفهوم شامل واسع جدا؛ بحيث يشمل عددا كبيرا من العلاقات الدلالية مثل العلية والشّرط والاستنتاج على أن الرّابط بين هذه العلاقات جميعا قيامها على طرفين هما حجّة أو دليل يخدم نتيجة ما يقتضيها))¹.

وتظهر أهمية العلاقات الحجاجية من خلال الدّور الذي تنهض به داخل النص، ذلك أنّ((العلاقات بين مختلف الحجج والبراهين من ناحية وبين هذه الحجج والبراهين من جهة والنتائج التي يقصد إليها الخطاب ويقود إليها المتلقّي من جهة أخرى))².

والعلاقات الحجاجية كثيرة تعدّد بتعدّد العلاقات التي تربط أجزاء النصّ لخدمة غاية معيّنة، ومن هذه العلاقات نذكر: العلاقة السببية، وعلاقة الاقتضاء، والتتابع والاستنتاج والتناقض أو عدم الاتفاق وغيرها، غير أننا لن نقف عليها كلّها، بل سنخصّص وقفنا للثلاث الأولى منها، قناعة منا بأهميتها من جهة وقدرتها على تبيين العلاقة الحجاجية من جهة ثانية. وهذه العلاقات هي:

1-العلاقة السببية:

تعدّ العلاقة السببية من أبرز العلاقات الحجاجية وأقدرها على التأثير في المتلقّي، وهي ضرب مخصوص من العلاقات التتابعية إذ يحرص المتكلّم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام دون الاكتفاء بتلاحق عادي بينها، بل يعتمد إلى مستوى أعمق من العلاقة فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث ويسم فعلا ما بأنه نتيجة متوقّعة لفعل سابق ويجعل موقفا معيّنا سببا مباشرا لموقف لاحق³.

والعلاقة السببية، كما يتّضح من التسمية، تقوم على ربط السبب بالنتيجة، أو إحالة النتائج على أسبابها، وهو ما يجعلنا نسلّم بالنتائج أو نتكهن بها إذا ما عُرفت أسبابها، وعليه فإنها بطبيعتها تحيل

1 - سامية الدريدي: الحجاج في هاشميات الكميت، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس، ع 40 ، 1996، ص 254.

2 - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيتة وأساليبه، ص 317 .

3 - المرجع نفسه، ص 327.

على عمل منطقي لأن جوهرها ربط الأسباب بنتائجها في محاولة جادة للإقناع¹. وفيما يأتي سنوضح هذه العلاقة حسب ورودها عند كل من جرير والفرزدق:

قال الفرزدق:

ولا نَسْتَجِمُّ الخَيْلَ حَتَّى نُعِيدَهَا غَوَانِمَ مِنْ أَعْدَائِنَا وَهِيَ رُحْفُ
كَذَلِكَ كَانَتْ خَيْلُنَا مَرَّةً تُرَى سِمَانًا وَأَخْيَانًا تُقَادُ فَتَعْجَفُ²

فالشاعر يفتخر بكثرة خوضهم للحروب، وتلك من المزايا التي تُحسب للأقوام وتزيدهم رفعة وشرفا وفخرا. فهو يخرنا أنهم لا يتركون خيلهم تستريح من معاركها حتى تعود غائمة متعبة، وبذلك يعلل اختلاف الحالة التي تظهر عليها الخيل (سمانا، تعجف). فالخيل إذا ما استراحت من غزوها تبدو سمينة أما إذا خاضت الحروب الكثيرة فإن الهزال يصيبها، وبذلك يكون الشاعر قد حدّد الأسباب التي تقف وراء ظهور الخيل بتلك الصورة المتباينة.

وقال مفاخرًا بما حقّقه ابن حابس:

سَعَى بِتِرَاتٍ لِلْعَشِيرَةِ أَدْرَكَتْ حَفِيظَةُ ذِي فَضْلِ عَلَى مَنْ يُفَاضِلُهُ
فَأَدْرَكَهَا وَازْدَادَ مَجْدًا وَرَفْعَةً وَخَيْرًا وَأَحْظَى النَّاسِ بِالْخَيْرِ فَاعِلُهُ³

فالشاعر يمدح الفارس "ابن حابس" من خلال انجازاته في مجال الحرب إذ أصبح عنوانا للطمأنينة والأمان كما أنه وثق بنار العشيرة فازداد فضلا وتبوأ مكانة مرموقة قوامها المجد والرفعة وذلك بفضل ما قدمه من بدل وتضحيات، وعليه فإن أعماله كانت سببا في ما ناله من مجد ورفعة .

وقال هاجيا لجرير ومحاولا التّيل منه:

أَلَا إِنَّ مِيرَاثَ الْكَلْبِيِّ لِابْنِهِ إِذَا مَاتَ رَبِقًا ثَلَّةً وَحَبَائِلُهُ
فَأَقْبَلَ عَلَى رَبِيقِي أَبِيكَ فَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِءٍ مَا أَوْرَثْتَهُ أَوَائِلُهُ⁴

ينطلق الفرزدق من واقع بني كليب وما عُرف عنهم من كونهم رعاة، وتنحصر ممتلكاتهم في قطعان الحيوانات من معز وضأن وحمير والجمال التي يحتاجونها لشدّ هذه الحيوانات، وهذه الثروة التي يمتلكونها في الحياة

1 - سامية الدريدي: الحجاج في هاشميات الكميّ، ص 255.

2 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 17.

3 - المصدر نفسه، ص 43.

4 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

هي ما تشكّل إثرهم بعد الممات. وكلامه هذا موجّه على وجه الخصوص إلى جرير، وباعتباره من كليب فقد حدّد له إرثه ثمّ طلب منه أن يُقبل على إرث والده المتمثّل في الحبال التي تشدّ بها البهم لأنّها تركة السلف للخلف. فالفرزدق يعتمد على العلاقة السببية فيربط السبب بالنتيجة التي تبدو كتحصيل حاصل حتّى لا يدع مجالاً لجرير للتصلّ من هذه الحقيقة، والتي يسعى من خلالها للحطّ من مكانة جرير وقومه.

وقال الفرزدق متوجّها بكلامه إلى جرير والبعيث محذرا إياها مما سيلقيان على يديه، ومُنوّها بفضل

قبيلته ومكانتها :

فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ هَجُّمَانِي عَلَيَّكُمْ	فَلَا تَجْرَعَا وَاسْتَسْمِعَا لِلْمُرَاجِمِ
لِمِرْدَى حُرُوبٍ مِنْ لَدُنْ شَدِّ أَرْزُهُ	مُحَامٍ عَنِ الْأَحْسَابِ صَعْبِ الْمَظَالِمِ
رَأْتْنَا مَعَدُّ، يَوْمَ شَالَتْ قُرُومُهَا،	قِيَامًا عَلَى أَقْتَارِ إِحْدَى الْعِظَائِمِ
رَأُونَا أَحَقَّ ابْنِي نِزَارٍ وَغَيْرِهِمْ،	بِإِصْلَاحِ صَدْعِ بَيْنَهُمْ مُتَّفَاقِمِ
حَقًّا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَصْبَحَتْ	لَنَا نِعْمَةً يُثْنَى بِهَا فِي الْمَوَاسِمِ ¹

يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن المعركة الكلامية والمنافسة الشعريّة الدائرة بينه وبين خصومه وهو يوجّه كلامه هذا إلى كلّ من جرير والبعيث، ويطلب منهما ألاّ يجزعا مما يلقيانه منه ما دام قد استفزّاه وأثاراه بهجائهما له، وما عليهما إلاّ أن يسمعا لسبابه وهجائه الذي يُوجّهه إليهما كالحجارة الصلبة يرمجها بما. وبذلك يكون قد وظّف العلاقة السببية؛ حيث ربط السبب بالنتيجة، وردّ سبابه لهما إلى بدأهما هجاءه.

ويستمر في توظيف العلاقة السببية عندما ينتقل إلى الحديث عن فضائل قومه ومكانتهم بين الآخرين، وقدرتهم على إصلاح ذات بَيْنِ المتخاصمين الذين بلغت بهم الخصومة أشدّها، ونجاحهم في حقن دماء المسلمين بإيقاف هذه المنازعات وإقامة الصلح بينهم، وكلّ ذلك نتج عنه إعلاء لمكانتهم، وأصبح فعلهم هذا ممّا يمدحون به ويحمدون عليه في المجامع، وبذلك يكون قد ربط السبب بالنتيجة.

وقال جرير مفنّدا ما ذهب إليه الفرزدق من قدرتهم على الذود عن الحمى:

كَذَبَ الْفَرَزْدَقُ، إِنَّ قَوْمِي قَبْلَهُمْ ذَادُوا الْعَدُوَّ عَنِ الْحِمَى فَاسْتَوْسَعُوا²

فهو يتحدّث عن جانب القوّة في قبيلته والذي يظهر من قدرتهم على حماية الحمى والدّفاع عنه ولم تتوقّف قوتهم عند هذا الحدّ، بل إنّ قدرتهم على حماية الحمى قد مكّنتهم من أن يتخذوا لهم مكانا واسعا من

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 125-126.

2 - المصدر نفسه، ص 293.

الأرض، وما كان ذلك إلا لقدرتهم على حماية حماهم، وبالتالي كان ذلك منطلقا وسببا لأن يتوسّعوا في الأرض. وبهذا يكون جرير قد اعتمد العلاقة السببية في إثبات قوّة قبيلته وقدرتها في مجال الدفاع عن ممتلكاتها وما يخصّها.

وفي مواطن متعدّدة نجد جريرا يلح كثيرا على إحقاق صفة "القين" بالفرزدق سواء أكان ذلك عند الحديث عن نسبه أو الحديث عن الحرفة التي يزاولها، يقول:

وَأَنْتَ ابْنُ قَيْنٍ يَا فَرْزَدَقُ فَارْزُدْهُرُ بِكَبِيرِكَ، إِنَّ الْكَبِيرَ لِلْقَيْنِ نَافِعٌ¹

فهو ينطلق مما يصرّ على تذكير الفرزدق به دائما وهو كونه "ابن قين" ويشرّع لمطلبه المتمثّل في التمسك بالكبير والمحافظة عليه وعلته في ذلك أنّ هذه الأداة تنفع القين وتفيده. وبذلك يربط النتيجة بالسبب ويجعل لطلبه مسوّغا منطقيا. وعند الحديث عن النسب وتأثيره على الفرزدق يقول:

لَقَدْ مُدَّ لِلْقَيْنِ الرَّهَانُ فَرَدَّهُ عَنِ الْمَجْدِ عِرْقٌ مِنْ قُفَيْرَةَ مُقْرِفٌ²

يشير الشاعر إلى أنّ الفرزدق كان يراهن على بلوغ المجد لكنّه لم يتسنّ له ذلك لأنّ ثمة سبب يحول دون بلوغه مسعاه وهو نسبه؛ حيث جعله ينتسب إلى قفيرة* جدّته التي كانت سبيّة. وهذا النسب لا يمكنه أن يحقّق له الغلبة في مجال المفاخرة بالأنساب، وعليه يكون هذا الانتساب سببا كافيا لإبعاده عمّا يروم بلوغه من أفضلية وامتياز.

والملاحظ أنّ جريرا يبني حججه في مواضع متعدّدة على العلاقة السببية التي يربط من خلالها الأسباب بالنتائج وبذلك يجعل أحكامه التي يطلقها على الفرزدق تتسم بكثير من المعقولية والتبرير المنطقي، يقول مُقَيِّما للجانب الأخلاقي للفرزدق ومُحدّدا ما نتج عنه:

وَجَدْنَا الْفَرْزَدَقَ بِالْمُؤَسَّمِينَ حَبِيثَ الْمَدَاخِلِ وَالْمَشْهَدِ
نَفَاكَ الْأَعْرُ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، بِحَقِّكَ تُنْفَى عَنِ الْمَسْجِدِ³

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 106.

2 - المصدر نفسه، ص 34.

* - ورد عن الأصمعي أنّ قُفَيْرَةَ جدّة الفرزدق وهي أمّ صعصعة بن ناجية بن عقال، كانت سبيّة من قضاة، سبها سلمى بن جندل يوم الحرجات، لذلك قال: من قن لجندل في قوله:

قفيرة من قن لسلمى بن جندل أبوك ابنها وابن الإمام الخوادم.

انظر: المصدر نفسه، مج 2، ص 159.

3 - المصدر نفسه، ص 181.

فجرير يحاجج لإثبات سوء خلق الفرزدق؛ حيث جعل سلوكه وجانبه المتدني لا يتغير على مدار الصيف والشتاء مما يعني ثباته على سوء السيرة والسريرة وبذلك جعله يستحق نفي الخليفة "عمر بن عبد العزيز" وإبعاده عن المسجد لأن المسجد مكان مقدس طاهر والفرزدق شخص دنس أي أهما لا يلتقيان، وبذلك يكون سوء خلقه سببا في إبعاده عن المدينة والمسجد.

2- علاقة الاقتضاء (العلاقة الشرطية):

تعدّ من العلاقات التي تحفل بها النصوص الحجاجية غير أنها تنماز عنها بأنها تجعل الحجّة تقتضي تلك النتيجة اقتضاءً والعكس صحيح بحيث تغدو العلاقة ضرباً من التلازم بين الحجّة والنتيجة فالمحاجج يعمد إلى إضفاء نوعاً من الحتمية على العلاقة بين الحجّة والنتيجة فيحكم الترابط بينهما بشكل يوحى بأنّ الأولى تقتضي الثانية والثانية تستدعي الأولى ضرورة حتّى وإن لم يكن الأمر كذلك.

وأقدر الروابط الحجاجية على توفير هذا النوع من الصلات أدوات الشرط المختلفة التي يعتمدها الشاعر أحيانا كثيرة وبشكل مكثف يعكس حرصاً جلياً على الإقناع والحمل على الإذعان¹.

وقد اعتبر ديكره أنّ الشرط يدخل في نطاق الحجاج المضمّر لأننا إذا عقدنا علاقة شرطية بين طرفين فإننا أضمرنا أنّ الشرط يستوجب الجواب، أي يكون الشرط سبباً لنتيجة هي الجواب، واشترط أن ينتمي الشرط إلى سلّم حجاجي محدّد بالجزاء، أي أن يكون الشرط في خدمة الجزاء متساوقاً معه².

ومن النماذج الشعريّة التي كان الشرط فيها حاضراً نذكر ما يأتي:

قال الفرزدق:

إِذَا هَبَطَ النَّاسُ الْمُحَصَّبَ مِنْ مَنَى عَشِيَّةَ يَوْمِ النَّخْرِ مِنْ حَيْثُ عَرَفُوا

تَرَى النَّاسَ مَا سَرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا³

يبين الشاعر من خلال هذين البيتين المكانة الرفيعة التي تحظى بها قبيلته بين عامة الناس، وقد ربط ذلك بزمن أداء فريضة الحج؛ حيث يجتمع الناس من كلّ حدب وصوب وعلى اختلاف انتماءاتهم القبلية، ويجعل حركة الناس في هذا التجمّع البشري الهائل مرهوناً بأمرهم، ويجعل العلاقة تلازمية بين حركتهم وحركة الناس، فإذا

¹ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيت وأساليبه، ص 335.

² - Oswald Ducrot : Les échelles argumentatives, p 48.

³ - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 21.

ما ساروا تبعهم الناس وساروا خلفهم دون أن يتقدمونهم، ومجرد الامعاء البسيطة الصادرة عنهم كافية لجعلهم يتوقّفون، ومن خلال هذه العلاقة الاقتضائية تظهر مكانة القبيلة وقيمتها بين القبائل الأخرى. ويتحدّث الفرزدق عما يبده في سبيل "دارم" وسعيه الحثيث من أجل رفع مكانتها والمنافحة عنها فيقول:

إِذَا مَا احْتَبَّتْ لِي دَارِمٌ عِنْدَ غَايَةٍ جَرَيْتُ إِلَيْهَا جَرِيٌّ مَنْ يَتَغَطَّرُ¹

أي إنّه إذا ما بقيت دارم تنتظره عند غاية ما فإنه يبذل كلّ ما بوسعه؛ حيث يجري لتحقيق تلك الغاية جري من يسعى لبلوغ المجد والسيادة، وهذا يؤكّد إخلاص الفرزدق لانتمائه القبلي والذي يظهر من خلال مسارعتة إلى صنع بطولتها وأمجادها دونما تقاعس أو تأخر، والدليل على ذلك أنه يكون مستعداً للاستجابة بمجرد ما ترغب دارم في ذلك.

ويستمر الفرزدق في إثبات أفضليته عن الفرزدق من خلال إثبات أفضلية دارم على كليب، حتّى يجعل المتلقّي يعتقد أنّ جريراً يسعى لأن يتخذ له أبا كدارم، ويجعل ذلك من باب المستحيل، يقول:

وَلَسْتُ وَإِنْ فَقَاتَ عَيْنَيْكَ وَاحِداً أَبَا لَكَ، إِذْ عُدَّ الْمَسَاعِي، كدَارِمِ²

فهو ينفي عن جريراً أن يجد له أبا يعدل دارما في المآثر وإن فوّق عينيه في البحث، فهو يقيم هذه المعادلة على العلاقة الشرطية غير أنه يبينها على النفي مما يعني أنّ النتيجة لن تتحقّق وإن تحقّق شرطها. ومنه نستنتج أنّ الفرزدق يجعل من سعي جريراً لإدراك مجد دارم غاية لا يمكنه بلوغها وبالتالي يحقّق لنفسه الأفضلية على خصمه جريراً.

وفي إطار حديث الفرزدق عن عقر والده للإبل ومفاخرته بذلك، ومحاولة جريراً التقليل من هذه المفخرة ومسح كل مزية فيها، يخاطب الفرزدق جريراً قائلاً:

وَلَوْ كُنْتُ حُرّاً مَا طَعِمْتُ لَحْمَهَا وَلَا قُمْتُ عِنْدَ الْفَرْتِ يَا ابْنَ الْمُجَشَّرِ³

فالفرزدق يعيب على جريراً تناقضه إزاء هذه القضية إذ إنه ينقص من شأن هذا الفعل حتّى يسلبه كلّ إيجابياته غير أنه لا يمنع نفسه من الاستفادة منه لذلك يعنّفه بلهجة قاسية أنه لو كان حرّاً في قوله وفعله لرفض أكل لحوم الإبل المعقورة ولا وقّف عند بقاياها، وبذلك يكون قد ربط بين الشرط وجزائه الذي صدره

1 - نقائص جريراً والفرزدق، مج 2، ص 23.

2 - المصدر نفسه، ص 145.

3 - المصدر نفسه، ص 281.

بالتقي، والذي نستنتج من خلاله نفي جملة الشرط أي أنّ جريرا ليس من الأحرار الذين يتلازم لديهم القول والفعل، وذلك ما لم نجده لدى جرير مما يحيل إلى التناقض في موقفه.

وقال الفرزدق مفتخرا بقوته:

إِذَا مَا اجْتَدَعْتُ أَنْوْفَ اللَّثَامِ عَفَّرْتُ الْخُدُودَ إِلَى الْجَدِّدِ¹

فالشاعر يصف قوّته وأثرها على الخصم، وتبدو قوّته واضحة من خلال توظيفه لفعلين يوحيان بالقوة والعنف وهما "اجتدعت" و"عفرت" اللذان وظّفهما متتاليين وجعل الثاني تابعا للأول، وهو باستعمال أداة الشرط غير الجازمة "إذا" جعل نفسه تبتّ الرّهبة في نفوس الآخرين، إذ لا تكفي باجتداع أنوف اللثام فقط، بل تعفّر وجوههم بتراب الأرض وفي ذلك امتهان وإذلال لهم. وواضح أنّ الشاعر قد استفاد من تلازم الأفعال في أسلوب الشرط ليؤكد قوّته ويجعل الآخرين يسلمون له بها.

قال جرير:

فَمَنْ يَسْتَجِرُّنَا لَا يَخْفُ بَعْدَ عَقْدِنَا، وَمَنْ لَا يُصَالِحُنَا يَبْتَ غَيْرَ نَائِمٍ²

في هذا البيت يتحدّث الشاعر عن العلاقة التي تربطهم بالآخرين، فمن يستجر بهم يضمن الأمان لنفسه، ولا يخف تحوّلهم عنه وغدرهم به، ومن لا يطلب الصلح فإنه لا يجد له أمانا وبيت غير مطمئن يتربّب ما قد يعصف به ظلام الليل وما يجزّه عليهم من خطر. فالبيت يتضمّن علاقة تلازمية بين الاستجارة والأمان من جهة، وعدم المصالحة وعدم الاطمئنان من جهة ثانية، وكلّ هذا يعكس قوّة القبيلة في حالي الرضا والسخط. وجرير لا يسأم من تذكير الفرزدق بتوارثه لمهنة الحدادة، وكأنه لا يريد للفرزدق نفسه أن يغفل عن هذه الحقيقة ولو للحظة، ولا يدع فرصة تمرّ إلا ويدكره بها مثلما يتّضح من حديثه عن خوضهم للحروب، يقول:

فَإِنَّكَ إِنْ تَنْفُخَ بِكَبِيرِكَ تَلْقُنَا نُعِدُّ الْقَنَا وَالْحَيْلَ، يَوْمَ نُقَارِعُ³

فقد جعل الفرزدق ينشغل بالحدادة وما يتبعها من نفخ الكير في الوقت الذي ينشغل هو وقومه بالإعداد للحروب، ومقارعة الأبطال وذلك بتجهيز الأسلحة والخيول وكلّ ما يلزمهم للانتصار. وجرير بهذه المقابلة يسعى لإهانة الفرزدق وسلبه شرف البطولة وخوض غمار الحروب، وقد وُفق في مسعاه هذا باعتماده

1 - نقائض جرير والفرزدق، مج 2، ص 179.

2 - المصدر نفسه، ص 152.

3 - المصدر نفسه، ص 106.

أسلوب الشرط الذي يربط بين طرفي الجملة أي بين نفخه للكبير واستعدادهم للحرب، وبهذا نجح جرير في ترجيح الكفة لصالحه وإقناعنا بعظمة ما يقوم به مقابل تفاهة ما يقوم به الفرزدق. و في إطار الحديث عن عدم تمسك الفرزدق بمبادئه وتقلبه أمام الإغراءات المادية يجعله يتنكر لدينه فيقول:

فإِنَّكَ لَوْ تُعْطِي الْفَرْزَدَقَ دِرْهَمًا عَلَى دِينِ نَصْرَانِيَّةٍ، لَتَنْصَرًا¹

ويظهر هذا البيت مدى ضعف الفرزدق وهوانه أمام المغريات حتى ولو كان الثمن زهيدا فالدرهم الواحد كافٍ ليحوّله من الإسلام إلى النصرانية، وقد احتوى البيت على الشرط وأداته "لو" التي افتتح بها جملة الشرط ومضمونها إعطاء الفرزدق درهما للتنصر، ويأتي جواب الشرط في ذات السياق ليؤكد استجابته للأمر. وواضح أنّ جريرا لم يكتف بما يفرضه أسلوب الشرط من علاقة تلازمية بين الشرط وجوابه، بل راح يستعين بأدوات التوكيد؛ حيث صدر جملة الشرط بأداة التوكيد "إن" وجملة جوابه بـ"لام" التوكيد، وعليه فجرير لا يترك مجالا لنفي هذا الأمر بالنسبة للفرزدق ولغيره أيضا.

3- علاقة التتابع:

التتابع يكون على مستوى الأحداث أو على مستوى القضايا والأفكار². ومن شأن التتابع أن تكون له القدرة على توضيح الأمور وتفصيل الأحداث وبسطها بطريقة تمكّن المتلقي من أخذ صورة واضحة واتخاذ موقف معين اتجاه القضية المطروحة عليه. وتظهر حجاجية هذه العلاقة من خلال التأكيد والتفصيل والتوسيع.

قال الفرزدق مفتخرا بكرم قومه:

وَقَدْ عَلِمَ الْجِرَانُ أَنَّ قُدُورَنَا ضَوَامِنُ لِلْأَرْزَاقِ وَالرِّيْحُ زَفْرَفُ
نُعْجَلُ لِلصَّيْفَانِ فِي الْمَحَلِّ بِالْقَرَى قُدُورًا بِمَعْبُوطٍ تَمُدُّ وَتُعْرِفُ
تُفَرِّغُ فِي شِيْزَى كَأَنَّ جِفَانَهَا حِيَاضُ جَبِيٍّ مِنْهَا مِلَاءٌ وَنُصْفُ
تَرَى حَوْهَنَّ الْمُعْتَفِينَ كَأَنَّهُمْ عَلَى صَنَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَكْفُ
فَعُودًا وَخَلْفَ الْقَاعِدِينَ سَطُورُهُمْ جُنُوحٌ وَأَيْدِيَهُمْ جُمُوسٌ وَنُطْفُ³

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 310.

2 - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة. بنيتة وأساليبه، ص 321.

3 - المصدر السابق، ص 15.

فالشاعر بصدد تقديم تفاصيل عملية تقديمهم للطعام في السنة المجدبة، وفي ليالي الشتاء التي تعصف رياحها باردة؛ حيث يشتد الجوع وتزيد الحاجة، فهم يسارعون إلى تقديم الطعام لضيوفهم، وهذا الطعام من إبلهم السمينة السليمة، يضعونه في جفان كبيرة كالحياض بعضها مملوء وبعضها بلغ النصف، وهم يحرصون على ملء الجفان كلما فرغت وبذلك يضمنون أخذ كفايتهم من الطعام، وترى الناس مجتمعين حول هذه الجفان وكأهم معتكفين على صنم، وقد كان شطرهم قعودا وشطرهم الآخر وقوا والسمن يتقاطر من أيديهم.

ولا يمكن للشاعر أن يتفوق على الآخر ما لم يجد في نفسه ما يفاخر به لذلك نجد الفرزدق يرسم لنفسه لوحة تشيد بقوته، إذ يقول:

وَقَدْ مُنِيتَ مِنِّي كَلَيْبٌ بِضَيْعَمٍ ثَقِيلٍ عَلَى الْحَبْلَى جَرِيرٍ كَلَاكِلُهُ
شَتِيمِ الْمُحْيَا لَا يُخَاتِلُ قِرْنَهُ وَلَكِنَّهُ بِالصَّحْصَحَانِ يُنَازِلُهُ
هَزْبُرٌ هَرَيْتُ الشَّدْقِ، رِيَالٌ غَابَةٌ إِذَا سَارَ عَزَّتُهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ
عَزِيْزٌ مِنَ اللَّاتِي يُنَازِلُ قِرْنَهُ وَقَدْ ثَكَلَتْهُ أُمُّهُ مَنْ يُنَازِلُهُ¹

تكسّر هذه اللوحة الشعرية قوة الفرزدق وشجاعته ومنازلته للأبطال، ويعتمد فيها على تتابع الوصف فيحشد لنفسه جملة من الأوصاف ويشبه نفسه بالأسد المفترس المخيف، وهو كرية الحيا لا يرغب القرين في ملاقاته، كما أنّ شجاعته تمنعه من الاحتيال على قرينه فينازله وجها لوجه، وهو أسد قويّ شديد مخيف بشدقه الواسع، يخرج للغابة وحيدا معتدّا بنفسه متكئا على قوة يديه وكاهله التي يقهر بها غيره، وإذا ما نازل قرنه بالسيف فهو لا بد قاتله.

إنّ هذا التتابع في الوصف يمنح الفرزدق قوة لا تقهر، وتكتيف العبارات الدالة على القوة لا تجعل الضعف يتسرّب إليه، حتى إنّ المتلقى ليشعر أنه أمام بطل لا يقهر، فما بالك بكليب التي منيت بمثل هذا الضرغام، فإنها ولا بدّ ستحسب له ألف حساب.

وقال في موضع آخر متحدّثا عن جرير:

وَلَقَدْ ضَلَلْتَ أَبَاكَ تَطْلُبُ دَارِمًا كَضَلَالِ مُلْتَمِسِ طَرِيقَ وَبَارِ
لَا يَهْتَدِي أَبَدًا وَلَوْ نُعِتَتْ لَهُ بِسَبِيلِ وَارِدَةٍ وَلَا إِصْدَارِ
قَالُوا عَلَيْكَ الشَّمْسُ فَاقْصِدْ نَحْوَهَا وَالشَّمْسُ نَائِيَةٌ عَنِ السُّفَارِ

¹ -نقائص جرير والفرزدق، مج 2، ص 58-59.

لَمَّا تَكْسَعُ فِي الرِّمَالِ هَدَتْ لَهُ
عَرَفَاءُ هَادِيَةً بِكُلِّ وَجَارٍ
كَالسَامِرِيِّ يَقُولُ إِنَّ حَرَكْتَهُ
دَعْنِي فَلَيْسَ عَلَيَّ غَيْرُ إِزَارِي¹

يتوجه الفرزدق بخطابه إلى جرير مؤثبا إياه عن تجاهله لنسبه الكلبي وانتسابه إلى دارم، وقد وصف هذا الفعل بالضلال وشبّهه بمن ضلّ طريقه في أرض لا يسلكها الإنس فهو لا يهتدي أبدا ولا يجد له مخرجا وقد نصحوه بأن يتخذ من الشمس معلما يهتدي به، وهو في حيرته تلك خرجت له الضبع من جحورها، وهو في كل ذلك يشبه السامري الذي ضلّ وأضلّ قومه.

والفرزدق يسعى من وراء هذا التتابع في عرض الأحداث إلى إظهار نتيجة واحدة وهي خطأ جرير في ادعاء انتسابه لدارم، هذا الانتساب الذي لم يجلب له إلا الحيرة والضلال، وبذلك الوصف فقد استطاع أن يُظهر عدم جدوى ما قام به وبالتالي الاقتناع بسوء تصرفه. وغاية الفرزدق القصوى هي قطع كلّ السبل على جرير حتى لا يجد له ما يفخر به.

وقال جرير:

لَقَدْ عَلِمْتُ، غَيْرَ الْفِيَّاشِ، مُجَاشِعُ
لَنَا بَانِيَا مَجْدٍ، فَبَانَ لَنَا الْعُلَى
أَتَعْدِلُ أَحْسَابًا كِرَامًا حُمَاتُهَا
لِقَوْمِي أَحْمَى فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ
وَأَوْثَقُ عِنْدَ الْمُرْدَفَاتِ، عَشِيَّةً
وَأَمْنَعُ جِيرَانًا، وَأَحْمَدُ فِي الْقَرَى
إِلَى مَنْ تَصِيرُ الْخَافِقَاتُ اللَّوَامِعُ
وَحَامٍ إِذَا أَحْمَرَ الْقَنَا وَالْأَشَاجِعُ
بِأَحْسَابِكُمْ؟ إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعُ
وَأَضْرَبُ لِلْجَبَّارِ، وَالنَّفْعُ سَاطِعُ
لِحَاقًا إِذَا مَا جَرَدَ السَّيْفَ لَامِعُ
إِذَا اغْبَرَّ فِي الْحُلِّ النُّجُومُ الطَّوَالِعُ²

في هذه اللوحة الشعرية جمع جرير جملة من المكارم واتخذها مفخرة لقومه وبدأها بالقوة الحربية التي لا تجهلها مجاشع، وجعل لمجده بانيين: واحد يمثل العلاء والشرف والآخر يحميه بقوة السلاح، وبذلك فقد اجتمعت له القوة المادية والمعنوية، ثم ينتقل إلى المفاضلة بين قومه وقوم الفرزدق فيحشد لقومه جملة من المفاخر التي يمتازون بها في الحرب والسلام والتي ترفعهم عاليا دون قوم الخصم.

ولقد كان الافتخار بالنسب يتصدر جملة مفاخر الإنسان العربي، لذلك كان الشعراء يركزون على هذا

العنصر فخرا وهجاء، ومن ذلك ما قاله جرير هاجيا:

¹ - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 240.

² - المصدر نفسه، مج 2، ص 107-108.

أَخْرَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعًا وَبَنَى بِنَاءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
بَيْتًا يُحَمِّمُ قَيْنُكُمْ بِفِنَائِهِ دَنَسًا مَقَاعِدُهُ خَبِيثَ الْمَدْخَلِ
وَلَقَدْ بَنَيْتَ أَحْسَنَ بَيْتٍ يُبْتَنَى فَهَدَمْتُ بَيْتَكُمْ بِمِثْلِي يَذْبُلُ
إِنِّي بَنَى لِي فِي الْمَكَارِمِ أَوْلَى وَنَفَخْتُ كَيْرَكَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ¹

وجرير بصدد نفس كل ما بناه الفرزدق من مجد أساسه التَّسْبِ الرَّفِيعِ، ويجعل كل ذلك في الحضيض الأسفل بإرادة إلهية لا يمكن للبشر تجاهلها أو الاعتراض عليها، ثم ينتقل إلى عرض تفاصيل هذا البيت الذي وصفه بالسواد الناتج عن امتهان القين لحرفته في فنائه كما أنه دَنَسَ خبيث المدخل وهذه المواصفات كفيلة بأن تسلبه كل مزية وكل شرف، بل جعلته أحسن بيت يبتنى. ولا يكتفي جرير بهذا العرض بل يعمد إلى هدمه بيته الذي جعله بقدر " يذبل " سُمُوا ورفعته، وفي الأخير يخلص إلى أنّ هذا المجد متوارث عن الأولين ففي الوقت الذي كان آباؤه يبنون له هذا المجد وهذه المكارم كان آباء الفرزدق منشغلين بنفخ الكير.

وقال:

إِذَا عُدَّتِ الْأَيَّامُ أَخْرَيْتَ دَارِمًا وَتُخْزِيكَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ أَيَّامُ دَارِمِ
أَلَمْ تُعْطِ غَضَبًا ذَا الرُّقَيْبَةِ حُكْمَهُ وَمُئِنَّةَ قَيْسٍ فِي نَصِيبِ الرَّهَادِمِ؟
وَأَنْتُمْ فَرَزْتُمْ عَنْ ضِرَارٍ وَعَثَجَلٍ وَأُسْلِمَ مَسْعُودٌ غَدَاةَ الْخَنَاتِمِ
وَفِي أَيِّ يَوْمٍ فَاضِحٍ لَمْ تُفَرِّنُوا أُسَارَى كَتَقْرَيْنِ الْبِكَارِ الْمَقَاحِمِ
وَيَوْمَ الصَّفَا كُنْتُمْ عَبِيدًا لِعَامِرٍ وَبِالْحَزَنِ أَصْبَحْتُمْ عَبِيدَ اللَّهَارِمِ
وَلَيْلَةَ وَادِي رَحْرَحَانَ رَفَعْتُمْ فِرَارًا وَلَمْ تَلَوْا زَفِيفَ النَّعَائِمِ
تَرَكْتُمْ أبا الْقَعْقَاعِ فِي الْغُلِّ مَعْبَدًا وَأَيَّ أَخٍ لَمْ تُسَلِّمُوا لِلْأَدَاهِمِ
تَرَكْتُمْ مَزَادًا عِنْدَ عَوْفٍ يَقُودُهُ بِرُؤْمَةٍ مَخْذُولٍ عَلَى الدَّيْنِ غَارِمِ²

تشارك هذه الأبيات جميعها في شيء واحد وهو الإقرار بسلبية قوم الفرزدق التي تمحورت حول حدث هام وهي الأيام، وقد قدم جرير جملة من الأحداث المتتابعة، والتي تصب في نتيجة واحدة وهي عدم امتلاك

1 - نقائص جرير والفرزدق، مج 1، ص 156.

2 - المصدر نفسه، ص 306.

دارم لمختلف جوانب القوّة التي تؤهلها لحوض الحروب والانتصار فيها وإظهار الشجاعة والبطولة. وقد عدّ جرير أياما تشابحت نتائجها وهي: الفرار، الوقوع في الأسر، عدم افتداء الأسرى، وباختصار الهزيمة النكراء. إنّ عرض الشاعر لكلّ هذه الأحداث وبشكل متتابع أظهر ضعف دارم إلى حدّ كبير، وكأنّها ما وُجدت إلى لتلقّي الهزيمة تلو الأخرى، كما أنّ التنقل بين أحداث وأيام مختلفة ينفي جانب القوّة مطلقا عن دارم، ويجعل الضعف سمة متأصلة فيها، والقول بضعف دارم هو تأكيد لضعف الفرزدق الذي يسعى جرير دائما لإثبات الغلبة عليه.

وبهذا نكون قد أتمنا وقفنا مع المبحث الأخير الذي خصّصناه للحديث عن العلاقات الحجاجية ويدرج حديثنا عنها ضمن بنية الحجاج لأنها تدخل في تركيبة النصّ الحجاجي. وفي نهاية المطاف نكون قد خلصنا إلى النتائج الآتية:

- استند جرير والفرزدق في حجاجهما على مقدّمات تحظى بالتسليم لدى العامة، وقد تمثلت في الوقائع بما فيها من أحداث تاريخية وحوادث اجتماعية، وجملة من القيم المتعارف عليها داخل المجتمع.

- اشترك الشاعران في توظيف الأيام وكانت مناط فخرها الذاتي في حالة الانتصار، وهجاء الآخر في حالة الهزيمة.

- أما بالنسبة للحوادث الاجتماعية فلم يجد جرير ما يفخر به لذلك حوّل طاقته إلى هجاء الفرزدق بحوادث حقيقية كإخراجه من المدينة، أو مفتعلة كنبوّ السيف في يده، أو مبالغ فيها أكثر من اللازم كحادثة أخته جعثن. وبالمقابل افتخر الفرزدق بيوم صوءر، وبمكارم الآباء والأجداد كفداء الوئيدة والعيادة بقبر أبيه.

- تعدّدت القيم التي تداولها الشاعران فخرا وهجاء، غير أنّها لم تخرج عن مسارها المعتاد إلا في الطريقة التي اعتمدها الشاعران لإثبات الأفضلية للذات والدونية للآخر.

- أما فيما يخصّ الحجج الموجودة في التفاضل فقد كانت كثيرة ومتنوّعة، وتمثلت في الحجج المنطقية كالتناقض والعدل والتعدية وحجج مؤسسة على بنية الواقع كالحجّة السببية وحجّة الشّخص وأعماله وحجّة السلطة وما ينطوي تحتها من حجج جاهزة، وحجج مؤسسة لبنية الواقع ومنها تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة، وحجّة التّمودج وعكسه، والحجاج بالمقارنة. وقد استعملها الشاعران لخدمة مسعاهما الحجاجي، واتّخذ منها دليلا على صحّة ما يطرحانه بخصوص الذات أو الآخر.

- كما تدخل في تشكيل بنية النصّ جملة من العلاقات الحجاجية منها السببية والشّرطية والتتابع، وقد حضرت كلها لتعزّيد النصّ بطاقة إقناعية من خلال ربط النتائج بأسبابها، والشّرط بجوابه، والتتابع في رصد الأحداث أو الوصف وكلّها تقود إلى التأثير وجعل المتلقي يقتنع بما يدعو إليه.

الخاتمة

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الشاقة والشيقة في نقائض جرير والفرزدق، من خلال تتبّع مختلف الآليات الحجاجية والأساليب التي شكّلت جوهر الاستدلال على صحّة ما يذهب إليه كلّ شاعر في توكيد فكرة أو نفيها خلّصَ البحث إلى النتائج الآتية:

- 1- التّقائض في طبيعتها مبنية أساسا على الخصومة (المنافسة)، وشاعريها جرير والفرزدق تحذوها رغبة جامحة في إثبات الأفضلية وبالتالي تسخير كلّ الوسائل لتحقيق الغلبة مما يجعل الحجاج حاضرا فيها بقوة. وشاعراها لهما من الخصوصية ما يغذي تلك الرغبة المستميتة في الفوز.
- 2- اعتمد جرير والفرزدق على الطاقة الإقناعية للتشبيه؛ حيث جعلا التشبيه صورة استدلالية يتمّ الانتقال فيها من لازم يصرّح به إلى ملزوم يتمّ استنتاجه .
- 3- اعتمد جرير والفرزدق التمثيل في بعده القياسي من خلال قياس حالة حاضرة بحالة سابقة، وتقريب المعنى إلى الأذهان وبالتالي الاقتناع والقبول، بالإضافة إلى اعتماد الأمثال مما منح حجاجهما جانبا من المصدقية وبالتالي التسليم والإذعان.
- 4- أكسب جرير والفرزدق الاستعارات بعدها الحجاجي من خلال توظيف الحجج التي تحظى بالقبول والتسليم، وخاصة إذا كانت حقائق مسلّمة بما لدى الآخرين، والتدرّج في الوصول إلى النتيجة مما يجعل المتلقّي يقتنع بها وكأنها من نتاجه الخاص.
- 5- كان البديع حاضرا أيضا بوصفه آلية حجاجية، وذلك من خلال المطابقة والمقابلة اللتين كان حضورهما واضحا في نقائض جرير والفرزدق، وباعتبارهما تقومان على التّضاد فقد كانتا الأنسب لإظهار المفاضلة بين الطرفين. ولقد كانت المطابقة بنوعيتها حاضرة عند الشّاعرين في مجالي الفخر والهجاء؛ حيث استعملا مطابقة السّلب في الفخر والهجاء أمّا مطابقة الإيجاب فقصرها الفرزدق على الهجاء فقط. ولأنّ المقابلة تقوم في أغلبها على استحضار الطّرفين فإنّنا نجد الفخر والهجاء حاضرين فيها جنبا إلى جنب بما تقتضيه طبيعة المفاضلة بين الطّرفين.

- 6- اشتملت مدونة البحث على مختلف الأفعال الكلامية، حسب التصنيف الذي اعتمده، وهو التصنيف الخماسي لسيرل. غير أنّ نسبة حضور هذه الأفعال كان متباينا من صنف لآخر، ومن شاعر لآخر.
- 7- كانت الطلبات (التوجيهيات) الأكثر حضورا في نقائض جرير والفرزدق، وذلك ناتج عن طبيعة النقائض، التي يكون الكلام فيها متبادلا بين الشعارين المتناقضين؛ حيث يحاول كل طرف توجيه خصمه وجهة ما.
- 8- وظّف جرير والفرزدق روابط حجاجية مختلفة، تباينت وظيفتها بين التعليل والتعارض الحجاجي والتساوق الحجاجي، وكانت غاية الشعارين تدعيم مسارهما الحجاجي.
- 9- كان التكرار حاضرا عند الشعارين وبمختلف أنواعه، وفي ذلك إصرار واضح على تثبيت المعاني في الأذهان، والتأثير النفسي الموصل إلى الإقناع.
- 10- استند جرير والفرزدق في حجاجهما على مقدمات تحظى بالتسليم لدى العامة، وقد تمثلت في الوقائع بما فيها من أحداث تاريخية وحوادث اجتماعية، وجملة من القيم المتعارف عليها داخل المجتمع.
- 11- اشترك الشعاران في توظيف الأيتم وكانت مناط فخرهما الذاتي في حالة الانتصار، وهجاء الآخر في حالة الهزيمة. أمّا بالنسبة للحوادث الاجتماعية فلم يجد جرير ما يفخر به لذلك حوّل طاقته إلى هجاء الفرزدق بحوادث حقيقية كإخراجه من المدينة، أو مفتعلة كنبوّ السيف في يده، أو مبالغ فيها أكثر من اللازم كحادثة أخته جعثن. وبالمقابل افتخر الفرزدق بيوم صوءر، وبمكارم الآباء والأجداد كفداء الوئيدة والعيادة بقبر أبيه.
- 12- أما فيما يخصّ القيم فقد تنوّع حضورها في النقائض وتداولها الشعاران فخرا وهجاء. وأمّا فيما يخصّ الحجج فقد كانت كثيرة ومتنوّعة، وتمثّلت في الحجج المنطقية كالتناقض والعدل والتعددية وحجج مؤسّسة على بنية الواقع كالحجّة السببية وحجّة الشخص وأعماله، وحجّة السلطة وما ينطوي تحتها من حجج جاهزة، وحجج مؤسّسة لبنية الواقع ومنها تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة، وحجّة التّموج وعكسه، والحجاج بالمقارنة. وقد استعملها الشعاران لخدمة مسعاهما الحجاجي، واتّخذا منها دليلا على صحّة ما يطرحانه بخصوص الذات أو الآخر.

13- تميّزت بنية النصّ الشعري عند الشعّاعين بجملة من العلاقات الحجاجية منها السببية والشرطية والتتابع، من أجل رسم معالم النصّ بطاقة إقناعية، وقد تحقّق ذلك عبر ربط النتائج بأسبابها، والشرط بجوابه، والتتابع في رصد الأحداث.

وفي الأخير لا أزعّم أنّ الأطروحة قد وقفت عند كلّ شاردة وواردة، ولكن حسبها أنّها بداية لأبحاث أكاديمية قادمة يمكن أن تكشف عمّا غمض، وتزيل اللبس عن كثير من القضايا التي وردت في المتن الشعري .

الملخص

الحجاج في نقائض جرير والفرزدق

دراسة في البنية والأساليب.

الملخص:

كان العصر الأموي حافلا بمختلف الصراعات السياسية والمذهبية والفكرية، ولم يبق هذا الصراع حبيس هذه المجالات فقط، بل امتدّ إلى الساحة الأدبية وظهر عند كثير من الشعراء الذين اختلفت توجهاتهم وجمع بينهم ذلك الصراع المشحون بالجدل والمحااجة، وتلك القناعة التي يحملها كلّ شاعر ويحاول إقناع الآخرين بها، معارضا كلّ ما يخالفها معتمدا في ذلك على ما تجود به قريحته من أشعار مدعّمة بالأدلة والبراهين المختلفة.

وتأتي "النقائض" في طليعة الأشعار التي أنتجتها صراعات العصر الأموي، بما مثلته من خصومة بين الشعراء، والتي عند الفرزدق وجرير والأخطل. ومعروف أنّ النقائض تقوم أساسا على ركيزتين هامتين هما: الفخر والهجاء؛ حيث يقوم الشاعر الأوّل بالافتخار بنفسه ونسبه وأجداد قبيلته، وينسب كلّ المثالب والعيوب إلى الشاعر الآخر وإلى قبيلته، مستغلا في ذلك كلّ ما يمكنه من إقناع الآخرين بادعاءاته. ومن جهته يحاول الشاعر الثاني نقض ما جاء به الشاعر الأوّل وقلب معانيه عليه وإبطال ادعاءاته معتمدا في ذلك مختلف الحجج والأساليب الإقناعية.

من هنا فالتقائض خصومة أدبية قائمة على تبادل التّهم ومحاولة تفيديها باعتماد مختلف الأساليب التي تنهض بإقناع الآخرين وتجعلهم يدعون ويسلمون بصحّة القضايا المطروحة، والتي تشكّل مجال خلاف ومنافسة بين الشعراء. وقيام التقائض على سعي كلّ طرف إلى الانتصار للنفس وإثبات الأفضلية مقابل التّيل من الخصم وإصاق الدّونية به هو ما جعلها تحفل بالحجاج وعلى مستويات عدّة.

وإنني أسعى في بحثي هذا لرصد مختلف الآليات الحجاجية التي وظّفها كلّ من جرير والفرزدق في نقائضهما، وعليه جاء بحثي موسوما بـ "الحجاج في نقائض جرير والفرزدق. دراسة في البنية والأساليب"، وقد قسّمته إلى أربعة فصول تناولت في الفصل الأوّل "الحجاج والشعر- مقاربات نظرية" وقسّمته إلى أربعة مباحث: تحوّص المبحث الأوّل لضبط مفهوم الحجاج في المعاجم المختلفة وعلاقته بمصطلحات أخرى تتقاطع معه. وتحوّص المبحث الثاني لدراسة الحجاج عند الدّارسين القدامى كما جسّدته الفلسفة اليونانية عند

السوفسطائيين، و أفلاطون وأرسطو أو عند البلاغيين العرب القدامى وهم الجاحظ وابن وهب والسكاكي والقرطاجني. وما كان لنا أن نلج هذا الباب دون أن نبحت الحجاج في القرآن الكريم.

كما حُصِّصَ المبحث الثالث لرصد جهود الدارسين المحدثين؛ حيث كانت الوقفة الأولى على جهود الغربيين ممثلة في برلمان وتيتكا، وتولمين، وديكرو وأنسكومير. أما الوقفة الثانية فكانت للدارسين العرب على مستوى التنظير والتطبيق والتأصيل. أما المبحث الرابع والأخير فحُصِّصَ لتبيين العلاقة بين الحجاج والشعر لذلك عنوانه بـ "الحجاج والشعر" وفيه نقف وقفتين: الأولى "الشعر بين التخييل والإقناع" والثانية "خصائص النص الشعري الحجاجي" لنبحث مدى توفرها في النقااض.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان "آليات الحجاج البلاغية في النقااض"، وقد قسّمته إلى خمسة مباحث انفرد كل مبحث بموضوع خاص، وهي على التوالي: التشبيه، التمثيل، الاستعارة، الكناية، والبديع؛ حيث حُصِّصَت المبحث الأخير لدراسة لونين بديعيين بدا حضورهما بارزا في النقااض وهما: المطابقة والمقابلة.

وعالجت في الفصل الثالث "آليات الحجاج اللغوية في النقااض"، وقد توزّعت على خمسة مباحث رصدت من خلالها مختلف الآليات الحجاجية اللغوية وقد تمثلت في: الأفعال الكلامية، الروابط الحجاجية، العوامل الحجاجية، السلم الحجاجي، والتكرار.

ثم تعرضت في الفصل الرابع والأخير إلى "بنية الحجاج في النقااض"، وقسّمته إلى ثلاثة مباحث: حُصِّصَت المبحث الأول لتحديد مقدمات الحجاج، وقد تمثلت في وقائع تاريخية واجتماعية، وقيم مختلفة. وحُصِّصَت المبحث الثاني لرصد مختلف الحجج التي احتوتها مدونة البحث اعتمادا على تصنيف برلمان وتيتكا. أما المبحث الثالث فحُصِّصَ للعلاقات الحجاجية؛ حيث انتقيت علاقات ثلاث وهي: السببية، والاقتضاء، والتتابع.

ولأنجاز هذا الموضوع اعتمدت أكثر من منهج منها المنهج التداولي، وهو الأساس في هذا البحث.

وفي الأخير خلصت إلى جملة من النتائج لعل أهمها ما يأتي:

- النقااض في طبيعتها مبنية أساسا على الخصومة (المنافسة) وشاعرها جرير والفرزدق تحذوها رغبة جامحة في إثبات الأفضلية وبالتالي تسخير كل الوسائل لتحقيق الغلبة مما يجعل الحجاج حاضرا فيها بقوة. وشاعرها لهما من الخصوصية ما يغذي تلك الرغبة المستميتة في الفوز.

-اعتمد جرير والفرزدق على الطاقة الافناعية لمختلف الآليات البلاغية من صور بيانية كالتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وألوان بديعية كالمطابقة والمقابلة. كما نهضت الآليات اللغوية بدورها الحجاجي وكانت الطلبيات(التوجيهيات)أكثر الأفعال الكلامية حضورا في المدونة.

-استند جرير والفرزدق في حجاجهما على مقدمات تحظى بالتسليم لدى العامة،وقد تمثلت في الوقائع بما فيها من أحداث تاريخية وحوادث اجتماعية،وجملة من القيم المتعارف عليها داخل المجتمع.

-أمّا فيما يخصّ الحجج الموجودة في النقائض فقد كانت كثيرة ومتنوّعة، وتمثلت في الحجج المنطقية كالتناقض والعدل والتعدية، وحجج مؤسّسة على بنية الواقع كالحجّة السببية وحجّة الشخص وأعماله وحجّة السلطة وما ينطوي تحتها من حجج جاهزة، وحجج مؤسّسة لبنية الواقع ومنها تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة، وحجّة التّمودج وعكسه، والحجاج بالمقارنة. وقد استعملها الشّاعران لخدمة مساعهما الحجاجي، واتّخذا منها دليلا على صحّة ما يطرحانه بخصوص الدّات أو الآخر.

وأخر ما يمكنني قوله هو أنّ نقائض جرير والفرزدق كانت نصوصا حجاجية بامتياز.

L'argumentation dans la controverse JARIR - al-FARZDAQ

Etude aux points de vue de la structure et des procédés

La riche époque omeyyade était aux prises avec diverses luttes politiques, doctrinales et intellectuelles. Ces luttes ne se limitaient pas aux domaines susmentionnés, elles s'étaient prolongées au domaine de la littérature. Elles se manifestaient chez de nombreux poètes, aux orientations diverses, impliqués dans ces conflits, chargés de dialectiques et d'argumentations. A cet égard, chaque poète, fort de sa conviction, essayait de l'infliger aux autres ; et par là il s'opposait à tout ce qui allait à son encontre. Dans le but de convaincre, il mobilisait au mieux son talent, particulièrement, en matière de poésie, soutenue par des arguments et des preuves.

Les « controverses » se plaçaient à la tête en matière de poésie, résultante de conflits de l'époque omeyyade, notamment illustrées par des querelles chez les poètes, opposant les uns aux autres : al Farazdaq, Jarîr et al-Akhtal. Il est notoire que les « controverses » se fondent sur deux principes importants : la **gloire** et le **pamphlet**. Le premier (poète) entreprend de se flatter : soi-même, sa famille et les gloires de sa tribu ; à l'inverse, il attribue tous les défauts et travers (vices) au poète adversaire, ainsi qu'à sa tribu. Dans ce but, il mettait à contribution toutes les possibilités afin de rallier les autres à ses prétentions. De son côté, le poète « ciblé », essaye de rejeter les propos pamphlétaires du premier, les retourne contre lui, essaye d'invalidier ou de réduire à néant ses accusations, par le truchement de divers argumentaires, et de procédés persuasifs.

De ce point de vue, les « controverses » relèvent de querelle littéraire, fondée sur des accusations réciproques, et les tentatives de les réfuter, en usant de divers procédés, de nature à convaincre les autres, afin de les gagner et de les rallier à la faveur des sujets abordés. Ce qui en fait un objet de désaccord et de compétition entre les poètes. Ainsi, les « controverses » permettent à chaque partie de se défendre, de prouver sa préséance (supériorité), en vue de porter atteinte à l'adversaire, et de montrer son infériorité : d'où les arguments à profusion, et à de multiples niveaux.

Dans le présent travail, nous nous évertuons à explorer les divers mécanismes argumentaires employés aussi bien par Jarîr et al-Farazdaq dans leurs controverses. Par conséquent, ma recherche s'intitule : « **L'argumentation dans les controverses opposant Jarîr al-Farazdaq. Une étude aux points de vue de la structure et des procédés** ». J'ai réparti mon travail en quatre chapitres.

Dans le premier, j'aborde « **l'argumentation et la poésie : approches théoriques** », lequel chapitre est subdivisé en quatre axes : le premier fait le point sur l'« argumentation » en tant que concept présenté dans divers dictionnaires ; puis mis en relation avec d'autres termes, où il interfère. Le deuxième est consacré à l'étude de l'argumentation chez les anciens usagers comme l'avait incarné la philosophie grecque chez les Sophistes, Platon et Aristote ; ou chez les rhétoriciens arabes classiques (anciens), tels que al-Jâhiz, Ibn Wahb,

al-Sikkâkî et al-Qartâjanî. Faire la lumière sur ce chapitre serait incomplet sans évoquer l'argumentation dans le noble Coran.

Le troisième axe de recherche mettra en valeur les efforts des chercheurs modernes, en deux moments, d'abord, le premier s'arrête sur les efforts des savants occidentaux, tels que Chaïm Perelman, Tyteca, Stephen Toulmin, Oswald Ducrot et J.C. Anscombe.

Le second moment mettra en lumière les chercheurs arabes, aux niveaux de la théorie, de la pratique et de la refondation. Enfin, le quatrième axe mettra en évidence la relation entre l'argumentation et la poésie, d'où l'intitulé : « **L'argumentation et la poésie** ». Nous y marquons deux temps : le premier aborde « **la poésie entre l'imaginaire et la persuasion** » ; le second « **spécificités du texte poétique argumentatif** », afin d'en mesurer leurs effets dans les controverses.

Le deuxième chapitre s'intitule : « **Mécanismes de l'argumentation rhétorique dans les controverses** ». Il se subdivise en cinq axes propres. Ils se présentent comme suit : « **la comparaison, l'allégorie, la métaphore, la périphrase, la rhétorique (ornement du style)** (*al-Tashbîh, al-Tamthîl, al-'isti'âra, al-Kinâya, al-Badî'*).

Enfin, le dernier axe traitera de deux genres rhétoriques, omniprésents dans les controverses, à savoir : la comparaison et l'antithèse (*al-Mutâbaqa wa al-muqâbala*)

Dans le troisième chapitre, nous traiterons des « **Mécanismes de l'argumentation linguistiques dans les controverses** ». Nous le répartissons en cinq axes (recherches), qui nous permettent d'examiner les différents mécanismes linguistiques, qui sont illustrés par : **les actes de parole, les connecteurs argumentatifs, les opérateurs argumentatifs, l'échelle argumentative et la répétition** (*al-'af'âl-kalâmiyya, al-Rawâbit-l-Hijâjiyya, al-'awâmil-l-Hijâjiyya, al-Sulam al-Hijâjî, al-Tikrâr*).

Dans le quatrième (chapitre) et dernier, nous exposons « **la structure de l'argumentation dans les controverses** », et nous le subdivisons en trois axes : le premier définit les préambules à l'argumentation : ils se ramènent aux faits historiques et sociaux, et à des valeurs diverses.

Le deuxième axe examine les différents arguments contenus dans notre corpus, selon la classification de Perelman et Tyteca.

Le troisième axe fera le point sur les relations argumentaires : à ce propos, nous en avons choisi trois types de relations : causale (*sababiyya*), nécessaire (*al-'iqtidâ'*) et la successive (*al-tatâbu'*).

En réalisant ce travail, nous nous sommes essentiellement appuyée sur plusieurs méthodes dont la méthodologie pragmatique. Au terme de ce travail, nous avons abouti à quelques résultats, dont les plus importants sont les suivants :

- Les controverses, de par leur nature, sont construites sur des querelles (compétition), conduites par les deux poètes Jarîr et al-Farazdaq, qui sont animées par un désir fougueux,

de prouver la préséance (supériorité de l'un sur l'autre), et partant se servir de tous les moyens (rhétoriques) afin d'avoir raison de l'autre ; ce qui explique la force de l'argumentation qui la soutient. Les poètes qui se livrent à ce jeu (querelles), s'y engagent, poussés par un désir sans faille, en vue d'une issue victorieuse.

- Aussi bien Jarîr qu'al-Farazdaq puisent dans une énergie persuasive basée sur divers mécanismes rhétoriques dont les figures de comparaison, l'allégorie, la métaphore, la périphrase, la rhétorique (ornement du style). Par ailleurs, les mécanismes linguistiques s'érigent en argumentation, en ce sens, les « demandes » (orientations), sur le mode de « verbes performatifs » étaient plus présents dans notre corpus.

- Aussi bien Jarîr qu'al-Farazdaq se sont appuyés dans leurs argumentations sur des usages (introductifs) largement admises par la masse. Ces derniers consistent dans les faits, essentiellement de nature historique et sociale. Ainsi qu'un ensemble de valeurs convenues dans la société.

- Quant aux arguments usités dans les controverses, ils sont nombreux et diversifiés. Ce sont les arguments logiques (rationnels) tels que la contradiction, la justice et la transition ; d'autres sont plutôt construits sur la structure de la réalité, tels l'argument causal ; l'argument personnel et ses actes ; l'argument autoritaire, sous-tendue par des sous-arguments fin prêts ; des arguments structurant la réalité, dont la fondateurs de la réalité au moyen de cas particuliers ; l'argument modèle et son contraire ; l'argumentation par comparaison. Ces arguments (derniers) ont été utilisés par les deux poètes afin de servir leurs démarches argumentatives. Ils en firent des preuves établissant le bien-fondé de leurs propos sur le « moi » ou l' « autre ».

Enfin, nous pourrions conclure que les controverses impliquant Jarîr et el-Farazdaq furent des textes argumentatifs par excellence.

Argumentation in the controversies of Jarir and El-farazdak

-A study in the structure and styles-

The Omeyyad era was full of diverse political, doctrinal and intellectual struggles. These struggles didn't remain in these domains but rather stretched to the literary ground and were manifested by poets of different orientations yet gathered by that struggle charged with dialectic and argumentation. In this regard, each poet strong of his conviction, tried to persuade others by opposing all that went in contrary with it depending on his poetical talent supported by arguments and proofs.

The controversies came at the top of poetry resulted from the struggles of the Omeyyad era more particularly the poetry produced by Jarir, El-Ferezdak and El-Akhtal.

It is well-known that the controversies are based on two main pillars: pride and satire. That is to say, the first poet glorified himself and his tribe; on the contrary he attributed all shames and disgraces to adversary poet and his tribe exploiting all that enabled him to persuade others with his assumptions and pretending. From his part, the second poet tried to defeat his adversary by confuting his assumptions depending on different argumentations and convincing styles.

From this point of view, the controversies are literary disputes based on reciprocal accusations and the trial to confute them by different means which make the others yield and accept the given propositions, which are the cause of competition and disagreement between poets, for granted. Being based on the glorification of the self, from one hand, and the defeat of the adversary, on the other hand, make the controversies full of argumentation at different levels.

In this research, I dealt with the various argumentative mechanisms which Jarir and El-farezdak used in their controversies; hence came this research entitled: "argumentation in the controversies of Jarir and El-farazdak –a study in the structure and the styles-" and I divided it to four chapters.

The first chapter entitled: "argumentation and poetry-theoretical approaches" is subdivided to four axes. The first axis is devoted to clarify the concept of argumentations presented in dictionaries and its relation with terms that interfere with it. The second axis is devoted to the study of argumentation as incarnated in the ancient Greek philosophy of Sophists, Plato and Aristotel; and among the ancient Arab rhetorists such as: EL-jahiz, Ibn wahb, Essokkaki and El-kartajani. highlighting this chapter would be incomplete without dealing with argumentation in the noble Coran.

The third axis focuses on the efforts of modern researchers in two stands. The first stand is devoted to the efforts of western scholars: Chaim Perelman and Tyteca, Stephen

Toulmin, Oswald Ducrot and Anscombe. The second stand is devoted to the Arab researchers and their efforts at the level of theory, practice and authenticity.

The fourth axis is devoted to clarify the relation between argumentation and poetry; this entitled: "argumentation and poetry". In this axis, we mark two stands. In the first, we dealt with "poetry between imagination and persuasion". In the second, we dealt with "the characteristics of the argumentative poetic text". to show to what extent they are present in the controversies.

The second chapter entitled: "The mechanisms of rhetorical argumentation in the controversies" is subdivided to five axes as follow: simile, analogy(exemplification),metaphore, metonymy and ornament of style, and we emphasized in the last axis two kinds of rhetoric (ornament of style) which are omnipresent in the controversies: similarity(correspondence)and opposition.

In the third chapter entitled: "The linguistic mechanisms of argumentation in the controversies", I dealt with the different linguistic argumentative mechanisms. Thus I divided it of five axis: speech acts, argumentative connectors ,argumentative factors, the argumentative scale and repetition.

The fourth and last chapter entitled: "The structure of argumentation in the controversies" is subdivided to three axis. The first one is devoted to determine the preambles of argumentation exemplified in historical and social events and different values. The second one is devoted to track the different arguments included in the corpus of study according to the classification of Perelman and Tyteca. The third one focuses on the argumentative relations from which I chose three types: causality, presupposition and succession.

In realizing this research, I depended on many methods amongst them the pragmatic method which is the basis of this study.

From this research, I draw the following results:

- controversies in their nature are based on disputes and competition and their poets Jarir and El-farazdak pushed by a fury desire to prove precedence, superiority and goodness used all means to achieve victory and defeat the adversary; that's why argumentation is strongly present in them.

- Jarir as well as El-farazdak depended on the persuasive energy of different rhetorical mechanisms and images such as: simile, analogy, metaphore, metonymy and style ornament(similarity and opposition). The linguistic mechanisms, also, raised the argumentative role and the directives were the most used speech acts in the corpus.

- Jarir and El-farazdak depended in their argumentation on preambles largely accepted by the mass. These preambles included historical events and social incidents as well as a number of values known in the society.

- Concerning arguments, they were numerous and various in the controversies. They were exemplified in the logical arguments such as: contradiction(contrast),justice, transition and arguments based on the structure of reality like: the causal argument, the personal argument and its acts, the authoritative argument and its stereo typed arguments, arguments constructing the structure of reality, model arguments and their opposites and argumentation by comparison. These arguments were used by the two poets to achieve their argumentative aims and to prove the truthfulness of what they claimed concerning one self and the other.

Finally all that I can say is that the controversies of Jarir and El-farazdak are argumentative texts by excellence.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية ورش.

أولاً: المصادر:

- 1- ابن الأثير (ضياء الدين): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط2، دار الرفاعي، الرياض، 1983.
- 2- الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني، تح احسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ط3، دار صادر بيروت، 2008.
- 3- الباجي (أبو الوليد): المنهاج في ترتيب الحجاج، تح عبد الحميد تركي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 2000.
- 4- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، ج1، تح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، د.ط، د.ت.
- 5- الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة في علم البيان، تح محمد الاسكندراني و م مسعود، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 2005.
- دلائل الاعجاز، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 2004.
- 6- الجرجاني (علي بن محمد بن علي الحسيني): كتاب التعريفات، تح نصر الدين تونسسي، ط1، شركة القدس للتصدير، القاهرة، مصر، 2007.
- 7- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، ج2، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، ط3، مكتبة التراث، القاهرة، مصر، 1984.
- 8- السكاكي (أبو يعقوب): مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هندراوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2011.
- 9- أبو عبيدة (معمر بن المثنى): كتاب النقائص. نقائص جرير والفرزدق، مجلدان، تح محمد أحمد عبد العزيز سالم، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007.
- 10- العسكري (أبو هلال):

- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 2013.
- الفروق اللغوية، تح محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009.
- 11- الفارابي (أبو نصر): إحصاء العلوم، شرح وتقديم علي بوملحم، ط1، دار ومكتبة الهلال ، لبنان ، 1996.
- 12- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، تح أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2006.
- 13- القرطاجني (حازم): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ، 2007.
- 14- القيرواني (ابن رشيق): العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، د.ط، 2009.
- 15- الميداني (أحمد بن محمد ابراهيم): مجمع الأمثال، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت د.ط، د.ت.
- 16- ابن وهب (اسحاق بن ابراهيم بن سليمان الكاتب): البرهان في وجوه البيان، تح أحمد مطلوب وخدميجة الحديثي، ط1، مكتبة الرشد، العراق ، 2012.

ثانيا: المراجع:

أ- المراجع العربية:

- 1- أبجير (محمد): خطاب المناظرة في الأدب الأندلسي من القرن الرابع إلى نهاية القرن الثامن الهجري، ط1، دار كنوز المعرفة، الأردن ، 2015.
- 2- أجميظ (نور الدين) :تداوليات الخطاب السياسي، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2012.
- 3- أوكان (عمر): اللّغة والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2001 .
- 4- الجابري (محمد عابد): بنية العقل العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط11، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2013.

- 5- جبار(سعيد) :من السردية إلى التخييلية.بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ط1، دار الأمان ، المغرب ،2013.
- 6- جبر أحمد الحسناوي(رحيم):المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار أسامة ،عمان،الأردن ، 1999.
- 7- جمعة(حسين) :جمالية الخبر والإنشاء.دراسة جمالية بلاغية نقدية، اتحاد الكتاب العرب،دمشق،سوريا د.ط، 2005.
- 8- جودة نصر(عاطف):الخيال مفهومه ووظائفه،الهيئة المصرية العامة للكتاب،د.ط،1984.
- 9- الجوزو (مصطفى): نظريات الشعر عند العرب(الجاهلية والعصور الإسلامية)،ج1،ط1، دار الطليعة،بيروت ، 1988.
- 10- الحاوي(ايليا):
- فن الهجاء وتطوره عند العرب،دار الثقافة،بيروت،لبنان،د.ط،د.ت.
 - شرح ديوان جرير،ط1،دار الأبحاث،الجزائر،2009.
- 11- حسن (عباس) :النحو الوافي،ج3،ط3،دار المعارف،مصر،د.ت.
- 12- حسين (محمد محمد) :الهجاء والمجاؤون في صدر الإسلام،مكتبة الآداب،مصر،د.ط،د.ت.
- 13- حسنين (نبيل علي) :التناص.دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقااض جرير والفرزدق والأحطل ،ط1،دار كنوز المعرفة،عمان،الأردن،2009.
- 14- الخليفة (هشام إبراهيم عبد الله) :نظرية الفعل الكلامي بين علم اللّغة الحديث والمباحث اللّغوية في التراث العربي والإسلامي،ط1،الشركة المصرية العالمية للنشر ومكتبة لبنان ، 2007.
- 15- درويش(أحمد):النص البلاغي في التراث العربي والأوربي،دار غريب،القاهرة،د.ط،1998.
- 16- الدريدي(سامية):
- الحجاج في الشعر العربي القديم.من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه،ط1،عالم الكتب الحديث،اربد-الأردن،2008.
- دراسات في الحجاج.قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم،ط1،عالم الكتب الحديث الأردن ، 2009.

- 17- الزماني (كمال): حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ، 2012.
- 18- سلمان(علي محمد علي): كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج(رسائله نموذجاً)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 2010.
- 19- السيّد (عز الدين علي): التكرير بين المثير والتأثير، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، مصر ، 1978.
- 20- الشايب(أحمد): تاريخ النقائص في الشعر العربي، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1966.
- 21- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): استراتيجيات الخطاب. مقارنة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان ، 2004
- 22- الشيباني (محمد مختار): بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم. دراسة أسلوبية، دار كنوز الحكمة الجزائر ، 2011.
- 23- الصّاوي(أحمد عبد السيد): الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين. دراسة تاريخية فنية، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، د.ط، 1988.
- 24- الصراف (علي محمد حجي): الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة ، 2010.
- 25- صولة (عبد الله):
- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي، بيروت، 2007
 - في نظرية الحجاج. دراسات وتطبيقات، ط1، الشركة التونسية للنشر، تونس ، 2011.
- 26- ضيف (شوقي): التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط10، دار المعارف، مصر، د.ت.
- 27- الطلبة (محمد سالم محمد الأمين): الحجاج في البلاغة المعاصرة. بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان ، 2008.
- 28- طوروس (محمد): النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط1، دار الثقافة، المغرب، 2005.
- 29- عادل(عبد اللطيف): بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، منشورات ضفاف، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر ، 2013.

- 30- عبد الرحمان (طه):
- في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ط 3، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2007.
 - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط 2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006.
- 31- عبد الرزاق (بنور): جدل حول الخطابة والحجاج. الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 2008.
- 32- عبد المجيد (جميل): البلاغة والاتصال، دار غريب، مصر، د.ط، 2000.
- 33- عتيق (عبد العزيز): في البلاغة العربية. علم المعاني - البيان - البديع، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 2009.
- 34- العزاوي (أبو بكر):
- اللغة والحجاج، ط 2، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، 2009.
- 35- عصفور (جابر): الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط 1، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، 1974.
- 36- علوي (حافظ اسماعيلي) وآخرون:
- الحجاج مفهومه ومجالاته. دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.
 - الحجاج والاستدلال الحجاجي. دراسة في البلاغة الجديدة، ط 1، دار ورد للنشر، الأردن، 2011.
- 37- العماري (عبد العزيز): أساليب اللغة العربية. دراسة لسانية، ط 1، مطبعة سجلماسة، مكناس 2010.
- 38- عمران (علي): حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي. خطب الإمام علي أنموذجا، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، د.ط، 2009.
- 39- العمري (محمد):
- في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة البلاغة العربية، ط 2، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2002.
- 40- العوادى (سعيد): حركية البديع في الخطاب الشعري. من التحسين إلى التكوين، ط 1، دار كنوز المعرفة، عمان، 2014.
- 41- عيد (محمد عبد الباسط): في حجاج النص الشعري، أفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2013.

- 42- فروخ (عمر): تاريخ الأدب العربي، ج 1، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ط 8، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2006.
- 43- الكفراوي (محمد عبد العزيز): جرير ونقائضه مع شعراء عصره، دار نضضة مصر، د.ط، د.ت.
- 44- لحويديق (عبد العزيز): نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، ط 1، دار كنوز النشر، الأردن، 2015.
- 45- محمود (بدران عبد الحسين): التناص في شعر العصر الأموي، ط 1، دار غيداء، الأردن، 2012.
- 46- محمود عزام(خالد): جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2007.
- 47- مدقن (هاجر): الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013.
- 48- مشبال(محمد) وآخرون: البلاغة والخطاب، ط 1، منشورات ضفاف، بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر ودار الأمان، الرباط، 2014.
- 49- المطيري (هند بنت عبد الرزاق هويل): النفي في نقائض جرير والفرزدق. دراسة أسلوبية، ط 1، مركز حمد الجاسر الثقافي، الرياض، 2008.
- 50- مفتاح(محمد): الشّعْر وتناغم الكون(التخييل-الموسيقى-الحبة)، ط 1، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، 2002.
- 51- النّاجح (عز الدين): العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، ط 1، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس 2011.
- 52- نحلة (محمود أحمد): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط 1، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر 2011.
- 53- الهاشمي(السيد أحمد): جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تدقيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 2003.
- 54- الولي (محمد): الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ط 1، مطبعة الكرامة، الرباط، 2005.
- 55- وهابي (عبد الرحيم): القراءة العربية لكتاب فن الشّعْر لأرسطو طاليس، ط 1، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، 2011.

56- اليوسف (عبد الفتاح أحمد): الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ، 2014.

ب- المراجع المترجمة:

1- روبول (آن) و موشلار (جاك): التداولية اليوم. علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط 1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2003.

2- ريتشاردز (آيفور أرمسترونغ): فلسفة البلاغة. ترجمة سعيد الغانمي وناصر حلاوي، أفريقيا الشرق، المغرب، د.ط ، 2002.

3- طاليس (أرسطو):

- فن الشعر، مع الترجمة القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة وتحقيق عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، 1953.

- الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2008.

4- لايكوف (جورج) وجونسن (مارك): الاستعارات التي نغيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، ط 2، دار توبقال الدار البيضاء، المغرب ، 2009.

5- مورو (فرونسوا): البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2003.

ج- المراجع الأجنبية:

- 1- Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de l'argumentation. la nouvelle rhétorique, 6eme édition, Edition de l'université de Bruxelles, Belgique, 2008.
- 2- Chaim Perelman: L'empire rhétorique. rhétorique et argumentation, 2eme édition, librairie philosophique, Vrin, Paris, 2012.
- 3- Olivier Reboul: Introduction à la rhétorique, 1ere édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1991.
- 4- Oswald Ducrot: Les échelles Argumentatives, les éditions de Minuit, 1980.

- 5- Philippe Breton et Gilles Gautier:Histoire des théories de l'argumentation, édition la Découverte, Paris, 2011.
- 6- Stephen Edelston Toulmin :les usages de l'argumentation, traduit du l'anglais par Philippe De Brabanter,1ere édition,Presses Universitaires de France,1993.

ثالثا:المعاجم والموسوعات:

أ-المعاجم العربية:

- 1- ابن فارس (أحمد): مقاييس اللّغة،تح عبد السلام محمد هارون، ج 2، دار الفكر،د.ط،1979.
- 2- صليبا (جميل): المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية،دار الكتاب اللبناني،بيروت،د.ط،1982.
- 3- الزمخشري: أساس البلاغة،تح محمد نبيل طريقي،ط 1،2009.
- 4- ابن منظور:لسان العرب،ط 6،دار صادر،بيروت،لبنان،2008.
- 5- مجمع اللّغة العربية: المعجم الفلسفي،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،مصر،د.ط،1983.
- 6- موسوعة لالاند الفلسفية،تعريب خليل أحمد خليل،مج 1،ط 2،منشورات عويدات،بيروت،باريس 2001.
- 7- موشلار(جاك)وريبول(آن):القاموس الموسوعي للتداولية،ترجمة مجموعة من الباحثين بإشراف عز الدين المجدوب،ط 2،المركز الوطني للترجمة،تونس،2010.

ب- المعاجم الأجنبية:

- 1- Le grand Robert,dictionnaire de la langue Française, 1ere édition , Paris, 1990.
- 2- Longman,dictionary of contempnorary English, longman,1985.

رابعا:المجلات والدوريات:

- 1- مجلة أبحاث،كلية التربية الأساسية،جامعة الموصل،العراق،مج 09، ع 04،2010.

- حسن(صالح محمد): الصورة الشعريّة ونماذجها بين جرير والفرزدق.
- 2-** مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات المتحدة، ع34، جوان 2001.
- عرووي(محمد إقبال): من قضايا النقد القديم. الحكمة والمثل، المفهوم والعلاقة والتفريغ.
- 3-** مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب:
- ع 03، 2013.
- قادم(أحمد): بلاغة التمثيل عند الزمخشري.
- ع 7-8، 2015.
- يعقوبي(خالد): القصيدة السياسية في العصر الأموي، أدلة المعنى وحجاجية المبنى.
- 4-** مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس، ع 40، 1996.
-الدريدي(سامية): الحجاج في هاشميات الكميت.
- 5-** مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت:
- مج 40، ع 02، 2011.
- الولي(محمد): مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان.
-مج42، ع 1، يوليو سبتمبر، 2013.
- أبو الهيجا(عطية أحمد): التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني.
- 6-** مجلة فكر ونقد، الدار البيضاء، المغرب، ع100، يناير 2009.
- الإدريسي(يوسف): الحجاج والتخييل.
- 7-** مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ج 3، ع 81، 2006.
-ميارة(لمهاية محفوظ): مفهوم الحجاج في القرآن الكريم. دراسة مصطلحية.

8- مجلة المناظرة، الرباط، المغرب، ع04، السنة الثانية، 1991.

-العزاوي(أبو بكر):نحو مقارنة حجاجية للاستعارة.

-لوغرن(ميشال):الاستعارة والحجاج تعريب الطاهر وعزيز.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

أ-و	المقدمــــــــــــــــة
86-1	الفصل الأول: الحجاج والشعر مقاربات نظرية
6	المبحث الأول: تعريف الحجاج وعلاقته بمصطلحات أخرى
6	1- الحجاج في المعاجم العربية
7	2- الحجاج في المعاجم الفلسفية
8	3- الحجاج في المعاجم الغربية
9	4- الحجاج وعلاقته بمصطلحات أخرى
9	1-الجدل
11	2-المحاورة
12	3-المناظرة
15	المبحث الثاني: الحجاج عند القدامى
15	1-الحجاج في الفلسفة القديمة
15	1-الحجاج عند السوفسطائيين
18	2-الحجاج عند أفلاطون
19	3-الحجاج عند أرسطو
22	2-الحجاج عند العرب القدامى
24	1-الحجاج عند الجاحظ
25	-البيان
27	-الإقناع
29	2-الحجاج عند ابن وهب
29	-البيان
31	-القياس
32	-الجدل
34	3-الحجاج عند السكاكي
34	-المقام
35	-المخاطب
36	-البيان
38	-علاقة البيان بالاستدلال

40	4-الحجاج عند حازم القرطاجني
42	المبحث الثالث:الحجاج عند المحدثين
42	1-الحجاج عند الغريين
42	1-الحجاج عند برلمان وتيتكاه
41	1-مفهوم الحجاج
43	2-مقدمات الحجاج
43	1-الوقائع والحقائق
44	2-الافتراضات
44	3-القيّم
44	4-الهرميات
44	5-المعاني أو المواضع
45	3- أنواع الحجّ
45	1-الحجج شبه المنطقية
45	1-الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية
45	1-التناقض وعدم الاتفاق
46	2-التماثل والحد
46	3-الحجج القائمة على العلاقة التبادلية وعلى قاعدة العدل
46	4-حجج التعدية
47	2- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى الرياضية
47	1-إدماج الجزء في الكلّ
47	2-تقسيم الكلّ إلى أجزائه
48	2-الحجج المؤسّسة على بنية الواقع
48	1-وجوه الاتصال التتابعي
48	-الوصل السببي
49	2-وجوه الاتصال التواجمي
49	1-الشخص وأعماله
49	2-حجّة السّلطة
50	3-الاتصال الرّمزي
50	3-الحجج المؤسّسة لبنية الواقع
50	1-تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة

50	1-المثل
50	2-الاستشهاد
51	3- التّمودج وعكس التّمودج
51	2-الاستدلال بواسطة التمثيل
52	2-الحجاج عند تولمين
55	3-الحجاج عند ديكر و أنسكومبر
55	- مفهوم الحجاج
56	-وظيفة الحجاج
56	-الحجاج والاستدلال
56	-مفاهيم نظرية الحجاج في اللغة
57	1-العلاقة الحجاجية
57	2-المواضع الحجاجية
58	3-السّلام الحجاجية
58	- قوانين السّلم الحجاجي
59	2-الحجاج عند العرب المحدثين
60	1-المستوى التنظيري
60	2-المستوى التطبيقي
61	3-المستوى التأصيلي
63	المبحث الرابع: الحجاج والشعر
63	1- الشعر بين التخييل والإقناع
63	1-التخييل في الدراسات الفلسفية
64	1-المحاكاة عند أرسطو
66	2-التخييل عند الفلاسفة المسلمين
67	1- الفارابي
69	2-ابن سينا
70	2-التخييل في الدّراسات البلاغية
71	1-عبد القاهر الجرجاني
72	-وظيفة التخييل
73	2-حازم القرطاجني
73	-تعريف التخييل

74	-التخييل بين الصدق والكذب
75	-وظيفة التخييل
75	-الشعر والخطابة
77	2-حجاجية النقائض
77	1- مجال الحجاج: النقائض
81	2- طرفا الحجاج: حرير والفرزدق
83	3- النقائض وخصائص النص الشعري الحجاجي
149-87	الفصل الثاني: آليات الحجاج البلاغية في النقائض
93	المبحث الأول: التشبيه
93	1- أنواع التشبيه
94	2- وظيفة التشبيه
95	3- التشبيه في النقائض
96	1- تشبيهات الفخر
99	2- تشبيهات الهجاء
102	المبحث الثاني: التمثيل
102	1- تعريف التمثيل
103	2- أثر التمثيل
104	3- التمثيل في النقائض
109	المبحث الثالث : الاستعارة الحجاجية
109	1. حجاجية الاستعارة في الدراسات القديمة
109	1-أرسطو
110	-تعريف الاستعارة
111	-أقسام الاستعارة
112	2-عبد القاهر الجرجاني
114	2. حجاجية الاستعارة في الدراسات المعاصرة
115	1-شام برلمان
116	2-طه عبد الرحمان
120	3. الاستعارة الحجاجية في النقائض
121	1-استعارات الفخر
121	-الأيام

125	-النَّسب
126	- الموهبة الشعرية
128	2- استعارات الهجاء
129	-الأخلاق والصفات
132	المبحث الرابع: الكناية
132	1-تعريف الكناية
133	2-وظيفة الكناية
134	3-الكناية في الدراسات المعاصرة
135	4-الكنايات في شعر النّقائض
139	المبحث الخامس: البديع
139	1-المطابقة
145	2- المقابلة
223-150	الفصل الثالث: أساليب الحجاج اللغوية في النّقائض
154	المبحث الأول: الأفعال الكلامية
155	جهود أوستن في النظرية الكلامية
155	1-التّمييز بين المنطوقات التقريرية والمنطوقات الأدائية
155	2-تقسيم المنطوقات الأدائية إلى صريحة وأولية
156	3-التّمييز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي
157	4-تصنيف الأفعال الكلامية
157	جهود سيرل في نظرية الأفعال الكلامية
158	1-التّص على الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي
158	2-الرّبط بين الفعل الكلامي والعرف اللغوي الاجتماعي
158	3-تطوير شروط الملاءمة عند أوستن
159	4- تعديل التقسيم الثلاثي للأفعال الكلامية
160	5- التّمييز بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة
160	6- تعديل التّصنيف الخماسي لأوستن
161	مجالات الأفعال الإنجازية عند سيرل
161	1-الإخباريات: Assertives
162	2-التوجيهيات: Directives
162	3-الالتزاميات: Cominissives

163	4-التعبيريات(البوحيات): Expressives
163	5-الإعلانات: Declaration
165	جهود العرب القدماء حول الأفعال الكلامية
167	الأفعال الكلامية في النقائض
168	1-الإخباريات(التقريريات)
168	- الإخبار أو الخبر
170	- أسلوب التقي:
174	2-التوجيهيات(الطلبات)
174	1-الاستفهام
179	2-الأمر
182	3-أسلوب النهي
184	3-الالتزاميات(الوعديات)
185	4- التعبيريات(البوحيات)
187	5-1 إعلانات(الإيقاعيات)
191	المبحث الثاني: الروابط الحجاجية
192	وظائف العامل الحجاجية
193	الروابط الحجاجية في النقائض
193	-الروابط المدرجة للحجج: (لام التعليل)
195	-روابط التعارض الحجاجي: (بل-لكن)
196	-روابط التساوق الحجاجي:(حتى-الواو....)
197	-الترابط حتى
198	-الترابط(الواو)
201	المبحث الثالث: العوامل الحجاجية
201	-العامل إنما
203	-العامل ما...إلا
206	المبحث الرابع: السلم الحجاجي
206	تعريفه
207	آليات السلم الحجاجي
207	-أفعل التفضيل
211	المبحث الخامس: التكرار

212	حجاجية التكرار
213	أنواع التكرار
214	1-تكرار البنى الإفرادية(الصرفية)
219	2-تكرار البنى التركيبية: (ويكون ذلك أفقيا وعموديا)
299-224	الفصل الرابع: بنية الحجج في النقائض
227	المبحث الأول: مقدمات الحجج
227	1-الوقائض
227	1-الأيام
232	-حادثة مقتل الزبير
233	2-الأحداث الاجتماعية
234	-حادثة نبو السيف في يد الفرزدق
235	-حادثة طرد الفرزدق من المدينة
236	-حادثة عقربان يوم صوعر
237	-حادثة جعثن أخت الفرزدق
238	-حادثة فداء الوئيدة
239	-العيادة بقبر أبيه
240	2-القياس
242	1-العقل
244	2-العفة
245	3-الشجاعة
246	4-الأخذ بالثأر
248	5-قرى الأضياف
250	المبحث الثاني: الحجج وأنواعها في النقائض
250	1-الحجج شبه المنطقية
250	1-التناقض وعدم الاتفاق
251	- قلب البرهان على صاحبه
252	-السخرية
256	2-حجة التعريف
259	3-حجة العدل
260	4-حجج التعدية

261	5- حجّة إدماج الجزء في الكلّ
262	6- حجّة تقسيم الكلّ إلى أجزائه
264	7- حجّة الاحتمال
266	2- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع
266	1- الحجّة السببية
267	2- حجّة الشخص وأعماله
268	3- حجّة السلطة (الحجج الجاهزة)
269	1- النصّ الديني
270	1- النصّ القرآني
274	2- الحديث النبوي الشريف
276	2- الأمثال
281	3- الحجج المؤسّسة لبنية الواقع
281	1- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة
282	- النموذج وعكس النموذج
285	- الحجج بالمقارنة
287	المبحث الثالث: العلاقات الحججية
287	1- العلاقة السببية
291	2- علاقة الاقتضاء (الشرطية)
294	3- علاقة التابع
300	الخاتمة
304	الملخص
314	قائمة المصادر والمراجع
325	فهرس الموضوعات